

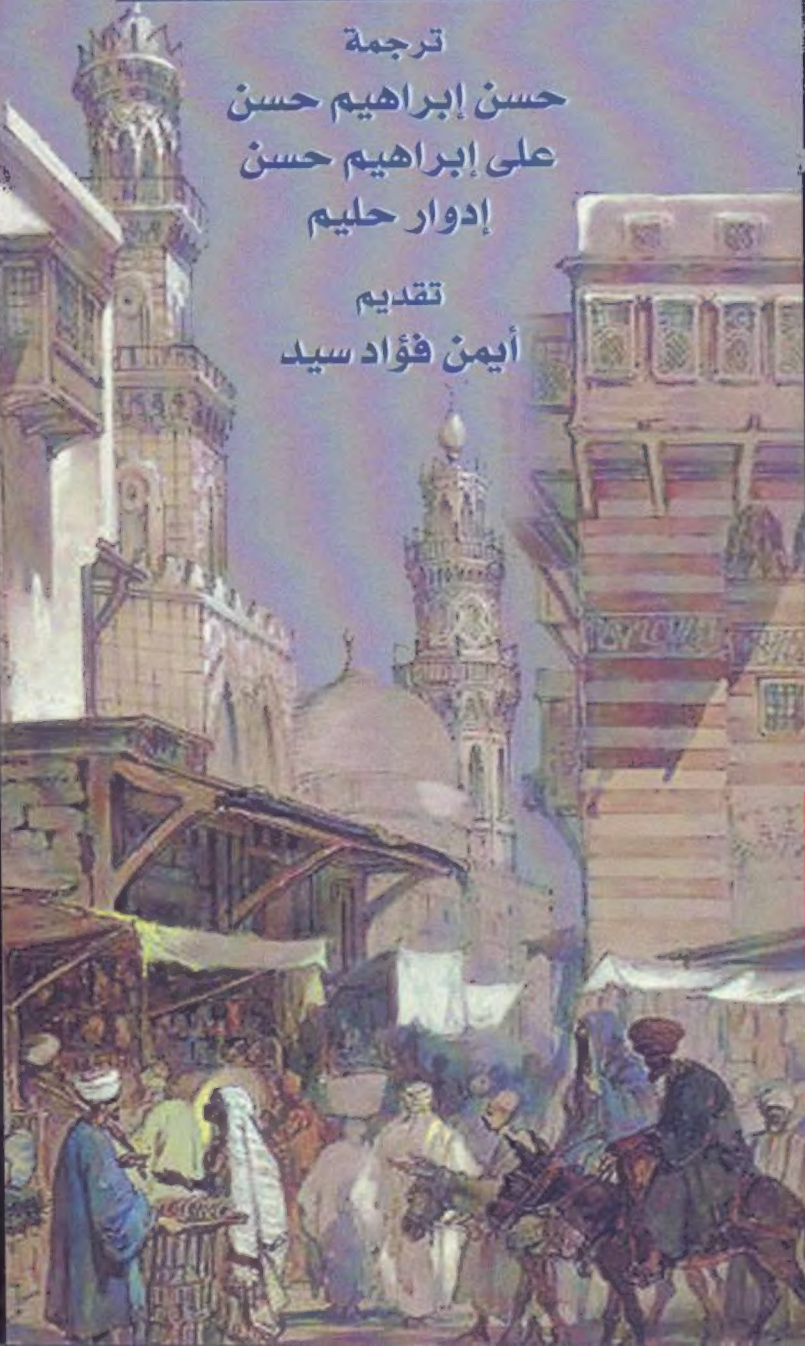
ستانلى لينپول سيرة القاهرة

ترجمة

حسن إبراهيم حسن
على إبراهيم حسن
إدوار حليم

تقديم

أيمن فؤاد سيد



سيرة
القاهرة

هذا الكتاب للمستشرق الإنجليزي ستانلي لينبول (١٨٥٤ - ١٩٣١م) أحد كبار العلماء المتخصصين في تاريخ مصر في العصر الإسلامي، ويعد أول كتاب شامل يتناول تاريخ القاهرة منذ أصولها الأولى في القسطنطينية حتى نهاية القرن التاسع عشر، الذي يمثل أهم التحولات التي عرفت فيها هذه المدينة، والتي انتقلت بها من مدن العصور الوسطى إلى العصر الحديث.

وقد زود المؤلف كتابه بالعديد من الصور التي توضح حالة المدينة قبل عصر التحولات الذي بدأ في نهاية عهد محمد علي باشا، وبلغ ذروته في عهد حفيده إسماعيل باشا.

سيرة القاهرة

المركز القومي للترجمة

إشراف: جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة: مصطفى لبيب

- العدد: 1831

- سيرة القاهرة

- ستانلى لينبول

- حسن إبراهيم حسن، وعلى إبراهيم حسن، وإدوار حليم

- أيمن فؤاد سيد

- 2011

هذه ترجمة كتاب:

The Story of Cairo

By: Stanley Lane-Poole

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

سيرة القاهرة

تأليف : ستانلى لينبول

ترجمة

على إبراهيم حسن

حسن إبراهيم حسن

إدوار حلیم

تقديم : أيمن فؤاد سيد



2011

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

لينبول، ستانلى.
سيرة القاهرة/ تأليف: ستانلى لينبول، ترجمة: حسن إبراهيم
حسن، وعلى إبراهيم حسن، وإيوار حليم، تقديم: أيمن فؤاد سيد
القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١١
٢٩٦ ص، ٢٤ سم
١- القاهرة - تاريخ
(أ) حسن، حسن إبراهيم
(ب) حسن، على إبراهيم
(ج) حليم، إيوار
(د) العنوان
(مترجم).
(مترجم مشارك).
(مترجم مشارك).
٩٦٢، ١٦

رقم الإيداع ٢٠١١ / ٥٠٥٨
الترقيم الدولى : 978-977-704-501-8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب
الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى
اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

يُوجِّعُ تاريخُ مَدِينَةِ الْقَاهِرَةِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ أَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا عِنْدَمَا نَجَّحَ الْفَاتِحُ الْعَرَبِيُّ الْمُشْلِمُ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي فَتْحِ مِصْرَ سَنَةِ ٦٤١هـ/٦٤١م وَوَضَعَ حَجَرَ أَسَاسِ مَدِينَةِ «الْقُسْطَاط» كَأَوَّلِ مَدِينَةٍ إِسْلَامِيَّةٍ فِي مِصْرَ وَأَفْرِيقِيَا فِي الْفَضَاءِ الْمَجَارِرِ لِبَابِلْيُونِ الْقَدِيمَةِ . وَبَعْدَ نَحْوِ قَرْنٍ أُضِيفَ إِلَى الْقُسْطَاطِ حَيٌّ جَدِيدٌ فِي الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ لِلْمَدِينَةِ أَقَامَ فِيهِ الْعَبَّاسِيُّونَ دَارَ الْإِمَارَةِ الْجَدِيدَةِ وَمُعَسَّكَاتٍ لْجُيُوشِهِمْ أُطْلِقَ عَلَيْهِ اسْمُ «الْعَسْكَرِ» . وَعِنْدَمَا اسْتَقَلَّ أَحْمَدُ بْنُ طُولُونٍ بِحُكْمِ مِصْرَ عَنِ الْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ ، سَنَةِ ٨٢٥٤هـ/٨٦٨م ، أَضَافَ إِلَى الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ مِنْهَا ضَاحِيَّةً جَدِيدَةً أَوْ مَدِينَةً أَمِيرِيَّةً صَغِيرَةً أُطْلِقَ عَلَيْهَا اسْمُ «الْقَطَائِعِ» لِأَنَّهَا قُسِمَتْ إِلَى أُخْيَاءٍ مُتَفَصِّلَةٍ أَقْطَعَتْ لِفِرْقِ الْجُنْدِ الْمُخْتَلِفَةِ .

لَمْ تَلْبَثْ هَذِهِ الْمُدُنُ الثَّلَاثُ أَنْ أَصْبَحَتْ مَدِينَةً وَاحِدَةً مِنَ النَّاتِجَةِ الْعَمَلِيَّةِ كَانَتْ الْقُسْطَاطُ هِيَ مَرْكَزُ نَشَاطِهَا التِّجَارِيِّ وَالْاِقْتِصَادِيِّ وَالْاجْتِمَاعِيِّ .

كَانَتْ الْخُطْوَةُ الرَّابِعَةُ فِي تَطَوُّرِ هَذِهِ الْعَاصِمَةِ فِي اتِّسَاعِ آخِرِ نَحْوِ الشَّمَالِ ، عِنْدَمَا نَجَّحَ الْفَاطِمِيُّونَ الشَّيْعَةُ فِي فَتْحِ مِصْرَ سَنَةِ ٣٥٨هـ/٩٦٩م وَأَنْشَأُوا بِهَا خِلَافَةً شَيْعِيَّةً مُنَاوِئَةً لِلْخِلَافَةِ الْعَبَّاسِيَّةِ السُّنِّيَّةِ فِي بَغْدَادَ ، وَوَضَعَ الْقَائِدُ جُوْهَرُ الصُّفْلِيُّ أَسَاسَ مَدِينَةٍ جَدِيدَةٍ أُطْلِقَ عَلَيْهَا «الْقَاهِرَةُ» ، وَفِي هَذِهِ الْمَرَّةِ تَرَكَّتْ مِسَاحَةٌ كَبِيرَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْقَطَائِعِ - الَّتِي كَانَتْ قَدْ تَهَدَّمَتْ إِلَى خَدٍّ كَبِيرٍ جَدًّا - حَتَّى يَتَوَافَرَ الْأَمْنُ وَالْعُرْلَةُ لِلْأَيْمَةِ (الْخُلَفَاءِ) الْفَاطِمِيِّينَ الَّتِي بَنِيَتْ بِأَسْمِهِمُ الْمَدِينَةُ الرَّابِعَةُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ أَكْثَرَ مِنْ قَصْرِ فَخْمٍ وَتُكْنَى لِلْجُنُودِ وَمَقَرٍّ لِلْحُكُومَةِ ، وَهَكَذَا انْدَمَجَتِ الْعَوَاصِمُ الثَّلَاثُ السَّابِقَةُ فِي مَدِينَةٍ وَاحِدَةٍ أُطْلِقَ عَلَيْهَا غَدَاةَ الْفَتْحِ الْفَاطِمِيِّ «مِصْرَ الْقُسْطَاط» كَانَتْ مَرْكَزَ التِّجَارَةِ وَالثَّقَافَةِ وَالْأَعْمَالِ .

ولم تُصبح القاهرة الحاضرة الحقيقية ومركز الحكم في مصر الإسلامية إلا بعد أن أُخْرِقَت الفُسطاط عُشْدًا في سنة ١٠٦٤هـ/١٠٦٨م ، وجاءَ سُورُ صلاحِ الدِّين لِيَجْسِدَ الرِّوْحَةَ الحَقِيقِيَّةَ للعاصمة فقد صُمِّمَ لا لِيَحِيطَ بالقاهرة وَحْدَهَا بل وبَقْلَعَةِ الجَبَل - مركز الحكم الجديد - وبما تَبَيَّنَ من مدينتي الفُسطاط والقَطائع .

وَبَلَّغَتْ مَدِينَةُ القاهرة أَوْجَ ازدهارها خلال السُّلْطَنَةِ الثَّالِثَةِ لِلسُّلْطَانِ المملوكي النَّاصِر محمد بن قلاوون (٧٠٩-٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤١م) فكان امتدادها وتوسُّعها أكبر من أي عَصْرٍ سابق . وَبَلَّغَتْ العاصمةُ المِصرِيَّةُ أَبعادًا لم تعرفها من قَبْلُ ولم تُصِلْ إليها بعد ذلك إلى أَنْ تَبَنَّى الخديو إسماعيل باشا في منتصف القرن التَّاسِعِ عَشْرٍ مَشْرُوعَهُ الطُّمُوحِ لِبِنَاءِ القاهرةِ الحَدِيثَةِ الَّذِي نُفِّذَ يَتَفَتِّياتٍ وفي ظروفٍ مخالفةٍ تمامًا .

تَرَكَّزَ هذا التُّمُّورُ في الأساس خارجَ بابِ زَوَيْلَةَ جنوبي القاهرة وفي المنطقة الواقعة أَشْفَلَ قَلْعَةِ الجَبَل ، مَقَرَّ الحكم . وجاءَ هذا الامتدادُ كَنَتِيجَةَ طَبِيعِيَّةٍ لِبِنَاءِ قَلْعَةِ الجَبَل في العصر الأيوبي على الشَّرَفِ المُتَقَدِّمِ لَجَبَلِ المُقَطَّم ، فَأَتَانَتْ بِذلك مِسَاحَةٌ كَبِيرَةٌ نَشَأَتْ بِهَا أُخْيَاءٌ عِمْرَانِيَّةٌ جَدِيدَةٌ بَيْنَ بابِ زَوَيْلَةَ وَحَيِّ الصَّلَيبَةِ حيثُ جَامَعَ ابْنُ طُولُون ، وَاسْتَمَرَّ تُمُّوْهُ هَذِهِ المِنطَقَةُ المُطْلَئَةُ على بِرْكََةِ الفِيل (حَيِّ الحِلْيَةِ الْآنَ) حَتَّى نَهَايَةِ القَرْنِ السَّابِعِ عَشْرٍ المِيلَادِيِّ فِي أَثْنَاءِ القَصْرِ العُثماني .

وَسَهَّدَتْ المِنطَقَةُ الواقعة خارجَ بابِ القُتُوحِ شِمَالِي القاهرةِ الفاطمية تَوْسُّعًا مِمَّاثِلًا فِي الحَاظَةِ الحَضَرِيَّةِ امْتَدَّ حَتَّى لَاصَقَ الزَّائِدَانِيَّةَ شِمَالًا (العُبَاسِيَّةُ الْآنَ) .

وَيَرْجِعُ إِلَى عَهْدِ النَّاصِرِ مُحَمَّدِ بْنِ قَلَاوُون كَذَلِكَ بِدَايَةِ عُمُرَانِ المَنَاطِقِ الَّتِي انْحَسَرَ عَنْهَا مَاءُ النِّيلِ فِي البَرِّ الغَرِبِيِّ لِلخَلِيجِ وَالَّتِي تَشْمَلُ : أَرَاضِي اللُّوقِ (بَابِ اللُّوقِ الْآنَ) والأَرَاضِي الأُخْرَى الَّتِي حُكِرَتْ وَكَانَتْ بِسَاتِينَ تَنْجَتِ عَنْ انْجِسَارِ مَاءِ النِّيلِ عَنْهَا نِجَاهَ الغَرَبِ ، فَقَدْ كَانَ النِّيلُ فِي العَصْرَيْنِ الفاطمي والأيوبي يَصِلُ إِلَى مَسْتَوًى شَارِعِ عِمَادِ الدِّينِ الْآنَ وَإِلَى مَيِّدَانِ رَمْسِيْسٍ حَيْثُ وَجَدَ مِينَاءُ القاهرةِ فِي العَصْرِ الفاطمي المعروف بِالْمَقْصِ .

ونتيجة لإحمال مَدِينَةِ الفُسْطَاط وَتَرَاوَج دَوْرهَا كَمِيَاء كَانَتْ تَصِلُ إِلَيْهِ البَضَائِعُ الْقَادِمَةُ مِنَ الْهِنْدِ وَجَنُوبِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ حَيْثُ تُفْرَغُ فِي مِينَاءَ عَيْنِ شَابَ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ الْأَحْمَرِ وَتُنْقَلُ مِنْهُ عَلَى ظُهُورِ الْجَمَالِ فِي الصُّخْرَاءِ الشَّرْقِيَّةِ إِلَى مِينَاءِ قُوصٍ ثُمَّ تَضَعُ فِي الثَّلِثِ شِمَالًا حَتَّى الْفُسْطَاطَ ، بَدَأَ يَظْهَرُ شِمَالًا عَلَى الثَّلِثِ مِينَاءُ جَدِيدٌ هُوَ مِينَاءُ بُولاقِ الَّذِي ازْدَهَرَ خِلَالَ الْقَرْنِ الثَّاسِعِ الْهَجْرِيِّ / الْخَامِسِ عَشَرَ الْمِيلَادِيِّ خَاصَّةً بَعْدَ أَنْ اِزْتَبَلَتْ تِجَارَةُ مِصْرَ بِنِجَارَةِ الْبَحْرِ الْمُتَوَسِّطِ وَأَصْبَحَتْ الْمَاجِرُ تُصِلُ مِنْ أَوْرُوبَا إِلَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ وَمِنْهَا عِبْرَ الثَّلِثِ إِلَى بُولاقِ .

وَقُرْبَ نِهَايَةِ الْعَصْرِ الْمَمْلُوكِيِّ نُقِذَ عَلَى بُعْدِ نَحْوِ خَمْسِ مِائَةِ مِترٍ غَرْبِي الْخَلِيجِ مَشْرُوعُ عِمْرَانِي كَبِيرٍ عِنْدَمَا قَامَ الْقَرُ الْأَتَاكِي أُنْثَكَ مِنْ طُطُخٍ بِتَعْمِيرِ مَنطَقَةِ الْأَرْبَكِيَّةِ الَّتِي نُسِبَتْ إِلَيْهِ . وَبَدَأَ الْعَمَلُ فِيهَا عَامَ ١٤٧٦هـ / ١٤٧٦م وَاسْتَمَرَ حَتَّى عَامِ ٨٨٨هـ / ١٤٨٤م ، وَقَدْ اِثْنَلَتْ الْأَرْشَقْرَاطِيَّةُ الْمِصْرِيَّةُ لِلْإِقَامَةِ فِي هَذَا الْحَيِّ الْجَدِيدِ خِلَالَ الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ ، الَّذِي أَصْبَحَ كَذَلِكَ مَرَكْزَ الْإِتِّصَالِ بَيْنَ الْقَاهِرَةِ الثَّارِيخِيَّةِ وَالْقَاهِرَةِ الْحَدِيثَةِ فِي الْقَرْنِ الثَّاسِعِ عَشَرَ .

وَفِي الْعَصْرِ الْعُثْمَانِيِّ كَانَتْ الْحَقِيقَةُ الَّتِي أَصْبَحَ فِيهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ كَتُخْدَا الْقَزْدُوغْلِي الرَّجُلَ الْأَوَّلَ فِي مِصْرَ (١١٥٢-١١٧٩هـ / ١٧٣٩-١٧٦٥م) عَصْرَ اِزْدِهَارِ عُثْرَانِي لِمِصْرَ وَالْقَاهِرَةِ . فَقَدْ قَامَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ كَتُخْدَا بِدَوْرٍ أَسَاسِيٍّ فِي النُّشَاطِ الْعُثْرَانِيِّ لِلْقَاهِرَةِ يَجْعَلُ مِنْهُ أَحَدَ كِبَارِ الْبَنَائِينَ الَّذِينَ عَزَفَتْهُمْ الْمَدِينَةُ مَا زَالَتْ آثَارُهُ الْبَاقِيَّةُ شَاهِدَةً عَلَيْهِ ، حَيْثُ بَلَغَ مَا أُنْشِيَ فِي عَصْرِهِ فِي الْقَاهِرَةِ وَحْدَهَا : ١٩ مَسْجِدًا وَمَعْرِسَةً وَبَيْتَ زَوَايَا وَتَكَايَا وَنِسْعَةً وَعَشْرِينَ سَبِيلًا بِالإِضَافَةِ إِلَى التَّرْهِيْمَاتِ وَالْإِضَافَاتِ الَّتِي أَذْخَلَهَا عَلَى مُنْشَأَتِ تَرْجَعُ إِلَى عَصُورٍ سَابِقَةٍ مِثْلَ الْمَشْهَدِ الْحُسْتِيّ وَالْجَامِعِ الْأَزْهَرِ وَقُبَّةِ وَمَا رِشْتَانِ قَلَاوُونِ .

وَمَعَ وُضُولِ الْحَمْلَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ إِلَى مِصْرَ (١٧٩٨-١٨٠١م) بَدَأَتْ الْقَاهِرَةُ تَعْرِفُ أَمَاطًا جَدِيدَةً مِنَ التَّنْظِيمَاتِ الْحَضَرِيَّةِ ، فَلَا شَكَّ أَنَّ الْفَرَنْسِيِّينَ اِنْتَرَوْا أَنْ يُضَفُّوا عَلَى

الحياة المدنية للقاهرة - التي بدت لهم شبه فوضوية - مظهرًا أكثر موافقة لقوانين التنظيم العمراني الأوروبي، فقسّموها المدينة إلى ثمانية أقسام لتسهيل إدارتها وإشراف الشرطة عليها، وأزالوا أبواب الحارات، واتخذوا إجراءات حاسمة لمكافحة الأوبئة والاهتمام بالصحة العامة، وفتحوا طريقًا جديدًا ممهدًا ومظللاً يربط قلب المدينة عند الأزبكية ببولاق (شارع فؤاد الأول/ ٢٦ يولية الآن)، وأزالوا المقابر الواقعة داخل المدينة، وغدّلوا الكثير من المسالك تبعًا للضرورات التي استجدّت .

وكان وصول محمد علي باشا إلى الحكم في مصر، سنة ١٨٠٥م، نقطة تحوّل مهمة ليس فقط في تاريخ مصر بل وفي تاريخ القاهرة حيث بدأ نوعًا من الخدمات البلدية تمثّل في كنس ورش وتنظيف الشوارع وإنارتها، كما بدأ - اعتبارًا من عام ١٨٢٠م - أعمال نظافة عاثّة في المدينة انعكست على الصحة العامة حيث تدرّت الأوبئة بعد هذا العام . ومن أجل العناية كذلك بالصحة العامة عمل محمد علي على تركيز الصناعات الأساسية التي بدأ يادخلها في منطقة الشبيّة شمال شرقي بولاق، كما أزال الكيمان التي كانت تحيط بالقاهرة في شمالها وفي غربها، وقد أمكن باستيخدام الأثرية المتروكة منها أن يبدأ في سنة ١٢٤٣هـ/ ١٨٢٧م بزوم البرك المنتشرة في شمال وجنوب وغرب المدينة القديمة .

وبدأت كذلك تستقرّ في المدينة مؤسسات جديدة عليها، هكذا أُنست مدرسة الطبّ في أبي زعبل سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م التي انتقلت في سنة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٥م إلى منطقة القصر العتيبي .

ومن بين التحوّلات المهمة التي أدخلها محمد علي باشا على القاهرة إنشاء حيّ شبرا غربي المدينة القديمة على النيل . والتعديلات الجذرية التي أدخلها على قلعة الجبل حتى إنها استقرّت بعد ذلك بـ « قلعة محمد علي » خاصّة بعد أن أنشأ بها جامع ذي الطراز المتميّز الي يُضاهي جوامع إستانبول .

ولم تُعرف الحفَبةُ اللاحقة لعهد محمد علي إنجازات كبيرة ، فيما عدا إنشاء « حيّ التجايبية » شمال المدينة في عهد عباس الأول وكذلك « حيّ الحلمية » على يركة الفيل ، وفي عهد سعيد باشا أقيم « قصر النيل » على الشاطئ الشرقي للنيل أمام الجزيرة والزمالك الآن .

ولكن أهمّ تغيير عرفته القاهرة في القرن التاسع عشر للميلاد جاء على يد الحديو إسماعيل باشا ، أوّل حاكم منذ تسعة قرون يبنّى مشروعًا شاملاً لتنمية المدينة ، قام في الأساس على محاكاة النموذج الغربي لتنمية المدن . وتأثّر في ذلك بالنموذج مدينة باريس العاصمة الفرنسية التي أقام بها في شبابه خاصّة بعد التّغديلات الجوهريّة التي أدخلها عليها المهندس هوسمان HAUSSMANN . وكان الاختفّال بافتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م مناسبةً لتنفيذ هذه المقترحات الجديدة حيث أنشئ بالقاهرة لأوّل مرّة دائرًا للأوبرا ومضمارًا لسباق الخيل وسيرك والعديد من القصور : سراي الجزيرة وسراي الجيزة وسراي عابدين التي تحوّل إليها مقرّ الحكم نهائيًا من قلعة الجبل سنة ١٨٧٤م . كما أنشأ بها حيًّا جديدًا على النظام الأوروبي ألصقه بالجانب الغربي للمدينة القديمة هو « حيّ الإسماعيلية » أو وسط المدينة الآن .

بهذا التّغيير المهمّ الذي شهّدته القاهرة في النّصف الثاني للقرن التاسع عشر بدأ ستانلي لين بول مؤلّف كتاب « سيرة القاهرة » كتابه بأنّه تُوجد قاهرتان مختلفتان : القاهرة أوروبية غربي الخليج و « القاهرة مصرية » شرقي الخليج .



ومؤلّف هذا الكتاب هو المستشرق الإنجليزي ستانلي لين بول STANLEY LANE POOLE (١٨٥٤-١٩٣١م) ابن شقيق المستشرق الإنجليزي الشهير إدوارد وليم لين صاحب كتاب « المضيرون المحذّون عاداتهم وشمائلهم » ، وهو من كبار عُلماء النّعيات والمُتخصّصين في تاريخ مصر في العصر الإسلامي وكان لنحو عشرين عاما

(١٨٨٤-١٨٩٢م) أمين القسم الشرقي للمتحف البريطاني حيث وُضِعَ «فهرس الثُّقُود الشرقيّة في المتحف البريطاني» في عشرة مجلّدات (لندن ١٨٧٥-١٨٨٩م)، ثم انتقل إلى مصر كباحث في الآثار حيث كَلَّفَتْهُ الكُتُبْخَانَةُ الحِديويّة بالقاهرة بأن يُصنَعَ فهرسًا لمقتنياتها من الثُّقُود الشرقيّة صَدَرَ في لندن سنة ١٨٩٧م. ثم عمل أستاذًا للعربية في Trinity College بجامعة دبلن بإيرلندا (١٨٩٧-١٩٠٤م) واشتقَرَّ بعد ذلك في لندن حتى وفاته في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣١م.

ومن أعمَل أعمال لين بول: «معجم الأشراف الحاكمة الإسلاميّة» (لندن ١٨٩٢م) و *Art of the Saracens in Egypt* «فنّ العرب في مصر» (لندن ١٨٨٦م) و *History of Egypt in the Middle Ages* «تاريخ مصر في العُصُور الوسطى» (لندن ١٩٠١م) و *Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem* «صلاح الدّين وسقوط مملكة بيت المقدس» (لندن ١٨٩٨م).

وكتابه الذي تُقدِّم لترجمته العربية اليوم *The Story of Cairo* «سيرة القاهرة» (لندن ١٩٠٢م) أوّل كتاب شامل يتناول تاريخ القاهرة منذ أُصُولها الأولى في الفُسطاط حتى نهاية القرن التاسع عشر، الذي يُمثّل أهمّ التحوّلات التي عرفتها هذه المدينة والتي انتقلت بها من مُدُن العُصُور الوسطى إلى العصر الحديث. وذكر لين بول في مُقدِّمته للكتاب أنّه كان يكتب على الدّوام في موضوع القاهرة، فنّها وأثارها وتاريخها منذ وقّت بعيد، لذلك فإنّه كان مُضطّرًا لأن يُقتبس من مؤلّفاته السابقة في هذا الموضوع مثل *Cairo: Sketches of his History, Monuments and Social Life* (لندن ١٨٩٨م) و «تاريخ مصر في العُصُور الوسطى».

ورَوَّدَ المؤلّف كتابه بالعديد من الصُّوَر التي تُوضّح حالة المدينة قبل عصر التحوّلات الذي بدأ في نهاية عهد محمد علي باشا وتلّغ ذُرُوتَه في عهد حفيده إسماعيل باشا، وعلى الأخصّ الصُّوَر التي رَسَمَهَا روبرت هاي ROBERT HAY

وأوين كارتر OWEN CARTER بين سنتي ١٨٢٦ و ١٨٣٨ م ونَشَرَ هاي HAY بقصصها بعد ذلك في كتاب *Illustrations of Cairo* سنة ١٨٤٠ م .

وفي الوقت الذي كان لين بول يُدَوِّن فيه كتابه عَرَفَت مصر نهضةً مهتمةً لإحياء الآثار الإسلامية وإنقاذ القاهرة التاريخية ، فأفردَ فصلًا مهمًا في نهاية الكتاب استعرض فيه أعمالَ لجنة حفظ الآثار العربية - التي بدأ نشاطها سنة ١٨٨٢ م - والتي يرجع إليها الفضلُ في حفظ الكثير من المساجد والمدارس والمباني الأثرية بحيث أنه لم يتبق على الإطلاق على اتئداد تاريخ القاهرة أن قامت عمليةٌ جُفْجُف شاملةٌ لآثارها ، بقدر ما تَسَمَّح به الظروف ، مثل ما قامت به هذه اللجنة التي استمرَّ دورها بعد ذلك حتى سنة ١٩٥١ م .

وختَمَ لين بول كتابه بجدولين مهينين يَبيِّن في الأوَّل الولاة الذين تولَّوا حكم مصر والقاهرة والآثار التي أقيمت في عهد كلٍّ منهم وأشار إلى الآثار التي ما تزال قائمة حتى الآن أو التي أعيدَ بناؤها . أمَّا الجدولُ الثاني فجعلَه لتحويل السنين الهجرية إلى سنين ميلادية .

أمَّا مُتَرَجِّمُ الكتاب فاللُورُخ المصري المعروف الدكتور حسن إبراهيم حُسن (١٨٩٢-١٩٦٨ م) وشاركه في أعمال الترجمة شقيقه الأصغر علي إبراهيم حسن وتلميذه إدوارد حليم .

والدكتور حسن إبراهيم حسن من الرُّعيل الأوَّل الذي تخرَّج في الجامعة الأهلية المصرية سنة ١٩٢٠ م ثم نال منها درجة العالمية في العام التالي وكان موضوعها عن « تاريخ عمرو بن العاص » ، وأُرْسِلَ بعد ذلك في بعثة إلى جامعة لندن حيث حصلَ منها على دَرَجَةِ دكتوراه الفلسفة في التاريخ سنة ١٩٢٨ م تحت إشراف المستشرق الإنجليزي المعروف السير توماس أرنولد THOMAS ARNOLD وكان موضوعها : « الفاطميون في مصر وأعمالهم السياسية والدينية بوجهٍ خاص » نُقِلَها إلى اللغة العربية ونَشَرُها في القاهرة سنة ١٩٣٢ م ، وهي أوَّل دراسةٍ علميةٍ تُصَلِّحُ عن تاريخ

الفاطميين اعتمادًا على المصادر الأصلية القليلة التي كانت متاحة في هذا الوقت ، ثم أعادَ نُشر الكتاب في عام ١٩٥٨م مع إضافات مُطَوَّلَة بِعُتْوَان « تاريخ الدَّوْلَة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد القَرَب » .

وبعد عَوْدَتِهِ مِنَ البُعْثَة عُيِّنَ إِلَيْهِ بِتَدْرِيسِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ فِي الجَامِعَةِ المِصْرِيَّةِ (جامعة فؤاد الأوَّل ثم جامعة القاهرة بعد ذلك) بَيْنَ سَنَتَيْ ١٩٣٦ و ١٩٤٢م حَيْثُ اخْتِيرَ عَمِيْدًا لِكَلِيَّةِ الآدَابِ ثُمَّ كَأَوَّلَ مَدِيرٍ لْجَامِعَةِ مُحَمَّدٍ عَلِي بِأَشَا (جامعة أسيوط فيما بعد) عِنْدَ إِنْشَائِهَا سَنَةَ ١٩٥٠م وَظَلَّ كَذَلِكَ حَتَّى أُجِيلَ إِلَى التَّعَاوُدِ سَنَةَ ١٩٥٢م .

وَفِي عَقْدِ الخَمْسِينِيَّاتِ وَالسَّتِينِيَّاتِ مِنَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ انْتَدَبَ لِتَدْرِيسِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ وَتَارِيخِ الشَّرْقِ الْأَدْنَى بِجَامِعَتِي بِنْسَلْفَانِيَا وَكَالِيفُورْنِيَا بِالْوِلَايَاتِ الْمُتَّحِدَةِ الْأَمْرِيكِيَّةِ ثُمَّ بِجَامِعَةِ مُحَمَّدِ الْخَامِسِ بِالرِّبَاطِ بِالْمَغْرِبِ وَأَخِيرًا بِجَامِعَةِ بَغْدَادِ حَيْثُ تَوَفَّى فِي الْعِرَاقِ سَنَةَ ١٩٦٨م وَنُقِلَ جُثْمَانُهُ وَدُفِنَ بِالقَاهِرَةِ .

أَلَّفَ الدُّكْتُورُ حَسَنُ إِبرَاهِيمُ حَسَنُ الْعَدِيدُ مِنَ الْمَوْثُفَاتِ فِي التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ وَتَارِيخِ الْفَاطِمِيِّينَ أَهْمَتَهَا : « تَارِيخُ الْإِسْلَامِ السِّيَاسِي » فِي أَرْبَعَةِ مَجْلُدَاتٍ وَبِالِاشْتِرَاكِ مَعَ طَهْ أَحْمَدُ شَرْفٌ : « عُيَيْدُ اللَّهِ الْمُهْدِي إِمَامُ الشَّيْعَةِ الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ وَمُؤَسَّسُ الدَّوْلَةِ الْفَاطِمِيَّةِ فِي بِلَادِ الْمَغْرِبِ » وَ« الْمَعِزُّ لِلدِّينِ اللَّهِ » ، وَبِالِاشْتِرَاكِ مَعَ أَخِيهِ الدُّكْتُورِ عَلِيِّ إِبرَاهِيمُ حَسَنُ كِتَابُ « التَّظُّمُ الْإِسْلَامِي » ، إِضَافَةً إِلَى الْعَدِيدِ مِنَ الْبَحُوثِ وَالْمَقَالَاتِ الْمُتَخَصَّصَةِ .

إِبْرَاهِيمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُلَيْمَانَ

القاهرة في ١٤ ذي الحجة سنة ١٤٣١هـ

٢٠ نوفمبر سنة ٢٠١٠م

ترجم الدكتور حسن إبراهيم حسن

الأبواب : الأول والثاني والثالث

وترجم الدكتور علي إبراهيم حسن

الأبواب : الرابع والخامس والسادس

وترجم الأستاذ إدوارد سليم

الأبواب : السابع والثامن والتاسع

من لم ير القاهرة لم ير الدنيا .

فأرضها تبر .

ونيلها سحر .

ونسائوها حوارى الجنة فى بريق عيونهن .

ودورها قصور ، ونسيمها عليل ، كعطر الندى ،

ينعش القلب .

وكيف لا تكون القاهرة كذلك ، وهى أم الدنيا ؟

THE STORY OF CAIRO

سيرة القاهرة

الطبعة الأولى سنة ١٩٠٠

الطبعة الثانية سنة ١٩٠٦

الطبعة الثالثة سنة ١٩١٨

الطبعة الرابعة سنة ١٩٢٤

محتويات الكتاب

صفحة		
١١	مقدمة المترجمين
١٤	مقدمة المؤلف

الباب الأول

٢٠ المدينتان

القاهرة الأوربية والقاهرة المصرية . مناظر شرقية .
التجار المحافظون . متاجرهم . منازلهم . باب زويلة
أحد المنازل الخاصة . المتدرة . حجرات النوم .
الحياة اليومية . حياة النساء . الاحتفالات والأعياد في القاهرة
الحسينية . شارع محمد علي . مشهد من القلعة .

الباب الثاني

٤٧ مدينة الفسطاط

المدن المتعاقبة في القاهرة . الفتح العربي . معاهدة الأمان
مصر القديمة . بابليون والمقوقس . القبط .
أساس الفسطاط . الخيمة . استقرار القبائل العربية .
جامع عمرو . حصن بابليون . الكنائس القبطية .

الباب الثالث

٦٨ القطائع

حكام الخلفاء . حلوان . معاملة المسيحيين . الرهبانية

صفحة

- محافظة الأقباط . مدينة ، المسكر ، العباسية
- الحكام العباسيون : ابن عدود . عبد الله بن طاهر
- الخليفة المأمون في مصر . اضطهادات المسلمين والأقباط
- الحكام الأتراك . تشجيعهم للفن . أحمد بن طولون
- المدينة الجديدة ، القطائع ، . القناطر التي بناها ابن طولون
- مسجد ابن طولون . مصادر فن البناء العربي
- حروب ابن طولون . قصور خمارويه . استعادة الخلفاء لمصر . قلعة الكيش .

الباب الرابع

٩٥

مصر

- مصر — الفسطاط العاصمة التجارية . وزراء المادرائي
- الإخشيد . المسعودي في مصر . جزيرة الروضة
- الدين في مصر . الثمراء . قصر كافور
- الاحتفالات الإسلامية . حكومة كافور
- مصر في القرنين العاشر والحادي عشر . وصف ناصر خسرو
- حريق مصر . بعض الإصلاحات . وصف ابن سعيد

الباب الخامس

١١٢

القاهرة

- انقلاب الشيعة . الخلافة الفاطمية . المعز . غزو مصر
- تشييد القاهرة . نتائج الانقلاب . الأقباط تحت الحكم الفاطمي
- العزیز . الجامعة الأزهرية . مدينة القصر
- القصر العظيم . أبواب القاهرة . باب زويلة
- وصف William of Tyre للقصر الفاطمي . ميناء المقس والأسطول

صفحة

الثروة والفن والترف أيام الفاطميين . جامع الحاكم .
 الخليفة الحاكم . قاعة العلم . تأليه الحاكم وتمجده .
 القسوة العسكرية وضيق الأقاليم . القاهرة في عام ١٠٤٧ م .
 كسر الخزان . اليازورى . نهب الأتراك وسلبهم .
 مجاعة السبع سنوات . بدر الجبال . السور الثانى وأبواب القاهرة
 الوزراء الأرمين . حكم الوزراء .
 الاغتيالات والاستبداد العسكرى . ابن رزىق . فن البناء الفاطمى .

الباب السادس

١٥٠ قلعة صلاح الدين

أسباب غزو مصر . الأتراك والصليبيون . شاور وضرغام
 عمورى وشيركوه فى مصر .
 الوزير صلاح الدين الأيوبي وعزل الخليفة الفاطمى .
 حروب صلاح الدين . أعمال صلاح الدين فى مصر .
 الأسوار الجديدة . القلعة . خزان الجزيرة .
 الثورات فى القاهرة . رأس الحسين . مدارس صلاح الدين
 رواية ابن جبير . المستشفيات . خصائص المساجد والمدارس
 نتائج إحياء المذهب القديم وتشجيع العلم .

الباب السابع

١٧٠ بناء القباب

سيف الدين المعادل . المجاعة العظمى . غزو الصليبيين
 فردريك الثانى والكامل . نظام المماليك .
 الملكة شجرة الدر والمماليك البحرية . حرب لويس التاسع .

- (١) الممالك الأتراك . حروبهم ضد المغول
 حروب ضد الفرنجة . إحياء الخلافة العباسية . يبرس
 قصر الممالك . طيش الأمراء . بيت قلاوون . . .
 الناصر . التسامح الدينى بالنسبة للسبحين . التمسب المحبوب
 الفتن . الناصر وأبو الفداء . الإنتاج الفنى . . .
 مساجد الأمراء . أسلوب الممالك الأول فى البناء . . .
 السلطان حسن . مسجد السلطان حسن العظم . . .
 (٢) الممالك الشراكسة . الفساد . الحروب . . .
 الذوق الرافى . فن البناء . قايى . مبانى قايى
 المساجد داخل الجدران . الوكالة
 مساجد الأمراء والقاضى بن مظهر . المدرسة الجديدة . .
 مبانى الفورى . الفوز العثمانى

الباب الثامن

مدينة ألف ليلة وليلة

- توسيع القاهرة . قيام بولاق . مساجد الضواحي . . .
 الاقتراب من بولاق . ألف ليلة وليلة فى القاهرة . . .
 تجارة الترانست فى مصر . حوانيت التجار . خان الخليلى .
 خان مسرور . وكالة قوصون وسوق الورد
 الشوارع والأحياء . فن النقش الفضى
 صناعة المعادن فى القاهرة . البندقية . نحت الخشب . .
 المشربة . بعض خواص الفن الإسلامى
 رجال الأدب أيام الممالك

الباب التاسع

البسكوات والباشوات

- الأمراء المالك (البسكوات) يحتفظون بسلطتهم . ضنف الباشا .
معارك الشوارع . البك العثماني . رضوان الجلاني .
عائلة شرايبي . المكتبات . حالة العلم . التعصب .
الخرافات . مساجد الفترة العثمانية . على بك .
عبدالرحمن كتنخدا . محمد بك أبو الذهب . محمد علي .
استصفاء مال الوقف . لجنة حفظ آثار الفن العربي .
تقرير إلى اللورد كرومر . وقاية الآثار وحفظها . إحيائها
قانون لورد كرومر . المنح

ملاحق

- (١) جدول يبين أحكام القاهرة وآثارها ٢٥٢
(٢) جدول لتحويل السنين الهجرية إلى سنين ميلادية ٢٦١

كشاف

- عن الأعلام والبلدان ٢٧٤

فهرس الصور

صفحة		
٩	O. B. Carter	(١) بركة القبل
٣٢	J. A. Symington	(٢) فناء في منزل خاص
٤٥	J. A. Symington	(٣) القلعة
٥٧	J. A. Symington	(٤) معن جامع عمرو
٦١	O. B. Carter	(٥) باب قصر الشمع (بابليون)
٨٢	O. B. Carter	(٦) منظر جامع ابن طولون
٨٧	J. A. Symington	(٧) داخل رواق القبلة في مسجد ابن طولون
٨٨	J. A. Symington	(٨) زخرفة حول القنود والدعائم وأعلى الدعائم ونيجان الأعمدة
١٠٦	J. A. Symington	(٩) شارع في مصر القديمة
١٢٣	J. A. Symington	(١٠) جامع الحاكم
١٢٥	O. B. Carter	(١١) باب النصر
١٢٦	O. B. Carter	(١٢) آذن فوق باب زويلة
١٤٩	O. B. Carter	(١٣) جامع الجيوشي
١٥٩	O. B. Carter	(١٤) قلعة الكيش
١٧٠	Robert Hay	(١٥) جزيرة الروضة
١٨٥	Robert Hay	(١٦) «قاعة يوسف» : قصر الناصر في القلعة
١٩٢	Robert Hay	(١٧) القنطرة المعلقة وراء السبع طواحين المائية
١٩٣	O. B. Carter	(١٨) مسجد السلطان حسن
١٩٥	O. B. Carter	(١٩) بوابة مسجد السلطان حسن
١٩٧	J. A. Symington	(٢٠) مقبرة مسجد برفوق وفرج
٢٠٢	J. A. Symington	(٢١) الدرافة الشرقية : مقابر الخلفاء
٢٠٤	J. A. Symington	(٢٢) مسجد نايتباي - الدرافة الشرقية
٢٠٦	J. A. Symington	(٢٣) أضرحة
٢٢٥	H. Warren & O. B. Carter	(٢٤) سوق الرقيق
٢٢٤	J. A. Symington	(٢٥) في الدرب الأحمر
٢٤١	O. B. Carter	(٢٦) شارع بجوار باب الحرق
٢٤٦	J. A. Symington	(٢٧) جبانة المسلمين



القاهرة من الجنوب الغربى - بركة الفيل

مقدمة المترجمين

ولد ستانلي لينبول في مدينة لندن في الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٥٤ ، وتلقى تعليمه أولاً في كلية اللاهوت ثم في جامعة أكسفورد وأخيراً في جامعة دبلن . وبعد ذلك بدأ حياته العملية كنورخ وباحث في الآثار العربية . ففي سنة ١٩١٤ عين أميناً لقسم النقود الأثرية في المتحف البريطاني بلندن . وفي أثناء الفترة الطويلة التي شغل فيها هذا المنصب ، استطاع بفضل أبحاثه الطويلة وإطلاعه الحصب أن يضع دليلاً عن النقود الشرقية والهندية جاء غاية في الدقة والإتقان . ويقع في أربع عشر مجلداً ، ويحتوى على وصف رائع وشرح مسهب لجميع أنواع العملة التي كانت تستعمل في الهند وغيرها من بلاد الشرق . ويشمل هذا الدليل : « دليل النقود الشرقية » (Catalogue of the Oriental Coins (1875 — 1883) ودليل النقود الهندية » (Catalogue of the Indian Coins (1884 — 1892) . وإلى جانب هذه البحوث استطاع بين سنتي ١٨٧٦ ، ١٨٩٣ أن يتمم « المعجم العربي » الذي كان قد بدأه من قبله ا . و . لين E. W. Lane ، وهو عالم إنجليزي تفضل في العلوم العربية ، وزار مصر حيث أقام فيها مدة طويلة درس في خلالها الحياة الاجتماعية وكتب عنها كتابه « أخلاق المصريين وعاداتهم » (١) .

ولم تكن أبحاث لينبول هي كل ما كانت تشغله في ذلك الوقت . ففي خلال تلك الفترة كانت الحكومة البريطانية ترسله بين الحين والحين في بعثات علمية لدراسة الآثار وكتابة تقارير مفصلة عنها . ففي سنة ١٨٨٣ قام برحلة علمية إلى مصر ، ثم زار روسيا للفرص نفسه في سنة ١٨٨٦ . ثم قام برحلة علمية أخرى لدراسة الآثار في أستراليا ، واشتغل بين سنتي ١٨٩٥ ، ١٨٩٧ بدراسة آثار القاهرة تحت إشراف الحكومة المصرية . وما أن وصل إلى إنجلترا بعد هذه الدراسة الموفقة حتى عينته

(١) وقد نشر بين سنتي ١٨٧٨ ، ١٨٤٠ ترجمة كتاب « الف ليلة وليلة » تباعاً ، ثم زار مصر سنة ١٨٤٢ حيث مكث فيها سبع سنوات قام في خلالها بأعظم عمل له وهو تأليف « المعجم العربي الإنجليزي » Arabic English-Lexion ويقع في خمسة مجلدات . ومات في سنة ١٨٧٦ قبل أن ينتهي من إنجاز هذا العمل الضخم فأتمجه من بعده ستانلي لينبول .

حكومتها أستاذاً للغة العربية بجامعة دبلن، فظل يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٩٠٤ .
ومن الطيبي أن تتمخض تلك الحياة الحافلة بالدراسة عن مؤلفات لها قيمتها
في مضمار التاريخ . والواقع أن ستانلي لينبول أنتج كثيراً ، ففي سنة ١٨٧٤ أخرج
كتاباً جليلاً عن النقود الإسلامية يقع في ثلاثة أجزاء بعنوان : Essays in
Oriental Numismatics ، ثم كتب في سنة ١٨٨٧ سفرأ رائعاً عن العرب في
أسبانيا عنوانه ، تاريخ العرب في أسبانيا ، History of the Moors in Spain (١) .
ثم أعقبه يبحث مفصل عنوانه ، تركيا ، Turkey نشر في سنة ١٨٨٨ . وفي سنة
١٨٩٠ ظهر له مؤلف آخر عنوانه ، القراصنة المغاربة ، The Barbary Corsairs ،
وكتب في سنة ١٨٩٨ مؤلفاً آخر عن صلاح الدين الأيوبي وسقوط مملكة بيت
المقدس ، Saladin and the Fall of the Kingdom of Jerusalem ، ثم
أعقب ذلك بكتاب عن الهند في العصر الوسيط ، Mediaeval India نشر سنة
١٩٠٢ . وفي سنة ١٩٠٦ أخرج كتاباً ضخماً في ثلاثة أجزاء بعنوان ، ألف ليلة
وليلة ، The Thousand and one Nights ، ثم كتب بحثاً دقيقاً عن تاريخ الهند
في العصور الوسطى كانت جميع المراجع التي استخدمها فيه حديثة إلى حد بعيد ،
وعنوانه ، الهند في العصر الوسيط من المصادر المعاصرة ، Mediaeval
India from Contemporary Sources (1916) . ثم تناول الهند بالدراسة في
سنة ١٩١٧ حيث أخرج كتاباً بعنوان ، موجز تاريخ الهند في العصور الوسطى ،
A Short History of India in the Middle Ages ، وظهر له في سنة ١٨٩٢
مؤلف نفيس عنوانه ، تاريخ أباطرة المغول ، History of the Mogul Emperors ،
وفي سنة ١٨٩٣ وضع مؤلفاً قيباً آخر عن الأسرات المحمدية ، Mohammedan
Dynasties .

وإلى جانب تلك المؤلفات التاريخية النفيسة ، كتب ستانلي لينبول عدة سير
وتواريخ لكل من ، اللورد ستراتفورد دي رذكليف ، Lord Stratford de
Redcliffe (١٨٨٨) ، و سير ج . ف . بوين ، Sir G. F. Bowen (١٨٨٩) ،
وسير هاري باركنز ، Sir Harry Parkes ، وسير ر . تشيرش ، Sir R. Church .

(١) قل هذا الكتاب إلى العربية الأستاذ الرحوم علي الجارم بك (القاهرة سنة ١٩٤٤) .

(١٨٩٥)، و إدوارد ولیم لین، Edward William Lane (١٨٧٧)، و أوردانجریب،
Aurangzib (١٨٩٢)، و بابور، Babur (١٨٩٩)، و وطن باشا،
Watson Pasha (١٩١٩) .

ولعل نصیب مصر من مؤلفات ستانلی لیبڤول كان أوفر من نصیب الإقطار
الشرقية الأخرى، فقد كتب عنها عدة أبحاث قيمة . ففي كتابه ، صور للقاهرة ،
Cairo Sketches يصور لنا الحياة الاجتماعية في مصر تصويراً صادقاً . وفي سنة
١٨٨٣ ألف كتاب ، دراسات في مسجد ، Studies in a Mosque ، وهو يتناول
الناحية الدينية من إقامة الصلاة والاحتفالات التي تمت إلى الدين بصلة . وفي كتاب
، الحياة الاجتماعية في مصر ، Social Life in Egypt (١٨٨٣) يبحث في
المجتمع المصري ، وفي سنة ١٨٨٦ ألف ستانلی لیبڤول كتاباً قيماً عن الفنون في
مصر بعنوان ، فن العرب في مصر ، Art of the Saracens in Egypt ، ثم
ألف في سنة ١٩٠١ كتاب ، تاريخ مصر في العصور الوسطى ، History of
Egypt in the Middle Ages ، وتزوج في سنة ١٩٠٢ سلسلة مؤلفاته في
تاريخ مصر بهذا الكتاب النفيس الذي تقدم ترجمته اليوم لقراء العربية ، وهو
، تاريخ القاهرة ، The Story of Cairo .

مقدمة المؤلف

تعتبر القاهرة في الواقع مدينة من مدن العصور الوسطى ، لأنه لم يكن لها وجود قبل تلك العصور . ثم إن حياتها الحافلة كحاضرة مستقلة ، يتفق وقوعها في أثناء فترة الألف سنة التي تعرف بالعصور الوسطى في التاريخ ، كما أنها ما زالت تحتفظ في الوقت الحاضر بالكثير من طابعها ومظهرها . وإذا كان المظهر يتغير ، فإن الحياة لا تتغير ، فالتقدم العجيب الذي أصاب المصرى في العشرين سنة الماضية قد تناول بالتغيير حياته المادية ، ولكنه لم يكن يقوى على تغيير خلقه إلا فيما ندر . فلقد أوجدنا له نظاماً عامة يرتاح لها ويأمن إليها ، وخفضنا من وطأة الضرائب الفادحة التي كانت تثقل كاهله ، وجعلنا له إدارة حكومية قادرة . وعدالة حكيمه ، ونفاقة عالية . وأهم من هذا وذلك ضمنا لكل فرد نصيباً وقرأ من مياه النيل الغنى . ومن أجل هذه المنح كلها — وعلى الأخص المنحة الأخيرة — نجد الفلاح قانئاً شاكراً على الدوام . غير أن الحال ليست كذلك بالنسبة للقاهري . فهندس الري يفقر إلى روح الفلاح من هذه الناحية . فهو دائب الطلب لسد حاجاته الملحة ، ولا يهتم بإصلاحاته الفرنجية ، في كثير أو قليل . وإنى لا أحب أن أوازن في هذا المقام بينه وبين الرجل الأنثوي . ولكن مهما يكن من شأن الزمن ، أو من أثر الاتصال بالأوربيين ، فإنى على يقين من أن رجل القاهرة سوف يحتفظ دائماً بقلبه البسيط الساذج الذي كان يحتفظ به في العصور الوسطى .

والشرق — من ناحية الدراسة (إننى لا أتناول الكلام على الأخلاق) — لا يتغير إلا ببطء ، كما أن روح الرجل الشرقى لا تتغير على الإطلاق . فبائع المجوهرات في القاهرة التي يساومك ساعة من أجل بضعة قروش ، في الوقت الذي نراه يتسأل إلى الحياة الأوربية الحديثة ويندج فيما يقترن بها من جلبه وصخب — هذا الرجل تجرى الحياة الحديثة من دونه ، فلا يمكن أن نعتبره جزءاً منها ، وإنما هو ينظر إلى وراء نظرة ملؤها الشغف والشوق ، ويتطلع إلى أيام الممالك الزاهرة التي ينتمى إليها ، آسفاً على ما تميزه في نفسه من عز ومجد . ومن ثم نراه يتسأل في شيء من الريبة عن الخير الذي يمكن أن يكون من وراء هذه الجلبه الحديثة ، أو من وراء هذه العدالة . فلطالما احتاج الإنسان في وقت من الأوقات شيئاً من الجور والظلم . وكان التاجر

الذى له مكاته يستطيع أن يشتري ذلك الظلم من القاضى قبل أن تتمخض العدالة أخيراً عن المحاكم الحديثة . أما فيما يتعلق بالضرائب المحددة وعدم أخذ الشيء كرها ، فهذا مما يهتم به الفلاحون الجهلاء دون سواهم . وعلى أى حال ، فقد كان النظام القديم يتم فى صورة بديعة حينما تتأخر أنت مثلاً فى دفع ما عليك من ضرائب ، فيلزم جارك بدفعها بدلاً منك . وعلى ذلك فقيم كل هذه الجلبة عن المياه والشوارع والمجارى وما إلى ذلك ؟ حينما زودوه بلسكوكس Willcocks ،^(١) المساجد بالآنايب والبورعات وغير ذلك من الإصلاحات التى أدخلها فى المساجد والتى تتم عن الكفر ، فهل تحسنت صلاة الشخص عما كانت عليه يوم كانت الأحواض القديمة تنبعث منها هذه الرائحة الكريهة فى كل مكان ؟ كذلك عما لاشك فيه أن الشوارع قد أصبحت أوسع مما كانت عليه من قبل ، حتى أصبح الفرنجة — سود الله وجوههم — يمشون بعرباتهم ذات الجوادين ويلطخون المؤمنين بالأوحال . غير أن ذلك قد جعلهم يزيلون المقاعد الحجرية المريحة من أمام الحوانيت — تلك المقاعد التى شعر التاجر بفقدائها بعد أن كان يجلس عليها ويقطع وقت فراغه وهو يدخل الشبك ويخيل إليه أن الوقت لن ينقضى . وقد يكون هناك من ضروب الإصلاح ما يعوضنا عن مثل تلك المقاعد أو غيرها . مثال ذلك الماء النقي والمجارى والدراجات وعربات الترام . بيد أن هذه الأشياء كلها قيحة لا روح فيها ولا تسلية . وما من شك فى أن حياة القاهرة قد أصبحت مليئة بالضجر والملل اللذين يثيران البأس منذ ذلك اليوم الذى دخل فيه الفرنجة هذه البلاد .

ويذكر لنا مستر مرديث تاونزند Mr. Meredith Townsend فى إحدى مقالاته الشائقة فى كتابه آسيا وأوروبا Asia and Europe ، كيف أن الحياة فى الهند كانت بديعة ومسلية للغاية قبل أن يطرأ عليها التغيير الذى جاء به الإنجليز . والكثير من هذا يمكن أن يقال عن الحياة فى القاهرة مع تعديلات ضئيلة . فما لا ريب فيه أن الحياة كانت شائقة متمعة فى تلك الأيام الغابرة التى لم تمسها يد التغيير والتحوير . لقد كان يقع فيها الكثير من الأحداث — الأحداث التى يراها الناس ويفكرون فيها ، أو ربما يفرون منها . وطالما حدثت هناك اغتالات ومذابح . غير أنه كان من السهل وقتذاك أن تغلق الأبواب الحديدية القوية من دون المالك أو المفارقة . وأسوأ من هذا كله

(١) مستشار الرى الانجليزى فى ذلك الحين .

دون السودانيين إذا امتشقوا الحسام . أما الآن فإن هذه الأبواب قد أزيلت ، ولم تعد هناك تلك المواكب الرائدة للفرسان في زيهم المسكرى الذى كان يضفى بهجة وبهاء أبنيا ساروا . وفى تلك الأيام كان يمكن لكل رجل على جانب من الدهاء والحظ أن يصل إلى ما تصبو إليه نفسه من جاه وسلطان — ذلك الجاه الذى تعجز القاهرة الآن عن تحقيقه بعد أن لبس العصر الحاضر ثوب الصدق والصرامة : فلقد كان الترقى فى ذلك الوقت متاحا للجميع ، وكان الباب مفتوحا على الدوام لكل من أوى القرة والدهاء والثروة . ماذا تكون إذن حوادث القتل أو السلب ، أو حتى المجاعات أو الأمراض التى كانت تنفث فى بعض الأحيان — ماذا تكون هذه لوقورت بما كان هنالك من فرص سانحة ، وأبهة غمة ، وأيام نائرة حافلة لم تكن لتقف عند حد ، كالم يكن يتطرق إليها السأم والملل ؟

هذا هو ما يجيش به قلب كل قاهرى أصيل . فأفكاره — سواء منها الخيرة أو الشريرة — تغاير أفكارنا من جميع الوجوه . فهو يرجع فى أصلها إلى العصور الوسطى ، شأنها فى ذلك شأن ما بهه ومعتقداته الدينية وتقاليد الاجتماع وطريقة حديثه وعدم اكترائه وتخفظه وإنكاره لما عساه أن يسبب له الضيق أو القلق . وإذا استثنينا الطبقة الرسمية ، أى طبقة الموظفين ، فإننا نجد الرجل القاهرى ما زال كما قصوره لنا قصص وألف ليلة وليلة ، حتى مدينته ما زالت تصطبغ بما كانت تصطبغ به فى العصور الوسطى . ولقد زال الكثير منها بفعل الزمن أو بفعل البدعة ، ومع ذلك فالزخارف الأوربية كالدخيل . ومن ثم نجد المدينة الإسلامية القديمة تسخر فى الوقت الحاضر وتتحدى تأثير الغرب . لقد أعيد بناء تلك المدينة المرة بعد الأخرى ، وكانت فى كل مرة تفقد جانباً من بهائها ؛ غير أنه قد تبقى ما من شأنه أن يرينا ماذا كانت عليه القاهرة منذ خمسمائة عام خلت . فالشوارع المزدحمة فى الأحياء القديمة ، وأشكال المنازل والأسواق التى لا يمكن أن تنسى ، وأهم من هذا وذلك الآثار التاريخية ؛ كل هذه تعود بنا إلى العصور الوسطى .

إن الغرض من هذا الكتاب هو أن ألبس آثار تلك المدينة من المعانى ما يكسبها قيمة ويزيد من شغف القارى بها . فكثير من مباني القاهرة ، وعلى الأخص تلك المساجد التى ترجع إلى عصر المماليك الأخير آية من آيات الجمال ، ويمكن أن تعتبر فى حد ذاتها تحفاً فنية رائعة بصرف النظر عن تاريخها . غير أن هناك فى الوقت

نفسه كثيراً من القصور البالية ، والآباء المتهمة ، والجدران المتداعية ، والنقوش الدارسة - تلك الآثار التي لاتمت إلى فن العمارة بصفة بل سنظل لا نحمل أى معنى حتى نكشف الستار عن تاريخها . ولقد حاولت في أثناء تتبعى نمو القاهرة أن أكتب آثارها جواً من التاريخ ، فالطوبوغرافيا المجردة لا تستهوى غير عالم الآثار ، ولا يمكن أن يشغف العامة بها ما لم يمزج هذه الآثار بالوان الحياة التي كان يحياها سكانها وطرق الحكم التي كان يسلكها حكامها . ولقد حاولت جهدي هنا ألا أخرج عن نطاق بحثي ، وهو وصف حياة المدينة وتطور نموها . فليس هذا إذن تاريخاً عاماً لمصر ، فكثيراً ما أغفلت أشياء كثيرة كنت أدعها تمر لأنها لاتمت إلى تطور هذه المدينة بصفة .

أما المراجع التي اعتمدت عليها فسوف يأتي ذكرها دائماً في أسفل الصفحات . وإن أهم مصدر عربي هو طبعاً كتاب الخطط للقرنيزي الذي أشرت إليه كثيراً . وقد كتب في مستهل القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) ، واستعمل كثيراً من المؤلفات التاريخية والطوبوغرافية التي يرجع عهدها إلى أبعد من هذا التاريخ بكثير ، والتي لم نكن لنعرف عنها شيئاً لو لم يتناولها هو بالبحث والتحصيل . ولا أجدني في حاجة إلى الثناء على دقة بحثه وتصويره للقاهرة ، فإن هذا معروف في العالم أجمع . وهناك غير القرنيزي كثير من الكتاب مثل : المسعودي ، وناصر خسرو ، وعبد اللطيف البغدادي ، وابن جبير (الذي يرجع الفضل إلى صديقي مسترجاي لي سترينج Mr. Guy Le Strange مؤرخ بغداد الذي يعتبر أكبر حجة عندنا في جغرافية الخلافة في الحصول على هذه المقتطفات) ، وابن سعيد ، وابن دقاق ، والسيوطي ، وأبو الحسن ، والإسحاق ، والجبرتي ، وكل هؤلاء لهم آثار شخصية لها قيمتها . كما أن لكتاب لين Lane ، القاهرة منذ خمسين عاماً ، Cairo Fifty Years Ago فضلاً في تصوير هذه المدينة كما كانت عليه في سنة ١٨٣٥ ، أي قبل أن يبدأ محمد علي ومن بعده إسماعيل حركة إدخال التقدم الأوروبي إليها ، ثم في تغيير مظهر هذه المدينة . أما فيما يتعلق بعلم الآثار فياني مدين إلى أبحاث كل من ماكس فان برشم Max Van Berchem ، ورافيس Ravaisse ، وكازانوف Casanova . ولا بد لي من أن أشير إلى اعراض قد بوجهه إلى فيما يتعلق برجوعى إلى مؤلفاتي ، وهو أمر يثير الاشتزاز . وأجدني مضطراً إلى الإشارة في شيء من التواضع إلى مؤلفاتي .

فلقد كنت أكتب على الدوام في موضوع القاهرة وقتها وآثارها وتاريخها منذ وقت بعيد . ومن ثم كان لا بد لي أحيانا من أن أعيد ما كتبت من قبل . حقاً إنني عندما دونت ما كنت أريد أن أقوله في أحسن عبارة أستطيع أن أصورها بها ، فإن ذلك يكون أكثر تكافماً فيما يظهر أن أحاول البحث عن صيغة أخرى مختلفة للتعبير عما أريد . لذلك اقتبست - ولكن في إقلال - من كتابي « فن العرب في مصر ، القاهرة ، ، Cairo Sketches ، (الطبعة الثالثة نشرت سنة ١٨٩٨) ، وكتابي « تاريخ مصر في العصور الوسطى ، History of Egypt in the Middle Ages » (نشر سنة ١٩٠١) ، ومقتطعاتي التي لم تذيل على صفحات هذا الكتاب يجب أن تفهم على أنها مأخوذة من إحدى هذه الكتب ، وعلى الأخص من كتاب « تاريخ مصر في العصور الوسطى » ، الذي يستطيع القارئ أن يرجع إليه إذا أراد المزيد من الناحية التاريخية . ولو كان هناك كتاب آخر باللغة الإنجليزية يتناول الكلام على مثل هذه الناحية ، لأشرت إليه في سرور وفخر . أما فيما يختص بالتاريخ القبطي فيستطيع القارئ إذا ما أراد التوسع أن يرجع إلى كتاب مستر بتشر Mr. Butcher « تاريخ الكنيسة المصرية ، "Story of the Church of Egypt" (نشر في سنة ١٨٩٧ في مجلدين) ، وهو كتاب حافل بعبارة العطف والتقدير للقط ، ولكنه عرضة للنقد فيما جاء فيه عن علاقات المسلمين .

وقد عملت على عدم كتابة الاسماء العربية بحروف أجنبية حتى لا أضايق القارئ . وبدلاً من ذلك عمدت إلى تشكيل الاسماء بحيث تظهر المقاطع الهامة من غير الهامة ، والحروف المتحركة تنطق كما في اللغة الإيطالية ، وحرف G قد استخدم ليُمثل الحرف العربي الساكن الذي ينطق في القاهرة مخففاً (كما في get) وفي البلدان الأخرى معطشاً (مثل z في jet) . ويستطيع أولئك الذين يشوقهم معرفة ترجمة الاسماء العربية على حقيقتها أن يرجعوا إلى الفهرس الذي يراه القارئ في آخر الكتاب ، حيث كتبت كل كلمة عربية بالحروف الرومانية وفسرت تفسيراً يساعد على فهمها .

أما الصور فقد راعيت في اختيارها أن تكون بحيث توضح بقدر الإمكان مدينة القاهرة قبل أن يتسرب إليها التغيير الأوربي . ومن أجل ذلك فإن أحسن

الصور هي تلك التي رسمها روبرت هي Robert Hay بين سنتي ١٨٢٦ ، ١٨٣٨ ، وزميله أوين كارتر Owen B. Carter حول سنة ١٨٣٠ ، عن الصور الأصلية المحفوظة في الغرفة التي أودعت فيها الصفائح المنقوشة بالمتحف البريطاني . وقد طبع بعضها على الحجر في كتاب هي « صور القاهرة » Hay's Illustrations of Cairo . فهذه الصور تمثل بقايا العصور الوسطى أصدق تمثيل بحيث لا يمكن للصور الحديثة أن تجاريها . ولكن مسترج . ا . سمنجتون J. A. Symington . قد ذيلها بصور أخرى تم عن مهارة لا يمكن أن يبلنها الرسامون الذين عاشوا قبله .

وبجدري في ختام هذه الكلمة أن أشير إلى ما ذكرته في الفصل الأخير من هذا الكتاب عن موضوع لجنة حفظ الآثار العربية Commission for the Preservation of the Monuments of Arab Art . وإلى بقطة هذه اللجنة وجهودها التي لم تقتر طوال العشرين سنة الماضية ، يرجع الفضل في حفظ المساجد وغيرها من بقايا المباني الإسلامية من التهدم والزوال بقدر ما تسمح به الأحوال . فلم يحدث على الإطلاق في تاريخ القاهرة أن حفظت آثارها وأصبحت بمأمن من كل عيب يمثل هذه الصورة . ومن ثم كان لزاما علينا أن نعترف بفضل كل عضو من أعضاء هذه اللجنة التي تقدر جهود أفرادها . ومنذ أن استغل لورد كرومر نفوذه في تحسين حالة اللجنة المالية ، استطاعت في الخمس سنوات الأخيرة أن تقوم بأعمال عليية واسعة النطاق لحفظ هذه الآثار على أسس عليية . وكل من يزور القاهرة يستطيع أن يتحقق من نتائج هذه الأعمال ، وأن يفحص عن المجموعات التي تم جمعها تحت إشراف كبير مهندسيها ماكس هرز بك Max Herz Bey في متحف الفن العربي .

دبلن — ٣١ يناير ١٩٠٢

ستافلي لينبول

الباب الأول

المدينتان

القاهرة الأروبية والقاهرة المصرية - مناظر شرقية - التجار المحافظون - متاجرهم -
منازلهم - باب زويلة - أحد المنازل الخاصة - التندرة - حجرات النوم - الحياة اليومية -
حياة النساء - الأعياد في القاهرة - الحسين - شارع محمد علي - مشهد من القلعة

هنالك قاهرتان مختلفتان ، تتميز إحداهما عن الأخرى ، ولو أنهما لا تختلفان كثيراً في الموقع . أما الأولى فهي القاهرة الأوربية ، وأما الثانية فهي القاهرة المصرية . وكانت هذه الأخيرة القاهرة - أي متصرة - في يوم من الأيام ، وضع أساسها عند مطلع كوكب المریخ . أما الآن فإن انتصارها قد قل كثيراً بل لقد أصبحت بلا ريب مغلوبة على أمرها إلى حد أنها صارت لا تعرف إلا بالأحياء الوطنية أو بالأسواق حسب الطريقة الهندية . والقاهرة الأوربية في الواقع تكاد لا تعرف شيئاً عن أختها القاهرة المصرية مدينة العصور الوسطى . حقيقة إن آلاف السائحین يركبون الخیر ليزوروا الأحياء الوطنية في فصل الشتاء ، غير أن هؤلاء لا يمتنون إلى القاهرة الأوربية بصفة . فهم كالطير التي لا تقسم في مكان واحد على الدوام ، إنما هم نزلاء زائرون لفترة قد تقصر أو تطول . أما المواطن الحق فهو ذلك الذي يقيم في حي كالإسماعيلية في منزل ظليل بفيه الحر ، به شرفة يتخللها النسيم ، ويحيط به مئات من القصور المريجة التي تماثلها . وهذا المواطن لا يركب الخیر كما يفعل السائح ، بل قد يذهب إلى الأسواق وهو مكروه تحت إلحاح زائر يشوقه أن يرى مثل تلك الأماكن الغريبة عنه . غير أنه حتى في القاهرة الأوربية نرى دلائل على أن ثمة قاهرة أخرى - قاهرة إسلامية شرقية - لا تبعد عن القاهرة الأخرى كثيراً . ولندع الجالية البريطانية لا تقترب البتة بعضها من بعض ، وتجاهل الأحياء الوطنية أو تنظر إليها على أنها مجرد أمور تستدعي حكومة عادلة وإصلاحات حكيمة ، ولا يمكنها أن تذهب بعيداً ، أو حتى تفتح أذانها في داخل حجراتها دون أن تدرك أنها تعيش في عالم شرقي - ذلك العالم الذي لا يمكن بدونه أن يكون لها وجود .

وأنت إذ تذهب إلى مكتب البريد ، على مسيرة بضع دقائق من معظم فنادق المدينة لا تلبث أن ترى مظاهر الامتزاج بين الشرق والغرب .

هناك تجد ممرضة ألمانية مع الابنة الصغيرة للأسرة تسأل من نافذة الخطابات الواردة عن خطابات مرسلة باسمها ، وفي المكتب المجاور تجد نيكسا مسنا يرتدى القباء والعمامة يصرف حوالة من النقود أو يرسل خطابا مسجلا . وعلى طول الطريق تجد صفا من كاتبي الخطابات جالسين إلى مكاتبهم في غير قلق أو ضيق في انتظار عملائهم من غير المتعلمين . أما الشوارع فإنها تصخب بعربات الأتوبيس والزمام ، وتضج بالأصوات المزججة المنبثة من أبواب السيارات . وأما هؤلاء الذين يجلسون تحت المظلات على المقاعد فإنهم ليسوا من الأوربيين ، وإنما هم مصريون — لغيف من الأتندية والكتبة والتجار والمشايخ ، وهم عادة من الفلاحين الأغنياء الذين أتوا إلى المدينة لقضاء بعض المصالح ، وركبوا من بولاق أو قصر النيل . وأما أفاريض الشوارع — وهي دائما غير مهيأة وملطخة بالآحوال بخلاف الطرق التي تعني بتنظيفها الفتيات الصغيرات — فإنها تشهد مزيجا عجيبا من العناصر الشرقية والغربية . وعلى الأخص اليونانية والألمانية والإيطالية . فالنساء السودانيات المتحجبات بالبراقع الناصعة البيضاء التي لا تكشف إلا عن حواجبين القائمة وعمونهن السود ، والفتيات المصريات في أردتين الزرق وبراقعهن السود التي تتدل في غير إحكام وتكشف عن الرقبة الجميلة والوجنة اللطيفة ولا تحجب إلا الفم — ذلك الجزء الذي تعمل جميع نساء الشرق على إخفائه ، والبدن وقد أخذوا يذرعون الطريق وحول رؤوسهم الكوفيات المخططة ، وقطار الجمال المحمكة الوثاق المحملة بالبرسيم — علف الدواب الأول في مصر — يسوقها صفار الصبية ، وكتبة الحكومة الأصاغر ، أو الأتندية ، وقد ارتدوا الحلة الإسلامية والطرش وامتطوا ظهور الحمر — كل هذه الطبقات المختلفة يتكون من مجموعها جمهور متدقق عتشد ، ولكن على جانب من دماثة الخلق . كما أنك تستطيع أن تشم هنا وهناك رائحة الشرق الخاصة التي تنضج أمارتها في كل مكان .

وحتى الأحياء الأوربية لا تزال تصادف فيها مناظر الشرق وتسمع أصواته . فانت إذ تطل من نافذة غرفتك في الفندق الذي تقيم فيه ، تشاهد رجلا جاثلا ينشد

على ربابته أنشودة ، ويحمل إليك أنعام البلد الأصيلة . ثم لا تلبث أن تسمع أصواتاً أخرى كأصوات الأطفال الرضع تنبعث من صنوج و الشربتل ، الجوال الذي يحمل على جنبه إناء زجاجياً كبيراً يصب منه شرباً من الأرز و السوياء ، أو من عصير البرتقال ، في تلك الأوعية النحاسية التي لا ينفك يوقع عليها بين لحظة وأخرى بدون ملل ، أجراساً وأنعاماً تسترعى أسماع المارة . وفي المربع الأخير من الليل لا نعدم أن نسمع من أصوات الشرق ما يقضّ عليك مضجعتك . من ذلك تلك النغمات التي تنبعث من قرع الطبول و تنبثك بأن حفلاً للزواج يحوي شوارع المدينة . وإذا تأخذك الرغبة أو حب الاستطلاع في استجلاء الأمر ، حينئذ تشاهد لوئاً من تلك الألوان التي تصطبغ بها مدينة القاهرة ، والتي يمتزج فيها القديم بالحديث بصورة تدعو إلى الدهشة . وفي بعض الأحيان قد ينضم إلى هذا الاحتفال بالزواج احتفال آخر بالختان مراعاة للاقتصاد . فتجد موكباً حافلاً تتقدمه علامة الحلاق الذي يقوم بعملية الختان ، وهي عبارة عن إطار خشبي مرفوع إلى أعلى يتبعه اثنان أو ثلاثة من الجمال المحملة بأهلي الأشياء وأحسنها ، والتي تستأجر في مثل هذه المناسبات . ويجلس على كل من هذه الجمال طبال . وهذه الجمال من شأنها أن تمد الطريق لما يتبعها من عربات ملوثة بصغار الأولاد ، كل واحد منهم يمسك بمندبل نظيف ناصع البياض وضعه على فمه ليقيه من الشيطان ويحفظه من العين الشريرة ! ثم تأتي عربة منفصلة مغطاة من كل جانب بشال كبير مصنوع من الكشمير ، يمسك به من أسفل ويعمل على إحكامه أخوات العروس المحبوسة وغيرهم من الأقارب ، ويتبع ذلك عربات أخرى تحمل سائر جمهور المشاركين في الفرح والسرور . وقد يحدث في بعض الأحيان أن تحمل العروس في هودج مغطى بشال كشمير وتحمل على جملين يسير أحدهما خلف الآخر . وتكون رقبة الجمل الخلفي تحت الهودج ، ومن ثم يكون في حالة لا يحسد عليها من عدم الراحة ، شأنه في ذلك شأن العروس نفسها التي تصاب في العادة بدوار يشبه دوار البحر من جراء حركات الهودج التي لا تنقطع . وقد بدأ كانت العروس تسير في الطرقات تحت مظلة يحملها أصدقاؤها . أما الآن فلم يعد ذلك من التقاليد ، بل إننا نجد العربات الأوربية تحمل حتى محل الهودج . أما الشال المصنوع من الكشمير وكذلك الخمار فلن يزولا سريعاً . وبما يلاحظ على المرأة المصرية أنها في العادة — أو على الأقل حينما تظهر في المجتمعات —

متواضعة إلى حد كبير . فهي تحتل نظرة الغريب في سرعة سحرية حتى ولو بدا للجميع أنها تنظر إلى الناحية الأخرى من الطريق . وفي الحال نجدتها تحكم وضع الثقاب على فها وأنفها . وإذا ما أتيج لها أن تلقاك وجهاً لوجه ، فإنها لا تسبل عينيها الواسعتين كما تفعل الغريبات ، وإنما تحولهما عنك في بطن . يأخذ بمجامع القلوب .

وحالما تترك الحى الأوربي حيث الفندق الذى تنزل فيه وتبتعد عن واجهات المحال التجارية والتجار اليونانيين في شارع الموسيقى ، حينئذ تبدو المدينة الشرقية لك على حقيقتها وبأخذ سحرها يتسلط عليك . وإنه لمن السهل تماماً أن تضل الطريق في أنابا شوارع القاهرة الإسلامية القديمة ، حتى إنك لا تستطيع أن تستدل على الطريق إلا بمعاونة أحد المارة . إن جانباً كبيراً من القاهرة لم يطرأ عليه فساد يذكر ، فهي ما زالت إلى حد كبير مدينة « ألف ليلة وليلة » .

وفي أحد الأركان نجد حانوتا فيه حلاق شيخ ياشر عمله وهو يسرد مغامرات إخوته التاسعين على من يسوقه سوق الحظ إلى الجلوس على كرسبه . وفي تلك اللحظة نفسها قد نجد ثلاثة من الشحاذين يقومون بتسليمة البوابة وأخواتها الجيلات ويقصصون كيف أن المصائب كانت تلاحقهم على الدوام . وإن أنت انتظرت حتى يرخي الليل سدوله فإنك قد ترى هارون الرشيد الطيب نفسه — على الرغم من أنه عاش حقاً في بغداد — وهو آت في إحدى جولاته الليلية الخفية ، يصحبه جعفر الوزير ويتقدم الإثنين مسرور الخادم ليفسح لها الطريق . ومن السهل علينا حينما نجد أنفسنا في تلك الشوارع البعيدة عن الأحياء الأوربية ، أن نتصور أننا نقوم بدور تمثيل في رواية « ألف ليلة وليلة » ، تلك الرواية التى أعطينا وصفاً دقيقاً للقاهرة وسكانها كما كانت في العصور الوسطى وكما هى الآن إلى حد كبير . وبما يسهل علينا ذلك التصور ذلك التهدم الذى نراه في كل مكان . فالمنازل الشرقية المتداخلة التى لا يفكر أحد في إصلاحها ، هى بطبيعة الحال مساكن المغاريت والجن التى تبعث عنها كل ساكن يخشى الله . غير أنه قد يكون هناك أحيانا في المباني المتهدمة من الآثار ما يعود بنا إلى العصر الذهبى للفن والثقافة العربية . فالجوامع والمدارس وبقايا القصور المتهدمة كلها أمثلة بيّنة لما كانت عليه الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة الأرجاء من تقدم في فن البناء في حقبة من الزمان . حقيقة إن دمشق وأصبهان وأجرا ودلهى وقرطبة وغرناطة وبروسة والقسطنطينية — كلها تملك الكثير من

عناصر الفن ومظاهر أساليبه بما تقتدر إليه القاهرة ، وهي توسع وتكمل معلوماتنا عن الفن العربي . غير أننا لو نظرنا نظرة خالصة إلى ذلك الفن من حيث نقاؤه دون أن نغفده الزخرفة الآلية كما حدث في قصر الحمراء ، أو الزخرفة الزائدة عن الحاجة كأنشاهده في دلي لوجب علينا أن نقوم بدراسة جوامع القاهرة ومشاهدها .

ومن حسن الحظ أن نحفظ الشرق قد أبقى لنا على الجانب الأكبر من المدينة القديمة بما تحويه من أطلال رائعة برغم عدم تنسيقها . وهناك بطبيعة الحال منازل جديدة ووجهات أعيد بناؤها بل وإطارات النوافذ من الزجاج . فالمشريات الفاخرة بصنعها الممقد المقتن قد اخفت جميعها تقريباً وبدأ يحل محلها ذلك الطراز الإيطالي الحديث ؛ كذلك تلك المقاعد الحجرية التي كانت أمام واجهات المحال التجارية قد اخفت تماماً وحلت محلها المواقف الجديدة للعربات . غير أن الصيغة العامة للشوارع لم تتغير تغيراً جوهرياً في السنوات الأخيرة . فالناس الذين يزدحمون في الأزقة الضيقة ، أو يجلسون في حوانيتهم الصغيرة لاستقبال زبائنهم - كل هؤلاء لم يطرأ عليهم تغيير كبير ، فهم يلبسون كما كان يلبس أسلافهم منذ أجيال . كما أن أفكارهم وثقافتهم لم تتعد ما كانت عليه أفكار أسلافهم وثقافتهم ، على الرغم من أن المدارس الجديدة تعمل دائماً على نشر الأفكار الحديثة . ومع هذا فهم لا يزالون على ما عرف عنهم من اللين والوداعة اللتين عرفوا بهما من قبل . أما التعبير الحقيقي فإنه يتجلى لنا في اختفاء الشُّبْك - ذلك الأنبوب الطويل ، الذي يحوى الطباقي وغيره من الأعشاب ، والذي كان يستخدمه الناس كضرورة من ضرورات الكيف وإحلال اللعائف محله . هذا وما يزال أنابيب جوز الهند (التارنجيل) تستخدم حتى الآن لتدخين الحشيشة بين الطبقات الدنيا . وبلا حظ أن التجار يمثلون العنصر المحافظ في مصر كما هو الحال في كل بلد آخر . أما الطبقات الراقية فإنها تتحرر من شرقيتها عاماً بعد عاماً في عاداتها ومظهرها الخارجي . ذلك أننا نراهم يرقصون مع الراقصات ، الكافرات ، ويرتدون الملابس الأفريقية وينعمون بمشاهدة المرحيات الفرنسية الصغيرة التي تمثل في حديقة الأزبكية . بل إن الانداح التي يشربون فيها القهوة تصنع في أوروبا . ولولا الطربوش الآخر وبعض الصفات العقلية والخاصة التي يتميزون بها - والتي لا محل لذكرها هنا - لكان من الممكن أن يبدو الرجل المصري كما يبدو الفرنسي للجمهور الباريسي كأنه واحد منهم .

فالتاجر إذن هو الذى يحمل الماضى إلى أذهاننا ، وهو الذى يحافظ على العادات والتقاليد القديمة ، وهو الذى يمشى فى الأزقة القديمة . إن ما يحدث فى سائر أنحاء العالم لا يحدث عادة فى الشرق إلا فيما ندر . وبينما أخذ موكب التقدم والرفق يسير بخطى واسعة فى الغرب ، إذا بالتاجر الفاهرى لا يحرك ساكناً ولا يحاول على الإطلاق أن يلحق به .

وسنحاول الآن أن نلقى نظرة على هذا المخلوق الساكن وهو فى إحدى طرقات القاهرة الهامة . فنحن إذ نترك الحى الأوربى وراء ظهورنا ، ولا نهتم كثيراً بآبائك الحوانيت البونانية والإيطالية فى الموسكى الجديد ، حينئذ نتجه يميناً إلى الغورية وهى من أكبر شوارع القاهرة ، ولو أنها من الأزقة التى يطلق عليها شوارع أو طرق عامة . فتل هذا الشارع نجد على جانبيه حوانيت صغيرة هى أشبه ما تكون بالصناديق ، وهى فى الوقت نفسه تكون حدود الشارع فى صورة منظمة وغير منقطعة ، اللهم إلا حينما يعترضها مدخل أحد المساجد ، أو إحدى المبضآت العامة ، أو تقاطع شارع آخر . حينئذ فقط يخرج صف الحوانيت على نظامه الدقيق . غير أنه ليس هناك مدخل خاص أو نافذة مما اعتدنا أن نشاهده فى أوربا من شأنه أن يشذ ويفسد منظر الحوانيت المصطفة . ثم إنك تجد بضعة حوانيت متجاورة ولمسافة طويلة يتجر أصحابها فى نفس السلعة - فأتسكن هذه سكر نبات وتلك أحذية للفرقة (شباشب) . ولا شك أن لهذا النظام مزاياه . فإذا كان أحد التجار يبيع بأسعار مرتفعة ، فقد تجد جاره يبيع بسعر أرخص منه . ثم إن التنافس المستمر بين التجار المتجاورين من شأنه أن يؤدى إلى خفض كبير فى الأسعار . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه يجب أن نعتزف بأنه ليس أشق علينا من أن نشترى الرداء من سبعة حوانيت فى أماكن مختلفة - فنشترى القماش من مكان ، والأزرار من مكان آخر ، والخيط من مكان ثالث ، والبطانة من مكان رابع ، ثم نضطر إلى المسير إلى مكان آخر مختلف تماماً حيث نجد خياطاً لتفصيل هذا القماش وصنع الرداء المطلوب منه . وإذا كان من الضرورى أن نساوم كل بائع من هؤلاء ، وقد تصل المساومة إلى حد شرب القهوة أو التدخين مع البائع ، فإننا نستطيع أن نضع أنفسنا فى عداد الأشخاص المشهود لهم بالنشاط وسرعة البت فى الأمور إذا استطعنا أن نشترى رداء على هذا النحو فى صيحة يوم واحد .

وفي واحدة من تلك الخزانات التي تقوم مقام الحوانيت ، قد نجد ذلك التاجر الذي نبهت عنه وقد لا نجد . فقد يتصادف أنه ذهب ليؤدي فريضة الصلاة ، أو ليزور صديقاً له ، أو ربما لم يشعر بالليل للعمل في ذلك اليوم . وفي إحدى هذه الحالات نراه يعلق مصراع النافذة . ومن حيث أنه لا يسكن بالقرب من متجره ، وحتى لو كان كذلك ، فليس ثمة جرس أو باب خاص أو مساعد يمكن أن يدلنا عليه . وعلى ذلك فإن علينا أن ننظر هناك إلى ماشاء الله ، حيث نسأل ولا من يجيب . وقد يخبرنا جاره التاجر في اطف وأدب بأن ذلك الرجل الممتاز الذي نسأل عنه قد توجه إلى المسجد . وحينئذ قد نتعرف إلى هذا التاجر الجديد ونطلب منه ما جئنا لطلبه من زميله .

إن صديقنا الجديد هذا يجلس في مكان يبلغ كل من طوله وعرضه خمس أقدام ، أما ارتفاعه فقد يتجاوز ست أقدام بقليل . والمكان كله يرتفع عن الأرض بمقدار قدم أو قدمين . ومن الغريب أن صاحبنا استطاع في مثل هذا النطاق الضيق أن يضع جميع السلع التي يظن أنه يستطيع بيعها ، كما أنه استطاع أن يترك مكاناً لنفسه ولعملائه حينما تصل المساومة معهم إلى حد الجلوس وشرب القهوة والتدخين . وبطبيعة الحال إن ما يودعه هذا التاجر في متجره لابد أن يكون محدوداً جداً . غير أن زملاءه التجار على استعداد لأن يقدموا إليه يد المساعدة على الدوام . وأنت حينما لا تستطيع أن تجد ما تحتاج إليه في حدود حيطانه الأربعة ، فإنه لا يعدم أن يدعك تذهب بعد أن يكون قد قدم إليك إبريقاً من الشاي العجى ، بينما يذهب هو ليأتي إليك بطلبك من عند أحد زملائه التجار المجاورين .

وبينما أنت تشرب القهوة ذات النكهة العطرية وتشاهد الجوع المحتشدة من المارة ، إذا بيضعة جمال محملة بالدرس أو التبن أو البرسيم ، تمتشي بخطوات متناقلة ، حتى إنه ليخيل إليك أنها سوف تنتزع كل شيء وكل شخص من مكانه ، وتجد سكان المدينة المحترمين راكبين حميرهم الشهب أو السمر ، وأولئك الصبية الذين لارحة ولا شفقة في قلوبهم وهم يحرون وراءها ، فيحملون هذه الحيوانات على أن تمرع في السير يمنة أو يسرة وهي تلتوى في غير هواذة كما لو كان قد وضع في وسطها مفصلة كقفلة الباب . أما المرأة فانهم يركبون العربات التي يجرها جوادان ، ومن أمامهم عداؤون يلتهون من فرط التعب ويفسحون لسادتهم الطريق . وهم ينادون بكل ما أوتوا من

قوة وصوت مرتفع : « شمالك يا ولد ! » « يمينك يا ست ! » « افتح عينك باعم ! »
وما إلى ذلك . وتجيد النساء . وقد حملن فوق دوسمن الصينيات ومن فوقها ألوان
الطعام ، والسقاء وقد حمل تحت ذراعيه الماء في قربة مصنوعة من جلد الماعز ، كما
تشاهد جمهوراً آخر محتشداً من الرجال والنساء قد ارتدوا جميعاً رداء أزرق اللون
وجاءوا ليقضوا بعض الحاجات ، غير أنهم يسرون ويقضون حاجتهم في تأن ومهل .
فعلى الرغم من أن الجمهور قد يبدو محتشداً متدفقاً في جملة إلا أنه يتحرك في
بطء ، شأنه في ذلك شأن كل شيء في الشرق .

ثم يعود صاحبنا التاجر يحمل الشيء الذي ذهب للبحث عنه عند زملائه التجار .
فتقبله بادی الأمر ولكن في شيء من الحذر . ثم لا تلبث أن نسأل ذلك السؤال
المعهود : « كم ثمنها ؟ » فيكون الجواب عادة ضعف الثمن المعتدل . ومن ثم نقب
على ذلك الثمن الباهظ بقولنا « يا لله ! » (من فداحة الثمن) ، ثم لا تلبث أن نقترح
ثمناً يكون في العادة نصف الثمن الذي طلبه التاجر ، غير أن صاحبنا يهز رأسه ، وينظر
إلينا في شيء من اليأس وعدم الرضا ! ويقول لنا إنه لم يكن يتنظر مثل هذا القول
من أناس في مثل مظهرنا ، ثم يضع السلعة جانباً ويجلس ليشعل سيجارة جديدة . وبعد
مساومة أخرى غير مجددة ، نادى صاحب الخير وتأهب للرحيل . حينئذ يلين
جانب التاجر ويعرض علينا ثمناً أقل من ذلك الذي عرضه في بادئ الأمر . ولكن
على الرغم من هذا فإننا نصمم على الرحيل ونأخذ في الابتعاد فعلاً . فيتبعنا ويبدى
شيئاً من الموافقة على الثمن الذي عرضناه عليه . وهنا نعود إلى المتجر ، وندفع الثمن
ونسلم ما اشتريناه ، ثم ننصرف بعد أن ندعو الله أن يحفظه .

أما إذا لم يصل بنا الاتفاق إلى ما نقدم ، فإن المساومة قد تستمر حتى نصل إلى
منزل صاحبنا التاجر . وهذا المنزل هو في العادة صورة لما عليه منازل الطبقة
الوسطى في القاهرة ، والواقع أن مسكن الطبقة الوسطى في القاهرة قد يتصادف أن
يكون في بعض الأحيان بمثابة قصر من القصور . ونحن في العصر الحاضر نجد الباشا
يحترف قصور النبلاء التي كانت في أيام المماليك موضع غر وإعجاب كثير من هم أحسن
منه . وزراء يؤثر الإقامة في « شارع رقم ٢٩ » — ذلك الطريق الذي لا ظلال فيه
— أو هنالك حيث المنازل الحديثة المصنوعة من القرميد ، والتي تشبه الجنان وتعرف
بـ « الإسماعيلية » . وهنا قد نجد التاجر يشغل في بعض الأحيان منزلاً من المنازل التي

كان يسكنها أحد البكوات الكبار في وقت من الأوقات — أولئك البكوات الذين كانوا يأمرون أتباعهم بالاصطفاف حينما يقتضى الأمر توجيه ضربة قاضية للوصول إلى العرش المتداعي الذى كان يقع دائماً في أيدي قواد أقوى الفرق . ولكن جميع منازل القاهرة القديمة قريبة التشابه إلى حد كبير ، ولكنها تختلف من حيث الحجم وكثرة الزخارف أو قلتها . وإذا كان منزل صاحبنا التاجر أفضل من معظم المنازل المجاورة له ، فإنا لا نرى إلا أن تتخير غرفة أو غرفتين من الغرف الفاخرة فيه نضاهى بينها وبين غرف المنازل الأخرى . ليسكنون لدينا فكرة واضحة عن ذلك المنزل .

إن الشارع الذى ندخله الآن يختلف كل الاختلاف عن ذلك الذى تركناه . فلقد كنا منذ لحظة وجيزة نظوف لنشترى من هذه الحوانيت ، حيث نشترى السلع الرخيصة في أحد أعمام القاهرة المزدهرة ، والتي تواجه ذلك البناء الفخم للجامع السلطان المؤيد المملوكى ، ذلك الجامع الذى تقوم منذ ثناء على باب قديم بديع يسمى « باب زويلة » ، ولو أن الناس في الوقت الحاضر يطلقون عليه عادة « باب المتولى » ، لأنهم يعتقدون أنه كان فيما مضى مقراً للقبط المتولى ، زعيم الأولياء في ذلك الوقت ، والذى يحوط حياته شئ من الغموض والإبهام . وهذا الولي المقدس له قدرة عجيبة في التنقل من مكان إلى آخر بحيث يكون خافياً على الأنظار . فهو يطير دون أن يراه أحد من أعلى الكعبة في مكة إلى باب زويلة ، وهناك يستقر في مخدع خلف الباب الحشبي . والمؤمنون بهذا الولي يسبحون وهم يرمون بجانب هذا المخدع ، على حين يدفع غيرهم الفضول إلى أن يختلسوا النظرات ليتحققوا هل الولي هناك حقاً . وإذا اتابك صداع فليس من علاج ناجع إلا أن تدق مسباراً في الباب ، والعلاج المحقق لآلم الأسنان هو أن تنزع السن الذى يسبب لك الألم وتضعه في نفس تلك البقعة المقدسة . ولربما كان انتزاع السن أو الضرس في حد ذاته علاجاً للآلم . غير أن الإيحاء يشتم منه رائحة الكفر والإلحاد . ومن ثم فإنه من الأفضل على أى حال أن ينزع الضرس ويثبت هناك ، حيث تجدد الباب يحفل بالكثير من النذور من أمثال هذه الأشياء الغريبة وغيرها . ولو كتب لهذه النذور جميعها النجاح لكان هذا القطب طيباً بارعاً من غير شك .

وهذا الشارع الذى يعترضه باب زويلة عريض بالنسبة لمدينة القاهرة ، ويحده

الحيوانات والجوامع والخانات والمبضات. وعلى عكس هذا تماما نجد الشارع الذي ندخل فيه الآن ، حينما نظرى زقاقاً ضيقاً ، ثم نتحرف لجأه نحو اليسار وهذا الشارع خالٍ من الحيوانات ، ولو أن به جامعاً صغيراً ، لهـلـه ضريح أحد الأولياء الموقرين ، ويقع فى أحد الأركان ، وقد طليت جدران هذا الضريح بمختلف الألوان من أصفر وأحمر أو أبيض وأزرق بما يضفى كثيراً من البهجة على الزقاق الذى يقع فيه . أما جانباً هذا الطريق الضيق فإنهما يتكونان من جدران المنازل الخلفية العالية البيضاء اللون ، والتي ليس عليها شىء على الإطلاق سوى النوافذ المنقوشة القريب بعضها من بعض . وهذا الطريق الضيق يتفرع منه بين الفينة والفينة زقاقات أخرى أضيق منه ، تمتد إلى مسافات بعيدة فى مدينة القاهرة ، وفى أفنية هذه الدور تكثر المشرقيات على حين لا نجد الكثير منها فى الطرق الواسعة الآهلة بالسكان . فالسكان فى العادة يحتفظون بالمشرقيات الجبلية للنوافذ الداخلية المنزل والتي تطل على الفناء أو الحديقة . ولكن فى الوقت نفسه نرى فى القاهرة شوارع غير قليلة حيث يقف المارة ويتأملون صفوف المشرقيات البديعة التي تضفى على المنازل بهجة وبهاء .

واسم المشرية ، مشتق من الأصل وهو القعدل ، يشرب ، — ثم استعمل للنوافذ المصنوعة من الأعمدة الخشبية الرفيعة المشبكة ، وذلك لأن أوعية الماء ذات المسام المصنوعة من الفخار كثيراً ما توضع عليها حتى تبرد بفعل الهواء . وفى أغلب الأحيان نجد هنالك مشكاة صغيرة نصف مستديرة تبرز من وسط المشرية لتوضع فيها « القعدة » أو الإبريق . والقطع الصغيرة الدقيقة التي تتكون منها المشرية ، يقرب بعضها من البعض الآخر بحيث لا يستطيع الجيران أن يروا من خلالها أى شىء فى داخل المنزل . غير أنها تحتوى فى الوقت نفسه على مكان كاف يسمح بتخلل الهواء إليه . فالمشرية فى الواقع مكان رطب الإنسان كما هو بالنسبة لقلل الماء . كما أن الجالس فيها يمكنه أن يرى الناس بالشارع من حيث لا يرونه ، فتستطيع نساء الحريم ، أن يشاهدن المارة دون أن يتمكن هؤلاء من رؤيتهن . ومع ذلك فهناك نوافذ صغيرة مناسبة فى المشرية يمكن فتحها إذا رغب أصحابها فى ذلك . وليس جميع نساء القاهرة الجيلات ممن يدعن المارة يمشون فى الطريق دون أن يأخذهن الزهر بأنفسهن فيفتحن النوافذ ليرى هؤلاء المارة أنهن جيلات حقاً .

وفى بعض تلك الحارات الضيقة نجد أنفسنا أمام مدخل دار يعلوه قوس ؛ وهنا

نزل من على الحمار ونقده في حلقة قريية . والباب الذى نقف أمامه خليق بالدرس في حد ذاته . فالجزء العلوى منه تحيطه النقوش العربية التى يتكون من مجموعها مربع مزركش في أعلاه . وهذه الزخارف تكسب الباب في العادة صورة بدبعة رائعة إذا قيست بالأبواب القديمة . وفي بعض الأحيان نجد على الباب الحشبي نفسه بعض النقوش العربية ، وقد نقش عليه ، الله الخالق الصمد ، لتبعد المرض والشياطين وعيون الحساد ، وتذكر ربّ الدار بالموت كلما عاد إليه . وليس هناك ناقوس ، لأن النبي قد أعان أن الناقوس آلة الشيطان الموسيقية ، وأنه لا يمكن أن تكون هناك ملائكة في مكان به ناقوس . وفي بعض الأحيان لا يكون للباب حلقة فنضطر إلى قرع الباب بيدنا أو بعصا . وفي العادة قد يستمر القرع بعض الوقت حتى يسمع سكان المنزل ، وهذه بلاد لا يعرف من عليها للعجلة أو للإسراع أى معنى . ألم يقل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إن العجلة من الشيطان ؟ وعلى هذا فانتا نسير على وفق ماجرت عليه الأمور في هذه البلاد ، ونوأسى أنفسنا بتلك الآلة الكريمة التى تقول ، إن الله مع الصابرين ، ، وفي نهاية الأمر نسمع صوتاً غريباً من الناحية الأخرى . إنه بواب الدار قد أخذ يحاول معالجة الباب ، فهو يحمل قضيباً صغيراً به أسنان نحاسية مرتبة ترتيباً خاصاً ، ويحاول أن يدخله في ثقب في طرف المتراس ، ومن هذه يتكون القفل والمفتاح في القاهرة .

وفي داخل الدار يمر ينعطف لجأة بعد خطوة أو خطوتين ، ويحول دون مشاهدة أى شيء في الداخل وأنت بالباب الخارجى . وفي نهاية هذا الممر نجد أنفسنا أمام فناء متسع به بئر للياه المالحه في أحد الأركان الظليلة . وفي أغلب الأحيان نجد شجرة عتيقة للجميز . وفي هذا المكان لا تنلبس دليلاً على أن ثمة حياة . فالأبواب مغلقة في إحكام إمعاناً في الغيرة والحذر ، والنوافذ تخبئ تلك الستائر الحشوية البديعة التى تروق عين الفنان ، وتغرى الكثير من الفؤاد باقتنائها . والفناء الداخلى لا يقل في هدوئه وسكونه عن تلك الأجزاء التى تطل على الشارع نفسه . وهنا لا نرى أية علامة لحياة هؤلاء السكان المنزلية . لأن غرف النساء منعزلة تماماً عن هذا الفناء ولا تطل عليه ، إنما تطل عليه غرف الرجال وحجرات الاستقبال وما إلى ذلك . والواقع أن هذا المكان الهادى منعش جداً حينما يأوى إليه المرء بعد

أن قاسى الكثير من الجلبة والصخب فى الشارع . حيثئذ يشعر المرء أن المهندسين المصريين قد أدركوا حسن الحظ ما تقتضيه الحياة فى الشرق . فهم يجعلون الشوارع ضيقة ، ويظلونها بالمشربيات البارزة حتى لا تصل أشعة الشمس المحرقة إليها ، كما هو الحال فى شوارع المدن الأوروبية الواسعة ، حيث تستطيع أشعة الشمس أن تنفذ إلى هذه الدور ، ولكنهم يجعلون المنازل نفسها فسيحة الأرجاء ، ويحيطونها بالحدائق والآفنية ، لأن حرارة الشمس لا تطاق فى الغرف فى أثناء الصيف ما لم يتخللها الهواء . إن فى المهندس الشرقى بخل فى أنه يبني لك منزل بحيث لا تستطيع أن ترى شيئاً من خلال نوافذ جارك ، وبحيث لا يستطيع جارك فى الوقت نفسه أن يرى شيئاً مما يدور خلف نوافذ منزلك . والطريق الواضح للوصول إلى هذه الغاية ، هو أن تكون الحجرات بحيث يحيط بها فناء واسع فسيح الأرجاء ، وأن تكون النوافذ محتجة بالستائر الخشبية المتشعبة التى تسمح لقبس ضئيل من النور أن يدخل ، وتدع قدراً وفيراً من الهواء يتخلل أجزائها ، كما يسمح بالنظر من خلال هذه النوافذ دون أن يرى الغرباء من المارة ما بداخلها ، والستائر الخشبية والفناء المنزول من شأنهما أن يعملتا على تحقيق ذلك النظام الذى يحتمه الإسلام بفصل الجنسين بعضهما عن بعض .

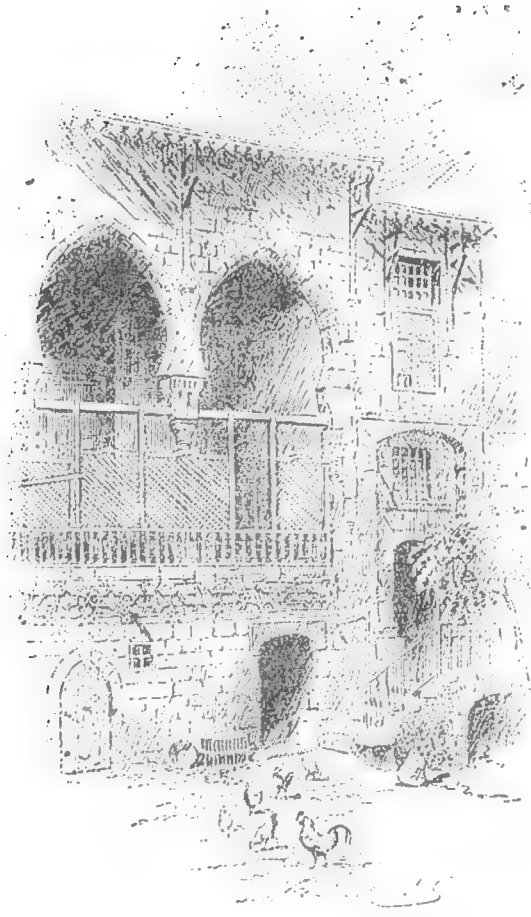
والحجرات السفلى التى تواجه أبوابها الفناء مباشرة ، وهى تلك الحجرات التى يستطيع الشخص أن يمشى فيها آمناً ولا يخشى أن يرى وجهها لاية امرأة فى البيت . وإلى إحدى تلك الحجرات السفلى يتقدمنا مضيفنا ، طالباً إلينا فى أدب جم أن نولى الشرف بأن نظهر كما لو كنا فى بيوتنا الخاصة . إنها حجرة الاستقبال ، أو المنطرة ، وهى بمثابة نموذج لما ينبغى أن تكون عليه الغرف فى العادة . والجزء الذى ندخل منه فى الحجرة منخفض عن بقية الأجزاء . وإذا كان المنزل أنيقاً حقاً ، فإننا نجد هذا الجزء المنخفض مغطى بالرخام المصنوع من الفسيفساء ، وفى وسطه نافورة تعمل على تبريد الهواء . وبإزاء الباب نجد قطعة مسطحة من الرخام محمّلة على أقواس ، حيث توضع قلال الماء وأقداح القهوة وأدوات غسيل الأيدي .

ونحن نخلع أحذيتنا الخارجية ونتركها على الجزء الرخامى من الحجرة قبل أن نطأ ذلك الجزء المغطى بالبسط ؛ وهناك نجد الأرض مغطاة ببسط من الصوف الخشن ؛ كما نجد بمحاذاة ثلاثة من أضلاع الحجرة ديواناً منخفضاً . وفى الحائط

الخطفي مشرّية بداخلها وسائد مريجة ، وبأعلاها نحو من ستة من النوافذ مكونة من قطع صغيرة من الزجاج الملون ، ومن حولها إطار من الطلاء ؛ فتكون بذلك على شكل زهرة . وهذه النوافذ من شأنها أن تسمح لنصف الضوء فقط بأن يمر من خلالها : أما الجانبان الآخران فطليان بالجير ، وليس بهما خشب أو قرميد ، بل أعدت بها بضعة أصونة خشبية منخفضة لها أبواب صغيرة تفتح بطريقة هندسية معقدة . وعلى جانبي كل صوان من هذه الأصونة كوة صغيرة مقوسة ، وفي أعلاه رف وضعت عليه الأطباق المزخرفة والأوعية وغيرها من أدوات الزينة المنقوشة . أما سقف الحجرة فيتكون من ألواح مثبتة في جذوع ضخمة ، ولونه في العادة أحمر قائم ؛ غير أنه في البيوت القديمة نجد في السقف غالباً بعض النقوش الجميلة ، ولا نجد في الحجرة مناضد أو كراسي أو مدفئات أو أى شئ من الإناث الذي يعرفه الأوروبي . وحينما يحين وقت الطعام ، يحضر خوان صغير مستدير . وإذا كان الجو بارداً قدم موقد أوقد فيه غم الخشب . وبدلاً من الكراسي نجد الفاهري يضع رجله من تحته على الديوان ويجلس القرفصاء — تلك الجلسة التي إذا فكر الأوروبي في أن يجلس مثلها أصيب بتشنج في الأعصاب .

وهناك في أغلب الأحيان غرفة استقبال أخرى مرتفعة عن الأرض ، ولا بد للوصول إليها من أن تصعد بضع درجات من الفناء الذي تعلل عليه الغرفة من خلال واجهة مقترحة ومقوسة . كذلك نجد في العادة منخفضة في الفناء تحت إحدى الحجرات العليا به ديوان يمكن الجلوس عليه حين يشتد الحر . ومن الفناء باب يطل على الدرجات التي تؤدي إلى غرف الحريم . وهنا لا يستطيع أى رجل أن ينفذ منه اللهم إلا رب الدار . وكلمة « حريم » معناها محترم على الرجال الآخرين ومحلل للسيد نفسه . وغرف الحريم هي الجزء المخصص للأسرة من الدار ؛ هناك يجد الرجل نفسه وسط أسرته حينما يعود إلى منزله طلباً للراحة من عناء عمله .

وإنه لمن العسير عليك حقاً أن تحاول إقناع البوَّاب بأن يستدعى لك سيده في تلك الفترة مهما كان الأمر الذي جئت من أجله إلى هناك . وفي جناح الحريم تجد في العادة حجرة كبيرة للجلوس تشبه المنظرة تسمى « القاعة » ، وكثيراً ما تكون هناك قبة في أعلى هذه القاعة . وأمام القاعة دهلز يستخدم للتبوية ، إذ أن الستارة



(فناء منزل)

التي تتدلى من فوق مكان مفتوح في سقف هذه الحجرة ، تحول نسيمات الريح الشمالية الباردة وتدفعها إلى داخل المنزل حين يشتد الحر . وهنا كثيراً ما ينام أفراد الأسرة خلال فترة الصيف .

وليس في المنزل الإسلامي حجرات خاصة للنوم ، أو على الأخص حجرات بها أثاث للنوم كما هو معروف عندنا الآن . ذلك أن هناك حجرات كثيرة منفصلة يمكن أن ينام فيها أهل البيت ، ولكن لم تكن أى واحدة من هذه الحجرات قد أعدت لتكون خاصة للنوم أو أن بها أثاثاً خاصاً به . وكل ما يلزم القاهرى في أثناء الليل حشية ومخدة ، وربما احتاج الأمر إلى بطانية في الشتاء وناموسية في الصيف . وكل هذه الأشياء يطويها في الصباح ثم يودعها في خزانة خاصة أو في حجرة جانبية . وعند ذلك تتحول حجرة النوم فجأة إلى غرفة للجلوس . وثمة جانب آخر هام في جناح الحريم هو الحمام ، وهو ليس عبارة عن حجرة خاصة بها مغسل للاستحمام مثبت فيها ، وإنما يشكون من عدة حجرات بعضها في داخل بعض ؛ وهذه الحجرات مصنوعة من الحجر الذي يستحسن بطريقة خاصة معقدة . وهذا الحمام أشبه ما يكون بالحمام التركي العام . وهو ليس إلا بيتاً كبيراً يتمتع بهذا الترف ؛ ويخرج أكثر الناس إليه للاستحمام إذا أبدوا ثمة اهتماماً بالاستحمام .

ويعيش سكان مثل ذلك البيت الذي وصفناه على وتيرة واحدة تثير الكآبة والملل . غير أنهم لحسن الحظ قلما يشعرون بأن حياتهم خاوية موحشة . فإن رب البيت يستيقظ مبكراً جداً ، لأن المسلم لابد أن يؤدي صلاة الفجر . وكل ما يطلبه قبل أن يتناول طعام الإفطار - الذي يكون خفيفاً في العادة - هو الشبشة وقدر من القهوة قبل وجبة الغداء الخفيفة . وهو عادة يدخر شيبته الطعام للوجبة الأساسية التي يعتمد عليها ، وهي وجبة العشاء التي يتناولها في العادة حالما تغرب الشمس . أما إذا استلزم منه عمله أن يتغيب عن المنزل يوماً أو بعض يوم ، فإننا نراه يباشر عمله في محله ، وهو يدخن بلا انقطاع تقريباً ، إما الليفة التركية التي اخترعت حديثاً أو الشبك التقليدى ذا القم البديع المصنوع من المنبر ، والجذع الطويل المصنوع من شجر الكرز ، والجفنة من الفخار الأحمر الملوّمة بالطباق الخفيف الجميل . أما إذا لم يكن لديه عمل خاص يشغله ، فإنه يروح عن نفسه بزيارة أصدقائه ، أو بالجلوس ساعات طويلة حاملة في ذلك الجر الدافئ في الحمام العام ، حيث البخار المتصاعد من

الأحواض التي يغلى فيها الماء ، وارتخاء المفصلات عند تدليكها ، وما يتلو ذلك من الاستراحة التي يتخللها الترطيب والتدخين وشرب القهوة — كل هذا له لذته الفائقة في الجو الحار. وإذا كان الرجل على جانب من الجاه أو المركز فلا يمكن أن يمشى على قدميه على الإطلاق ، بل إنه في العادة يركب حماراً ، أو حصاناً في بعض الأحيان . غير أن الحمار أكثر ملاءمة في الشوارع المزدحمة . وفي الواقع إننا نجد في الحمار المصري الأصيل حيواناً بديعاً قد يصل ثمنه في بعض الأحيان إلى مائة جنيه . نخطو به سريعة ومريحة في نفس الوقت . وليس من الصعب أن نكتب خطاباً على قبر بوس سرج أحد هذه الركائب الحسنة المشية .

وبينا يكون رب البيت في مقر عمله أو في إحدى زيارته ، نجد نساء المنزل يعملن لتضية الوقت في أحسن صورة ممكنة . وعلى الرغم مما هو شائع في كل مكان ، فإن المسلم قلباً يتزوج بأكثر من امرأة واحدة ، ولو أنه قد تكون له في بعض الأحيان علاقات أخرى مع فتاة حبشية أو جارية أخرى . ومع ذلك فإن جهوداً كثيرة تبذل الآن في سبيل مكافحة تجارة الرقيق ، وإذا ما تمخضت هذه الجهود حقاً عن نجاح تام في القضاء عليها ، مع أنها مباحة شرعاً ، فإن القاهري لن يتزوج بأكثر من واحدة . وكان الحديث السابق نفسه قدوة حسنة في هذه الناحية — شأنه في ذلك في غيرها من النواحي . والواقع أن هناك كثيراً من المسلمين لهم مثل أخلاق المسيحيين في هذه الناحية . وسهولة الطلاق هي مشكلة المشاكل . حقيقة إن الرجال لن يحتفظوا بزوجات عدة ، لأن هذا من شأنه أن يكلفهم الكثير في الإنفاق على منازل منفصلة أو منزل واحد ذي غرف متعددة . هذا إلى أن تعدد الزوجات لا يؤدي إلى الانسجام المنزلي . غير أن الواحد من هؤلاء لا يتردد في أن يطلق زوجته إذا تطرق إليه الضرر منها ، ويستبدل بها زوجة أخرى جديدة تحل محلها . ولقد قيل إن الخليفة علياً استطاع أن يتزوج ويطلق مائتي امرأة في حياته ، بل إنه حدث في بغداد أن ارتفع هذا الرقم العجيب على يد أحد رجال الصباغة فيها إلى رقم أعجب منه ، إذ تزوج تسعمائة امرأة ؛ وقد توفي هذا الرجل في سن الخامسة والثمانين . ولو أنه تزوج في سن الخامسة عشرة لكان زواجه قد أصبح بمعدل مرة في كل شهر طوال فترة السبعين سنة التي قضاها في الزواج . لقد كان الطلاق عند هذا الرجل من السهولة بحيث إنه لم يكن يرى أي ضير في الزواج من تسعمائة امرأة . ولقد قيل

كذلك إن امرأة تزوجت من أربعين رجلا، وإنها خفت من متاعب الاحتفال بزواجها إلى أقل حد، وإن ابنتها قد تملكه الأم حينما حار في التعرف على أبيه . ولم يكن أحد أمراء الصعيد في مصر بأقل من هؤلاء في هذا المضمار ، غير أن تلك العادة قد أمست في طريقها إلى الزوال^(١) .

ولعلنا نلتبس للنساء في هذه الناحية عذرا أكبر من الرجال . فبينما يستطيع الزوج أن يسمى وراء سعادته هنا وهناك ، إذا بالمرأة لا تغادر المنزل أو تنحرف عنه بل تعيش عيشة عملة على وتيرة واحدة . حقيقة إنه قد يحدث في بعض الأحيان أن تجتمع النساء في الحمام العام ويأخذن في الضحك والمرح ؛ وإن الصبغات التي تنبعث في أثناء الضحك تحمل الدليل على روح المرح التي تتميز بها الفتاة المصرية . وقد تخرج السيدة أحيانا في جلال وأبهة لتزور بعض صديقاتها ، فتركب حمارا كبيرا وترتدي ملادة واسعة من الحرير الأسود ، وتحجب وجهها عدا عينيها ، بحجاب أبيض اللون ، وهي تسير ، وبرفقها خادم أمين . وهذه الزيارات التي يبادلها الحريم هي كل ما تظفر به المرأة القاهرية من مباحج ومرور . هنالك نسمع ثرثرة لا حد لها ، كما نشاهد ألوان الحلوى وتتفقد أدوات الزينة . وفي بعض الأحيان قد نشاهد هناك مغنية أو راقصة . هذا هو كل ما يدخل عليهن السرور . وليس لأولئك النسوة ثقافة من أى نوع ، وهن لا يستطعن أن يعرفن من المنع العقلي أكثر مما تقدره حواسهن ؛ فالأكل والملبس ، والحديث ، والنوم ، والجلوس على الدبوان ساعات طويلة ، والاستغراق في الأفكار والأحلام ، ومحاولة إرضاء الزوج وكسب محبته وقصرها عليهن — كل هذه هي عناصر الحياة في الحريم . ولقد سألت امرأة إنجليزية إحدى المصريات كيف تضي وقتها فأجابت : « إنى أجلس على هذه الأريكة ؛ فإذا ما اتباني الملل أو التعب نهضت لأجاس على تلك ، . والتطيرير والوشى من الاشغال التي قد تشغف بها النساء ؛ غير أنه ليس ثمة امرأة تفكر في أن تشغل وقتها في حديقة الأزهار الملحقة بمنزلها في الغالب . والواقع أن الحور الجيلات اللاتي تتخياهن وراء النوافذ الخشبية لسن من هذا النوع من النساء اللاتي يشغفن من المرء كثيرا أو يلذ له التحدث إليهن . فهن لا يجدن معرفة أى شئ ، ولا يفكرن فيما يدور حولهن في قليل أو كثير . وكل ما هنالك أنهن — أو على الأصح قليل منهن — جيلات وحسب .

(١) تركنا هذا الكلام على سبيل الفكاهة والتندر .

والواقع أن النساء المصريات لا يجرؤن على الظهور أو المباشرة ، ومن يتأقن تلك النظرة الوضيعة التي ينظر بها جميع المسلمين إلى النساء . فالرجال في الشرق يدينون مبدأ ظلم المرأة واحتقارها ولا يحيدون مطلقاً عن هذا المبدأ الذي هو جزء من دينهم . ألم يقل النبي مامعناه : اطلّعت في الجنة فإذا أكثر أهلها الفقراء ، واطلّعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء ؟ وفوق هذا ، أليست المرأة الأولى خلقت من ضلع عوجاء ، فإذا حاولت تقويم هذه الضلع كسرتها ، وإذا تركتها وشأنها كان لا بد أن تستمر على اعرجائها ؟ وفضلاً عن هذا ، وذلك ، ألم يرو لنا أن الشيطان حينما سمع أن هناك امرأة قد خلقت في الجنة ضحك مبتها ثم قال مامعناه : « إنك نصف مضيق ، ومستودع سرى ، وسهمى الذي أصيب به ولا أخطئ » . وعلى ذلك فليس مما نعجب له كثيراً أن ينصح أحد الفقهاء واحداً من تلاميذه ، فيطلب منه قبل أن يقدم على أى عمل خطير أن يستشير عشرة من أصدقائه المخلصين ممن يعمد فيهم الذكاء . أما إذا لم يكن له سوى خمسة فقط من أمثال هؤلاء الأصدقاء الذين تتوافر فيهم هذه الشروط ، فليستشر كل واحد منهم مرتين . أما إذا لم يكن له غير صديق واحد ، فعليه أن يستشير عشرة مرات في عشر زيارات مختلفة . ولكن إذا لم يكن له حتى هذا الصديق الواحد ، فليعد إلى منزله ويستشير زوجته ، وعلى ما تقر له فليعمل بعكسه : ويمثل هذه الطريقة يسير قدما في قضاء حاجاته ويصل إلى غايته . وقد اتبع المسلمون نصيحة هذا الأب الورع وعاملوا النساء على أنهن مخلوقات أقل منهم شأنًا — مخلوقات وإن كان لها أهميتها ، فهى على الأقل أدوات للزينة ؛ ولكن بما لاشك فيه أنها ليست جديرة بأى احترام أو تجميل . ومن ثم فإنهم قلما يعلمون بناتهم . وهم إذا أرادوا الزواج لا يطلبون في زوجاتهم غير الجمال والطاعة ، ثم يعاملونهن على أنهن لعب لطيفة تستخدم في اللعب ثم تسكر فيلقى بها ، أو على أنهن وسيلة من وسائل الاقتصاد الاجتماعى : ينجبن أطفالاً ، ويرعين شؤون المنزل . (١)

والعل أكثر ما يبلطخ جبين المجتمع الإسلامى هو احتقار المرأة على تلك الصورة ، التي هى أبعد ما تكون من تلك النتائج الحسنة للعقيدة الإسلامية التي تنادى بالمساواة

بين جميع المؤمنين أمام الله ، وحرية التصرف واستقلال الرأي كما يدل عليه معنى الإغناء في شريعة الإسلام المقدسة . وقد تكون الصورة التي قدمناها للحياة اليومية للرجل القاهري قائمة إلى حد كبير ، وعلى ذلك فإن علينا أن نلاحظ صاحبنا التاجر في لهوه ومسراته حين يتبين لنا ذلك الجانب الآخر وضوحا من حياته . حقيقة أن هذه المباحج والممرات تنقيد تقيدا شديدا بالدين . ولكن هذا هو الحال أيضا في عطلات الكاثوليك . فإذا ما أراد أحد الأشخاص أن يرتكب ما يشين ، فإن عليه أن يرتكبه تحت كنف أحد القديسين ، وبذلك يتخلص من وخر الضمير . ولكن المسلم في العادة يبتعد عن ارتكاب ما لا حد له في الاحتفالات الدينية ، وإنك لترى كيف أن احتفالات العرس يتلى فيها القرآن من أوله إلى آخره ؛ وأى عريس ذو مقام لا بد أن يعمل على إجابة مثل هذا الرجاء لأصدقائه المدعوين . وإذا ما أراد الناس في القاهرة أن يظهروا ، فإنهم يذهبون لزيارة قبور أقاتهم المتوفين ، ثم يجلسون في منازل خاصة أعدت لاستقبال المعزين ، وهناك يستمع الجميع إلى تلاوة القرآن . ومهما يقال عنا معشر الإنجليز من أننا نكون مكتئبين على الدوام أثناء لهونا ، فإنه حتى ذلك الجمهور الذي اعتاد أن يشاهد مسرحيات إبن Ibsen ، سوف يقف مذهوشا أمام تلك الاحتفالات الإسلامية . والمسلم في احتفالاته قلما يفكر فيما يقدمه من ألوان مختلفة . فعلى حين لا يوحى عيد القديس سمعان والقديس يوحنا عليه بأى مرح للرجل الإنجليزي العابس ، نجد الرجل القاهري يتمتع بأعياده الدينية إلى أقصى الحدود بطريقته الرزينة الهادئة المعروفة . وتلك الأعياد جد كثيرة . والمولود في القاهرة ليس احتفالا يستغرق يوما واحدا كما هو الحال في الأعياد المسيحية ، وإنما قد يمتد في بعض الأحيان إلى تسعة أيام . وكل سائح زار القاهرة لا بد أن يعرف بعض هذه الأعياد . من ذلك الاحتفال بالكسوة الشريفة ، ومرور المحمل بقافلة الحجاج إلى مكة . هذه المشاهد جديرة بأن يراها كل منا . إذا تصادف وقوعها في موسم السياحة . فالسنة الهجرية لا تزال تسير وفقا للتقويم الذي يعتمد على القمر ، والذي لم يتم إصلاحه حتى الآن . فهذا التقويم من شأنه أن يتغير فيغير معه الأعياد كلما دار الفلك دورته . والواقع أنه قد يندر أن يمر أسبوع واحد دون أن يكون هناك عيد أو احتفال : وقد يكون ذلك العيد يوم عاشوراء (أى اليوم العاشر

من شهر المحرم أول شهور السنة الهجرية) ، حيث يأكل الناس للكسكس احتفالا
 بذكرى « الحسين » الابن الشهيد لسيدنا علي ، ويتوجهون إلى جامع الحسين حيث
 دفن رأس الشهيد كما يزعمون ، وبشاهدون التمثيل الهزلي العجيب الذي يقوم به
 الدراويش . ويشكون من اسم حسين هذا واسم أخيه الأكبر حسن ، اسم « الحسين »
 الذي تقدم ذكره . والحسين هذا بنوع خاص أهم أولياء العجم الشيعة . ثم إنه
 كان السبب في كثير من الانشقاقات والاختلافات التي حلت بالعالم الإسلامي . ومن
 الغريب حقا أن يكون القاهريون — ومعظمهم من السنيين — ممن يهتمون بهذا
 العيد ويولونه مثل ذلك الاحترام والتبجيل . ولكن الحقيقة أنهم يندرعون بأى
 عذر ويرجعون به ما دام يؤدي ذلك إلى منحهم عطلة . وفوق هذا ألم يكن سيدنا
 الحسين هذا حفيد النبي ﷺ ؟ وهل يليق أن يترك لأولئك الملاحدة من كلاب
 الشيعة ؟ ومهما يكن من أمر الحسين هذا ، فإن مما لا شك فيه أنه ينال حقا من
 الاحترام والتبجيل في القاهرة ، وأن الاحتفال بمولده من المشاهد التي يسرها السائح
 الأوربي كثيرا . فليس هناك في الواقع أبهج ولا أروع من تلك المناظر التي
 نشاهدها في شوارع القاهرة وأسواقها في ليلة الحسين الكبرى . والشئ الغريب حقا
 أنه في إحدى ليالي الشتاء وبعد موقعة التل الكبير ، حينما كنت واقفا — لأن الركوب
 كان إذ ذاك متعذرا — وسط جمع عتشد غفير في شارع الموسيقى ، وجاهدت لاشق
 طريقى إلى ذلك الزقاق الذي يؤدي إلى بيت القاضي ومسجد الحسين — أقول إنه
 من الغريب حقا أنني لم ألاحظ هناك أية روح سبئة أو تعصب ، على الرغم من وجود
 كثير من الأوربيين في ذلك الوقت . والحق أن مثل هذا الجمهور الطيب النفس
 ليس له نظير . فلفس كان أقل ما يمكن أن تتوقعه أن يحدث شئ من الاحتجاج على
 الأوربيين الذين كانوا يجتالون في الطرقات البهجة المزدانة بالأنوار في ليلة عيد .
 وامكنك بدلا من هذا كنت تجد النساء الإنجليزيات يتخلن الأسواق ، والضباط
 الإنجليز والسائحين يختلطون بالجمهور ، بل إنهم بلغوا في بعض الأحيان أبواب الجامع
 المقدس نفسه دون أن يمسمهم أحد أو يبدى لهم أدنى مضايقة بل أقل ملاحظة .
 وفي بعض الأحيان قد تشاهد سيدة مصرية وهي تدعو بعض المسيحيين في شئ . من
 التهمك والسخرية وتطلب منه أن « يصل على النبي » . وقد تذهل السيدة المصرية
 حينما يجيبها المسيحى بقوله « اللهم صل عليه » . على أنه إذا لم يعرف ذلك الأجني

كيف يجيب عن مثل هذه الأسئلة إجابة صحيحة ، فلن ينتج عن ذلك ضرر على الإطلاق ، فإن طيبة القلب والطبيعة السمحة التي توحى بها مثل تلك الأعياد مما ينسى ذكرى الحرب أو البدع الدينية ، ومن المؤكد أنه لا يمكن أن يكون هناك جمهور إنجليزي يعتمد عليه ويوثق به يستطيع أن يسلك مثل هذا المسلك البديع مع وجود أقلية غير مرغوب فيها معه .

ولما انحرفت في أحد أزقة خان الخليلي الكبير — أو البازار التركي الذي يواجه جامع الحسين — كان ذلك المنظر يشبه إحدى صور ألف ليلة وليلة ، فقد كان البازار الطويل مضاءاً بالشموع والمصاييح الملونة التي لا حصر لها ، ومنطلي بسرادات مصنوعة من الشيلان والأقشة المزركشة . وإنك تستطيع أن تتبين من خلال قطع الخيام المنازل المعتمة غير المضاءة ، فتعجب للتناقض الغريب بينها وبين البهجة الموجودة في أسفلها . أما المحال التجارية فقد تغيرت تماماً ، فلم تعد ترى هناك تلك السلع التي كانت مبعثرة هنا وهناك ، كما اختفت تلك الصينيات التي كانت تحمل شتى الحناجر والخواتم والملاعن وما إلى ذلك . بل إنك لتجد كل متجر قد تحول إلى غرفة استقبال أنيقة . كما تجد الجوانب والسقف كلها مغطاة بالحرير والكشمير والديباج والقطيفة والأقشة الفاخرة الموشاة المعدومة النظير ، وعلى الجملة بكل ما لم يكن المشتري ليراه في أى يوم من الأيام العادية . وبالاختصار فإن جوانب البازار قد تألفت منها كتلة متوهجة براقه من الذهب والضوء والألوان الزاهية . وبدخل كل متجر تجد صاحبه جالساً ، يحيط به نخبة من الأصدقاء على شكل نصف دائرة ، وقد ارتدى أغر ما عنده . أما صاحبنا التاجر فقد تناهى في النظافة والأناقة ، ملازماً جانب الأدب . ذلك أن التاجر القاهري يظهر دائماً بمظهر الرجل الكريم الأصل ، حتى حينما يفشك بطريقة تثير غضبك . إن ذلك الرجل الذي كنت تتساوم معه في شدة وحرارة في الصباح ، سوف يدعوك الآن في أدب زائد لأن تجلس وتدخن معه . وإلى جانبه منضدة صغيرة من العاج أو الصدف ، يأخذ منها زجاجة بها شراب حلو الطعم مع عصير اللوز أو الورد ، ويقدم إليك منها في لطف زائد وأدب جم .

وإنك تستطيع وأنت جالس في هذه العزلة أن تشاهد تلك الجماهير المحتشدة وهي تندفع وتتراحم ، حتى إنه ليخيل إليك أن سكان القاهرة بأسرها قد تجمعوا

في ذلك المكان . ثم إنك تلاحظ أن كل واحد منهم قد ارتدى أحسن ما عنده ، فبدأ أنيقا نظيفا تبدو عليه سيمى الفرح والبهجة . وعلى حين غفلة تسمع أنغام المزامير وقرع الطبول تنبعث من كل مكان . وهناك تجد جماعة تغنى بمدح الرسول عليه الصلاة والسلام وبسيدا الحسين على السواء ، وهى تجوب الطرقات وتخترق الجاهير المحتشدة وقد أخذت البهجة منهم كل مأخذ . وعلى اليسار تجد محلا صغيرا جلس فيه أحد القصاصين البارعين يروى بطريقة تمثيلية قصة عجيبة إلى ذلك الحشد الذى النف من حوله مأخوذاً بسحر القصة وروعتها . وهناك بالقرب منه تجد أحد رجال الدين وقد انهمك فى التلويع برأسه وهو يردد اسم الله جل شأنه أو بعض الآيات القرآنية المؤثرة . وفى مكان آخر تشاهد جماعة من الدراويش وهم يذكرون أو ينشد بعض القوم المتعبدين القرآن بأكمله . ومن المؤكد أن مثل هذا المشهد غير حقيقى وأنه مبالغ فيه . فنحن نستطيع أن نتصور أنفسنا فى بلاد الجن أو فى مدينة النحاس وإيس فى مدينة القاهرة أو فى القرن التاسع عشر .

وإذا ما خرجنا من الخان ، وجدنا أناسا كثيرين يتدفقون إلى جامع الحسين ، حيث تحدث مشاهد مروعة تقام خصيصا من أجل تلك الذكرى . ولا بد من أن يحول كل فرد حول قبر الحسين . وعلى قيد بضعة خطوات نرى بعض الرجال يدخلون إحدى الخيام . وإذا فتبعهم لنرى ما خطبهم ، نشاهد فى الداخل بعض المشعوذين وقد انهمكوا فى عملهم فى غير انقطاع . كذلك نجد حصانا صغيرا يقوم ببعض الحركات ، وأحد المهرجين وهو يقوم بتقليد الرياضيين فى صورة تبعث على المرح وتثير الضحك فى كل مكان . وفى سرادق آخر نجد قرقوش يقوم بتدبير دسائسه . والواقع أن هذا الرجل الصغير السمين أو القراقوز المصرى يؤدى عمله خيرا مما يؤديه القراقوز الإنجليزى الذى يشبهه بعض الشبه . غير أنه لا يحسن اتقاء كلماته ، كما لا يراعى مسلكه وهو على تلك الصورة . ومن ثم نجد أنفسنا قد اضطررنا بعد قليل إلى مغادرة ذلك المكان حيث تأخذ الثكاث تلبس ثوب الخلاعة والمجون ، وحيث تبدأ الدواب فى لعبها والقيام ببعض الحركات الخاصة . غير أن الطبقات الدنيا قلما تعنى بأن تدرك ما فى ذلك من ضرر ، فنجد أفرادها قد أخذهم المرح حتى لتكاد جرائهم تنفجر من كثرة الضحك على حركات قراقوش . وهم مهملون وأولاء ، وأبنا سارزا ، ومهما قابلوا

من الناس ، ومهما يكن فقرهم ومهمومهم الخاصة — كل ذلك لا يمكن أن ينال من طبيعتهم المرحية في ليلة الحسين المباركة .

ولعل أول ما يتميز به الجمهور المصرى أنه يمكن تسليته في سهولة تامة . فإن أبسط المناظر وأقدم النكات تبعث فيه المرح والسرور . ويمكن أن نجعل الأوربي المدقق بأسف على ضبط نفسه ليرى كيف أن هؤلاء القوم البسطاء يدخل المرح قلوبهم من أقل شيء (١) .

هذا هو ما نذهب إلى القاهرة لنراه : الحياة الشرقية الحقيقية على صورتها الأصلية . وإن بعض تلك المناظر لأفضل بكثير من تلك المشاهدات البادرة أو ذلك الرقص الفاتر الذى يحدث في الحى الأوربي حيث الفندق الذى تقطن فيه . حقيقة إنك تستطيع أن تجد في القاهرة حياة الفنادق الهادئة ، أوحياة النوادي ، وعلى ألعاب البولو والتنس وحتى الجوارف . كل ذلك تجده كأحسن ما يكون في القاهرة الأوربية . غير أن هذه جميعها معروفة لدى جميع السائحين الذين يقدمون على مصر في الشتاء . إنما تستطيع أن تجد شيئاً لا مثيل له في حى الإسماعيلية حينما تذهب إلى السوق وتختلط بالناس . هنالك تجد الكثير مما يعشقه الرسام وما يبعث على الخيال . ومهما يكن من شيء ؛ فإن أكثر الأشياء التى تكون فيها متعة لنا هي تلك التى تكون غير مألوقة لنا في العادة . ونحن إذ ندخل مصر لأول مرة ، سرعان ما تكشف لنا هذه البلاد عن أفكار جديدة وألوان غريبة ، كما نشتم تلك الرائحة الخاصة التى تتميز بها الحياة القومية هناك .

وفي الأسواق أكثر من أى مكان آخر يمكن أن يجد الفرد كل ما هو غريب وغير مألوف لديه . ولكنك في نفس الوقت إذا أردت أن تتشبع بروح المدينة الإسلامية الحق ، فليك أن تتساق أسوار القلعة حينما تأخذ الشمس في المغيب ، ثم تتمتع طرفك بما يكون تحتك وحوالك من مناظر رائعة . ومن سوء الحظ أنك ، لكن تستطيع الوصول إلى هناك ، لا بد من أن تمر من أكثر شوارع القاهرة

قبحا وتشوها . غير أنه لحسن الحظ أن هذا التهدم قد حدث — على ما أذكر مع الارتياح — قبل أن تسلم إنجلترا مقاليد الحكم في مصر . ذلك أن إسماعيل هو الذي فتح شارع محمد علي الذي يمر بأجل أحياء القاهرة ، فهدم قصورها وحدائقها ، وشطر نصف أحد الجوامع الشهيرة حتى يتمكن بذلك من أن يجعل هذا الشارع مستقيماً ، ولو أن ذلك لا يعم عن ذوق سليم . وعلى جانبي هذا الشارع محمد هناك مساكن ومكاتب حقيرة غير منتظمة ، لا هي بالأوربية ولا هي بحيث تستطيع أن تحتفظ بصفتها الشرقية . هنالك تبرز الخروز العتيقة بالمشروبات الحديثة ووضعت جنباً إلى جنب كذلك .

وإن هذا الامتزاج يتجلى لك في وضوح حيث تشاهد مدرسة إسلامية تجاورها حانة أعدت لاستقبال رجال الجيش والبحرية . وبجانب جدار مسجد السلطان حسن نجد حلاقاً عربياً يقص للناس شعرهم بتلك الآلة الحديثة . كذلك تجد عربية للحريم مزركشة بالغة الروعة والبهاء واقفة أمام باب المسجد في حراسة أحد الأغوات . ويمر الشيوخ الموقرون بهذه المناظر الغريبة جميعها دون أن يبدوا أية دهشة أو اهتمام . وفي الهواء تسمع دوى المدافع ينبعث من قلعة صلاح الدين . إنها تحية العيد الكبير ، عيد الأضحى . أما الجنود هناك فليسوا من الأتراك الأشداء ، ولا من الأكراد الغلاظ الجفأة ، وقد ارتدوا تلك الملابس البديعة وأمسكوا بأيديهم الرماح والصولجان ، كأولئك الجنود الذين دفع بهم السلطان العظيم إلى ريتشارد قلب الأسد ، وإنما هم جنود بريطانيون قد ارتدوا الملابس الكاكية بصورة لاتليق بأمثالهم . والقلعة ذاتها عبارة عن مستودع للأسلحة والذخيرة الحديثة . وهناك يحكم الضباط الإنجليز حيث كان يذبح البكرات المماليك في يوم من الأيام . فالقديم والحديث في نزاع دائم في تلك القلعة التي يرجع عهدها إلى القرون الوسطى ، وتتولى المكتائب الخاصة حراسة جامع أحد سلاطين المماليك .

ولكنك إذا وقفت على أسوار هذا الحصن لم تعد ترى أى اختلاف أو تناقض ، وإنما تبصر من حولك كل ما هو شرقي صميم . فالصبغة الأوربية لم تعد هناك بحيث تضئ على الصبغة الشرقية . هنالك تجد الكثير من القباب والمآذن والأديار ذات القباب ، والمنازل المنبسطة الأسقف ، منها الأصفر والأبيض ، ومنها الأسمر . كذلك

تشاهد بقعا خضراء هنا وهناك ، يتخللها شجر الجوز العتيق ذو الأوراق القائمة اليابسة التي تكشف عما كانت عليه حدائق المدينة القديمة . وفي الجهة المقابلة تشاهد صفوفًا من النخيل ، وأخدودا من الفضة حيث يجري ذلك النهر الطويل الصافي حالما بين ضفتيه الفاتمتين . وهناك في الأفق ، وفي مواجهة مرتفعات ليبيا ، حيث تأخذ الشمس في المغيب فتترك من ورائها لونا أحمر قانيا - هناك تبصر الأهرام الخالدة . كذلك تشاهد المآذن الدقيقة وقد ارتفعت كثيرا عن مستوى القباب وسطوح المباني الأخرى ، حيث تسكون لنفسها عالما خاصا بها ، فيه الكثير من السحر والجمال . إن كل واحدة من هذه المآذن لها قصة جذيرة بأن ترويه لنا - قصة انتصار أو انكسار ، أو قصة مجاعة أو غزو ، أو قصة ثقافة وزهد . وإذا ما انجهت بنظرك شمالا إلى اليمن ، شاهدت مآذن جامع المؤيد البديعة من فوق باب زويلة . إن هذه المآذن لتذكرنا بمئات الأحداث والقصص ، يختص بذلك الباب الذي كان في يوم من الأيام المدخل الرئيس لقصر الخليفة ، ووراء هذه المآذن ترتفع مآذن حي النحاسين ، وهي أ نموذج كامل للفن الإسلامي . ووراء هذه المآذن أيضا تشاهد بعض الأبراج ، إنها أبراج جامع الحاكم . وأمام هذه الأبراج يقع جامع السلطان حسن ، أكبر وأعظم المساجد التي ترجع إلى عهد المماليك . وإلى اليسار قليلا يرى الناظر بروج وأروقة جامع ابن طولون الذي يطل على الدلال التي تحيط به ، والذي يحمل إلى أذهانتنا ذكرى مدينة القسطنطين التي قامت منذ ألف سنة . وإلى اليسار أيضا يوجد خط المنحنيات التي تدلنا على مكان هذه القناطر المقامة على أعمدة والتي امتدت إلى النيل لجلب ماء الشرب إلى القلعة زهاء خمسة قرون . وفيما وراء هذه القناطر تشاهد حشدا من القباب والمآذن المتهدمة في مقابر المماليك جنوبي القرافة . كما نستطيع أن نلمح ذلك الحصن المصري القديم ، وهو حصن بابليون ، وجامع عمرو . وإذا نظرنا إلى الجانب الآخر من مآذن المماليك ، نستطيع أن نرى أكمة قائمة من الحجارة هي بقايا هرم دهبور ، ونصورة واضحة لهرم سقارة الذي يعود خمسة عشر ميلا فقط عن القباب الإسلامية المتقدمة ، ولكنه يبعد عنها بخمسة آلاف سنة تقريبا . وإذا تأخذ الشمس في المغيب ويبدأ الليل برخي سدوله ، تتجمع السحب القائمة في الغرب ، فتلقى ظلها على الصحراء الممتدة من تحتها ، مما يوحي إليك بأن هنالك محيطا جديدا قد انشق في قلب إفريقيا .



(القلعة)

وهنا نعرف القاهرة لأول مرة على أنها مدينة من مدن العصور الوسطى ، بل أكثر من هذا نعرفها كمدينة لها تراثها المجيد منذ فجر التاريخ . فنحن حين نطل من أعلى أسوار القلعة ، ندرك أن هناك محيطات أخرى غير تلك التي نعلمها زاهرة بالمياه ، وأن حاضرة مصر لا يمكن أن يكون لها حدود أنسب من الصحارى التي هي بمثابة الدرع الواقى لها ، والأهرام التي تعلن في جلاء ووضوح عن أعمالها المجيدة التي تمت منذ أقدم عصور التاريخ . ولقد قال الإسرائيلي الحكيم : « من لم يشاهد القاهرة لم يشاهد الدنيا : فأرضها قبر ، ونيابها سحر ، ونساؤها حور الجنة في بريق عيونهن ، ودورها قصور ، ونسيمها عليل ، عطر كمود التد ينش القلب . وكيف لا تكون القاهرة كذلك وهي أم الدنيا ؟ »

الباب الثاني

مدينة القسطنطينية

المدن المتعاقبة - الفتح العربي - عهد الصليبيين - مصر القديمة - بابليون والقرص -
القسطنطينية - تأسيس القسطنطينية - خطط القسطنطينية - جامع عمرو - حصن بابليون -
كنائس القسطنطينية .

حينما نطل من القلعة نشاهد مدينة لها كل مميزات العصور الوسطى ، غير أنه
من بين جميع المباني العربية لا نجد بناء واحدا في حالته الحاضرة يرجع إلى الفتح
العربي . فقبل أن يغزو المسلمون مصر في سنة ٦٤٠ م لم تكن هناك مدينة تسمى
القاهرة . وإن نحن توخينا الدقة ، فإن هذه المدينة لم يكن لها وجود في الواقع إلا
بعد هذا التاريخ بثلاثة قرون ، حين وضع القائد الرومي أساس المدينة التي اتخذها
الخلفاء الفاطميون مقراً لهم ، والتي أطلق عليها اسم القاهرة ، وهو الاسم الذي اشتق
منه الأوروبيون أسماء Cahere و Caire و Cairo . غير أن هذه ليست سوى
ألفاظ لا طائل ورائها إذ أنها لا تدل على شيء . وكما هو الحال في إنجلترا فإننا
نقصر اسم لندن London على المدينة نفسها ونأبى أن نطلقه على مقاطعة وستمنستر
Westminster وميفير Mayfair . لقد كانت هناك حاضرة إسلامية منذ الفتح
العربي ، وعلى الرغم من أنها لم تكن تسمى القاهرة ، كانت قرية من المدينة الحالية
التي لا تعدو أن تكون اتساعاً للمدينة الأصلية . وتاريخ هذا النمو والانتساع سوف
يتجلى لنا حين ندرس التطور الذي لحق هذه المدينة وآثارها . أما الآن فإنه يكفي
بمجرد الإشارة إلى تاريخ نشأتها وتطورها . فقد بنيت في بادئ الأمر المدينة العربية
التي تسمى القسطنطينية ، - أو مدينة الخيمة - في سنة ٦٤١ م . وفي سنة ٧٥١ م
أضيف إليها حي في الشمال الشرقي ليكون مقراً للأمراء ومعسكراً للجيش ،
فسميت بذلك العسكر . وإلى الشمال الشرقي أيضاً أضيف إليها ضاحية جديدة
أو مدينة صغيرة بناها أول حاكم مسلم استقل بمصر حول سنة ٨٦٠ م وهو

ابن طولون . وهذه المدينة تسمى القطائع ، لأنها كانت تنقسم إلى أحياء منفصلة كل منها يختص بشعب معين أو طبقة معينة . ثم لم تلبث هذه المدن الثلاث أن أصبحت مدينة واحدة من الناحية العملية ؛ فقد تحولت كل من «العسكر» و«القطائع» كما تحولت تشلسى Chelsea وسانت جيمس St. James إلى لندن — إلى الحاضرة التجارية وهي القسطاط .

أما الخطوة الرابعة في تطور هذه المدينة فتتلخص في اتساع آخر نحو الشمال الشرقى أيضا . وقد تركت مساحة كبيرة بينها وبين القطائع — التي كانت قد تهدمت إلى حد كبير جدا — حتى يتوافر الأمن والعزلة للخلفاء الذين كان ينظر إليهم أنصارهم نظرة الاحترام والتقديس ، والذين بنيت هذه المدينة باسمهم سنة ٩٦٩ م . وكانت هذه المدينة الأخيرة هي القاهرة الحقيقية ، ولكنها لم تكن الحاضرة التجارية ولا مقرا للحكم كما كانت العسكر أو القطائع من قبل . وكانت القسطاط — على ضفة النيل — لا تزال سوقا للتجارة ، كما كانت أكبر مدينة للثقافة والأعمال . أما القاهرة فإنها كانت بمثابة قصر غخم ، وثكنات للجند ، ومقرا للحكومة . ويلاحظ أن مؤرخي المصور الوسطى من أمثال وليم الصوري William of Tyre حين يكتبون عن مصر — وكلية مصر تستخدم في اللغة العربية للدلالة على القطر المصري وعلى الحاضرة على السواء — فإنهم لا يشيرون إلى القاهرة ، بل إلى القسطاط ، أو كما كانت تسمى عادة « مصر القسطاط » . ولقد كان الأمير أو الخليفة أو السلطان يختار أية ضاحية بينها لنفسه ويحكم منها ، ولكن الحاضرة القديمة تظل أهم هذه المدن حقا . هنالك كان القضاة يجلسون في الجامع العتيق ليصدروا أحكامهم ، وهناك كانت تصك نقود الدولة ، وهناك أيضا كان يقيم عامة الشعب الذين لم يكن لهم اتصال بالقصر . ولم تصبح القاهرة الحاضرة الحقيقية ومركز الحكم في مصر إلا بعد أن أحرقت القسطاط عمدا في سنة ١١٦٨ م لتخليصها خوفا من أن تقع في أيدي الصليبيين .

وكان صلاح الدين الأيوبي هو من أنشأ القاهرة الحقيقي كما هو معروف . ذلك أنه هو الذي وضع تصميم السور الذي كان يحيط لا بالقاهرة وحدها ، بل بالقلعة أيضا وبما تبقى من مدينتي القطائع والقسطاط . ومنذ ذلك الوقت بدأت المباني تقام

على ذلك الفضاء الذى كان يقع بين القلعة وقصر القاهرة ، والذى أخذ على مر الزمن يمتلئ بمباني القاهرة التى نراها اليوم . وهكذا فإن نمو هذه المدينة يتكون فى الأصل من ثلاث مراحل من الاتساع نحو الشمال الشرقى . وكل من هذه الاتساعات المتعاقبة كان يتبعه بطبيعة الحال تهدم الأحياء والمناطق المهجورة . وتكتل الأماكن الآهلة بالسكان وانضمام بعضها إلى بعض . ومنذ أيام صلاح الدين الأيوبي اختفى تماماً كل ما تبقى من مدينه الفسطاط ، ولم يبق إلا تلك القرية المنفردة التى نراها على مقربة من موقع الفسطاط ، الأصلى وتسمى « مصر العتيقة » ، وتعرف عند الأوربيين باسم Old Cairo ، وهى ذلك الجزء الذى نستطيع أن نتبع أثره إذا حاذبنا أكوام القمامة الملقاة على جانبي الطريق . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نجد ثمة مدينة جديدة قد أقيمت بين القاهرة والنيل نتيجة لبعض المؤثرات الأوربية . غير أن هذه المدينة الشتوية الجميلة ليس لها أية علاقة على الإطلاق بمدينة العصور الوسطى . وتاريخ غزو العرب لمصر غامض فى كثير من النواحي ؛ وهذا يرجع إلى أن العرب لم يبدؤوا فى تدوين تاريخهم إلا بعد قرنين أو أكثر . وإن ما تركه يوحنا أسقف نقبوس — الذى يكاد يكون حجتنا المعاصر الوحيد — قد وصل إلينا فى ترجمة كتابه المحرفة ، وقد دخل العرب مصر بقيادة عمرو بن العاص فى ديسمبر سنة ٦٣٩م ، وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين . وكان عددهم لا يزيد على أربعة آلاف مقاتل من الأقوياء . وبعد أن حاصر العرب الفرما وبلبيس وقاتلوا الروم فى حى أم دنين — وهى بالقرب من قصر عابدين الحالى — هاجموا مصر أو بابلون ، وكانت هذه المدينة الأخيرة امتدادا إلى الشمال أو اتساعا لمعقيس الحاضرة المصرية القديمة التى كانت لاتزال حتى ذلك الوقت ، ولكن فى شكل أطلال بالية . وكانت تبعد عن القاهرة الحالية باثنى عشر ميلا تقريبا ، وقد تم نهبها تحت حماية حصن بابلون الرومانى . وبملا مراة فيه أن الروم قد دافعوا عنها دفاعا شديدا ، حتى إن القائد العربى لم يجد بدا من طلب المدد حتى بلغ جيشه اثنى عشر ألفا قبل أن يتمكن من فتحها .

وقد قسم عمرو بن العاص قواته إلى ثلاث فرق ، وضع الأولى إلى الشمال من حصن بابلون ، والثانية فى تندونياس Tendunyas (ومن المحتمل أن تكون هذه هى

أم دينن التي تكلم عنها كتاب العرب) ، والثالثة إلى الشمال من هليوبوليس . وقصد بذلك أن يحمّل الروم على الخروج من حصونهم فيطبق عليهم القسمان الآخرين من المؤخرة . وقد نجحت هذه الحطة ، إذ خرج الروم من حصونهم وأخذوا يهاجمون المسلمين في هليوبوليس ، حيث أطبقت على مؤخرتهم قوات عمرو ، فاضطروا إلى الفرار إلى النيل وألقوا بأنفسهم فيه . عند ذلك احتل المسلمون تندونياس التي أيدت حاميتها في المعركة ، ولم ينج منها إلا ثلثمائة رجل أغلقوا أبواب الحصن من دونهم وهربوا بالقوارب إلى نقيوس . وقد اقترن استيلاء العرب على تندونياس باستيلائهم على مدينة مصر كالم عدا القلعة التي أحاط بها العرب . ويذكر لنا يوحنا أسقف نقيوس — الذي نعتمد على تاريخه فيما نكتبه عن هذه الناحية — أن العرب لم يلاقوا أية مقاومة إلا حينما حاولوا الاستيلاء على الحصن . (١)

ومهما يكن من شأن مدينة مصر أو تندونياس ، فإنها قد اختفت تماما من عالم التاريخ بمجرد استيلاء العرب عليها . وآخر ما نسمعه عنها في معاهدة الصلح التي أبرمها عمرو بن العاص ، وهما نصها :

« باسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما صالح عمرو بن العاص أهل مصر ، على أنفسهم ودينهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأرضهم ومائهم ، لا يدخل في شيء من هذا ولا ينقص ، وأن يسمح لأهل النوبة بأن يقيموا بينهم ، وإن أذعن أهل مصر للصلح فرضت عليهم الجزية خمسين ألف إذا هبط ماء نهرهم . وكل منهم مسئول عما يأتيه سراقهم من أعمال العنف . ومن لم يدخل في هذا الصلح أدى ما على غيره من الجزية من تلقاء نفسه وتحت مسؤوليته . وإذا نقص ماء النيل نقصت الجزية تبعا لهذا النقصان . ومن رضى من الروم والنوبيين بهذا الصلح عومل كغيره من أهل مصر ؛ ومن أبى وأراد الخروج أمن على نفسه حتى يبلغ مأمنه أو ترك بلادنا . وستجمع الضرائب على أقساط ثلاثة كل ثلث منها على حدة . وعلى عهد الله وعهد رسوله وعهد الخليفة أمير المؤمنين ؛ وعهد المؤمنين ... شهد على ذلك الزبير وولده عبد الله ومحمد وكتبه وردان ، (٢)

(١) انظر كتاب History of Egypt in the Middle Ages, p. 4 للؤلؤف .

(٢) نقل المؤلف هذه الشروط عن يوحنا أسقف نقيوس . ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى ما كتبه ابن عبد الحكم (كتاب فتوح مصر وأخبارها — القاهرة ١٩١٤ م ٦٤ — ٦٥) والقريري (خطوط ج ١ م ٢٩٢ — ٢٩٣) .

ويربط المؤرخون العرب هذه المعاهدة — التي يظهر أنها وثيقة لها قيمتها — باستسلام مدينة مصر بعد موقعة هليوبوليس . ولكن لما كانت مصر يقصد بها القطار المصري كما يقصد بها الحاضرة ، فإن هذه الوثيقة نفسها إنما تثبت أن الفتح العربي قد توخى الكرم والسخاء في معاملته لأهل مصر . فهي لا تذكر شيئاً واضحاً صريحاً عن مدينة مصر التي أصبحت تسمى بعد قليل القسطنطينية ، على حين أن موقعها لم يعد يعرف بعد ذلك . إنما التفسير الوحيد الذي يبدو صحيحاً هو أن المدينة المصرية قد أخذت أهميتها في الضعف كلما أخذت المدينة العربية في النمو ، وأن السكان كانوا يرحلون إلى الأماكن القريبة إلا أكثر رخاء من مدينتهم الأولى . وإن بقايا الأسوار المتهمة جنوبي مصر القديمة يمكن أن تمثل جانباً من موقعها ، وإن اختفاء إحدى المدن المصرية له — لسوء الحظ — أكثر من سابقة . فمدينة ممفيس نفسها قد اختفت الأهم إلا من بعض بقايا الجدران والتماثيل المتهمة ، ولم ينبج من مدينة طيبة إلا معابدها . والسبب في ذلك يرجع إلى أن المصري القديم كان يبنى مسكنه من الطوب المجفف في الشمس الذي كان معرضاً للتلف والتهدم بعد وقت قد يقصر وقد يطول . أما الأحجار الصلبة فلم تكن تستخدم إلا في بناء مقابر العظماء ومعابد الآلهة الخالدين .

ومهما يكن من شأن التغيير الذي لحق المدينة التي نحن بصدددها ، فإن حصن بابليون ما زال قائماً حتى يومنا هذا . ولقد كلف حصار هذا الحصن العرب سبعة أشهر حتى تمكنوا من الاستيلاء عليه . فوقعة هليوبوليس قد كبسها العرب في آخر صيف ٦٤٠ م ؛ ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على الحصن قبل شهر إبريل سنة ٦٤١ . ويرتبط استسلام هذا الحصن بشخصية غامضة هي شخصية المقوقس الذي دعاه العرب حاكم مصر ^(١) . وتذهب الروايات العربية إلى أن المقوقس هو الذي اقترح المعاهدة الآتفة الذكر التي ضمنت للبصريين حرية الدين وأمتهم على حياتهم . ولما رفض الإمبراطور هرقل البيزنطي هذه المعاهدة تمسك المقوقس بكلمته وأصبح في

(١) راجع البحث الذي نشره الدكتور أ. ج. بتر Dr. A. J. Butler أخيراً في Proc. Soc. Bibl. Archeology, 1902 . فهو يحاول هنا أن يثبت أن المقوقس هذا هو قبرس Cyrus بطريرك الإسكندرية . غير أن هذا الرأي لا يجد أي تفضيد من كتاب العرب الذين يوفق بهم .

صف العرب الذين كان لشجاعتهم وحماستهم أثر بالغ في نفسه . ولما عاد الرسل الذين كان قد بعث بهم إلى معسكر المسلمين ، سألمهم عن حال المسلمين فأجابوا :
« رأينا قوما الموت أحب إليهم من الرفعة — ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نعمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، لا يعرف رفيعهم من فضيعهم ، ولا السيد فيهم من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم . ومثل هذا الخلق كان جديدا بالنسبة إلى المصريين الذين كانوا قد قاسوا الكثير من فساد الإمبراطورية الرومانية الشرقية . وهما يكن من شأن الدور الذي قام به المقوقس فيما أطلق عليه خيانة مصر المسيحية ، فما لا شك فيه أن الشعب نفسه قد ساعد الغزاة الفاتحين .

وعلى الرغم من أن المسيحية كانت الديانة الرسمية في مصر منذ أصدر ثيودوسيوس مرسوم سنة ٣٧٩ م ، كانت لا تزال هناك طقوس محلية قديمة على جانب عظيم من القوة . وأهم من هذا كانت لا تزال هناك أيضا نزعة قوية إلى بث روح القومية في الدين والدولة معا . فإن حكم البيزنطيين لم يكن مما يرتاح له أهل مصر . أضف إلى ذلك اضطهاد الكنيسة الأرثوذكسية ، فإنه لما عقد مجمع سنة ٤٥١ م رأى الاساقفة المصريون الذين دائروا بعقيدة أونيخا بالإلحاد ، وأصبح الانقسام شينا لا مفر منه . ومن ثم أصبح في مصر منذ ذلك الحين كنستان : الأولى كنيسة الدولة (مذهب الروم الأرثوذكس) وتوידها القسطنطينية ويطلق عليها الكنيسة الملكية ، والثانية الكنيسة القومية ، وقد أطلق عليها فيما بعد العقويية وتعرف عادة بالكنيسة القبطية . أما من ناحية الاشتقاق اللغوي ، نجد أن كلمة قبطي « Copt » هي نفس كلمة « مصري » (١) . والكنيسة القبطية لا تعنى أكثر من الكنيسة المصرية حينما انفصلت على أثر بدعة أونيخا الدينية . ولم يكن المسيحيون المصريون من حيث كونهم قبطا قبل مجمع نيقية أقل عما كانوا عليه بعده . غير أن تمسكهم بالطبيعة الإلهية التي لم يستطع أن يدركها إلا القليل منهم ، هو الذي

(١) وفي اليونانية Aiguptios ، وفي العربية قبط (بالفتح) وقبط (بالضم) ، وفي

الانجليزية Copt

جعل منهم كنيسة مستقلة عما أدى إلى وقوع المصائب التي نزلت بهم وتنبه أذهان المؤرخين إلى استعلاء ذلك الدور الذي يتعلق بتاريخهم . وكان تمسكهم بمذهب نيقية الذي يقول بأن للسبح طبيعة واحدة ، أن عرضوا أنفسهم للاضطهاد والمزلة ، كما كان سببا في أنهم لم يساهموا في تلك الإصلاحات التي أفادت منها الكنائس الأخرى ، بل إنهم ظلوا في جماعتهم الضئيلة المهملات لا يتغيرون نحو من خمسة عشر قرنا ، واحتفظوا بنفس التقاليد والطقوس الدينية كما كانوا في القرن الخامس الميلادي . وكانت كرامتهم الزائدة للملكيين هي التي ألقت بهم في أحضان المسلمين الغزاة . فقد رأيناهم يعملون بنصيحة بطريقهم الذي كان منغيا ، ويمدون يد المساعدة للعرب منذ اللحظة التي وطئت أقدامهم فيها أرض مصر . وكان ولوعهم في التخلص من الحكم البيزنطي ، وأهم من هذا من نفوذ رؤساء الدين من الملكيين ، هو الذي جعلهم يؤثرون هذا الرأي على غيره . وبعد أن نجح الموقوس — بمساعدة أحد الرجال الكاثوليك — ولعله فيرس بطريرك الإسكندرية الملكاني — في أن يحصل من القائد العربي على عهد الصالح الذي يدل على السخاء ، أسدى القبط كل مساعدة إلى المسلمين ؛ فكانوا يعاونونهم معاونة صادقة في بناء الجسور ، كما أمدوهم بالآون . غير أنهم مالبثوا أن أدركوا أنهم إنما غيروا سيديا بآخر . بيد أن العربي — على الرغم من نزعة إلى الأنفة والتكبر وما كان يعتريه بين آن وآخر من نزعة التعصب والاضطهاد ، كان في استبداده أرق من الحاكم الروماني بكثير .

ولما وجدت الحامية الرومانية التي حاصرها العرب في حصن بابليون نفسها محرومة معاضدة الشعب ، اضطرت إلى التسليم في إبريل سنة ٦٤١ م . وسرعان ما غزا العرب الدلتا وأرغموا الروم على الانسحاب إلى الإسكندرية التي استسلمت للفرع والرعب وقبلت الشروط السخية التي عرضها عمرو . وكانت الإسكندرية في ذلك الوقت قد سادتها الانقسامات كما كانت محرومة من القواد الصالحين . وباستسلام هذه الحاضرة الرومانية في أكتوبر سنة ٦٤١ م ، تم فتح مصر على أبدى العرب ، فلم تعد هناك مقاومة تستحق الذكر . وهكذا انتشر المسلمون في البلاد حتى وصلوا إلى الشلال الأول للنيل وأصبحت مصر ولاية تابعة للخلافة .

وبعد أن عاد عمرو من الإسكندرية أسس مدينة القسطنطينية ؛ وذلك لأن ميناء الإسكندرية العظيم على ساحل البحر الأبيض المتوسط لم يعد صالحا لأن يكون

حاضرة للقبائل العربية التي أدت طبيعتها البدوية إلى أن يتسلط عليها شيء غير قليل من الخوف من الإسكندرية وبحرها العميق . هذا إلى أن الإسكندرية كانت معرضة في وقت فيضان النيل لأن تصبح في عزلة عن مركز سادة العرب في المدينة . كما أن الخليفة عمرو بن الخطاب - الذي لم يكن يحلم في ذلك الوقت بتأسيس إمبراطورية إسلامية شاسعة الأرجاء - كان مولما بأن يكون على اتصال دائم بجيشه في مصر . والواقع أن عمرو نفسه أراد أن يجعل الإسكندرية حاضرة لمصر ، وهم أن يسكنها وقال له : منازل فدكفيهاها . ، غير أن الخليفة عمرو بن الخطاب لما سمع بذلك سأل رسول عمرو : دهل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ ، قال : نعم بأمر المؤمنين إذا جرى النيل . ، عندئذ تحول الخليفة وجهه عن الإسكندرية ، إذ كان ينظر إلى البلد التي تم له فتحها على أنها بمثابة ثكنات للجيش أكثر مما كان ينظر إليها على أنها مستعمرة . وعلى ذلك أصدر أمره إلى قائده عمرو بن العاص بأن يختار موقعا أكثر توسلا . وقد وجد عمرو هذا المكان على بعد عشرة أميال شمال أطلال مدينة ممفيس حاضرة مصر القديمة في موقع القسطاط الذي أقامه أمام حصن بابليون . وكانت هناك قناة تسمى أمنيس تراجانوس كانت قديما تربط بابليون بالبحر الأحمر عند السويس مارة بمدينة بليس وبحيرة التمساح . وقد أعاد عمرو فتح هذه القناة بعد أن نظفت مما كان بها من الأملاح ، حتى إن الضرائب وكذلك القمع ، أصبحت ترسل إلى بلاد العرب بحرا عن طريق هذه القناة ، وبذلك احتفظت مصر بعلاقاتها الوثيقة مع الخليفة .

ويرجع السبب في تسمية مدينة القسطاط بهذا الاسم إلى قصة طريفة لا يبعد أن يكون لها نصيب من الصحة . ذلك أن عمرو بن العاص حينما قاد قواته العربية إلى حاضرة مصر القديمة ، أقام قسطاطه حول المكان الذي يقع فيه جامع عمرو بن العاص الآن . وبعد سقوط حصن بابليون سار إلى مدينة الإسكندرية . غير أن الجند عندما ذهبوا ليقوضوا قسطاطه وجدوا يمامة قد باضت في أعلاه ، فقال عمرو : ولقد تحرمت بحوارنا ، وأمرهم بأن يقرؤا القسطاط حتى يطير فراخها . ولما فتح عمرو الإسكندرية ، أخذ الجند يختطون منازلهم حول قسطاطه الذي خلفه قبل مسيره إلى الإسكندرية . وهكذا أصبحت أول المدن العربية في مصر ، القسطاط أو

مصر الفسطاط أو مصر . وكان الفضاء الذى يمتد بين النيل وجبل المقطم — حيث تقوم الآن القلعة على مكان بارز من الجبل — فضاء خاليا فى ذلك الوقت . فلم يكن هنالك ، غير فضاء ومزارع ، كما لم يكن هناك من المباني سوى بعض الكنائس وحصن بابليون الرومانى ، أو باب البون الذى يسميه العرب حتى اليوم « قصر الشمع » . « وكان هذا القصر — كما يقول المقرئى — « يوقد عليه الشمع فى رأس كل شهر » ، وبذلك يستخدم كتقويم شهرى . غير أنه من المحتمل — كما يرى الدكتور بئر — أن يكون هذا الاسم تحريف اسم آخر هو قصر مصر ، وأن قصة الشمعة قد اخترعت لتفسير ذلك الرأى (١) .

وأما لماذا لم يحتل عمرو بن العاص مدينة مصر القديمة ، فهذا مما لا نعرف عنه شيئا . فكل ما كان له علاقة بتلك المدينة التى اندثرت لغز من الألغاز . فى البلاد الأخرى التى فتحها العرب ، لم يترددوا عن الاستيلاء على الأقدم تاريخياً مثل دمشق والرها . أما فى مصر فإنهم أثروا أن يستولوا على أراض جديدة . ربما كانت مصر صغيرة جدا أو من الممكن أن يكون الحليفة قد حرم عليهم أن يستحوذوا على الممتلكات وأن يستقروا فى الريف ، مما دفع العرب إلى أن يحتلوا ذلك الفضاء

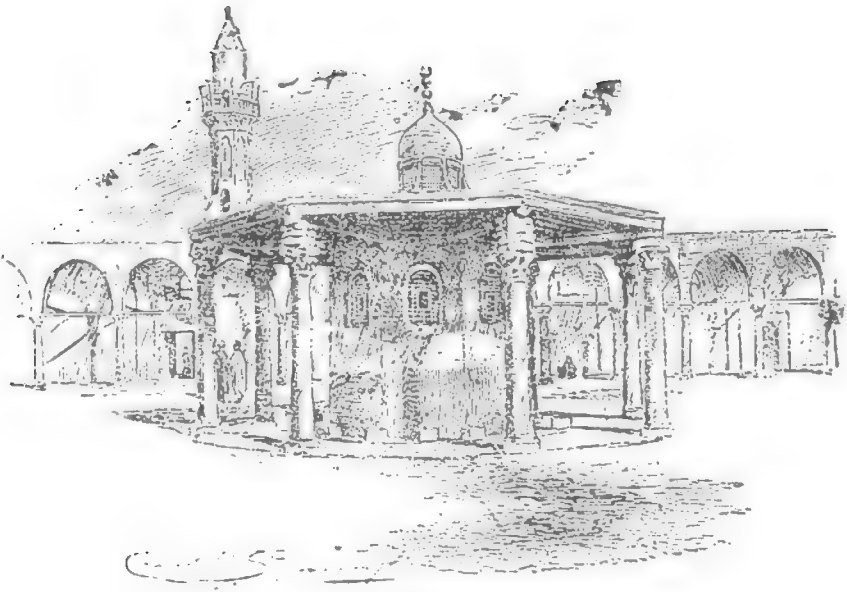
(١) لعل مما يؤيد رأى الدكتور بئر ما ذكره Pococke من أن قصر الشمعة كان يعرف فى وقتها كذلك باسم Casr Kiemani . على أنه ليس من المؤكد أن قصر الشمعة هذا يمثل الجزء الأساسى فى بابليون . فقد كان هناك بناء رومانى آخر على إحدى التلال الصخرية ، كان النيل قد اكسجه ، يقع جنوب شرقى قصر الشمعة . وهذا البناء — كما ذكر كتاب العرب الذين نقل عنهم المقرئى — هو مدينة مصر أو بابليون التى حاصرها عمرو بن العاص ، والتى كانت تحتوى على حصن يسمى قصر بابليون . ولا يبعد أن تكون أطلال هذا القصر هى التى ورد ذكرها فى « إسهيل عثر » التى لا يزال أساسها العظيم باقيا إلى اليوم . انظر ما كتبه « لين » فى كتابه « القاهرة منذ خمسين سنة » ص ١٤٦ (Lane : Cairo Fifty Years Ago, p. 146) . وقد شوهدت آثار الأسوار بجانب قاع النيل جنوبى مصر العتيقة . ومن المحتمل أن يكون هناك شواهد أثرية عن مدينة مصر الإسلامية القديمة التى لازالت معالمها ، والتى يحيط بها سوران . وليس من المستبعد — على ما يظهر — أن تكون مصر هذه هى امتداد ممفيس الحاضرة القديمة التى اختفت معالمها ، وأن المسافة التى بين أطلال ممفيس الحالية وحصن بابليون تربو طبعاً على عشرة أميال . غير أنه يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن ممفيس كانت فى وقت من الأوقات على شكل دائرة يبلغ محيطها سبعة عشر ميلا ، وأنها امتدت حتى بلغت مدينة الجيزة .

الممتد بين بابلون وتلال المقطم . وبما لا شك فيه أن المكان الذي نزل فيه العرب أولا كان أشبه بمعسكر وقى أكثر منه بمدينة بالمعنى الصحيح . فقد احتاجوا مساحة واسعة لكي يفضلوا القبائل المختلفة التي تألف منها الجيش العربي ، والتي كانت برغم الإخاء الذي ينادى به الإسلام عرضة لإثارة أحقادهم القديمة . وكان الموقع الذي اختاروه واسعا فسيحا لا يكاد يعوقه شيء . وكانت تلك البقعة تعرف بالحرارات الثلاث (١) — الحرراء القريبة ، والحرراء الوسطى ، والحرراء القصوى . من الواضح أن هذه التسمية ترجع إلى اللواء الأحمر الذي أقيم في الوسط .

وقد قسمت القبائل العربية هذه الحرارات الثلاث فيما بينها ، واختطت منازلها فيها ، مبتدئة من حصن بابلون إلى حيث نرى جامع ابن طولون الآن . وفي وسط الفسطاط اختط عمرو بن العاص داره ، وبني بجواره أول مسجد أقيم في مصر وهو جامع الفتح ، وتاج الجوامع كما أطلق عليه العرب من قبيل المباهاة والفخر . غير أنه لم يلبث أن أطلق عليه اسم الجامع العتيق ، ويسمى الآن جامع عمرو . وكان هذا الجامع أولا عبارة عن غرفة مسطحة مستطيلة جدا طولها نحو ٢٠٠ قدما وعرضها ٥٦ قدما ، وقد بنى من الأحجار الخشنة المساء . وكان سقفه منخفضا جدا أقيم على عدة أعمدة وتنخله بعض الثقوب لدخول الضوء . ولم تكن هناك للمسجد مذبة أو مقصورة للصلاة . كذلك لم يكن هناك زينة أو أفاريض في الخارج ، وحتى المنبر الذي اتخذ عمرو قد أزيل حين كتب إليه الخليفة بوجّه :

« أما بحسبك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس عند عقيبك ؟ » . وكان من واجب الفاتح أن يؤم الناس في الصلاة ويلقى خطبة الجمعة في ذلك المكان المتواضع الذي لم يلبث أن أصبح صغيرا جدا بالنسبة لأهل الفسطاط الذين أخذ يزداد عددهم ، مما أدى إلى زيادته في سنة ٦٧٣ م بأن ضم إليه جزء من دار عمرو . وفي الوقت نفسه أقيمت فيه بضعة أعمدة في الأركان — وهذه هي نواة المآذن — ليؤذن المؤذنون من فوقها . وبعد خمس وعشرين سنة هدم أحد أمراء مصر هذا المسجد عن آخره

(١) عرفت الحرراء فيما بعد بخط قناطر السباع (القائمة على النهر) نسبة إلى الأسود النقوشة عليه ، وحى السبع سقايات ، يشير بذلك إلى السقايات السبع التي كانت ترفع ماء النيل إلى القناطر القائمة على أعمدة لتوصيل ماء الشرب : القريري : كتاب الخطط ج ١



(صحن جامع عمرو)

وأعاد بناءه بعد أن وسعه. وكان من أثر الإصلاحات الكثيرة وتجديد المباني، أنه لم يبق هناك الآن قدم واحدة من البناء الأصلي. أما ما نراه اليوم فهو في الواقع ذلك المسجد الذي أعاد بناءه عبد الله بن طاهر في سنة ٧٢٧ م، ثم أصلحه مراد بك في سنة ١٧٩٨ م قبل أن يشتبك مع الفرنسيين في معركة الأهرام في إمبابة. وقد أصبحت مساحة الجامع اليوم أربعة أمثال مساحته الأصلية، كما أنه يختلف عنه في كل ناحية من النواحي (١).

والجامع العتيق - كما يسميه المقرئ - كان محل احترام المسلمين قديما. ففي هذا الجامع كان القاضي يجلس ليحكم بين الناس، وكان يجتمع في محله كثير من العلماء، كما كان أيضا المكان الذي يجتمع فيه السنيون، في الوقت الذي انقسم فيه المسلمون على أنفسهم. ولما احترقت مدينة الفسطاط في سنة ١١٦٨ م، نجا هذا الجامع برغم الأضرار الكثيرة التي لحقت به، لجده صلاح الدين الأيوبي [سنة ٥٩٨ هـ]، وأعاد صدر الجامع، والمحراب الكبير وروحه. غير أن الناس لم يلبثوا أن غيروا نظرهم إلى هذا الجامع، حين وجدوا أنه قد أصبح تابعا لبلدة أحرقت، فأصبحت أطلالا دارة. كما أنقضت الاجتماعات التي كانت تعقد فيه من قبل. وهكذا حلت بجامع عمرو أيام السوء. وقد وجد ابن سعيد الرحالة المغربي الذي عاش في القرن الثالث عشر هذا البناء العظيم وقد غطاه العنكبوت، وجدرانه التي علاها عشب العامة والمتعطلين، وقد نثروا على أرضه ما خلفوه من فضلات الطعام. في ذلك الوقت كان هناك عدد قليل من الأتقياء الحقيقيين، على حين كان فيه عدد أكبر من العابثين. قال الجبرقي المؤرخ الذي عاش في القرن الثامن عشر، إنه كان هناك كثير من الموسيقيين وقواد القردة والمشعوذين والحواة والراقصات ممن كانوا يترددون على محن الجامع. وقد تداعت أبنية الجامع للسقوط، حتى إن هؤلاء الناس قد هجروه. ولولا أن مراد بك كان قلقا على حياته، لأسباب معقولة جدا وأرضى ضميره بإنفاق بعض الأموال التي حصل عليها بطرق غير مشروعة على أعمال البر نحو إعادة بناء هذا الجامع، لزال «تاج الجوامع» نهائيا.

(١) انظر المجلد الرائعة التي كتبها مستر أ. ك. كوريت عن «تاريخ جامع عمرو في مصر

القديمة» في المجلة الأسبوعية الملكية بإنجلترا 1891، J. R. A. S., N. S. xx ii.

وفي مسهل القرن التاسع عشر ، كان هذا الجامع لا يزال الجامع الذي يفضلُه أهالي القاهرة ، لإقامة صلاة الجمعة الأخيرة أو البتمة من شهر رمضان . وكانوا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى يتقبل صلاة من يصلي في هذا الجامع العتيق . فإذا تأخر فيضان النيل ، وخشى الناس هبوط مائه ، وما يعقبه من القحط وندرة الأقوات ، صدرت الأوامر إلى كبار المشايخ والأئمة وأهل الورع والعلم من المسلمين بأن يذهبوا إلى جامع عمرو ويصلوا صلاة الاستسقاء من أجل زيادة ماء النيل . كذلك كان يعقد قساسة الكنائس المسيحية المختلفة اجتماعات لهذا الغرض ، ويشاركون اليهود في ذلك . وهكذا كان جامع عمرو المكان الذي يقده المسلمون والمسيحيون واليهود على سواء التماسا للطير ، ويقيمون الصلوات العامة في الوقت الذي حل القحط بالبلاد منذ عشرين سنة (١٨٢٥ — ١٨٢٨ م) . وكان من أثر ذلك أن نزل المطر في اليوم التالي (١) .

إن الناظر لأقدم هذه المساجد من الخارج لا يتأثر كثيرا . ففي وسط أكوام القمامة التي تميز موقع مدينة القسائط ، نشاهد جدرانها المرتفعة الرمادية اللون التي لا أثر للنواقد ولا للزينة فيها . كذلك تميز بوضوح منذ نتيه اللتين هما غاية في البساطة . أما من الداخل فإنه يختلف كثيرا برغم ما لحقه من التهدم والإهمال . هنا نجد قاعة مساحتها أربعون ألف قدم مربع تقريبا ، تحيط به البوابة والأعمدة الكثيرة التي تكون دعائم سقف الطرف الشرقي ، وهو المكان المخصص للصلاة . وهناك نشاهد منظرا غاية في الروعة والبهاء . ويزدحم المسجد بالمتمعبدين الذين يؤدون صلاتهم في انحناء منظم ، فيصفون على المكان جوا من الهيبة والجلال . أما الحنايا فيرجع تاريخها إلى عصور مختلفة ، وأما الأعمدة التي انتزعت من الكنائس فقد وضعت في غير مواضعها في أغلب الأحيان . والأروقة غير متوازية مع الجدران كالصوامع التي تحيط بالكنيسة ، ولكنها مقامة على شكل زوايا قائمة في صحن الجامع . والقطع الخشبية الطويلة تمتد من عمود إلى عمود لتحمل المصابيح التي كان يضاء منها ثمانية عشر ألف مصباح كل ليلة في الأزمان السالفة . ونستطيع أن نتصور

(١) أظن كتاب لين : القاهرة منذ خمسين سنة ، Lane : Cairo Fifty Years Ago

ذلك الضوء الساطع الذى كان يترامى أمام المسجد . غير أن ليالى الوقود قد ذهبت منذ أمد بعيد ، وأصبح جامع الفاتح حطاما باليا ، يوحى إلى الخيال بما كان يتردد عليه من طوائف العلماء والصالحين والمتعصبين ورجال الدين والفقهاء والصوفية الذين كانوا ينحنون أمام قبلته التى هجرها الناس فيما بعد (١) .

إن ذلك الجامع الأصل الذى بناه الفاتح العربى قد أمسى منذ أمد بعيد ، غير أن ذلك الجامع الذى يمثل اليوم يقوم على نفس موقعه المبارك . وفى الوقت نفسه لا نستطيع أن نذكر عن مدينة الفسطاط التى شيدها عمرو مثلما ذكرنا عن جامع عمرو . فكل ما تبقى من تلك المدينة العظيمة — التى كانت حاضرة مصر ومرقاها النهري خمسة قرون — قد اختفى تحت تلك الأكاداس المترآكة على غير انتظام من التلال الرملية التى تغطى ما خلفته تلك المدينة التى يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى . هنالك ، حينما تهب ريح عاصفة تثير الرمال ، تستطيع فى أغلب الأحيان أن تلتقط بطريق الصدفة بعض قطع من الزجاج أو الفخار أو المصاييح الرومانية ، والنقود والصور والنقوش التى تدون أسماء ولاية القرن الثامن الميلادى ، وما إلى ذلك من بقايا الأشياء التى كانت فى مدينة الفسطاط . أما المنازل وقصور الأمراء والحمامات والمدارس التى كانت فى الفسطاط فلا أثر لها البتة . ومن المؤكد أن مخازن غلال يوسف يرجع تاريخها على الأقل إلى عهد يوسف الأخير وهو صلاح الدين ؛ فقد رأى بنيامين التبوديل هذه المخازن فى سنة ١١٧٠ م . ولكن مصر العتيقة ، أو القاهرة القديمة قد بنيت على أرض كان يغطيها النيل فى الوقت الذى كانت فيه الفسطاط حاضرة مصر . أما ما تبقى من نحراب بلقع . وسوف تلقى نظرات سريعة على تاريخ القاهرة القديمة فى الأبواب التالية ، ونقرأ وصفها فيما كتبه الرحالة من الفرس والمغاربة أى من الغرب والشرق الإسلاميين . غير أن مثل هذا الوصف لا يمكننا من أن ندرك إدراكا كاملا المدينة العربية التى ذهبت معالمها الآن .

ومهما يكن من شيء فإنه قد تبقى هناك حتى الآن أثر يرجع تاريخه إلى الفتح

(١) حذفنا من كلام المؤلف بعد هذا الكلام عبارة لا تمت إلى التاريخ الصحيح بصلة ، وإنما هى من قبيل الخرافات التى تجرى على ألسنة العامة .



(باب قصر الشمع)

العربي ، غير أنه ليس عربيا على أى حال . ذلك هو حصن بابليون الذى يقوم الآن حيث كان يشرف فيما مضى على خيام المسلمين ، ويشرف على الحاضرة العربية وهى تنمو تحت أسواره . ولكى نفهم سبب تسمية حصن بابليون بهذا الاسم — أو كما يسميه بعض باب لى أون أو باب أون ، يجب علينا أن نذهب إلى المطرية على بعد بضعة أميال شمالى القاهرة ، حيث تقوم مسئلة منعزلة هى كل ما تبقى من مدينة أون On أو مدينة هليوپوليس Heliopolis (مدينة الشمس) . وهناك فى وسط المطرية حارب الأتراك أمام هذه المسئلة المنعزلة فى المعركة الأخيرة التى انتهت باستيلائهم على القاهرة من أيدى المماليك فى سنة ١٥١٧ م . وهنا أيضا انتصر كبير على الأتراك فى سنة ١٨٠٠ . هنالك يقوم بعد أون On الذى كان بوتيفيراه Potipherah — حو يوسف — يعمل فيه كاهنا . هنالك أيضا كان بيانشى Pianchi — ملك الكهنة الأثيوبيين priest-king فى القرن الثامن قبل الميلاد — يستحم فى عين شمس ، ويقدم الثيران البيض واللبن والطور والبخور والأخشاب العطرية المختلفة ، وحيث رأى عند دخوله المعبد أباه رع Ra (إله الشمس) فى المحراب . وكانت هليوپوليس جامعة أقدم حضارات العالم ، والتى سبقت جميع المدارس فى أوروبا . ويغلب على الظن أن موسى كان يتلقى حكمة المصريين على أيدى كهنة رع . وهنالك عمل فيرودوت على نقش هذه التعاليم نفسها ، وأحرز شيئا من النجاح فى هذه السيل . وهنالك أيضا أتى أفلاطون لتلقى تعاليمه ، كإله العالم الرياضى يودوكسس Eudoxus ليدرس الفلك ، كما شهد استرابون Strabo المنازل التى عاش فيها مشاهير اليونان . وفى ذلك المركز العالمى ومصدر النفوذ الدينى ، لم يبق من آثار سوى تلك المسئلة . فلقد تكسرت ، صوريت شمس ، وضاع أثرها ، واحترقت ، منازل آلهة المصريين ، (١) .

وبجانب تلك المسئلة المنعزلة الآنفة الذكر نشاهد شجرة جميز عتيقة جفست بفعل الزمن ، وشوحتها الأسماء التى لا عد لها ، هذه الشجرة هى التى استراحت تحتها العائلة المقدسة (٢) حينما هربت إلى مصر ، ومن هنا سميت شجرة العذراء . وعلى

(١) أرميا : إصحاح ٤٣ آية ١٣ (المهد القديم) .

(٢) عائلة السيد المسيح .

مقربة من هذه الشجرة نبع ماء عذب ، وهو بلا شك منظر غريب في تلك الضاحية المقفرة . ويقال إن ماءه قد أصبح عذبا لأن الطفل ^(١) قد استحجم فيه . ومن هذه البقع حيث تساقطت قطرات الماء من قاطه الذي غسل في ذلك النبع المقدس ، نمت أشجار البلسم التي لم تنم — كما يعتقد البعض — في أى مكان آخر . وليس هناك شاهد من الشواهد يدل على صحة هذه الأوهام التي هي أشبه ما يكون بالخرافات . أما شجرة الجنين فقد خلفت بطبيعة الحال تلك الشجرة المزروعة ، وهي لم تزرع إلا بعد سنة ١٦٧٢ م . غير أن ما يقال من أن أرنياس Onias اليهودى بنى معبدا ليعبد فيه مواطنوه بالقرب من ذلك المسكن ، وأنه استحضر بعض المزارعين من اليهود ليتعهدوا نمو شجر البلسم ، يكسب هذه القصة شيئا من الصحة .

لقد اندثرت هليوبوليس ، ولكن حصنها المنيع باب أون ، الذي يحرسها ما زال يتحدثى الزمن . والواقع أن اسم بابليون مصر الذى يستعمل للدلالة على الحضارة (الفسطاط) وعلى الحصن ، يظهر كثيرا في تاريخ العصور الوسطى وأقاصيصها . مثال ذلك تلك القصة التي تصور لنا كيف انتصر بشارد قلب الأسد على صلاح الدين الأيوبي .

وسواء أكان هناك أساس لما رواه كل من استرابون وديودورس ، من أن ذلك الحصن بناه أول الأمر بعض المنفيين من بابليون العظيمة في بلاد كلدانيا ، فإن الحصن الحالى يرجع تاريخه إلى القرن الثالث — ولا يبعد أنه يرجع إلى القرن الثاني من الميلاد . والواقع أن منظر الحصن من الخارج يضيق على النفس كثيرا من العظمة برغم تصدع جدرانه ، وأن الرمال قد غطت قواعدها . غير أن منظره العام لم يطرأ عليه تغيير كبير ، إذ نستطيع أن نميز بوضوح طوايه الخمس وبرجيه المستديرين . أما الجدران فقد بنيت على الطريقة الرومانية التي كانت شائعة في ذلك الوقت : خمس طبقات من الأحجار وثلاث من الطوب على التبادل . أما الأساس فلا يبعد أن يكون قد طلى باللونين الأحمر والأصفر كما كان الحال في المساجد والدور الإسلامية . وحتى مظهر هذا البناء الضخم يجعل الإنسان يدرك في سهولة ما كان لاستيلاء العرب على هذا البناء من أهمية .

(١) السيد المسيح حينما كان طفلا في ذلك الوقت .

ونحن إذ نصل إلى داخل الحصن ، نستطيع أن نلصق لأول وهلة الطابع الخاص الذى يُطبع به هذا الحصن. ذلك أننا نمر خلال ممرات معتمة أضيق وأظلم وأقذر من الأزقة التى تقع وراء مدينة القاهرة . هنالك يأخذنا السكون الرهيب الذى يخيم على المكان بأكمله . والمنازل المرتفعة التى تحجب الشارع ليس فيها الكثير من زخارف المشرقيات التى تزين شوارع القاهرة . ولولا بعض الأصوات التى تصدر بين الفينة والفينة من داخل تلك المنازل ، وبعض الأبواب التى تترك نصف مغلقة ، لما خطر لنا على بال أن كان هنالك أى لون من ألوان الحياة فى ذلك الحصن . وبما يميز تلك المنازل كذلك صغر حجم نوافذها ذات القضبان الحديدية المتشابكة . وليس هناك حقا ما يدل على أن تلك الجدران المنبسطة تحوى بين طياتها ست كنائس ضخمة ، لكل منها هيكلها الخاص الحافل بالنقوش والصور والملابس الكهنوتية وغيرها من الأشياء التى ليس لها مثيل . والواقع أن الكنيسة القبطية تشبه المحريم عند المسلمين — فهى من الخارج غيرهما من الداخل . فكما أن منظر معظم المنازل فى القاهرة لا يدل على أى شئ مما يحويه داخل هذه المنازل من فناء واسع فى الداخل ، تحيط به غرف فسيحة نقشت على جدرانها أبدع الرسوم وأروعها ، وأسقف ليست بأقل بهجة ولا روعة . هذا فضلا عما تحويه من الطنافس الفاخرة التى تتلألأ من وراء ذلك الضوء القليل الذى ينعكس من وراء النوافذ ذات الزجاج الملون — كذلك الحال فى المكنائس القبطية حيث لا يمكنك أن تتكهن وأنت فى الخارج بما تحويه هذه الكنائس فى الداخل . فإن الأسوار العالية تحفى كل ما تحويه هذه المباني . والواقع أن القبط يجلسون فى العادة من الزايرين . وليس أدل على هذا من تلك الجدران المرتفعة المحيطة بالكنائس من الخارج ، والتى لا تحوى أى نقوش ليتخلصوا بها من تلك الملاحظات التى كانت تثير فيها مضى الشراة والتعصب الدينى .

وبعد أن نمر من الباب المتين ونعبر أحد الدهاليز أو نرتقى بعض الدرجات ، نجد أنفسنا أمام كنيسة ضخمة ، لها محراب قد تمجدها عليه أية كنيسة فى إنجلترا . وفى ذلك الضوء الضئيل نشاهد صفوفًا من تماثيل رائعة للقديسين تطل عليك من فوق المحراب والستائر ، كما نجد بعض المباركة منقوشة بالذهب باللغتين القبطية والعربية مشيدة بتمجيد الله سبحانه وتعالى ، على حين نجد فى أعلى المكان حنايا فى أحد حائقي الكنيسة ، تبين لنا أنه لا يبعد أن تكون ثمة كنوز أخرى فنية سوف

يكشف عنها في المستقبل . ولعل أهم ما تصطبغ به الكنيسة القبطية بوجه عام هو أنها من طراز بناء الكنيسة الباسيفية الشهيرة في روما . غير أن هناك بطبيعة الحال بعض أوجه الخلاف التي جعلت الكنيسة القبطية تخرج في بعض الأحيان عن هذا الطراز . والقبة القبطية تتميز بالطابع البيزنطي الذي يكاد يكون شائع الاستعمال في العالم . وفي بعض الأحيان قد نجد الكنيسة مسقوفة بمنقود من القباب يصل إلى اثنتي عشرة قبة . وتكون الكنيسة من صحن وأجنحة جانبية وبعض الأقواس (التي تشبه تماما أقواس الكنيسة الإيرلندية القديمة والتي لم تكن لتوجد في غيرها) . ومن النادر أن يكون لهذه الكنيسة أجنحة أو أنها تقرب من شكل الصليب . وفي مؤخرة الكنيسة مكان خاص تجلس فيه السيدات اللاتي يرى أهل الرأي من القبط أن يجلسن خلف الرجال ، ويحولون بذلك دون حدوث أي اضطراب في أثناء العبادة والصلوات في حالة جلوس الجنسين مع بعض كما يحدث في بعض الكنائس الغربية . ولذلك يفصل قسم النساء عن قسم الرجال حاجز ذو عوارض خشبية يكون عادة أعرض بكثير وأحسن زخرفة وتنسيقا . كما يفصل قسم الرجال عن المرتلين فاصل آخر .

والكنيسة تحوى ثلاثة هياكل مختلفة ومنفصلة ، كل منها تعلوه قبة (ليست على شكل نصف دائرة) خاصة به . وبداخل كل هيكل أنحر الستائر محلاة بصليبان من العاج والأبنوس والأشكال الهندسية المنقوشة على الطراز العربي على الخشب في براعة ودقة ، تعلوها صور وعبارات منقوشة بالذهب باللغتين القبطية والعربية (١) . وفي أثناء إقامة الصلاة تفتح الأبواب الداخلية والستارة الموشاة بالفضة ، فيبدو المذبح للجتماعين المتعبدين في صورة تذكرونا بالاحتفال الذي يثير العواطف كما يقام في كاتدرائية القديس إسحاق بمدينة بطرسبرج . فالأبواب المنقوشة والستائر

(١) انظر كتاب الدكتور بتر : الكنائس القبطية القديمة في مصر . Dr. A. J. Butler's "Ancient Coptic Churches of Egypt" ج ١ ص ٨٦ - ٦٩ . وقد أمدنا لأول مرة يبحث مبنى على دراسة علمية دقيقة عن هذه الآثار . والدكتور بتر وأبحاثه ليست بحاجة إل ثنائي ازياة قديتها ، ولكنى لأستطيع أن أفوت هذه الفرصة دون أن أقول كيف يجب أن يدين كل من يهتم بالفن المصرى لأبحاثه الرائعة التي تدل على مقدار ما أشقه من جهد في استقصاء الآثار القبطية . وبعد كتابه أعظم ما تملكه من المصادر عن هذا الموضوع الذى يأخذ بمشاعر القلوب ، والذي يرجع الفضل إليه فيما أفدته من معلومات .

المزركشة والمصاييح المتدلاة هنا وهناك والمشكيات التي تشبه بيض النعام — كل هذا يمطينا صورة المذبح أكثر من كونه مكعباً من الطوب أو الجبس ، بنطائه الحريري ، وتلك المشكاة التي لا تقدر بثمن قد وضعت في الجهة الشرقية ؛ وكان لها دلالة غامضة في غابر الأيام ، أما الآن فإنها تستخدم لوضع الصليب فيها وحوله أوراق الورد عند الاحتفال بيوم الجمعة الحزينة^(١) تمهيداً للاحتفال بعيد القيامة . والمذبح في الكنائس القبطية منزول عن جدران الهيكل التي تكون في الغالب مغطاة بصفايح الرخام الملون كما نرى في المساجد . وقد تكون الجدران في بعض الأحيان مغطاة بالزجاج الملون mosaic على الطراز المصري . أما السقف فقد رسمت عليه صور بارزة على الخشب ، وأخرى بالألوان المائية تمثل الاثنى عشر رسولاً وفي وسطهم السيد المسيح وهو يبارك الناس . ومن فوق المذبح رواق رسمت عليه صور الملائكة رسماً رائعاً . ويفصل الهيكل الرئيسى والمذبح التابع له عن الهيكلين الجانبين ستائر مصنوعة من الخشب الرفيع المشبك .

ومن الأشياء الغريبة في الهيكل ، ذلك الصندوق الذي يحمل كأس التناول المصنوع من الفضة الخالصة . وإن تلك المروحة التي تستخدم لطرد الهوام أثناء العشاء الرباني لا تقل مطلقاً عما تقدم في إثارة اهتمام الناظر . وقد نقشت من الفضة الخالصة بحيث يبرز النقش على السطح المقابل . وهناك مراوح مائلة في كتاب كېلا Kela الإيرلندى . وليس هناك إطلاقاً صليب يظهر عليه المسيح مصلوباً . وقد نجد في بعض الهياكل بقايا عظام أحد القديسين ؛ ولكن الكنيسة القبطية لا تحرم مثل هذه البقايا ، على الرغم من أن معظم الكنائس تحوى الكثير منها . وهناك كثير من المؤمنين يعلقون أهمية عظيمة على ما في هذه البقايا من خواص تساعد على الشفاء . وقد يكون أبدع ما رآه في الزخارف المعدنية في الكنيسة القبطية ذلك الصندوق الفضى الذي بداخله نسخة من الإنجيل يظن أنها ختمت بالشمع ، مع أنه ليس بداخله غير بعض أوراق الشجر . وهو في الغالب

(١) يوم الجمعة الحزينة هو اليوم الذي يحزن فيه الإقباط على صلب اليهود للسيد المسيح ،

وهو اليوم الذي يسبق وقتة عيد القيامة به المترجم .

مثل جميل للنقوش المعدنية التي تمثل الصيد فيبرز النقش على السطح المقابل . وهذا الصندوق يؤثر به من على المذبح حيث يتسلقه أحد الشمامسة ويضعه على المقرأ ثم يقرأ من إنجيل آخر هناك . والمقرأ نفسه شيء بديع أعد ليكون أداة من أدوات الزيتة . وذلك المقرأ الذي كان في الكنيسة المملوكة — والذي نراه الآن في كنيسة الأقباط الكبرى في القاهرة — مغطى بنقوش بديعة تشبه تلك النقوش التي نراها على أبواب المساجد ومنابرها .

ومن بين الكنائس الست التي كان يشتمل عليها حصن بابليون ، نرى ثلاثاً في غاية الروعة والبهاء . ذلك أنه على الرغم من أن كنيسة سان جورج الإغريقية التي تقوم على قمة البرج المستدير محلاة بالقرميد السوري والمصاييح المصنوعة من الفضة . فإن البرج الروماني نفسه أكثر إمتاعاً من الكنيسة المقامة عليه ، وذلك للبئر الذي في الوسط ، والدرجات الكثيرة ، والحجرات الغربية المتلاثة . ومن هذه الكنائس القبطية الأساسية الثلاث ، نجد كنيسة القديس سرجيوس أو « أبي سرجه » ، وهي التي يتردد عليها الناس أكثر من غيرها ، لأنه قد أثر أن العائلة المقدسة استراحت في ناووسها حيناً أتت إلى مصر . ومن المؤكد أن هذا الناووس أقدم من الكنيسة التي تعلوه بقرون كثيرة ، إذ يرجع تاريخها إلى القرن العاشر الميلادي . والكنيسة نفسها تتميز بساترة بديعة الصنع ، وعلى مقربة منها مثل واضح للنقوش القبطية القديمة التي تمثل ولادة المسيح والقديسين المحاربين وقد بدت صورهم بارزة . وثمة مثل آخر لهذه الصور المحفورة نراه في كنيسة القديسة برباره .

وإلى جانب كنيسة أبي سرجه وكنيسة القديسة برباره ، لا تزال هناك كنيسة قبطية نائية جدية بالذكر لا تقل عن هاتين الكنيستين روعة وبهاء . وهذه الكنيسة معلقة بين برجين رومانيين مرتفعين ، فوق باب من الطراز القديم منقوش عليه نسر . وقد سميت هذه الكنيسة — كما يدل على ذلك موقعها — الكنيسة المعلقة . وهذه الكنيسة جدية بالملاحظة وتثير الانتباه لعدة أسباب ، لأنها أقدم كنائس بابليون على الإطلاق ، ولأنها خالية تماماً من القباب . ولهذه الكنيسة مزايا أخرى ، فليس لها هيكل كغيرها من الكنائس ، بل هنالك منصة مرتفعة أمام السقف المنخفض في الجهة الشرقية . وهذه المنصة تؤدي الغرض الذي يؤديه الهيكل ، على حين نرى السقف مضاعفاً في الجانب الشمالي ، والحاجز المنقوش في

الجانب الشمالى مرصع بالزخارف المصنوعة من العاج الرقيق بما يزيد في بهجة المسكن وجماله حينما كانت تضاء المصابيح المعلقة خلفه . أما المنبر فقد نقش نقشاً بديعاً وأثاماً ، وهو مقام على خمسة عشر عموداً دقيقاً صنعت على الطراز الإسلامى ، مقسمة إلى سبعة أزواج أقيم أحدها في المقدمة . ولعل من أغرب ما تحويه الكنيسة المعلقة ، حديثتها المعلقة حيث ساعدت الحجرة على غرس النخيل في الفضاء على تأييد تلك الرواية القائلة بأن السيدة العذراء حينما أنت إلى مصر أفطرت بعد صياها من تمر ذلك النخيل .

وليس هذا مجال الكلام عن طقوس الكنيسة القبطية وعقائدها . إن صيام الأقباط الكبير الذى يستغرق خمسة وخمسين يوماً ، والذى يتمتع فيه الشخص امتناعاً تاماً عن الطعام منذ شروق الشمس حتى غروبها في كل من هذه الأيام — هذا الصيام لا شك أنه يوحى إلينا بصوم رمضان الأقل شدة عند المسلمين . وسر الزواج المقدس (١) يحمل بين طياته بعض العناصر الغريبة . غير أنه مما لا شك فيه أن معظم الاحتفالات التى تتم في الكنيسة القبطية لها وقارها وهيبتها . فإما من أحد يستطيع أن يشهد القداس في كنيسة قبطية دون أن يثير ذلك انتباهه . وكذلك لا يستطيع أحد ألا يتحرك لسبع أصوات الشمامسة وهم يترنمون في الكنيسة القبطية في صوت واحد مرتفع . ومهما يكن من شيء فلا ينبغي أن ننكر ما تدين به الكنيسة القبطية من إيمان قويم .

(١) للكنيسة القبطية سبعة أسرار ، وهى أعمال مقدسة ومنح إلهية مؤسدة من الله لتكون واسطة لنيل المؤمنين فيض نعمته . وهذه الأسرار السبعة هى : ١ - سر المعمودية ٢ - سر المبرون ٣ - سر القربان ٤ - سر الإعتراف ٥ - سر مسحة المرضى ٦ - سر الزواج ٧ - سر السكهنوت - المتبرج .

الباب الثالث

القطائع

ولاية الخلفاء - حلوان - معاملة السجين - الرهينة - الأقباط المحافظون - « المكر »
المدينة العباسية - ولاية العباسيين : ابن ممدود - عبد الله بن طاهر - الخليفة للأمن في مصر -
اضطهاد المسلمين والقبط - ولاية الأتراك - تشجيعهم الفن - أحمد بن طولون - « القطائع »
المدينة الجديدة - النقاية - جامع ابن طولون - مصادر المهارة العربية - حروب أحمد بن طولون -
قصور خمارويه - الخلفاء يستردون مصر - قلعة السكيتي .

أصبحت مصر بعد الفتح العربي سنة ٦٤٠ م ولاية تابعة للخلافة الإسلامية ،
ومن ثم أصبح يحكمها - كما كانت سائر الولايات الأخرى - ولاية من قبل
الخليفة . وقد احتفظ الخلفاء الأربعة بالمدينة المنورة التي اتخذها الرسول مقرا
للحكومة العربية حاضرة للخلافة . غير أنه بعد مقتل علي بن أبي طالب ، رابع
الخلفاء الراشدين ، حولت الدولة الأموية مقر الحكم إلى دمشق التي جاء منها معظم
الولاة الثلاثين الذين حكموا الديار المصرية في أثناء التسعين سنة التي تولت فيها
الخلافة الأموية الحكم . وكان بعض هؤلاء الولاة أولاد أو أخوات الخلفاء الذين
كانوا يتولون الحكم في ذلك الوقت . كما أن معظمهم كانوا من المقرين إلى أولئك
الخلفاء . ولم تكن لهم خبرة في أساليب الحكم وإدارة شئون البلاد ، كما كانوا
يجملون كل شيء سوى دينهم ولغتهم . وكانت غاية الخليفة في دمشق أن يحصل على
أكبر قدر ممكن من خراج الولايات التابعة له . وكانت مصر بوجه خاص ينتظر
إليها في ذلك الوقت على أنها بقرة حلب . وكان عمرو بن العاص الفاتح العربي أول
من حكم مصر . ولما استقر في حاضرتة الجديدة ، القسطنطينية ، أرسل نوابه في أنحاء
البلاد فتمكنوا من جمع ما يقرب من ستة ملايين جنيه من شعب يتراوح بين ستة
ملايين وثمانية ملايين نسمة . ولما توفي هذا المحارب القديم في التسعين من عمره
ودفن في تلال المقطم ، قيل إنه ترك سبعين كيسا من الدنانير (١) ، أو ما يقرب

(١) الدينار : عملة ذهبيه يبادل وزنها نصف جنيه من الذهب .

من عشرة أطنان من الذهب. غير أن أولاده الذين اشتهروا بالاستقامة اعتدروا عن أخذ نصيبهم من الميراث .

ومهما يكن من شيء ، فإن من المؤكد أن الولاة كانوا يولون وجوههم شطر الضرائب بنوع خاص ، وأنهم لم يهتموا بشئون البلاد بقدر ما كانوا يهتمون بتحصيل الجزية وضريبة الأراضي . وكانوا يجمعون هذه الضرائب وينظرون إليها كما لو كانت ملكا يتصرفون فيه كما شاءوا . وليس من شك في أن الوالي الذي كان متوسط مدة ولايته ثلاث سنين ونصف سنة ، والذي كانت معيشته بعد ذلك تعتمد في العادة على ما ادخره في خلال فترة حكمه — إذا عرفنا ذلك أدركنا أنه إنما وقع تحت إغراء شديد يدفعه إلى الاستفادة من هذه الفرص القصيرة بقدر ما يستطيع . وكان من بين هؤلاء الولاة الصالح وغير الصالح . غير أن قصر عهد الولاة واعتمادهم اعتمادا مطلقا على الخليفة في دمشق ، قد حدد من نفوذهم ونشاطهم . ومن ثم قنعوا بالعمل على حفظ النظام وإرسال الجزية إلى خليفتهم . بيد أن منصب الوالي لم يكن سهلا ميسورا . فقد كان هناك آلاف من جند العرب في القسطنطينة والإسكندرية وسائر المدن المصرية . غير أن الولاة المتعاقبين كانوا يجلبون معهم جنودا يحملون هذه البلاد . أما بقية السكان فكانوا من المسيحيين الذين عقدوا العزم على أن يظلوا على دينهم . والواقع أن تغيير المسيحيين لدينهم على نطاق واسع كان بمثابة نكبة تحمل على الخزينة ، لأن ذلك معناه ضياع جزية مقدارها جنبه عن كل شخص من أهل الذمة. غير أن تلك الأقلية كان لها خطرها ، بدليل أن أحد الولاة الذي ولي مصر بعد الفتح بنحو تسعين سنة ، قد يئس من إدماج عدد يذكر من المواطنين المصريين إلى صفوف المسلمين ، فلجأ إلى استدعاء خمسة آلاف من العرب وإسكانهم في الوجه البحري . والواقع أن مصر لم تصبح إسلامية إلا بخطوات وثيدة ، وبعد اندماجهم في أهالي البلاد الأصليين بالمصاهرة والزيادات المطردة في العرب النازحين إلى مصر عن طريق الهجرة . وقد اقتصر نزل العرب على المدن الكبيرة دون سواها ردحا طويلا من الزمن .

ولا بد أن تكون القسطنطينة نفسها قد اجتذبت عددا كبيرا جدا من القبط من المدن المصرية المجاورة التي بدأت تندثر . ولم يكن هؤلاء القبط من النساء اللاتي اتخذن الفاتحون العرب زوجات لهم وحسب ، بل من الرجال الذين عملوا في خدمة

الحكومة . وكان طبعيا أن تكون جميع الأعمال الحكومية في أيدي المحكومين من الشعب . ولم يكن عرب الصحراء ليعرفوا شيئا عن نظام الحكم أكثر مما كانوا يعرفونه عن النظام القبلي الذي درجوا عليه — ذلك للنظام الذي يقضى بأن تكون السن والفضائل أساس اختيار شيخ القبيلة ، ومن ثم نراهم يطبقون أينما حلوا تلك النظم التي وجدوها في البلاد التي خضعت لسلطانهم . وكانت الوظائف الروحية تنقل إلى ما يقابلها من الوظائف العريضة . وكان القبط — الذين ولدوا ليصبحوا كتابا وصيارفه — يتولون إدارة الدواوين جميعا . وقد ظلت الكتب الحكومية والوثائق العامة تدون باللغة القبطية نصف قرن . غير أن المنفعة لا تستلزم التسامح . ومن ثم لم يسلم المسيحيون دائما من الاضطهاد على الرغم من الخدمات التي كانوا يؤدونها للحكومة . ومهما يكن من أمر هذا الاضطهاد ، فانهم لم يعاملوا معاملة أسوأ من تلك المعاملة التي يتوهمها البعض أحيانا . ولقد ساعد القبط عمرو بن العاص حينما كان يغزو مصر ، ولذلك نجد عمرا يذكر لهم هذا الجليل فيمنح اليعاقبة امتيازات ويرد بطريقهم من منفاء إلى كرسيه . كما سمح وال آخر للقبط بأن يبنوا كنيسة لهم في مدينة القسطنطينية بجوار الجسر الذي كان يصل بين الحاضرة وجزيرة الروضة . (١) كذلك نجد واليا ثالثا هو عبد العزيز ابن الخليفة الأموي مروان بن الحكم ، يشتري أحد الأديرة في طمويه من الرهبان ويدفع لهم أكثر من عشرة آلاف جنيه ثمنا له حين أراد أن يمتلك داراً في الريف . ولقد ذهب هناك الاستشفاء من الجذام من الينابيع الكبيرة في حلوان التي تقع بين القاهرة ومنف . ومن عجب أن ندرك كيف أن هذه المدينة الصحية (وقد تحولت الآن نحو الصحراء) كادت تصبح حاضرة مصر . وقد بلغ من إعجاب عبد العزيز بجو حلوان أنه بنى هناك مساجد في سنة ٦٩٥ م ، كما بنى قصرا يعرف ببيت الذهب ، نسبة إلى قبة الذهبية . كما أنشأ في هذه المدينة حديقة غناء ، وغرس الأشجار ، وأنشأ بها بركة كبيرة وقناطر (٢) ، وبني مقياسا للنيل .

(١) يقصد مسلمة بن مخلد (٥٣ - ٦٢ هـ) الذي أقر القبط على بناء الكنائس مع منافاة ذلك لشروط الصلح . الترجمة .

(٢) ساق عبد العزيز الماء إلى البركة عن طريق قناطر معلقة (aqueducts) تصل الميون القريبة من القلعة بالبركة . وقد أخذ العرب عن الرومان هذا النوع من القناطر التي كانت منتشرة في بلاد الدولة الرومانية في القرن الثاني الميلادي . الترجمة .

وكان حد النيل الأدنى إلى ذلك الوقت يقاس في مدينة منف . غير أنه في سنة ٧١٦ شيد مقياس جديد للنيل في جزيرة الروضة . ثم بنى بعد ذلك مقياس آخر في طرف الجزيرة الأعلى في سنة ٨٦١ م . على أن الولاة المتعاقبين لم يشاركو عبد العزيز بن مروان في آرائه الخاصة من حيث مباحج حلوان أو من حيث علاقته بالقبط . ومن ثم نقرأ عن ذلك النظام الذى أدخله العرب وآثار غضب القبط فيما يتعلق بجوازات السفر والشارات التى تميز الرهبان والغرامات وألوان التعذيب وتحطيم الصور المقدسة ، مما أثار مثل ذلك السخط ، حتى إن الناس أذكروا الثورات . وقد وجدنا أن ملك بلاد النوبة المسيحي سار إلى مصر ليطلب إطلاق سراح أحد البطارقة الذى زج به في غياهب السجن .

ولم تسكن هذه الاضطهادات من جانب المسلمين على أى حال أكثر من اضطهاد المسيحيين لليهود في ذلك الوقت . غير أن هذا لا يبرر ما كان يقوم به المسلمون . ويظهر أن الرهبان هم الذين أثاروا تعصب المسلمين الأولين ، حيث لم نجد تعاليمهم الرهبانية قبولاً لدى هؤلاء المسلمين . ولقد حدث فيما بعد أن الخلفاء الشيعيين في القاهرة عاملوا رهبان القبط معاملة تنطوي على العطف والرعاية . غير أن الحال لم يكن كذلك في عهد الفتوح العربية . ولقد كانت الرهبة في مصر قوة لا يستهان بها منذ أقدم العصور . ففي القرن الثالث حدث أن انتشر أتباع القديس مرقس واستقروا في جماعات مختلفة في كافة أرجاء الدلتا ، وأخذوا يكونون ما يعرف «بالحكم المصرى» . ولا نعرف إلى أى حد نحن مدينون لأولئك النساك الأقدمين ، فيعتقد البعض أن المسيحية الإيرلندية التى تعتبر العامل الحضارى العظيم في العصور الوسطى الأولى بين الأمم الشمالية ، هى التى تنمخضت عنها الكنيسة القبطية . فهناك سبعة من الرهبان دفنوا في Disert Ulidh . وهناك كثير من الحفلات وأساليب العمارة في إيرلندة القديمة ، مما يذكر الإنسان ببقايا المسيحية في العصور الأولى في مصر . وكل منا يعلم أن الحرف التى كان يقوم بها الرهبان الإيرلنديون في القرنين التاسع والعاشر ، كانت تفوق إلى حد بعيد ما عساه يوجد في أى مكان آخر في أوروبا في ذلك الوقت . وإذا كانت نقوشهم البيزنطية الرائعة على الذهب والفضة والمصاييح ترجع إلى تعاليم المبشرين المصريين ، فإن من العدل أن نشكر القبط شكراً لا حد له . وبما هو معروف في تاريخ الفن أن العرب في بنائهم يدينون القبط بكثير من مباحج هذا الفن .

ومثل هذه الاعتبارات لم تكن لتستطيع بطبيعة الحال أن تؤثر في أناس كالعرب انعدمت لديهم الروح الفنية تماماً . فهم كانوا ينظرون إلى الرهبان الأقباط على أنهم مرشحون للوظائف الكتابية وحاملو أسرار جدية بالحصول عليها لصالح المؤمن . أما الزمالة أو الصداقة فلم يكن لها أى اعتبار . والحقيقة التى تقول بأن الاضطهاد لم يتخذ صيغة عامة ودائمة ، يجب أن تعزى إلى تكاسل بعض أفراد من الحكماء أو إلى طبيعتهم المتساعحة . كذلك تعزى إلى ذلك المثل الحكيم الذى يحرم ذبح الأوزة التى تضع بيضاً من الذهب . ونقرأ بين حين وآخر عن مذابح تنطوى على القسوة ، وعن ألوان التعذيب وتخريب الكنائس القبطية ، ثم لا تلبث أن تسمع عن إذن ببناء إحدى الكنائس أو إعادة بنائها . كذلك نجد القبط يجتمعون فى هدوء فى حصن بالبيون الذى كانوا يحتلونه دائماً لانتخاب بطريق لهم . وفى الوقت نفسه تظهر بعض العبارات التهكمية والصور الساخرة والتماثيل التى تمثل الشيطان معلقة جميعها على أبواب القبط . وكل ما يحدث من وقت إلى آخر ثورة أو مشاجرة فى الطرق تتمخض دائماً عن مذبح مروعة يتبعها تخريب كثير من الكنائس وسقوطها .

ولكن على الرغم من كل ذلك الاضطهاد ، ومن مروق ضفاف الرهبان من دينهم ، لا تزال الكنيسة تحتفظ بوجودها الذى يكتفه الكثير من الصناب . والواقع أن ثبات تلك الطبقة الجاهلة — لأن رجال الدين من القبط لم يكن لهم فى ذلك الوقت حظ من التعليم — على ما كان عليه الأفدومون من إيمان وعقيدة ، بما ينم عن الكثير من صفات البطولة والشهامة . فقد احتفظوا بطقوسهم واحتفالاتهم الدينية كما كان يقوم بها آبائهم من قبل ، ولو أن جدران كنائسهم الباقية الكثيرة الثقوب ، وأبوابها الضخمة المنيئة ، وعمراتها السرية — كل هذا يشهد بما كانت تتعرض له تلك الاحتفالات من أخطار . وكان كثير من هذه الكنائس يصل إلى درجة كبيرة من الفنى ، كما تدل على ذلك النقوش الرائعة . ولعل ذلك راجع إلى أن أصحابها لم يستطيعوا أن يستغنوا عن فن الكتابة والحساب الذى درجوا عليه . ولقد كان لاختصاص القبط فى هذا الفن واحتكارهم إيائه وتمسكهم بمقيدتهم القديمة أنهم لم يتغيروا حتى اليوم على الرغم من مرور القرون والأجيال ، بل لقد بقوا محافظين بشخصيتهم وتقاليدهم الخاصة برغم ما لحق بهم من ألوان الاضطهاد . فالقبط

ما زالوا حتى اليوم شعباً منعزلاً ، أقل امتزاجاً بالنم الأجنبي من ساكني وادي النيل . فلاحهم تذكرنا بملاح قدماء المصريين التي نراها على آثارهم ، وهي في هذا أقرب من ملاح الآمالى من المسلمين . وليست الناحية الجسمية وحدها هي التي تبين لنا أن القبط هم خلفاء قدماء المصريين ، بل إن اللغة أيضاً تدلنا على ذلك . فلهجتهم — كما نسمعا اليوم في طقوسهم واحتفالاتهم الدينية في الكنائس — ترجع في أصلها إلى اللغة الهيروغليفية وإلى حجر رشيد . وهم بطبيعة الحال يستعملون اللغة العربية في حياتهم اليومية . غير أن الكلمات المقدسة في دينهم لا تزال مفهومة لبعض الشيء لدى رجال الدين ، كما أنها تحتفظ في الوقت نفسه بمكانتها وجلالها بجانب الترجمة العربية إذا ما استخدمت في أغراض الكنيسة . وما يدل على جودهم أنهم يحتفظون بتلك اللغة القديمة ، لا من حيث النصوص التي تتعلق بها — وهي عبارة عن الكتابة على الآثار على شكل رسوم — بل من حيث هذا الضرب من الحروف الكبيرة البارزة التي نراها في المخطوطات الإغريقية القديمة . وإن شعباً من سلالة الفراعنة يتكلم بلغة رمسيس ويكتبها بحروف Cadmus ، ثم يستخدمها بعد ذلك في عقائده وطقوسه الدينية التي لم يستطع اثنا عشر قرناً من الاضطهاد أن يغير منها شيئاً — إن شعباً كهذا هو في الحق أعجوبة من أعاجيب التاريخ .

ولقد جاء الخلفاء العباسيون بعد أسلافهم الأمويين سنة ٧٥٠ م . وكانت مدينة القسطنطينية في ذلك الوقت مسرحاً لذلك الصراع الأخير . فلقد هرب مروان آخر خلفاء الدولة التي قدر لها الزوال إلى مصر حيث أشعل النار في طريقه إلى القسطنطينية ، وإلى البحر الذي كان يصلها بجزيرة الروضة . وبعد ذلك فر إلى الشاطئ الغربي للنيل . غير أن التدابير التي اتخذها قد ذهبت أدراج الرياح . ذلك أن القائد العباسي وجند خراسان سرعان ما وجدوا الوسائل لعبور النيل . وكان طواف المدن برأس مروان دلالة على زوال عهد وقيام عهد جديد . ونحن نعرف أن المعتصمين يمتنون أشد المقت أن يقيموا في دور من غلبهم على أمرهم . وهكذا تحول الخلفاء العباسيون عن دمشق وبنوا لأنفسهم حاضرة دائمة الصيت في بغداد . أما ولايتهم في مصر فقد صرفوا نظرهم عن بيت الإمارة في القسطنطينية ، وأسسوا ضاحية رسمية جديدة كقصر . أي بالذخيرة إلى باريس ، في المكان الذي عسكر فيه الجند ، وأطلقوا عليها

العسكر . . وكان موقع هذه المدينة في الناحية الشمالية الشرقية من القسطنطينية تقريباً على جزء من الحمراء القصوى التي كانت قد احتلتها ثلاث من القبائل إبان الفتح العربي ثم هجرتها فاستحالت إلى صحراء . في ذلك المكان تكوّنت ضاحية جديدة تمت على مر الزمن وغدت تمتد من القسطنطينية إلى جبل يشكر حيث يقوم جامع ابن طولون الآن . وسرعان ما بنى هناك مسجد وقصر للوالي وثكنات للجيش . ولم تلبث تلك الضاحية الجديدة أن امتلأت بالشوارع والمباني ، كما أحالت القصور الكبيرة بهذه المدينة الجميلة التي اتخذها الخنساء والستون واليا الذين كانوا يمثلون الخلفاء العباسيين مركزاً لحكومتهم مدة مائة وثمانين سنة . ولقد بنى أحد هؤلاء الولاة لنفسه في سنة ٨١٠ م قصراً صيفياً أطلق عليه « قبة الهواء » ، على طرف المقطم حيث بنيت قلعة القاهرة . وإلى ذلك المكان كان يختلج ولاية مصر من حين إلى حين لينعموا بالنسيم العليل . غير أن تلك الضاحية الجديدة لم تكن سوى حى للوظائف ودور للقضاء ، وهى في الوقت نفسه لم تقلل من أهمية القسطنطينية باعتبارها حاضرة مصر .

غير أن تلك الضاحية الجديدة لم يبق منها أى أثر . بل إن سجل الولاة الذين عاشوا هناك قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الزوال^(١) . ولقد كان عمل هؤلاء الولاة أصعب من عمل أسلافهم الذين حكموا مصر تحت ظل الخلفاء الأمويين . كما أنه كان عليهم أن يقضوا على الخلافات التي قامت بين المسلمين ، والثورات التي اشتعلت بين القبائل العربية والقبط . ولقد شهدت مدينة القسطنطينية هذه الثورات التي عرضت فيها رموس آلاف الثائرين ، كما أن شجاعة الخارجيين كان يفتأها الوهن حين كانوا يرون بأعينهم رموس زعمائهم وقد رفعت في جامع عمرو بن العاص . والواقع أن تاريخ هذه الفترة بين سنتي ٧٥٠ و ٨٦٠ م عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الفتن والثورات والمؤامرات السرية والعقائد الكاذبة والإلحاد والانشقاقات . غير أن هذه الاضطرابات قد أثرت في تلك الحاضرة الفنية . وكانت نزوات بعض الولاة أكثر إثارة لخط المدينين الأمنين . فلقد كان أبو صالح ابن ممدود في سنة ٧٧٩ م شديداً نوعاً ما ، فأظهر نشاطاً عظيماً في القضاء على

(١) لاوقوف على سنى حكم ولاية مصر راجع كتابي :

الصوصية وقطع الطريق في الريف . ولقد بلغ من رضائه بما اتخذته من إجراءات أن اكتفى بإقناع نفسه بعدم استحالة وقوع السرقات في المدن . وأدى به اقتناعه بهذا الاعتقاد إلى أنه أمر أهل القسطاط بفتح أبواب منازلهم وحواليهم في الليل ، وألا يتخذوا أية وسيلة من وسائل حمايتها أكثر من وضع شرائح القصب لمنع السكّاب من دخول الأبواب . كما منع حراس الحمامات من الجلوس فيها وقال : من ضاع له شيء فعلى أدائه . فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول : يا أبا صالح احفظها^(١) . وهكذا لم يكن أحد ليجرؤ على الاقتراب من تلك الملابس . وبطبيعة الحال فإن مثل هذا الأمن كان يستلزم الكثير من المهر والتيقظ من جانب ذلك الوالي . غير أن ما سنّه من القوانين الغاشمة عن الملابس وتدخله في شؤون الناس قد أهاج سخط الأهليين حتى لقد كانت قسوته أسوأ من الشرور التي قضت عليها .

وهناك قصة رويت عن الخليفة المشهور هارون الرشيد ، وإن لم تكن من القصص التي تجلب له الاحترام والتبجيل من ناحية الذين رشحوه للخلافة . ذلك أن أحد ولادة زمانه وبدعى موسى [بن عيسى]^(٢) العباسي كانت له خبرة واسعة بأعمال الحكم ، كما أحسن إلى القبط وسمح لهم بإعادة بناء ما تهدم من كنائسهم . وقد بلغ الرشيد أنه يريد الخروج عليه [ولا يبعد أن يخلفه إذا كان أحد أفراد بيته] فصاح : والله لا عزله إلا بأخس من علي بابي . فنظر فإذا عمر [بن مهران] كاتب [الخيزران] أم الرشيد ... يركب بغلا ... فخرج إليه جعفر [بن يحيى البرمكي] وقال : أتتولى مصر ؟ فقال : نعم . فسار إليها ، فدخلها وخلقه غلام على بغل لتقل فقصد دار موسى [في مدينة العسكر] فجلس في أخريات الناس . فلما انفض المجلس قال موسى [وكان لا يعرفه] : ألك حاجة ؟ فرمى إليه بالكتاب . فلما قرأه قال : لعن الله فرعون حيث قال : (أليس لي ملك مصر) ؟ ثم سلم إليه ملك مصر . فهدما عمر المذكور ، ورجع إلى بغداد وهو على حاله^(٣) .

(١) انظر كتاب الولاية وكتاب القضاة لأبي عمر السكندى ص ١٢٢ . المترجم .

(٢) ولي مصر ثلاث مرات : الأولى سنة ١٧١ - ١٧٢ هـ ، والثانية سنة ١٧٥ - ١٧٦ هـ ، والثالثة سنة ١٧٩ - ١٨٠ هـ . المترجم .

(٣) راجع كتاب النجوم الزاهرة لأبي المحاسن (ج ٢ ص ٧٨ - ٧٩) حيث وردت هذه العبارة عند كلامه على ولاية موسى بن عيسى الثانية . المترجم .

هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ أُخْرَى نَجِدُ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ وِلَاةَ أَكْفَاءٍ يَمُكُّ بِهِمْ مِنْ بِنْدَادِ أَحْيَانًا . وَمِنْ أَسْأَلِ هَؤُلَاءِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ وَالْإِسْكَانِيَّ شِمَالِي بِلَادِ فَارَسَ (حَيْثُ أَسَّسَ دَوْلَةً فِيهَا بَعْدَ) . وَكَانَ عَمَلُهُ فِي مِصْرَ يَنْحَصِرُ فِي طَرْدِ جُمُوعٍ ضَعِيفَةٍ يَخْشَوْنَ الْجَوَّ إِلَى مِصْرَ مِنْ أَسْبَانِيَا ، وَكَانُوا قَدْ اسْتَوْلَوْا عَلَى الْإِسْكَانْدَرِيَّةِ حَيْثُ سَاعَدَتْهُمْ لِاحْدَى الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْمُتَحَمِّسَةِ عَلَى الْخُرُوجِ عَلَى الْحُكُومَةِ . غَيْرَ أَنَّ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ اضْطُرَّ فِي أَثْنَاءِ اضْطِلَاعِهِ بِهَذَا الْعَمَلِ إِلَى الْقَبْضِ عَلَى سَلَفِهِ [عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ الْمُرِّي] الَّذِي أَبِي أَنْ يَنْزِلَ لَهُ عَنِ الْوِلَايَةِ . وَكَانَ مِنْ أَثَرِ ذَلِكَ أَنَّ حَوْصَرَتِ الْقِسْطَاطُ بِرَا وَبِحَرَا فِي سَنَةِ ٨٢٦ م . وَقَدْ حَدَّثَ أَنَّ جَاءَ إِلَى مَعْسَكِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ فِي لِاحْدَى اللَّيَالِي أَلْفَ عَبْدِ وَأَلْفَ جَلَارِيَّةٍ يَحْمِلُ كُلُّ مِنْهُمُ أَلْفَ دِينَارٍ فِي كَيْسٍ . غَيْرَ أَنَّ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِي أَنْ يَقْبَلَ هَذِهِ الرِّشْوَةَ ، وَأَرْغَمَ حَامِيَةَ الْحَصَنِ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْمَدِينَةِ بَعْدَ أَنْ مَاتَ أَكْثَرُهُمْ مِنْ شِدَّةِ الْجُوعِ . وَلَكِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ عَادَ إِلَى فَارَسَ لِسُوءِ الْحَظِّ بَعْدَ أَنْ انْتَهَتْ مَهْمَتُهُ ، وَقَدَدَتْ مِصْرَ مِثَالًا نَادِرًا لِلْحُكْمِ الْعَادِلِ الرَّحِيمِ ، كَمَا كَانَ عَالِمًا مَحْبًا لِلشَّعْرِ مَعْضَدًا لِلشَّعْرَاءِ . وَعَمَّا يُوْثَرُ عَنْ حُكْمِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ وَالْمَبْدَلَاوِيَّ ، ذَلِكَ التَّوَعُّعُ مِنَ الشَّهَامِ الَّذِي أَدْخَلَهُ عَبْدُ اللَّهِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ فِي مِصْرَ وَالَّذِي تَذَوَّقَهُ الْأَوْرَبِيُّونَ فِي أَيِّ فَنْدَقٍ مِنْ فَنَادِقِ الْقَاهِرَةِ . وَلَقَدْ حَدَّثَ فِيهَا بَعْدَ أَنْ جَاءَ الْخَلِيفَةُ الْمَأْمُونُ بْنُ هَارُونَ الرَّشِيدُ بِنَفْسِهِ إِلَى مَدِينَةِ الْعِسْكَرِ فِي سَنَةِ ٨٣٢ م لِإِخْلَادِ تِلْكَ الثَّوْرَةِ الْجَمَاعَةِ الَّتِي أَذْكَى نَارَهَا الْقَبْطُ فِي الْوَجْهِ الْبَحْرِيِّ . وَقَدْ اشْتَهَرَ الْمَأْمُونُ بِتَشْجِيعِ الْعِلْمِ وَالْفَلَسَفَةِ . فَقَدْ أَتَمَّ الْقَضَاءَ عَلَى الثَّوْرَةِ بِأَحْكَامٍ وَمِنْ غَيْرِ شَفَقَةٍ ، حَتَّى إِنَّهُ لَمْ يَقُمْ بَيْنَهُمْ حَرَكَةٌ قَوْمِيَّةٌ فِيهَا بَعْدَ مِنْ هَذَا الْقَبِيلِ . وَقَدْ دَانَ بِالْإِسْلَامِ كَثِيرٌ مِنَ الْقَبْطِ ، وَاسْتَقَرَّ الْعَرَبُ فِي الْأَرَاضِ وَالْقُرَى بِدَلَا مِنْ الْمَدِينِ الْكَبِيرَةِ ، وَبِذَلِكَ أَصْبَحَتْ مِصْرُ آخِرِ الْأُمَمِ بِلَادًا إِسْلَامِيَّةً . وَكَانَتْ تِلْكَ هِيَ الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي يَزُورُ فِيهَا النَّبِيلُ خَلِيفَةُ عَبَّاسِي . وَمِنْ ثَمَّ وَجَدْنَا الشَّعْرَاءَ يَنْسَابِقُونَ إِلَى مَدْحِهِ مَدِيحًا عَاطِرًا . غَيْرَ أَنَّ الْمَأْمُونُ حِينَ شَاهَدَ هَذَا الْمَنْظَرَ مِنْ رَقَبَةِ الْهَوَاءِ تَمَلَّكَهُ الْاسْتِيَاءُ وَقَالَ مَا قَالَهُ مُوسَى بْنُ عِيسَى وَالْمِصْرِيُّ الْأَسْبَقُ : « لَعَنَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ حَيْثُ قَالَ (أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ) ؟ » (١)

غَيْرَ أَنَّ زِيَارَةَ الْخَلِيفَةِ الْمَأْمُونِ مِصْرَ وَإِنْ كَانَتْ قَدْ أَخَذَتْ ثَوَرَاتِ الْقَبْطِ فَإِنَّهَا أَثَارَتْ مَتَاعِبَ أُخْرَى جَاءَتْ نَتِيجَةً لَهَا . فَلَقَدْ كَانَ مِنْ أَثَرِ شَفَقَتِهِ بِالتَّفْسِيرِ فِي اللَّهِ

وفيما وراء الطبيعة — ذلك التفكير الذي أدى إلى تشجيع دراسة الفلسفة اليونانية في بغداد — أنه دان بالعقيدة التي تقول بخلق القرآن والتي تعارض رأى المسلمين من أهل السنة معارضة صريحة. وكان هذا المذهب الجديد البغيض بمثابة امتحان للقضاة. كما أن كل من حدثته نفسه بمعارضة هذا الرأى كان يلقي كثيرا من ألوان العنت والإرهاق. ولقد حدث أن عارض أحد قضاة القضاة في القبطاط هذا المذهب، فزعت لجيئة وطيف به في طرقات المدينة وضرب بالسوط وهو على حمار. كما أن أساتذة مدارس المذهبيين الحنفى والشافعى قد طردوا شرطردة من جامع عمرو ابن العاص. هذا من جهة، ومن جهة أخرى كان هذا العار أقل ما لحق بإنسان، لأن القضاة كانوا في ذلك الوقت يمثلون فريقا لا يستهان به من موظفى الحكومة المصرية. ذلك أنهم كانوا يعرفون بالاستقامة والنزاهة بصفة عامة. كما أن قاضى القضاة كان مستقلا تمام الاستقلال عن سلطة الوالى، وكان بمثابة وزير العدل في مصر في ذلك الوقت، يفسر الشريعة ويشرف على تطبيقها. ولم يكن يتردد في اعتزال منصبه إذا لم تقبل أحكامه. ومهما يكن من شئ، فإنه لم يكن مستعدا لأن يكبح جماح نعصب بنى جلده. وقد تبع القضاء على ثورة المسيحيين اضطهاد لم يسبق له مثيل. وبعد وفاة الخليفة المأمون أخذ عدااء أهل السنة يظهر من جديد، وجاء الخليفة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) فأصدر عددا من القوانين التافهة بقصد إذلال القبط (٨٥٠ م) : دأمر (سنة ٢٣٥ هـ) أهل الذمة بلبس الطيلاسة المسلية وشد الزناير، وركوب السروج بالركب الخشبية... وعمل رقعتين على لباس رجالهم... وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب (أو نسانيس أو كلاب)، ومنعهم من لبس المناطق... ونهى أن يظهروا فى شعائهم صليبا وأن لا يشعلوا فى الطريق نارا^(١). وكان الغرض من هذا بطبيعة الحال تهيئة الفرصة لاغتصاب الأموال وفرض الغرامات على كل من تسوله نفسه بمخالفة لوائحه.

ولسنا فى حاجة إلى أن نسهب فى الكلام عن فترة الحكم العربى فى مدينتى القسطنطين والعسكر. فإن الولاة من الغرب لم يخلقوا من ورائهم إلا أثرًا ضئيلا. ومع أنه مما يؤسف له أنه لم يبق أماننا اليوم مثل واحد من أبنيتهم — مما كان يكون حلقة من حلقات الفن الإسلامى — فلا بد أنه كان لتلك المباني قيمة عظيمة.

(١) القرزى: كتاب المخطوط ج ١ ص ٤٩٤.

والواقع أن العرب لم يتكروا في الفن شيئا . وما يعرف في أسبانيا ، بالفن العربي
يرجع في أصله إلى أجناس أخرى أكثر رقا من العرب . كذلك في مصر فإننا
لا نجد أى أثر للفن الإسلامى إلا حينما أخذ الخلفاء يفلدون مصر ولاة من الأتراك .
وفي الوقت الحاضر نسمع الكثير عن سوء حكم الأتراك . ولكن فليكن هذا
الحكم طيبا أو سيئا ، فإن أحدا لا يستطيع أن يشكر أن التركي يستطيع أن يحكم .
ذلك أنه في العصور الوسطى كان يبدو أن الأتراك هم الشعب الوحيد الذى كان
يملك أساليب الحكم . وليس أدل على هذا من أن أعظم حكام آسيا في القرن الحادى
عشر الميلادى هو ملك شاه السلجوقى وكان تركيا . كذلك كان ما نطلق عليهم
مغول الهند من أمثال بابر ، من الأتراك . وحينما قسمت أوروبا المنازعات
والمنازعات كان نفوذ سلاطين الأتراك في القسطنطينية يمتد من نهر الطونة إلى
المحيط الهندى ، ومن القوقاز إلى جبال أطلس . وليس أشد عجبا من هذه الحقيقة
وهى أنه حينما وجد حكم تركى في العصور الوسطى ازدهرت الفنون والآداب بما
لذلك . والواقع أن الفن لم يتعش في بلاد كثيرة حتى أتى الأتراك فاستمد وحيه
منهم . وليس معنى ذلك أن الأتراك أنفسهم كانت لديهم قدرة فائقة خاصة على
الابتكار في الفن أو الأدب — ذلك أنه من الصعب أن نشير على الأقل من بين
الحكام من الأتراك الذين حكموا مصر — مع فترة تقل عن مائتى سنة كان جميع
حكامها تقريبا أتراكا في الأحد عشر قرنا الماضية — إلى عدد كبير كان أهلا
لترقية الثقافة . على أن ذلك كان يرجع إلى تلك اليد القوية التى ساعدت على
استقرار النظام الذى هو من مستلزمات نشر الثقافة . ثم إن جنودهم كانوا
لا يتورعون عن جلب النقود التى كان الحكام في حاجة إليها لبناء القصور الفخمة
التي كانوا يحبون أن تنعكس عليها قوتهم وراثتهم . ولا يبعد أن يكون لأولئك
الحكام شغف غريزى بالفن ، كما أن معظمهم كانوا مولعين بالبخ وحب الظهور ،
مباينين إلى أن يحيطوا أنفسهم بكل ما هو فاخر ونفيس . كما أن كثيرين منهم كانوا
يعتقدون أن وقف المال على أماكن العبادة قد يكفر عن الذنوب التى يرتكبها
الفرد في حياته . وهم في هذا إنما يذكرون قول النبي صلى الله عليه وسلم : « من بنى
بيتا لله ولو كفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنة » . ومهما يكن من شأن الأسباب
التي دفعت الأتراك إلى هذا كله ، فإن الحقيقة التى سوف تبقى دائما هى أننا نجد

أثرا لنفوذ الأتراك في جميع أنحاء الشرق من البوسفور إلى الكنج . وإلى أترك
دلى وأجرا يرجع الفضل فيما عرفناه عن قطب منار والتاج والزينات الدقيقة في
قائبور سكرى . كذلك بنى الأتراك مسجد عطاء الله في چونبور ، ومساجد أحمد
أباد والفور وبيجاپور . كما بنى الأتراك السلاجقة المباني الفخمة في قونية وقيسارية
وسواس وغيرها من مدن آسيا الصغرى . أما الأتراك العثمانيون فقد بنوا أضرحة
برومة والمساجد السلطانية التي تأتي في الأهمية بعد مسجد القديسة صوفيا في
القسطنطينية . ومثل هذا تماما نجده في مصر . فأول نموذج للفن الإسلامي
الحال لم يظهر إلا حينما بدأ الأتراك يقبضون على زمام الحكم . فإلى سنة ٨٥٦ م كان
حكام مصر جميعا من العرب ؛ وباستثناء جامع عمرو بن العاص ، لم يكن هناك
ما يتميز بالطابع العربي . أما منذ سنة ٨٥٦ م فإن حكم مصر قد أصبحوا من
الأتراك . وبعد عشرين سنة ظهر جامع ابن طولون ، أول وأعظم المباني التي
تتميز بطابع الفن العربي في مصر .

وإذا أردنا أن نبين كيف آل حكم مصر إلى الأتراك ، فقد يخرج بنا ذلك
كثيرا عن نطاق الموضوع الذي نحن بصدده ، وهو تاريخ القاهرة نفسها . ولكن
الذي يهمنا أن نعرفه هنا ، أن تلك الحركة — التي ساعدتها سياسة الخلفاء —
كانت جزءا من تلك الحركة الكبرى التي قامت بها شعوب أواسط آسيا ، والتي
كانت قد بدأت منذ فجر التاريخ . ذلك أن العباسيين قلقوا من ازدياد نفوذ ولاية
الاقاليم في بلاد الفرس . كما أن تلك القبائل العربية الثائرة قد هددت نفوذهم في
بلاد الجزيرة . ومن ثم نجد العباسيين يبعثون في طلب حرس من المرتزقة الذين كانوا
يجلبون من أسواق النخاسة ببلاد ما وراء نهر جيحون ، وأخذ بتسلحهم العجب
والزهو بحماية هؤلاء الشبان الأقوياء من الأتراك . غير أن هذه المسألة لم تلبث أن
تمحضت عن سؤال حائر لم يكن في الحسبان . وقد أدرك خلفاء بغداد المترفون
بعد فوات الفرصة أنهم بشرائهم أولئك العبيد الأشداء قد حكموا على أنفسهم
بالاستعباد . وغدا رئيس الحرس ناظرا للسراي^(١) في بغداد مع الخلفاء المستضعفين .
وبدأ الأتراك يشغلون مناصب الدولة ، وعهدوا إلى أصدقائهم بتقلا الولايات
العربية للحصول على إيراد هذه الإقطاعات دون أن يهتموا بمشاغل الحكم . وقد

(١) يشير بذلك إلى نظار السراي Maires du palais في أواخر عهد ملوك البروقيجيين ، المترجم

حدث أن كان بعض الأمراء الأتراك يعيشون في بغداد أو في غيرها من بلاد الجزيرة ويحتفظون بهذه الإقطاعية ويحصلون على ما يفيض من خراج مصر عن طريق نوابهم من العرب . غير أنه في سنة ٨٥٦ أصبح النائب صاحب الإقطاع من الأتراك . وفي سنة ٨٦٨ أرسل بابك صاحب إقطاع مصر أحمد بن طولون زوج ابنته ليحكم مصر نيابة عنه .

كان أحمد بن طولون في الثالثة والثلاثين من عمره حين وصل إلى القسطنطينية . وقد جمع بدرجة رائعة بين الكفاية الحربية والإدارية التي امتاز بها أبناؤه جلده ، إلى جانب الثقافة الإسلامية التي كانوا حديثي عهد بها . وقد تلقى علومه على علماء بغداد ، بل سافر إلى طرسوس حيث تلقى العلم على بعض علمائها . وتعمق في دراسة اللغة العربية والمعتقدات الإسلامية . وكان إلى جانب ذلك ذا نشاط لا يحد ، صادق الفراسة ، كما عرف كيف يختار مروسية ويستغلهم لمصلحة دولته . وكان عادلا شجاعا جوادا . وكان شعاره : من مد يده إليك فأعطه ، وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر متواترة ، وكان راتبه لذلك ألف دينار في كل شهر . وقد جاء مصر مفلساً اللهم بما اقترضه من أحد أصدقائه ، ولكنه خلف عند وفاته عشرة ملايين دينار في بيت المال ، سوى عدد عظيم من ثمنه وخيوله ومائة سفينة حربية . ومع ذلك فإنه أتم هذه الأعمال الاقتصادية دون أن يلجأ إلى زيادة الضرائب . والواقع أنه ألغى ضرائب كثيرة مختلفة ، وكان يعتمد في دخل دولته على تشجيع الزراعة . فقد كان شديد الاهتمام بالزراعة ، وكان يعمل دائماً على أن يجعل الفلاح آمناً في أرضه . ولأول مرة منذ الفتح العربي نجد مصر دولة قوية ذات سيادة . ذلك أن أحمد بن طولون سرعان ما أبطل كل مظهر من مظاهر الاستقلال سوى التبعية الاسمية للخلافة . وبعد أن تغلب على الدسائس وقع ثلاث ثورات قامت في مصر ، سار إلى سورية واحتل أرضها حتى بلغ طرسوس والفرات . وحارب جيوش الخلافة ، كما حارب جيوش الدولة البيزنطية المقيمة على الحدود عند كيليكيا ، ومد نفوذه من الأراضي الممتدة من برقة في ليبيا حتى حدود الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى ، ومن نهر الفرات حتى شلال النيل الأول .

وإلى جانب هذه السياسة الاستعمارية بذل أحمد بن طولون جهوداً جبارة وأموالاً ضخمة على تجميل حاضريته . فان دار الإمارة في العسكر — وهي الضاحية الرسمية



(منظره جامع ابن طولون)

في القسطنطينية — قد ضاقت بحاشيته وجنده الكثيرين . ولم يكن ليقتنع بمجرد قصر يكون مقرا لحكمه . وفي سنة ٨٧٠ م اختار المكان الواقع إلى أقصى الشمال الشرقي من العسكر بين جبل يشكر وسفح المقطم قرب دار الإمارة . وأمر بجرث قبور المسيحيين واليهود ، وأسس ضاحية رسمية جديدة تسمى « القطائع » . وقد سميت كذلك لأن لكل طبقة (مثل غلبانه وغيرهم من الروم والسودانيين) قطعة خاصة بها . وكانت المدينة الجديدة تمتد من الرملة الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين ، وهي مساحة قدرت بميل في ميل . أما القصر الجديد فقد بني تحت « قبة الهواء » (١) القديمة ، وجعل له حديقة غناء وميدانا فسيحا يضرب فيه بالصوالجة . ويلحق بهذا الميدان بناء خاص بتربية الخيل وآخر لعرضاها . وكانت دار الإمارة

(١) أنشأها حاتم بن هرثمة عامل الامين العباسي على مصر على جبل المقطم حيث جبل المقطم الآن . المترجم

جنوب الجامع العظيم الذى لا يزال قائما إلى الآن . وكان للقصر طريق خاص يخرج منه ابن طولون للصلاة . أما الحرم فكان لمن قصر منفصل . وسرغان ما عمرت هذه المدينة وأقيمت فيها الحمامات العظيمة والأسواق ووسائل الآبهة والبذخ (١) . وقد بنى القواد والضباط دورهم حول القصر ، وأقيمت الدور العظيمة ، وأصبحت أسواقها أحسن من أسواق القسطنطين ، وزخرت بمختارات السلع وأحسنها . أما الميدان الذى كان أحمد بن طولون وقواده يروحون فيه عن أنفسهم بأن يلبعوا فيه بالصوالجة (٢) ، فقد أصبح المكان المفضل الذى يختلف إليه الناس . وقد بلغ من شغف الناس بذلك الميدان أن كنت إذا سألت أحدا : إلى أين أنت ذاهب ؟ أجاب : إلى الميدان . وكان لهذا الميدان أبواب كثيرة كل منها لطبقة خاصة : فهناك باب الخاصة وباب الحرم . كذلك كانت هناك أبواب تسمى بأسماء خاصة مميزة ، كباب السباع وعليه سبعان من جبس ، وباب الساج لأنه عمل من خشب الساج ، وباب الدرهمون لأن حاجبا أسود يحمل هذا الاسم كان يجلس عنده . ولم يكن أحد يستطيع أن يمر من الباب الأوسط سوى أحمد بن طولون نفسه . وكان جنده الذين بلغ عددهم ثلاثين ألفا يمرون من البابين الجانبيين . وكان الأمير يجلس في أيام عرض الجيش في مكان مرتفع يشرف منه على القطائع ، ويرى الناس وهم يدخلون من باب الصوالجة ويمرون من باب السباع الذى كانت تملؤه مقصورة خاصة يجلس فيها في ليلة العيد ، حتى إذا رأى أحدا في حاجة إلى إصلاح حاله ، أمر له بما يصلحها . وكان هذا المنظر يمتد من هذه المقصورة إلى مدخل القسطنطين وإلى النيل ، ولذلك كثيرا ما كان هذا الأمير يفضل الجلوس فيها .

وكان الماء يصل إلى القصر من عين في الصحراء الجنوبية عن طريق قناطر معلقة لا تزال آثارها باقية إلى اليوم — وليست هذه هي القناطر التي يجرى فيها الماء من القلعة إلى النيل والتي ترجع إلى عصر متأخر كثيرا . غير أن الناس بدوا يتشككون في قيمة هذا الماء الفراح الذى لم يعتادوه من قبل حيث كانوا

(١) أنظر كتابنا تاريخ مصر في العصور الوسطى ص ٦٠ - ٧١ . الفريرى : خطط ج ١

ص ٢١٣ ، ٢١٥ .

(٢) يراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الانجليز باسم «بولو» polo وهي شبيهة بلعبة كرة القدم . المترجم

يشربون من مياه النيل والآبار العكرة . وقد اتصلت الشائعات بابن طولون ، فبعث في طلب الفقيه محمد بن عبد الحكم ليستجلى حقيقة هذه الشكوك . وقد روى هذا الفقيه تلك القصة فقال :

« كنت ليلة في دارى إذ طُرقَت بخادم من خدام أحد بن طولون فقال لى : الأمير يدعوك ، فأيقنت بالهلاك وقلت للخادم : الله الله فى فإنى شيخ كبير مضعف مسن ، فتدري (كذا) ما يراد منى ؟ فارحمنى ا فقال لى : حذار أن يكون لك فى السقاية قول . وسرت معه وإذا بالمشاعل فى الصحراء وأحد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشمع ؛ فزلت ولسلت ، فلم يرد على ، فقلت : أيها الأمير إن الرسول أعنتنى وكذبتى وقد عطشت ، فيأذن لى الأمير فى الشرب ؟ فأراد الغلبان أن يسقونى ، فقلت : أنا آخذ لنفسى ، فاستقيت وهو يرانى ، وشربت وازددت فى الشرب حتى كدت أنثشق ثم قلت : أيها الأمير اسقاك الله من أنهار الجنة ، فلقد أرويت وأغنيت ، ولا أدرى ما أصف ، أطيب ماء فى حلاته وبرده أم صفاته ؟ أم طيب ريح السقاية ؟ فنظر لى وقال : أريدك لأمر ليس هذا وقته فاصرفه ، فانصرف فقال لى الخادم : أصبت ؛ فقلت : أحسن الله جزاك فلولاك لمهلك . »

على أن الأثر الذى خلده اسم ابن طولون حقا ، هو جامع الذى بقى وحده من مدينة القطائع العظيمة بعد أن دهمتها الحرب الأهلية وفعل فيها الإهمال فعلة . والواقع أن هذا المسجد أبدع ما فى مصر الإسلامية من آثار ، كما أنه نقطة تحول هامة فى تاريخ العمارة . وهناك شيان يميزان هذا المسجد بصفة خاصة : الأول أنه بنى من مواد جديدة تماما ، وليس من أسلاب الكنائس والمعابد القديمة ؛ والثانى أنه المثال الأول لاستعمال الأروقة المدببة الشكل ^(١) ، وهى الأروقة التى لم تظهر فى إنجلترا إلا بعد ذلك بقرنين على الأقل . وهذه الأروقة مدببة فعلا ، ولها قاعدة تماثلها قليلا ، ولكن شكلها لا يشبه نعل الفرس . وبرى لنا المقرئ كيف أن

(١) نرى فى الواجهة الجنوبية الغربية لمسجد عمرو بن العاص بعد زيادته على يد عبد الله بن طاهر فتحات مدببة هى الأولى فى مصر ، ظهرت بعدها هذه القوود المدببة فى جامع ابن طولون .
الترجم .

أحمد بن طولون عثر على كنز في تلال المقطم في مكان يسمى تنور فرعون ، وأنه عول على أن يبني به مسجدا جامعا بعد أن ضاق مسجد العسكر بالمصلين ، وعمل على أن يكون الموضع الذي يبني فيه ذلك المسجد تلك القمة الصخرية المسطحة بأعلى جبل يشكر ، لأنه مكان مبارك معروف بإجابة الدعوات ، إذ كان بعضهم يعتقد أن موسى كلم يهوذا عليه . وفي هذا المكان وضع ابن طولون أساس المسجد في سنة ٨٧٦ م [٢٦٣ هـ] . وبعد سنتين تم بناؤه وأقيمت فيه الصلاة بحضور الأمير .

وقد واجهت أحمد بن طولون صعوبة في الحصول على الأعمدة الثلاثة التي دعت الحاجة إليها لحل العقود . غير أن مهندسه - وكان مسيحيا وقبطيا من غير شك (١) - كتب إليه ، وكان مسجوناً في ذلك الوقت ، أنه يستطيع بناء المسجد بلا عمد إلا عمودى القبلة . ومن ثم أمر الأمير بإحضاره وقال له : « ويحك ! ما تقول في بناء الجامع ؟ فقال : أنا أصوره للأمير حتى يراه عيانا بلا عمد إلا عمودى القبلة » . فأمر بأن تحضر له الجلود ، فأحضرت ، وصوره ، فكان ذلك بلا شك أول ما عرف عن نماذج بناء المساجد . ووقف أحمد بن طولون على مزايا هذا التصميم في الحال ، فظلع على المهندس ، وعهد إليه ببناء المسجد ، وأعطاه مائة ألف دينار لتنفيذ مشروعه . ولما تم البناء أعطاه عشرة آلاف دينار أخرى . وبلغ ما أنفقته ابن طولون على بناء هذا المسجد ما يربو على مائة وعشرين ألف دينار ، أى نحو ثلاثة وستين ألف جنيه . وإن استعمال العقود والدعائم من الآجر بدل استعمال الأعمدة من الرخام يرجع إلى كراهة ذلك الأمير حرمان الكنائس المسيحية من أعمدتها الكثيرة ، كما يرجع بوجه خاص إلى رغبته في أن يكون مسجده بمنجاة من الحريق . وقد قيل له إنه إذا بنى مسجده من الآجر الأحمر والرماد والجير فإنه سوف يقاوم النار أكثر مما لو استعملت أعمدة الرخام في بنائه . ومهما يكن من شيء فإن الحقيقة التي لا ريب فيها أن هذا المسجد قاوم النيران التي دمرت سائر مباني القلايع ، وأن استعمال هذه الطريقة الجديدة في البناء ، وهى استعمال الدعامة المصنوعة

(١) أطلق الفريرى على هذا الرجل « النصراني » ، ولو كان يزعمنا لسماء « الروى » .

وروى السعوى قصة طويلة عن المحادثات التي دارت بين ابن طولون وبين رجل قبطى ذكرى كبير السن من أهال الصعيد كان من القرين إليه ، وكثيرا ما كان ابن طولون يجلس معه ويتعلم أشياء عجبة كثيرة اكتسبها من خبرته .

من الآجر بدل الأعمدة الرخامية ، قد أدى إلى استخدام العقود المدببة . كما أن استعمال الرغام قد أوحى باستعمال الجص في الزخرفة التي لا يزال كثير منها محفوظا بروعته إلى اليوم .

ويتكون الرواق الجنوبي الشرقي ، أي رواق القبلة ، من خمس بلاطات (Aisles) ^(١) ، ومن بلاطتين في كل من الأروقة الثلاثة الأخرى . والدعائم تعلوها عقود مغطاة بالجص ، وكذلك الزخارف التي نجدها على الأروقة وبواطن العقود وحول النوافذ قد صنعت يد فنان عن طريق الحفر في الجص . والفرق بين هذه الزخارف الدقيقة والزخارف الفالينية ^(٢) التي نشاهدها في قصر الحمراء والتي استخدمت فيها الآلة في الجص الرطب ، كالفرق بين الفنان والصانع .

وفي كل ركن من أركان الدعامة المستطيلة التخطيط عمود متصل تاجه على شكل زهرة ، ومغطى بزخارف نباتية .

وعلى كل من جانبي العقود المشرقة على صحن الجامع — وهي أيضا مدببة الشكل ومحمولة على أعمدة متصلة — فتحات معقودة مدببة على أعمدة متصلة يكتسبها من جهتها وريدة ، ويعلو جميع العقود والفتحات شريط يجرى حول الصحن مكون من وريدات يعلوها شرافات جميلة . أما العقود الداخلية فتختلف عن العقود التي حول الصحن . وحول العقود والنوافذ الداخلية شريط من الزخارف النباتية يجرى حولها ، ثم يسير أفقيا فوق الدعائم . ويعلو هذا الشريط شريط آخر يجرى أفقيا تحت السقف عليه كتابات بالخط الكوفي منقوشة على الخشب ، ويمثل نموذجا من الكتابة الكوفية في هذا العصر التاريخي . والسقف مغطى بعروق من الخشب تغطيها من أسفلها ومن جانبيها ألواح من خشب الجوز مزخرفة بأشغال هندسية محفورة في الخشب . وفي الرواق الشمالي الغربي المقابل لرواق القبلة ، نوافذ معقودة بعقود مدببة ومغطاة بزخارف هندسية ، عنصر الزخرفة بداخلها وريدة أو نجمة ، وهي مخزومة في الجص ^(٣) .

(١) البلاطة عبارة عن الساحة المحصورة بين صفتين من العقود أو بين صف من العقود (Arcade) والمناطق — المترجم .

(٢) يلاحظ تأثير فن سامرها على الزخارف الجصية في هذا المسجد . المترجم .

(٣) أنظر كتاب Art of the Saracens in Egypt, pp. 54-9 ، وهذه النوافذ

لا يبدو أن تكون راجعة الى عصر متأخر .



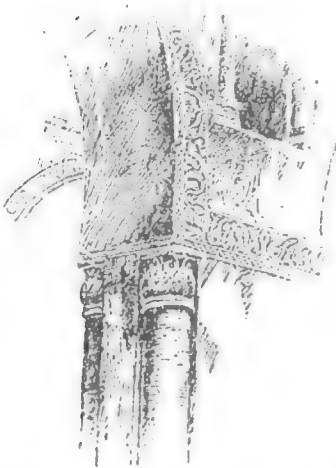
(داخل رواق القبلة فى مسجد ابن طولون)

ويشبهه مسجد أحمد بن طولون من حيث التخطيط مسجد عمرو بن العاص بعد أن أعيد بناؤه ؛ وهذا لا يختلف عن تخطيط مساجد القاهرة بين القرنين التاسع والثالث عشر . وكان صحن الجامع الفسيح المربع الشكل ، الذى تبلغ مساحته ثلاثة أفدنة ، يتسع لأكثر عدد من المصلين . أما الأروقة المسقوفة فقد حالت دون تسرب أشعة الشمس إلى جماعات الطلاب وأهل الورع والفقراء الذين كانوا يتخذون من المساجد مأوى لهم . والرواق الجنوبي الشرقى ، أو رواق القبلة أو قاعة الصلاة (١) ، بما فيه من بلاطات عميقة ، كان يشتمل على المقصورة الخاصة ، على حين يوجه المحراب المصلين نحو الكعبة . وهو تجويف معقود داخل فى الحائط ،

(١) سماها لينبول « ليوان » ، وهى تسمية خطأ وتطلق على القاعة المغصاة بقبو ، وهى مفتوحة من جهة ومسدودة من الجهة الأخرى ، والأصل فيها ليوان كسرى بالمداين (طيففون) . المترجم

ونحومل من جهتيه على عمودين . أما المنبر والدكة فكانا - ولا يزالان - يساعدان المؤذنين والمبلفين على سماع المصلين خطبة الجمعة وقراءة القرآن . وفوق المحراب قبة محمولة على مقرنصات ترجع إلى عصر السلطان لاجين .

أما من حيث الابتكار أو التجديد فلا نجد في هذا الجامع شيئاً جديداً^(١) . ولا يبعد أن يكون العرب قد اقتبسوا شكله من معابد الساميين القديمة ، كما لا يبعد أن يمثل الصحن الفسيح الفناء الواسع في الكنيسة البيزنطية على شكل البازيليكا (Basilica) ، ويمثل الليوان أو الإيوان الكنيسة نفسها^(٢) ، غير أنه يقوم على دعائم بدلاً من السقوف المغطاة بالأقبية . كذلك نرى في الحائط المحراب المجوف الذي يوجه المصلين نحو الكعبة . وما لا شك فيه أن هذا الأسلوب بلائم تمام الملائمة ما يتطلبه الجو ، فلم يكن ثمة حاجة إلى تغيير أو تبديل .



زخرفة حول العقود والدعائم وأعلى الدعائم وتيجان الأعمدة

أما القبلة والمأذنة ، وهما من مميزات مساجد القاهرة التي بنيت بعد ذلك ، فإن جامع ابن طولون يختلف عنها في شكل المنارة ، فهي على شكل برج حلزوني درجاته من الخارج ، وهي تشبه الآثار الآشورية المعروفة بالزيجورات ، وقد بنيت على طراز الملوحة ، [وهي مأذنة مسجد المتوكل في سامرا على نهر دجلة] . ولا يبعد أن يكون الجزء العلوى الذي نراه على شكل مبخرة قد أعيد بناؤه في زمن متأخر .

ولو أن منارة جامع ابن طولون كانت من غير شك لا تزال على حالها الأول في سنة ١٠٤٧ م حيث وصفها ناصر خسرو ، فإنه من الصعب أن نسميها مأذنة بما

(١) يلاحظ أنه متأثر بمساجد العراق من ناحية التخطيط ومادة البناء والزخارف الجصية .

الترجم .

(٢) المقصود بالإيوان هنا رواق القبلة . المترجم

تدل عليه هذه الكلمة (١). وليست هناك قبة ، إذ لا شأن لها بالصلاة وبالدالي بالجامع (٢) فهي التغطية الأصلية لسقف ضريح . ولا توجد إلا حيث يوجد تغطية هذه القبة ، أو على الأقل إذا عقد العزم على بناء ضريح تحت هذه القبة . ولا نجد قبة إلا حيث يوجد بناء ملحق بالمسجد يضم في العادة قبر منشيء هذا المسجد أو أسرته . وليس من الضروري أن تكون هذه القبة قريبة من مكان الصلاة . على أنه قد يكون من قبيل المصادفة أن يكون من مساجد القاهرة عدد كبير من هذه المساجد التي يضم كل منها حجرة تضم قبر مؤسس المسجد . وإن تلك القباب التي لا عدد لها والتي تشاهد من قلعة الجبل ، لما يوحى إلينا بهذه الفكرة الطبيعية ، وهي أن لكل مسجد من مساجد القاهرة ضريحاً خاصاً به . حقيقة أن لمعظم المساجد التي بها أضرحة قباباً ؛ غير أنه في الوقت نفسه لا ترى مسجداً لم يكن من المقرر أن يبنى فيه ضريح في أول الأمر ، يحتوي على قبة ما . وقد ترجع القبة في أصلها إلى تلك القباب التي كانت تعلو قبور بابل ، والتي لا بد أن يكون الكثير منها مألوفاً لدى العرب [بل أكثر من ذلك لدى الأتراك] الذين احتفظوا بشكل القبة على حين لم يعملوا قط على استعمالها ، مثلهم في ذلك مثل القبط والبيزنطيين حينما اقتبسوا أسقف كنائسهم وواجهاتها .

ولكن إذا لم يكن هناك إلا القليل من الابتكار في شكل المسجد ، فإن أروقته المديية ونقوشه جديرة بالدرس . كذلك نجد الأروقة المديية في مقياس النيل الذي بنى في جزيرة الروضة سنة ٨٦١ م ، أى قبل بناء جامع أحمد بن طولون بخمس عشرة سنة . ويقال إن المهندس الذي بنى هذا المقياس من أهالي فرغانة على نهر سيحون .

(١) يقول القزويني (خطط ج ٢ ص ٢٨٤) إن مأذنة جامع أقبيا الصغير (الذي كان من بين مباني الأزهر والذي تم بناؤه في سنة ١٢٣١) كانت أول مأذنة بنيت من الحجر بالديار المصرية بعد التصورة التي بناها المنصور قلاوون . ومن ذلك نستنتج أن مأذنة قلاوون (سنة ١٢٨٤ م) كانت أول مأذنة من الحجر عرفها القزويني . ومن المحتمل أنه لم يكن يسمى منارة جامع أحمد ابن طولون مأذنة بالمعنى الصحيح . ومن الواضح أنه لم يعرف شيئاً عن مأذن جامع الحاكم التي بنيت من الحجر . أنظر جامع الحاكم .

(٢) هناك قبة صغيرة فوق المهراب ، غير أن هذه القبة ، كالنبر والزخارف التي عملت في المسجد يرجع تاريخها إلى الإصلاح الذي قام به لاشين في سنة ١٢٩٦ ، وكذا المضأة التي تعلوها قبة في وسط الصحن ، فترجع إلى عصر متأخر إذ حلت محل الفوارة الرخامية المقرنة والقائمة على أعمدة .

وليس ثمة دليل على أن تلك الأروقة قد بنيت على مثال الكنيسة القبطية ، ولكننا نجد من جهة أخرى أن النقوش المختلفة الخالصة من التكلف والمصنوعة من الجص والتي وضع رسمها المهندس القبطي ، قد اقتبسها كلها بلا ريب من النقوش التي حذقها مواطنوه^(١). ولم يكن العرب في وقت من الأوقات ، من الفنانين أوحى من الصناعات الماهرة . فقد استحضروا الفرس والروم لينتوا لهم دورهم ومساجدهم ويزينوها . ولكنهم كانوا أكثر من هذا يستخدمون القبط الذين كانوا صناعات مصر الماهرة خلال آلاف السنين التي مرت بتاريخها . ونحن إذ نقارن بين النقوش المصنوعة من الجص في مسجد أحمد بن طولون وبين النقوش القبطية المحفورة التي نراها بدار الآثار المصرية في القاهرة ، وتلك النقوش التي أحضرت من مقابر عين الصيرة والمودعة بدار الآثار العربية ، نبين لنا في جلاء مصدر الزخارف التي على شكل زهور ، والتي يرجع تاريخها إلى المدرسة البيزنطية في سورية ومصر^(٢). أما النقوش السكوفية المحفورة على الخشب فهي ترجع في الواقع إلى الفن العربي الخالص ، وقد تطورت فيما بعد حتى أصبحت من أهم سمات الفن العربي^(٣). كذلك الزخارف الهندسية الموجودة في النوافذ ترجع إلى أصل إغريقي ، كما قرر ذلك مسيو M. Bourgouin في رساله المستفيضة عن الزخارف . غير أنه ليس من المؤكد أن تاريخ هذه الزخارف يرجع إلى المباني الأصلية . كما أن الأشكال التي على هيئة نجوم توحى إلينا بأن النوافذ المفتوحة قد تكون جزءا من الإصلاحات التي تمت فيما بعد^(٤).

غير أن اهتمام أحمد بن طولون بالبناء لم يقف في سبيل مطامعه في الفنون . فلقد قام بدور ملحوظ في سياسة بلاد العراق ، وكاد أن ينجح في أن يجعل الخليفة في قبضة يده . وكان الرئيس الديني في الإسلام [المعتمد] يسره أن يهرب من أخيه

(١) يلاحظ أن الزخارف الجمية متأثرة بالأساليب الزخرفية في سامرا .

(٢) توجد في القاعة المجاورة لدخل دار الآثار العربية إلى يمين الداخل ، مجموعة من الزخارف التي تنسب لـ زخارف سامرا والتي نقلت عنها .

(٣) هناك بعض نماذج للنقوش العربية المحفورة على الخشب من جامع أحمد بن طولون نراها في دار الآثار العربية بالقاهرة .

(٤) M. van Berchem, Notes d'Archéologie Arabe, Extr. du Journal Asiatique, 125 (1891).

الطاغية وهو الموفق ، غير أن هذه الخطة قد منيت بالإخفاق . وبذلك فقدت مصر الفرصة التي أتاحت لها لتصبح مقرا للخلافة الإسلامية ، وكان من أثر ذلك أن أصبح ذلك الأمير الطموح يامن في مساجد العراق ، وكذلك عجز ابن طولون عن الاستيلاء على مدينة مكة المقدسة . غير أن حكمه انتهى بحملات مظفرة قام بها في وجه إمبراطور الروم ، حيث هزمت القوات المصرية العدو على مقربة من طرسوس ، وقتلت — على ما يقال — ستين ألفا من المسيحيين ، ووقع في أيديهم كثير من الصليبان الذهبية والفضية والمجوهرات والأواني المقدسة . غير أن ابن طولون سار نحو الشمال ليخضع نائبه . وكان الشتاء في ذلك الوقت قارسا . فأرسل نائبه الماء من نهر البردان ، قفاض على الأراضي وكاد يفرق عسكر ابن طولون في ، أذنة ، . وهنا لم يجد ابن طولون بدا من العودة إلى أنطاكية ، حيث شرب كثيرا من لبن البقر — على أثر ما شعر به من الجوع والإجهاد في المعركة — ومرض بالذوسنتاريا وطلب العودة إلى مصر ، ونقل عليه ركوب الدواب ، فعملت له عجلة كانت تجرها الرجال ، ولما وصل إلى القسطنطينية ساءت حالته . وكان هذا الأمير في مرضه مصدر فزع أطبائه الذين لم يستمع إلى إرشاداتهم وأبى أن يتناول الغذاء الذي كانوا يشيرون عليه بتناوله ، ولما زادت علته أمر بضرب طيبيه بالسياط . وذهبت سدى صلوات المسلمين واليهود والنصارى ودعواتهم بشفائه ، ولم يستطع القرآن أو التوراة أو الإنجيل أن ينقذ حياته ، ومات في شهر مايو سنة ٨٨٤ م قبل أن يبلغ الخمسين من عمره .

ولقد أضاف خليفته خمارويه الكثير إلى حاضرة أيه الزاهرة . ولاغربة فقد شارك أباه ميوله في إقامة المباني الفخمة وفي سياسته التي كانت تهدف إلى التوسع في الفتوح . لذلك زاد في القصر ، وحول ، الميدان ، إلى بستان غرس فيه الأشجار النادرة والرياحين على اختلافها . وتأثق في هذا البستان فسكى جنود الأشجار نحاسا مذهبا حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وجنود الشجر أنابيب الرصاص وأجرى فيها الماء . وكانت مياه هذه الأنابيب لا تزود الأشجار وحدها بالماء ، بل كان يخرج من تضاعيف الشجر عيون الماء منحدره إلى نافورات يفيض منها الماء إلى مجار تسقى البستان على اتساعه . أما الريحان فكان على صورة نقوش وكتابات يتهدها البستاني بالمقراض . وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق

والأصفر ، واستورد عيدان النيلوفر العجيب الشكل ، كما أهدى إليه من البلاد عيدان
النار والزهور ، وطعم شجر المشمش باللوز والليمون وغيرها . وفي وسط البستان
بنى خمارويه برجاً فيه أصناف القمارى والنونيات وغيرها من الطيور المشجة التي
كانت تسبح في القنوات الجارية في البرج . كما طلى حيطان بيت الذهب في القصر
بالذهب المحلى باللأزورد ، واتخذ على حيطانه صوراً بارزة من الخشب تمثل
وتمثل حظاياهم ومغنياته بأشكال بلغت حد السكال ودقة الزخرف : وعلى دروس
تماثيل النساء ، أكاليل من الذهب الخالص مرصعة بالجواهر ؛ وعلى آذانها المثبتة في
الحيطان بمسامير ، أجراس ثقال الوزن محكمة الصنع . وقد لونت أجسادها بالأصباغ
العجيبة التي تبدو للرائى كأنها ثياب حقيقية . وبنى خمارويه أمام القصر فسقية مملوءة
بالزئبق ، وقد أشار عليه طيبيه بأنخاذ هذه الفسقية بعد أن شكاً إليه ما كان يصيبه
من الآرق . وكان طولها عشرين ذراعاً وعرضها عشرين ذراعاً (٢٢٥ متراً مربعاً) .
فإذا نام خمارويه على فرش من أدم يملأ بالريح حتى ينتفخ ، ارنج الفراش وتحرك
بحركة الزئبق لأنه رجراج ، وإذا نام خمارويه سهر زريق أسده الأمين على حراسته .
وبعد أن زال القصر بزمن طويل ، جعل الناس يحفرون في الأرض القمامة للزئبق
المنساب بين شقوق البركة التي كانت بمثابة أرجوحة للأمير .

كذلك بنى خمارويه في هذا القصر بيتاً على مثال قبة الحمراء أطلق عليه «الدكة» ،
وضعت فيه الستائر والبسط الفاخرة ، وكان خمارويه يجلس في هذا المكان ويشرف
على ما في قصره وبستانه ، فيشاهد النيل والجبل والصحراء . وفي بيت آخر بناء
أبوه أحمد بن طولون أقام المكبرون الذين كانوا يكبرون ويعلنون أوقات الصلاة ،
ويرتلون الآيات القرآنية الكريمة . وكان خمارويه إذا جلس لسماع الغناء وسمع
المكبرين يكبرون ، أمر المغنيات بوقف الغناء ، وأخذ يسمع أصوات المكبرين
في سكون وخشوع . وقد أسهب المقرئ (١) في ذكر عجائب دار الحيوان وما
كانت تحويه من السباع والتمرد والفهود والفيلة والزرافات ، واسطبلاته التي وقف
عليها كورا بأكلامها كانت تزرع بها العلوفات ، ومطابخه التي كان ينفق عليها اثني عشر
ألف دينار في الشهر ، وأهبة حرسه الذين جمعهم من عرب الدلتا وشناترة الضياع ،

وكان مهابا ذا سطوة . وقد وقع في قلوب الكافة أنه متى أشار إليه أحد بإصبعه أو تسكلم أو قرب منه لحقه مكروه عظيم ، فكان إذا أقبل لا يسمع من أحد كلمة ولا سعة ولا عطسة ولا نغحة البتة كأنما على رؤوسهم الطير . ومن المحزون حقا أنه لم يبق لسكل هذه العظمة والأهسة من أثر بعد سنين قليلة ، اللهم إلا آثار بركة الزيتق .

غير أن السبع أو الحرس الذي اتخذته خمارويه من شبان العرب الأشداء لم يستطيعوا أن يعملوا على إنقاذه من غيرة حريمه . ففي مستهل سنة ٨٩٦ م انتهت المؤامرة التي دبرها له الخدم والجواري بذبحه في دمشق ، وصلب قتله . وفي غمرة العويل والصراخ ، دفن جثمان خمارويه إلى جانب جثمان أبيه على مقربة من قصره تحت سفع المقطم .

ولم تدم أسرة خمارويه بن أحمد بن طولون بعده طويلا . ذلك أن ولديه الصغيرين لم يتمكنوا من مقاومة جهود الخليفة في سبيل استرداد ولايتي مصر وسورية الغنيتين ، اللتين دخلتا تحت سلطان أحمد بن طولون وابنه ثلاثين سنة . ففي سنة ٩٠٥ م دخل القائد العباسي محمد بن سليمان مدينة القطائع وقتل جند الطولونيين من السودان وضرب مبانها الجميلة . وهكذا أصبحت العسكر مرة أخرى مقرا للحكومة — كما كانت في عهد ولاية العباسيين الأولين . أما القطائع ، فإن ما تبقى منها بعد أن عاث فيها الجند أربعة أشهر ، أخذ يهدم على مر الزمن ، وتقوض المائة ألف منزل (إذا كان لنا أن نصدق المؤرخين) تدريجا . غير أن الحراب قد زال نهائيا في عهد المستنصر في القرن الحادى عشر حين انتشرت المجاعة وشاعت الفوضى في البلاد . وسوف نتحدث بعد ، عن هذا الحكم الملىء بالفوضى والاضطراب . غير أنه يجدر بنا أن نشير في هذا المقام إلى ما انتهت إليه كل من العسكر والقطائع . ففي سنة ١٠٧٠ م كانت هاتان المدينتان قد وصلتا إلى درجة كبيرة من الحراب ، حتى إنهم بنوا سورا على طول الطريق بين قصر القاهرة الجديد إلى القسطاط — وبعبارة أخرى من باب زويلة إلى ما يقرب من جامع عمرو بن العاص ، حتى لا يستاء الخليفة من منظر هذه المدن المتهمة إذا خرج بمطايا جواده . وقد أصبحت أطلال القطائع والعسكر كما لو كانتا بحيرا يزود الناس بمواد البناء ليستعينوا بها في أما كن أخرى . كما أن الفضاء الذى كان يقع بين القاهرة الجديدة والقسطاط قد تحول كله

إلى ما يشبه الصحراء ، اللهم إلا بضع حدائق ومنازل ريفية . ومع أن الناس أخذوا يبنون دورهم خارج باب ذويلة بعد سنة ١١٢٥ م ، بقي سائر موقعي هاتين المدينتين غير آهل بالسكان ، اللهم إلا حول جامع أحمد بن طولون . وقد ظلت الحال كذلك إلى اليوم الذي كتب فيه المقرئ في سنة ١٤٢٤ م .

ولا عجب إذا أصبح المكان القريب من جبل يشكر الذي يعرف بقلعة الكباش (١) — حيث قامت مصطبة فرعون ، في يوم من الأيام في المكان الذي قدم فيه سيدنا إبراهيم قربانه — مسكنا للجن . وفي القرن الثامن عشر كان هناك تابوت قديم بداخله جثة سيدة تنتمي إلى الأسرة السادسة والعشرين لا يزال يحتل مكان مصطبة فرعون . وكل شيء كان الناس يحضرونه إلى هناك — حتى ولو كان كومة من البلح — لا بد أنه كان يتحول مباشرة إلى ذهب . أما الآن فإن علم الكيمياء قد انتهى ، واحتل التابوت مكانه في المتحف البريطاني حيث لم تحدث معجزة من هذا القبيل ، بل إن الجن قد هجر ذلك المكان .

(١) أنظر صورة قلعة الكباش (شكل ١٥) . وهذا البناء العجيب بناه الصالح — حفيد صلاح الدين الأيوبي — حول سنة ١٢٤٥ (ولا يبعد أن يكون قد بناه على أساس قديم) ، وكان يستعمل بمثابة قصر ملكي . وفي هذا المكان نصب بيبرس الأول ، الخليفة الحاكم العباسي ، ثم أعاد الناصر بناء قلعة الكباش في سنة ١٢٢٣ ، وعاش فيه الأمير مرغتمش ، ونى له الدور والأبراج الخ . . . غير أن الأشرف شعبان هدم جانباً منه وأصبح يستخدم للسكن (المقرئ ج ٢ ص ١٢٢) .

الباب الرابع

مصر

مصر — القسطنطينية الحاضرة التجارية — وزراء المادرائين — الإخشيد — المسمودي
في مصر — جزيرة الروضة — رجال الدين في مصر — الثمراء — بلاط كافور —
ثورات المسلمين — حكومة كافور — مصر في القرنين العاشر والحادي عشر — وصف
ناصر خسرو — حريق مصر — إعادة بعض المباني إلى ما كانت عليه — وصف ابن سبيد.

أصبحت مصر بعد سقوط البيت الطولوني ، ولاية تابعة للخلافة في بغداد .
وبعد أن دمر الغزاة مدينة القسطنطينية ، اتخذ الحكام الجدد ، العسكر ، مقرا لهم ،
غير أن اسم العسكر سرعان ما زال حينما أصبحت هذه الناحية جزءا من القسطنطينية
أو مصر . وفي طوال الوقت الذي كانت تقوم فيه مقاطعة حكومية أو تزول فيه
مقاطعة أخرى ، كانت مصر — حاضرة القطر المصري الحقيقية — آخذة في النمو
والازدهار . فلقد كان وجود قواد القصر وموظفيه في عزلة في المقاطعات الرسمية
— في الوقت الذي كان يحرم فيه سائر الشعب من بعض ألوان التجارة —
سببا في أنها تخلصت من قسوة الجنود السود وطينان الموظفين الحكوميين ، كما
أنها تركتهم يتجرون كيفما شاءوا . واقد كان جزء كبير من تجارة الهند وبلاد
العرب مع أوروبا — تلك التجارة التي أصبحت فيما بعد ذات أهمية عظيمة — يمر
في مصر ، التي كانت أرصفها على الدوام مكندسة بالسلع من مختلف البلدان .
والواقع أنه لمدة ثلاثين عاما بعد سقوط الطولونيين ، كان القطر المصري وحاضرتهم
فريسة لاستبداد الجنود وعدوانهم ، وكان قواد الخلفاء يفعلون ما يحلو لهم ، إذ لم
يكن للخلفاء في بغداد سلطة قوية عليهم . تلك كانت أيام قاسية في مصر ، حيث كان
يطالب أحد الشبان الثائرين — ويدعى الخلتجي — بعودة الدولة الطولونية التي
كان قد تمّ سقوطها ، وكان الشعب يتحمس لفكرته ويعضده بما ساعده على طرد
القوات البغضية والاستيلاء على الحاضرة وعلى الاسكندرية وقهر جيش جديد أتى
خصيصا من بغداد . غير أنه بعد انقضاء ثمانية أشهر على هذا الصراع ، حدثت

هناك مؤامرة ضد الخنجي كان من أثرها أن قتل في سنة ٩٠٦ م. وكان هذه الأحداث لم تكن تسكني المصريين في ذلك الوقت ، إذ أخذ خلفاء الفاطميين في المغرب يرسلون إلى المصريين جيشا دخل مصر واعتدى على المعسكر الواقع على نهر النيل عند الجيزة ، حيث كان جيش الاحتلال الذي أرسلته بغداد قد حفر خنادق كثيرة تحميه من اعتداء الثوار ، وكان هذا الجيش بقيادة دُكا الرومي . وانتهت حملة الفاطميين على مصر في سنة ٩٢٠ م بالإخفاق . غير أن أحوال البلاد لم تتحسن على الرغم من ذلك . فقد كان الحاكم التركي يحتفظ بقواته في قصره الخاص لحمايته . وبعد موته ، طرد ابنه من البلاد على أيدي الجند الذين طالبوا بما تأخر لهم من رواتب . وهذا اختفى المادرائي عامل الخراج وأخذ الحكام المتنافسون يتنازعون على السلطة ويحشدون قوامهم وينتشرون في الأراضي النائية . وقد حدث في ذلك الوقت زلزال مروع أتى على الكثير من المنازل والقرى ، أعقبه وابل من الشهب المفجرة مما أدخل الرعب في قلوب الناس .

وكان أكثر الناس استفادة من هذه الفوضى ، المشرفون على خزانة الدولة ، إذ يبدو أنهم تصرفوا كيفما شاءوا بدخل الحكومة . ولقد شغل هذه الوظيفة السامية ثلاثة من أفراد أسرة المادرائي التي تنسب إلى قرية مادرايا بالقرب من البصرة على نهر دجلة . وقد تقلد تلك الوظيفة أحد هؤلاء الثلاثة أثناء حكم خمارويه وولديه وبعض الولاة الذين بعث بهم الخلفاء من بغداد واثنين من رجال الدولة التي أنت بعد ذلك . وعلى الرغم من كل ما اتبأ الميزانية من صعوبات ، جعل محمد المادرائي الدخل يصل إلى مائتي ألف جنيه في السنة ، عدا الإيجارات المختلفة . غير أنه كان يجمع كثيرا ، ويعطى كثيرا أيضا ، فقد كان يوزع كل شهر على الفقراء مائة ألف رطل من الطعام ، كما حرّر بضعة آلاف من الرقيق ، وأقام كثيرا من المباتي الخيرية والدينية ، وكان ينفق كل عام من ستين ألفا إلى ثمانين ألفا من الجنيئات على رحلاته التي كانت تبلغ إحدى وعشرين . ولقد كان رجلا تقيا ورعا ، يقوم بالفروض الدينية من صلاة وصوم على أكل وجه ، ممسكا بالقرآن الكريم في يده على الدوام . وما أثر عن إحسانه الواسع النطاق ، أنه كان حين يزور مكة ، يشمل كل سكانها بحبده وكرمه . ويشبه المادرائي هذا ، القاضي العظيم ابن عربويه ، الذي لم يكن يقف للحكام في زياراتهم الرسمية — إذ أن الظلم أو القسوة

لم يعرف إلى نفسيهما سيلا .

وفي النهاية ، تَفَقَّدَ الحكم أحد الأتراك الأقوياء . وإذا كان محمد الذي تلقب بالإخشيد كآسلافه من ملوك فرغانة — لم يترك أى أثر في مصر كآثار سلفه العظيم ابن طولون ، وكانت سياسته قد قامت على أساس الحذر وقنع بأن يمتد ملكه حتى دمشق بدلا من نهر الفرات ، فإنه استطاع برغم ذلك أن يحفظ النظام في مصر ، ويبعد عنها الغزاة من الفاطميين . كما أنه نجح في حرب سورية ، وجَمَعَ مل قصره العظيم في حديفة كافور ، — غربي سوق النحاسين الحالي — مقرأ له . وهناك الكثير من القصص عن بطولته ، التي تجلت في أثناء حربه مع ابن رائق القائد التركي الذي استولى على سورية ردحا من الزمن . فقد حزن هذا القائد كثيرا حين وجد جثة أحد أخوات الإخشيد بين القتلى ، فأرسل ابنه إلى خصمه ليتصرف فيه كيف شاء . وهنا تجلت شهامة الإخشيد ، فقد خلع على هذا الابن وأرسله إلى أبيه مكرما ، وتزوج هذا الشاب من ابنة مضيفه الكريم .

وفي صيف سنة ٩٣٥ م شهد سكان مصر موكبا رائعا من سفن الإخشيد الحربية وهي تتقدم في النيل من دمياط وتحتل جزيرة الروضة التي كان يصلها بالمدينة أحد الكبارى المائية . وفي أغسطس من تلك السنة دخلت القوات قلب الحاضرة وأخذت في السلب والنهب مدة يومين حتى صدر إليها في النهاية الأمر من قائدها ، بالعدول عن ذلك . وبعد الفوضى التي حلت بالبلاد خلال ثلاثين سنة تلت سقوط الطولونيين ، بذل الحاكم الجديد جهده في سبيل خير البلاد . ولقد عبّر الناس عن مشاعرهم حينما قفز ابن الخلقى بجاس على الحصان الخشبي القائم أمام قصره ، ثم ترك حمامة لتطير إلى الأمير الجديد بعد أن عطرها بالمسك وماء الورد^(١) . وقد استعاد جامع عمرو بن العاص ما كان له من مكانة سابقة كآثم مكان للعبادة ، كما زوّده الإخشيد بحجر جديدة مصنوعة من الأسبل ، وكذلك وضع فيه الكثير من المصابيح والعمود . هذا إلى أنه كان يحضر بنفسه في الليلة الأخيرة من شهر رمضان مرتديا الملابس البيضاء ومن ورائه خمسمائة تابع يحملون المشاعل والصولجانات . وفي أول أيام عيد الفطر كان يقيم عرضا على النحو الذي كان يقام به في أيام ابن

طولون . وقد جرت العادة أن يشترك الجيش في هذا العرض ، وكان أربعة آلاف رجل ومن خلفه ثمانية آلاف مملوك ، كل منهم يحمل سلاحا لامعا ، ويمر هؤلاء جميعا أمام دار الإمارة . وفي اليوم التالي — أى في اليوم الثاني من أيام العيد — كان الأمير يحضر الصلاة في الجامع ويشرف على الشعب بنفسه . ولما أرسل الخليفة إلى الإخشيد الخلفة ازدانت الشوارع والأسواق بالملابس الفاخرة والبسط الثمينة ، وغطيت أبواب الجامع العتيق بالديباج الموشى بالذهب ، وذلك بمناسبة مرور موكب الأمير — وهو مرتد خلعتة الجديدة — في طريقه إلى الصلاة (١) .

تلك كانت أيام زاهرة في تاريخ مصر . ولئن كانت في بعض الأحيان تبدو بعض سمات القسوة في سماء الحكم ، فإنها كانت تنفث أمام بهجة هذا الحكم الساطعة . ولقد أخذ الأدب العربي في الازدهار في الحاضرة الواقعة على النيل ، على الرغم من تلك المسافة الشاسعة التي كانت بينها وبين حاضرة الخلفاء على نهر دجلة حيث كان لبلاد فارس أثر في ظهور دراسات لم يكن الجرح قد تهاى بعد لوصولها إلى حاضرة مصر . ومن ثم كانت الدراسات العزية لا تزال في المهد في عهد الإخشيد ، غير أن الشعر كان مزدهرا على الرغم مما ساد من التقليد . وبدأ التاريخ يدون بصورة واضحة ، وأما العلوم فإنها لم تمتد إليها يد البحث اللهم إلا في صورة ناقصة تتمثل في علم التنجيم ، ولم تكن هناك أسماء عربية تلعب في محيط الأدب إلا فيما ندر . وكان الكتاب يتناولون حياة النبي ويصنعونها في شكل تاريخ ، ومن أشهر هؤلاء الطبري والمسعودي اللذان عاشا في عصر الإخشيد . والواقع أن المسعودي زار مصر في سنة ٩٤٢ م ؛ ولو أنه — لسوء حظنا — لم يصف حاضرة هذه البلاد المصرية كما شاهدها ، فإنه وصف ليلة الغطاس ، وكانت من المواسم المسيحية التي كان المسلمون يحتفلون بها كذلك ، مما يبين أن أهل مصر يحبون المرح دائما . وفي ذلك يقول : ليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها ، وهي ليلة عشر تمضي من كانون الثاني . ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس في مصر ، والإخشيد محمد بن طنج قد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب القسطنطينية

(١) كان الإخشيد مولعا بالنهر . وقد اعتاد الناس أن يقدموا له كيات كبيرة منه في أول العام الجديد وفي حفلات الربيع ، وكان يبيها بمن غال . ولما توفي أحرق منزله وأرملته ، وكان به من النهر ما يساوي ألف جنيه (ابن سعيد) .

غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع ، وقد حضر في تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم من في الزوارق ، ومنهم في الدور النائية للنيل ، ومنهم على الشطوط لا يتناكرون الحضور ، ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والرصف ، وهي أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشملها سرورا ، ولا تقلق بها الدروب ، ويفطس أكثرهم في النيل ، ويدعون أنه أمان من المرض ،^(١) .

وبحدثنا هذا الرحالة كيف أن الناس كانوا يطلبون من الإخشيد السماح لهم بالتنقيب عنهم يعثرون على الكنوز التي ورد ذكرها في النصوص القديمة . غير أنهم لم يجدوا سوى بضعة كهوف مملأ بالعظام والآتربة أو بقايا جثث الموتى . ويذكر لنا المسعودي مقياس النيل اللذين أقيما في جزيرة الروضة التي يسميها « دار الصناعة » . أما المقياس الأول الذي لا يزال قائما إلى الآن ، فقد بناه أسامه ، وبنى الثاني — أو على الأصح أعاد بناءه — ابن طولون ، ولم يكن يستعمل إلا وقت الفيضان . كذلك شاهد هذا الرحالة الجسر الذي كان يصل مصر بجزيرة الروضة ، والجسر الآخر الذي كان يصل هذه الجزيرة بالجزيرة من الضفة الغربية . كما قابل في مصر كثيرين من تجار القسطنطينية . غير أنه لم يذكر لنا شيئا عن المدينة نفسها . وقد ذكر ابن سعيد وغيره من المؤرخين أن الإخشيد بنى في مصر دارا للصناعة حلت محل الأحواض القديمة بجزيرة الروضة . أما مكان هذه الأحواض فقد أقيمت فيها حديقة غناء . وقد بلغ من ميل الإخشيد إلى الاقتصاد أنه لما بلغت قيمة نفقات إنشاء هذه الحديقة ، صاح قائلا : ماذا ؟ ثلاثون ألف دينار لحديقة للزينة ؟ ثم أمر في الحال بإنقاص تلك التكاليف إلى خمسة آلاف فقط . وكما أن دار الصناعة في الروضة حلت محل دار صناعة مصر ، كذلك حلت محلها فيما بعد ميناة المقدس . أما دار الإخشيد التي بناها للزينة في جزيرة الروضة فلم يبق منها أي أثر . غير أن جزيرة الروضة نفسها بقيت المكان الذي كان يفضله أمراء مصر . وأغلب الظن أن بناء الإخشيد قد هدم ليحل محله « هودج الأمير » ، وغير ذلك من مباني الأيوبيين الفاخرة .

(١) المسعودي : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٦٤ — ٣٦٥ . ولقد قابل المسعودي المؤرخ أوتيتخا Eutychius في مصر حيث انتهى من وضع كتابه « التبيين » ، وذلك سنة ٣٤٥ هـ .

وكان شغل رجال العلم شاغل في ذلك الوقت تفسير القرآن الكريم والحديث الشريف وإبراز آراء علماء الدين فهما . ولما كان القرآن من الكتب السماوية ، كان لزاما على القاضي المسلم أن يكون من رجال الدين . وكان علماء مصر في صدر الإسلام من الفقهاء بالمعنى الصحيح . وكان للدارس التي تمثل المذاهب الدينية الأربع - الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي - مكان من جامع عمرو بن العاص . أما الشافعية والمالكية فكان لكل منهم خمسة عشر فناء ، وأما الحنفية فكان لهم ثلاثة فقط ، وكان الفناء الكبير يضح بمنازعاتهم جميعا . وقد تبدو لنا الآن ضالة الفرق بين هذه المذاهب ، غير أنها لم تكن كذلك بالنسبة للمسلمين في ذلك الوقت ، فقد كانت فروقا لها أهميتها وخطرها ، وكثيرا ما كان علماء الدين يتحدثون في أثناء مناقشتهم وجدلهم في الجامع القديم حتى اضطر الإخشيد في نهاية الأمر إلى إزالة الحصر والوسائد المصنوعة من الأسيل وإغلاق المسجد ردحا من الزمن ، بحيث لم يكن يفتح إلا في أوقات الصلاة وحدها . وكانت المساجد في ذلك الوقت - كما هي الحال بالنسبة إلى بعضها في الوقت الحاضر - دورا للعلم وليست مجرد أماكن لتحقيق الأغراض الدينية . وكان شعراء العرب قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ينشدون قصائدهم في الأسواق أمام جمهور النقاد من مواطنهم . أما في العصر الإسلامي فقد كان النقد يتخذ صورة أخرى ، إذ بينا كان الشاعر ينشد شعرا يزعم أنه قد أجاد فيه ، يسرع إلى المسجد حيث يتناقش مع جمهور النقاد . وهناك يجد فريقا من الفقهاء ، والشعراء ، والنقاد ، وقد جلسوا جميعا القرفصاء على الحصر حول صحن الجامع ، وأخذوا يشرحون للضيف من الطلبة الجالسين من حولهم بلاغة الأسلوب ودقته . وكان الشاعر ينشد قصيدته أمام النقاد في زهو ، ولكن في شيء من الخوف والوجل . تلك كانت تجربة قاسية ، إذ أن المستمعين كان بعضهم من المنافسين له ، كما أن جميعهم كانوا نقادا لاذعين ممن لا يسمحون بأية هفوة أو خروج عن الوزن أو خطأ في المعنى ، وكانت لهم فوق هذا طريقة قاسية للتعبير عن آرائهم . حينئذ كنت تسمع الجدل يحد ، ثم تنشد بضعة أبيات من شعر الشعراء المتقدمين ويبدأ الامتحان ، ويدافع الشاعر حيال هذا كله عن قصيدته ويدل بحججه ، ولا ينصرف في نهاية الأمر إلا بعد أن يكون قد

استهدف لأقصى تجربة مر بها (١) .

وليست المسائل الدينية وحدها هي التي كان يخصص لها جامع عمرو بن العاص في عهد الإخشيد . فإنه على الرغم من أنه كان هناك كثير من الثقات الذين دون ابن سعيد تاريخ حياتهم في الفقه وغير ذلك ؛ كان كثيرون غير هؤلاء . فقد كانت هناك أسرة طباطبا التي ترجع في نسبها إلى علي بن أبي طالب — وكل أفرادها من الشعراء ، وشعرهم حافل بحب الطبيعة وبالحب نفسه . غير أنه لم يمتدح الخمر ، على الرغم من أنه كان محبباً إلى شعراء جميع عصور الإسلام .

وكان هناك كذلك أبو الفضل من أسرة بني الفرات المشهورة الذي كان — فضلاً عن كونه ثقة في نقل الروايات — شاعراً مجيداً ، وحتى منصور الفقيه كان ينشد أحياناً بعض الشعر الرصين ، على الرغم من أنه هو الذي أحدث جلبة كثيرة نتيجة لما أدلى به عن إعالة الزوجات المطلقات في عهد الحاكم دوكلس . وكانت النتيجة أنه كان يسير بحراسة الجند ، وكانت هنالك مشاهد مروعة حين كانت السيوف والسكاكين تشهر حول نعشه ، واعتقد الناس أنه قتل على أيدي أحد القضاة الذين خالفوه في الرأي . وكان القاضي بكار — شاعر القصر الطاعن في السن — معينا لا ينضب من القصص المسلية الممتعة ، حتى إن الإخشيد كثيراً ما كان يستدعيه في المساء ليروي له إحدى قصصه .

أما المسيحي المؤلف المشهور فقد عاش في عصر متأخر نوعاً ، إذ أنه لم يولد إلا في سنة ٩٧٧ م ؛ غير أن مؤلفاته تصطبغ بما يصطبغ به القرن العاشر في مصر . وقد كتب ثلاثين كتاباً تشمل على نحو أربعين ألف صفحة ، وتشمل الكثير من الموضوعات المختلفة كالشعر والنقد ، وتاريخ مصر وديانتها ، كما دون رسائل في الخمر واللبو وألوان الطعام . وكذلك يتناول هذه الكتب علم التنجيم والشياطين والأحلام والقسم والقصص والأمثال ونظم الحكم وغير ذلك من الموضوعات الشائعة . والواقع أن ازدهار الأدب يرجع في الغالب إلى ذلك العبد الحبشي المحب للبو وهو دكا فور الإخشيدى ، الذي حكم هذه البلاد بعد موت الإخشيد سنة ٩٤٦ م

(١) أنظر ما كتبه المؤلف تحت عنوان Arab Classic في كتابه Among my Books

اثنتين وعشرين سنة . وكان حكمه في بادىء الأمر بوصفه وصيا على ولدى الإخشيد
الذين عاشا دون أن يعرفا شيئا عن أمور العالم اللهم إلا ما يتعلق بالأمور والمجون .
أما الستتان أو الثلاث سنوات الأخيرة من حياته فقد تولى إمارة مصر فيها بصفة
رسمية . والواقع أننا قلما نجد بين الشخصيات التاريخية ، أغرب من هذا العبد
الأسود ، بما كان له من بطن ضخمة وأرجل معوجة وشفاه غليظة — تلك الأشياء
التي أخذ المتنبي — آخر شعراء العرب الكلاسيكيين — يسخر منها ويهزأ بها بعد
أن وجد أن مديحه للأمع الأسود لم يحقق ما كان يرجوه منه . وقد أصبح كافور
بعد ذلك لوكولاس Lucullus وميسيناس Maecenas عصره . ذلك أنه نال قسطا
لاباس به من الثقافة والمعرفة ، شأنه في ذلك شأن أغلب العبيد الأذكياء . كما أنه
كان كلفا بأن يحيط نفسه دائما بالشعراء والنقاد ليستمع إلى مناقشاتهم في المساء ،
أو يطلب إليهم أن يقصوا عليه تاريخ الخلفاء الأولين . وكانت هذه الحلقات تجمع
كثيرين من العلماء ورجال الفكر . هنالك كنت تجد المكندى الذى كتب كتاب
« فضائل مصر » ، والذى يدين له المفريزى بالكثير مما كتب . وكذلك كنت
ترى البحرى عالم النحو المشهور . وابن القاسم الذى كتب الكثير من الشعر
الفنائى ، وكان كافور يثنى على هؤلاء جميعا . كما كان يحب الموسيقى ، شأنه في ذلك
شأن جميع السودان ، هذا إلى أنه كان يملك مبالغ ضخمة من الأموال ، ينفقها على
هؤلاء الأدباء دون حساب ، ولم يكن ينال منهم سوى المديح الذى كان ينطوى
على الشيء الكثير من التملق . مثال ذلك أن ابن القاسم حينما نظم قصيدة أنشد فيها
إن الزلازل المتكررة التى كانت تحدث في ذلك الوقت لم تكن سوى رقص مصر
فرحاً بما كان يتمتع به كافور من فضائل ، تملك ذلك الأمير السرور فالتقى لذلك
الشاعر بألف دينار . أما ما يتعلق بالطعام فقد كان كافور مسرفاً في كرمه ، وكان
يجلب إلى مطبخ القصر في كل يوم مائة خروف ، ومائة حمل ، ومائتان وخمسون
أوزة ، وخمسمائة دجاجة ، وألف حمامة وغير ذلك من الطيور ، هذا عدا مائة غايية
ملاى بالحلوى . وكان الاستهلاك اليومي يربو على ألف وسبعمئة رطل من اللحم ،
عدا الطيور والحلوى ، وخمسين وعاء من النبيذ التى كان يستهلكها الخدم وحدهم .
وكان عصير التفاح في ذلك الوقت من الشراب المفضل ، لذلك كان قاضى أسبوط

يرسل إلى كافور خمسين ألف نقاشة في كل موسم (١).

وعلى الرغم من تمسك الناس بالدين في ذلك الوقت وإيمانهم بالقضاء والقدر ، وما كان لذلك من أثر ، فإن العرب كانوا في العصور الوسطى يعرفون كيف يتمتعون بحياتهم كما كان يفعل أجدادهم في الصحراء . والغريب في أمر هذا المجتمع الإسلامي القديم أنه كان كما كان على الرغم من ظهور الإسلام . فإلى جانب الصلاة والصوم والطقوس الدينية المختلفة ، كان المسلمون في العصور الوسطى يعرفون كيف ينعمون بوقتهم ، بل كانوا يجدون فرصة للرح حتى في دينهم . فقد كانوا يقيمون كثيرا من الحفلات الدينية ويرتدون أنظر الملابس وأغلاها ، ويحتفلون بزيارة قبور الموتى ، ويُنقدون الخدم ليروحوا عن أنفسهم وسط شوارع المدينة المضادة بالأنوار والتي كانت تحفل بالراقصين والمغنين والمقرئين ، أو في المساجد حيث كان الدراويش يقومون بطقوسهم الدينية العجيبة . ومثل هذه الملامح كانت تضفي على الحياة بهجة وبهاء ، على الرغم من التعذيب الذي كان يستهدف له بعض المتطرفين في الدين ، كأن يطبل أحدهم النظر إلى حائط أبيض حتى يرى اسم الله ، يلع عليه .

غير أن الطعام كان أكثر ما يدخل السرور على المسلمين في العصور الوسطى . والواقع أن العرب لم يعرفوا الطهي العلى الذي نعرفه اليوم ، كما أنهم لم يتغنوا في انتقاء ألوان الطعام . فهم كانوا يشربون حتى الثمالة ، ويأكلون حتى تمتلئ بطونهم . ونحن نسمع أحيانا عن مائدة عامة من مآدب العرب كان يغطي السباط فيها إحدى وعشرون صحفة مختلفة تحتوي على واحد وعشرين خروفا كبيرا وثلاثمائة وخمسين دجاجة وحماة ، وقد تكسدت هذه جميعها فوق بعضها البعض حتى كان يصل ارتفاعها إلى ارتفاع الرجل ، وكانت تغطي بالوان الحلوى المختلفة . وبين هذه الصحف الكبيرة الواسعة خمسمائة طبق صغير يحتوي كل منها على سبع دجاجات عدا الحلوى . وكانت الورد تنثر فوق المائدة وتزينها ويصنع الخبز على شكل فطائر . أما الحلوى فكانت توضع في صحفتين كبيرتين تحتوي كل منها على سبعة عشر قطار حافظة بمختلف الألوان ، وكان يؤتى بها إلى المائدة فوق أعمدة يحملها الرجال على أكتافهم . وكان الرجل بحيث يستطيع أن يأكل خروفا بأكمله دون أن يتعرض

(١) انظر كتاب Hist. of Egypt in the Middle Ages, pp. 88 — 89

وابن سعيد ص ٧٨ وما يليها .

لاى ضرر . وإذا أصابه النخعة أحيانا تناول الخمر فى إسراف ، وكانت الكأس وقتئذ تسع لثرا كاملا من الخمر .

ومهما يكن من أمر تلك المآذب وذلك الإفراط فى الطعام فإن هناك مسألة يجب ألا تغرب عن بالنا . ذلك أن العربى لم يكن يروقه شرب الخمر فى وحدته ، بل كان يحب دائما الاجتماعات التى يسودها المرح والبهجة ، كما كان يحب أن تمتلى مائدته بالأزهار والعطور . وكان العرب على العموم يهتمون بملابسهم ويعطرون لحامهم بمطر عاص ويرشون ماء الورد على أجسامهم . ولم تكن حجراتهم تخلو من مبخرة يحترق فيها العنبر فينبعث دغائه فى كل مكان . وكانت الموسيقى من مستلزمات اللهو والمرح ، ولم تكن للأعياد عندهم بهجة بغير المغنين من الرجال والنساء على السواء ، فكنت ترى إحدى الجوارى ذات القوام المشوق ، والوجه الذى يشبه البدر فى تمامه ، تغنى بصوت ساحر جميل بعض الأغاني الحزينة العذبة ، وكانت تصحب العود فى غنائها ، حتى كان يستولى الفرح على نفوس الجميع . وكانت معظم الولائم يحضرها أحد الظرفاء المشهورين بدرعة البديهة ، ولم يكن ذلك الظريف مجرد شخص قادر على استخدام الجنس من قبيل المزاح ؛ بل كان رجلا متمكنا من الأدب العربى واسع الثقافة والمعرفة ، بحيث كان يستطيع أن يكمل فى الحال أية عبارة مقتبسة ، وكان هذا الظريف يحق زينة الأدباء . ولقد بلغ حب الخلفاء والوزراء للشعر والأغاني مبلغا عظيما ، حتى إنهم لم ييخلوا بأى شئ على من كان يرضيهم من الشعراء . بل إن المتسول الذى كان يجيب إجابة منمقة لائقة ، كان الخليفة يملأ له وعاء من الذهب . أما الإديب الذى كان يظهر بداهة فى الجواب ، فكان يأخذ قسطا وافرا من المجوهرات ، وكانت خزانة ملابسه تمتلى بكل نفيس من الملابس الفاخرة . ولقد حدث أن توفى أحد الشعراء وخلف من ورائه مائة ثوب من أثواب الشرف ، وماتى قبيص وخمسائة عمامة .

ولكن كافور كان أكثر من محب للهو أو مسرف فى المذلات . لقد كان قويا كالخصان ، ولكنه كان رقيقا كاللارد . وكان يجدا فى عمله ، يميل إلى المرح فى الوقت نفسه . كما كان من السياسيين المخلصين ، إذ كان يمضى جانبا كبيرا من وقته فى رعاية شئون الدولة العامة ، وكثيرا ما كان يسهر حتى ساعة متأخرة من الليل . واشتهر بالحلم والكرم والتقوى . وعلى الرغم من أنه ترك ثروة طائلة بعد موته تحتوى

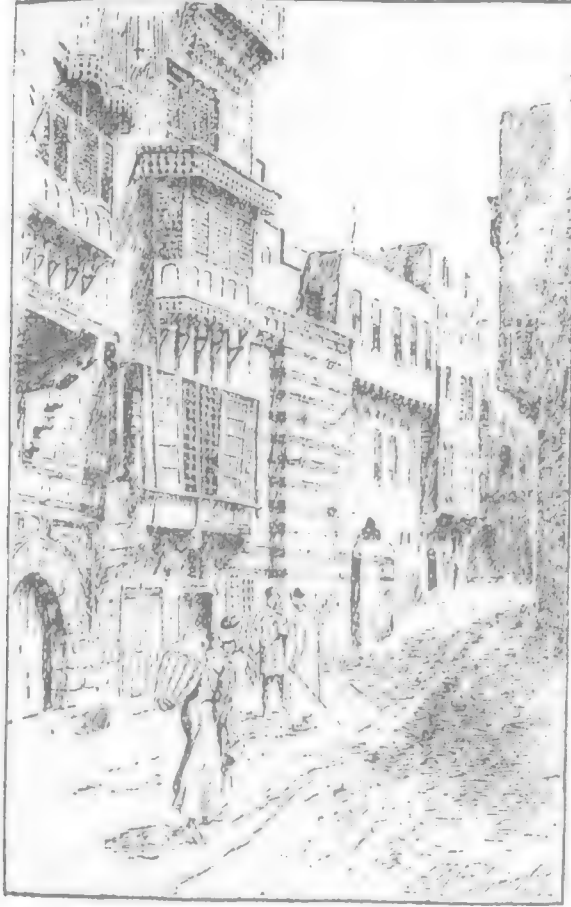
على الكثير من الذهب والأحجار الكريمة والعبيد والحيوانات ، إلا أنه كان يندق الكثير في وجوه الخير وينفق بغير حساب . وقد توفي في عام ٩٦٨ حيث كتب على قبره في دمشق :

ما بال قبرك يا كافورُ منفردا بالصَّحصح المُرْت بعد العسكر اللجب
يدوس قبرك أحاد الرجال وقد كانت أسود الشرى تخشاك في الكنب

وفي هذه الكلمات شيء من الصحة ، ولو أنها مبالغ فيها كثيرا . حقيقة كان كافور شجاعا ، غير أنه لا يمكننا أن نصفه بأنه كان قائدا ناجحا ، على الرغم من انتصارين أحرزهما في سوريا في مستهل حياته العملية . وقد كان لنشاط موظفيه وجنده الفضل في عظمة المملكة — وهي التي تمتد الآن إلى الحدود الشمالية لسوريا وتشمل الحجاز بما فيها مكة والمدينة — حتى سادها الأمن والعلمانية طوال مدة إمارته ، على الرغم من انخفاض النيل أكثر من مرة ، مما أدى إلى انتشار القحط والجذب ، وعلى الرغم من الزلازل المروعة التي اتت البلاد ، والحريق الهائل الذي دمر أكثر من ألف وسبعمائة منزل في مصر سنة ٩٥٤ م . ذلك أن الحصى الأسود كان يعرف كيف ينظم شئون البلاد . ومن سوء الحظ أنه — مثله في ذلك مثل جميع الحكام العظام ذوي السلطة المطلقة — لم يترك من يخلفه بعد موته . وكان من أثر ذلك أن غزت البلاد ، تلك القوات التي كان يعدها الخلفاء الفاطميون منذ وقت بعيد ، نتيجة للضعف الذي كانت عليه حكومة الأمير الجديد حفيد الإخشيد .

وليس هناك وصف جدير بالاعتباس لمدينة مصر في هذا العصر الذي عرف بالثراء . غير أن الرحالة ابن حوقل قد وصفها وصفا موجزا بعد سنة ٩٧٨ بقليل ، حيث يقدر مساحتها بثلاث مساحات بغداد . وهو يخص بالذكر أسواقها البديعة ، وشوارعها الضيقة ، ومنازلها المبنية من الطوب والتي كانت تصل إلى خمس طبقات بل إلى سبع في بعض الأحيان ، تلك الدور التي كان الواحد منها يتسع لمائتي نفس . أضف إلى ذلك الحدائق وأماكن النزهة التي كانت تحيط بتلك المدينة . وكان مسجد عمرو بن العاص في وسط المدينة ، وكان لا يزال أهم ما يلتفت النظر من بين المباني القائمة ، بما يدل على أنه لم تكن هناك قصور ضخمة أو دور شاهقة للحكومة . وكان قصر كافور يقع خارج المدينة ، وأغلب الظن أنه كان في

الحديقة المسماة بحديقة كافور ، ، على الرغم من أنه بنى لنفسه في وقت من الأوقات قصرا جديدا كلفه مائة ألف دينار ، وكان على مقربة من بركة قارون القريبة من جامع ابن طولون . غير أن العفونة التي كانت تنبعث من المياه الراكدة دفعته إلى ترك ذلك القصر . وكانت تلك الحاضرة تقع في مكان غير المكان الذي



(شارع بمصر القديمة)

تقع فيه مدينة القاهرة الحالية ، ذلك أن النيل كان قد أخذ في ذلك الوقت يغير مجراه نحو الغرب مما أدى إلى تكوين جزيرة بولاق أو الجزيرة ، . وفي أيام الإخشيد ، كانت مياه النيل تجري تحت أسوار حصن بابليون ، وتحف بالأسكر ، وتمر بجوار الأماكن التي تعرف الآن بباب اللوق وباب الحديد^(١) . وكانت المياه

(١) أنظر المقرئى ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١٦٣ ، ١٧٧ ، ١٨٥ وغيرها .

تفمر وقتئذ جميع أحياء مصر القديمة وقصر العيني وقصر الدوبارة وبولاق . وكانت الحاضرة تمتد على جانبي النيل وتصل إلى جامع ابن طولون تقريبا .

ولعل أحسن وصف في هذا الصدد ما أورده ناصر خسرو الفارسي الذي زار مصر في سنة ١٠٤٧ م أي بعد وفاة كافور بثمانين سنة . حقا — ولو أن ذلك ليس من المحتمل — أن تكون هناك تغيرات ذات أهمية قد حدثت في خلال تلك الفترة ، وناصر خسرو هذا لا يعرف شيئا عن القطائع . ومن ثانيا وصفه لمصر كدينة بنيت على أرض مرتفعة ، يتضح لنا في جلاء أن القطائع في ذلك الوقت الذي وصفها فيه ناصر خسرو كانت جزءا من مدينة مصر ، وأنه كانت لا تزال هناك بعض الدور على الرغم من الدمار الذي أعقب زوال الدولة الطولونية . وكان مسجد ابن طولون يقع في ظاهر المدينة ، يحيط به سور مزدوج أقوى مما شاهده هذا الرحالة في بلد من البلاد ، اللهم إلا إذا استثنينا آمد وميفارقين . وليس من شك في أنه كانت هنالك مأذنة في ذلك الوقت (١) . وكانت هنالك سبعة مساجد في المدينة القديمة أهمها مسجد عمرو بن العاص وكان به محراب منطى بالرغام الأبيض نقشت عليه آيات قرآنية . وكان ضمن هذا المسجد حافلا على الدوام بالأساتذة والطلاب وغيرهم من مختلف الطبقات ، الذين كانوا يتخذون هذا الصحن لعقد الاجتماعات العامة وبحث شئونهم المختلفة . وقد انتهى أمر هذا الجامع إلى أن اشتراه الخليفة الحاكم الفاطمي — الذي سنتكلم عنه في الباب التالي — بمائة ألف دينار ، مع أنه أنفق عليه مائة خمسة وثلاثون ألف دينار ، وأجرى فيه بعض الإصلاحات . كما زوده بمصباح كبير من الفضة علق فيه سبعائة قنديل . وقد بلغ من كبر حجم هذا المصباح أنهم أرغموا على خلع أحد أبواب المسجد ليتمكنوا من إدخاله . وكان قاضي القضاة حتى ذلك الوقت لا يزال يعقد مجالسه في صحن هذا المسجد .

أما في الخارج فقد كانت أبواب المسجد تطل على الأسواق ، وفي الشمال شارع القناديل وهو الشارع الذي لم ير له ناصر خسرو مثيلا في أي مكان آخر . ولقد أعجب هذا الرحالة بما كان معروضا هنالك من البلور وأصداف وغير ذلك من النفوش الدقيقة ، كما شاهد كثيرا من العاج وريش النعام وغير ذلك من منتجات

السودان والحبشة . وفي ذات يوم — أو إذا شئنا التدقيق في الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة ١٠٤٨ — أحصى أنواع الأزهار والخضروات والفواكه التي شاهدها في أسواق مصر: الورد الأحمر ، والزنبق ، والرجس ، والبرتقال الحامض والحلو ، والليمون ، والتفاح ، والياسمين ، والبطيخ ، والموز ، والزيتون ، والبلح ، والعنب ، وقصب السكر ، والقرع ، والبصل ، والثوم ، والباذنجان ، والجزر ، والبنجر ، مع أن هذه الأشياء جميعها كانت تظهر في مواسم مختلفة . إلا أن ناصر خسرو يقول إن القطر المصري عبارة عن أرض فسيحة تنتج الفواكه التي تنمو في الجو البارد والحر على السواء . كما أن منتجات جميع السكور كانت تجلب إلى الحاضرة وتكون معدة للبيع في الأسواق . وقد بلغ من إتقانهم صناعة الفخار أن كان ناصر خسرو يستطيع أن يرى يده من خلاله ، كما كان بلون الألوان جميلة بحيث كان يشبه الثياب القلونية . وكان هنالك أيضا زجاج أخضر شفاف غالي الثمن . وقد أمكن التحقق من ذلك كله من بقايا القمامة التي عثر عليها بين أطلال المدينة الدارسة . وما شاهده ناصر خسرو كذلك ، الأواني النحاسية الكبيرة المصنوعة من النحاس الذي كان يستورد من دمشق . وقد حدث أن وجدت هناك امرأة تملك خمسة آلاف من هذه الأواني وكانت تؤجر الواحدة منها بدينار واحد في الشهر . وكان من دواعي اغتياب ناصر خسرو أنه اكتشف أنه لم تكن هناك حاجة لأن يحمل المرء معه قارورة أو ورقة إذا ذهب إلى الأماكن التي تباع فيها العقاقير أو إلى تجار الحديد ، فقد كان هؤلاء يزودون عملاءهم بما يودعون فيه مشترياتهم . والأغرب من هذا حقا أن التجار كانوا يبيعون بأسعار محددة بدلا من المساومة التي كانت مألوفة من قبل . وإذا سالت أحد التجار نفسه بالفلس ، ركب جملا مر به في السوق وحمل جرسا وصاح قائلا : لقد ارتكبت غشا وها أنذا أناال جزائي ، ولعل الله أن ينزل عقابه بمن يرتكب هذا الجرم .

وكان جميع التجار ينهبون إلى حوانيتهم ممتطين الخير ، وكانت هناك عند مفترق الطرق حمير كثيرة للأجرة بلغ عددها خمسين ألفا — على ما عليت — ولم

يكن يركب الخيل سوى الجنود .

وكانت المدينة تمتد على طول شاطئ النيل ، وكانت الأروقة والأكشاك تشرف على النهر ، حيث كان الشخص يستطيع أن يحصل على الماء عن طريق الأحبال المدلاة . وكان السقاؤون يحملون الماء — كما يحملونه الآن — في قرب كبيرة يحملونها على ظهورهم أو فوق الجبال أحيانا . وكانت بعض الدور تتألف من سبع طبقات ، في الطابق العلوى منها حديقة للفواكه ، وعلى الأخص البرتقال ، وكانت تروىها ساقية يديرها ثور كان يحمل إلى أعلى المنزل عندما كان لا يزال مجلا صغيرا . وكان حجم الدور كبيرا جدا لدرجة أن الدار الواحدة كانت تسع ثلثمائة وخمسين شخصا . وكانت بعض الشوارع والأسواق المسقوفة تضاء بالمصابيح دائما لأن ضوء الشمس لم يكن يصل إليها . ولكي يعبر المرء الجزيرة ، كان هناك جسر مكون من ستة وثلاثين قاربا . غير أنه لم يكن هناك في ذلك الوقت جسر آخر يصل بين الروضة والجزيرة ، ومن ثم كان على المرء أن يركب قاربا أو معدية ، . ومن حسن الحظ أن عدد القوارب في مصر كان في ذلك الوقت أكثر منه في البصرة أو في بغداد . ويذكر لنا ناصر خسرو أن سكان المدينة كانوا يتمتعون برخاء كبير في سنة ١٠٤٨ . وقد حدث في ذلك الوقت أن ولد أمير جديد ، فأخذ الناس يقيمون معالم الزينة في المدينة ، حتى اعتقد أن الناس ان يصدقوا وصف ما شاهده . والواقع أن ناصر خسرو لم يعرف قطرا تمتع بما تمتعت به مصر من رخاء ونظام . وهو يحدثنا عن قصة رجل مسيحي موثر التقى به في مصر ، وكان هذا الرجل يملك تجارة ضخمة وضياعا واسعة . وقد حدث أنه حين لجأ إليه الوزير في إحدى سنى القحط ، أن قال له هذا الرجل الثرى إنه يملك مخازن من القمح تسد حاجة الحاضرة ست سنين . أما الختان الذي كان يعرف بدار الوزير فقد بلغت إيجاراته إثني عشر ألف دينار في السنة ، وقد قيل إنه كان يوجد هناك مائتان من هذه الخانات .

ومن المحتمل أن تكون تلك المدينة التي وصفها ناصر خسرو في سنى ١٠٤٧ — ١٠٤٨ م قد تغيرت قليلا في أواخر ذلك القرن الذي نعمت فيه بالثراء . وكان أساس القاهرة قد فصل مرة أخرى الدوائر الرسمية والقضائية عن مدينة مصر قبل

زيارة ناصر خسرو لها ثمانين سنة . ومع ذلك فإن الحاضرة القديمة احتفظت بروائها باعتبارها مركزا تجاريا هاما ، وليس هناك ما يدعو إلى الزعم بأن شأنه قد انحط في المائة والعشرين سنة التالية . ولقد تدبنا مجرى الحوادث حين وصفنا مصر على ما كانت عليه في القرن الحادى عشر الميلادى ، ويجدر بنا هنا أن نختتم هذا الموضوع بالكلام على ما لحق بها في القرن الثانى عشر . ففي سنة ١١٦٨ م تقدم عمورى ، ملك بيت المقدس اللاتينى ، نحو القاهرة لغزو مصر التى آمن الصليبيون بأهميتها بالنسبة لسلامتهم فى فلسطين . ففي شهر نوفمبر تمكن من الاستيلاء على بلبس ، وقد اطلع اسمه بذبحه كل رجل أو امرأة أو طفل . وكان الخوف من وقوع مذابح أخرى مشابهة ، ومن خطر وصول الغزاة إلى مدينة القاهرة وسيلة لتدمير الفسطاط أن أمر شاروس وزير الخليفة الفاطمى فى مصر — بإحراق الفسطاط . ففي الثانى عشر من شهر نوفمبر أشعلت النيران فى عشرين ألف برميل مملوءة بزيوت النفط . واستمرت هذه النيران مشتعلة أربعة وخمسين يوما كاملة . ويمكن أن نجد بعض آثار الحريق فى ثنايا التلال الرملية جنوبى القاهرة والممتدة عدة أميال فوق البقايا المظلمة . وكان الناس يهربون من الحريق ، كما لو كان قد تفخ فى السور فإذا هم من الأجداث يفسلون ، وقد هجر الأب أولاده ، والأخ يترك أخاه ، وتدفأوا إلى مدينة القاهرة للنجاة بأرواحهم . وقد استغل أصحاب الجمال هذه الكارثة المفجعة فكان الواحد منهم يؤجر جملة بثلاثين قطعة ذهبية لقطع مسافة ميل أو مياين^(١) . وكان الدخان المتصاعد من النيران يرتفع إلى السماء فى شكل سحب كثيفة سوداء ، مما اضطر الغزاة إلى أن يعسكروا على مسافة بعيدة منها . وربما كان هذا الإجراء القاسى ضرورة لا بد منها ، على الرغم من أن مدينة القاهرة قد أمكن تخليصها بوسائل أخرى . غير أننا فى الوقت نفسه إذ نتطلع إلى تلك التلال الرملية الحاوية التى تحدد لنا موقع مدينة الفسطاط وتحمل إلى أذهاننا ذلك الرغاء والحير الذى حدثنا عنه الرحالة الفارسى^(٢) ، يبدو لنا أن ألفا من غزاة الصليبيين كانوا أهون بكثير من ضياع تلك المدينة القديمة وهى « مصر » .

(١) أنظر كتاب Saladin, p. 93

(٢) ناصر خسرو .

وعلى الرغم من أن هذه المدينة لم تسرد مكاتها بعد ما لحق بها من الحرائق ، فإن بعض الجهود قد بذلت في سبيل إصلاحها . وليس من السهل أن يغير الإنسان المكان الذي اعتاد أن يعيش فيه ، فأن طرد الصليبيون حتى أخذ الناس يعودون إلى مصر ، ويبحثون عن دورهم ويحاولون إصلاحها لقيموا فيها من جديد . ولما زار ابن جبير ، الرحالة العربي الأندلسي ، مصر في سنة ١١٨٣ ، أى بعد ذلك الحريق الهائل بأربع عشرة سنة فقط ، وجد المدينة أقل خرابا عما قد يتبادر إلى أذهانتنا ، إذا علمنا أنها احترقت أربعاً وخمسين يوماً كاملاً . وقد أمضى وقتاً طويلاً في فندق ، أبى الشتاء ، في شارع القناديل ، وقد سمي بهذا الاسم لأنه كان يسكنه طبقة من النبلاء أمام دار كل منهم فتبديل ، وكان لا يزال يقع بالقرب من جامع عمرو بن العاص . وعلى الرغم من الآثار التي تبعث الحزن في النفس ، إلا أن كثيراً من الدور كان قد أعيد بناؤها . وكانت المباني الجديدة في صفوف لا تكاد تنقطع وقد تكونت منها مدينة عظيمة بالإضافة إلى بقايا المدينة السابقة الممتدة من خلفها وحولها . وكل هذه المباني تبين في وضوح إلى أى حد كانت تمتد المدينة القديمة من قبل^(١) ، غير أن الجهود التي بذلت في سبيل إعادة المدينة إلى ما كانت عليه لم تصادف شيئاً من النجاح . وليس أدل على نقص عدد السكان ، من أنه على الرغم من أن صلاح الدين وخلفاءه بنوا في مصر وحولها عشرة معاهد للعلم ، اعتقاداً منهم أن هذه المدينة سوف تأخذ في النمو ، فإنه لم يبن بها مسجد واحد بعد ذلك الحريق المروع ، وكانت القاهرة في ذلك الوقت قد بدأت تحل محلها . ولما زار ابن سعيد مصر خلال سنة ١٢٤٠ م ، أحزنه كثيراً منظر الجدران السوداء والدور المتهمة وغير ذلك من مظاهر القنارة والإهمال . وكان لا يزال هناك جمهور كبير في الشوارع الملتوية ، ولقب من الباعة المتجولين ينادون على سلهم بين الطلاب والأطفال في الجامع القديم ، الذي كان ينطيه إذ ذاك نسيج العنكبوت وتثر عليه أكوام القاذورات . كما أن السفن التجارية كانت تختبئ إلى مدينة الفسطاط ، كما كانت هناك مصانع السكر والصابون لا يزال يجري العمل فيها^(٢) . إلا أن الخراب كان برغم هذا يعم المدينة بأسرها ، ذلك أن التلف كان قد لحقها ، كما أن النمو والازدهار كان قد بدأ يتسرب إلى مدينة القاهرة .

(١) ابن جبير طبعة Wright ص ٥١ . (٢) القريزي ج ١ ص ٢٤١ .

الباب الخامس

القاهرة

إعقاب الشيعة - الخلافة الفاطمية - الميز - فتح مصر - تأسيس القاهرة - نتائج الانقلاب - القبض تحت الحكم الفاطمي - العزيز - الجامعة الأزهرية - مدينة القصر - القصر العظيم - أبواب القاهرة - باب زويلة - وصف «وليم الصوري» البلاط الفاطمي - ميناء القس والأسطول - الثروة والفن والترف أيام الفاطميين - جامع الحاكم - الخليفة الحاكم - دار العلم - ألوية الحاكم - الاستبداد العسكري وضياح الأقاليم - القاهرة في سنة ١٠٤٧ - جبر الخليج - اليازوري - الآراك والنهب واللب - جماعة السبع سنين - بدر الجمال - الدور الثاني لأبواب القاهرة - الوزراء الأرمين - حكم الوزراء - الاغتيالات والاستبداد العسكري - ابن رزيق - فن البناء الفاطمي.

إن تأسيس القاهرة الحقيقية، التي تتميز عن مدينة مصر القديمة وما كانت تحويه من ضواحي مختلفة، يسير جنباً إلى جنب مع إنقلاب خطير، لا يقتصر أثره على مجرد تغيير دولة بأخرى، أو انتقال إلى مقر جديد. فلقد كان الغزو الفاطمي، الذي تمخض عن المدينة الجديدة، بمثابة إنقلاب في الدين والثقافة ونظام الحكم. والواقع أن الاختلافات الدينية التي جعلت من جامع عمرو بن العاص مكاناً لا نظام ولا ترتيب فيه أيام الإخشيد، لم تكن شيئاً إن هي قيست إل بعد الشقة بين العقيدة القديمة وبين هرطقة القاديين الجدد. وإن نحن أمعنا في مذهب الشيعة، وهو مذهب الفاطميين، وجدناه في جوهره لا يمت إلى الإسلام بصلة، ذلك أنه في الواقع لم يفعل أكثر من أنه اتخذ ذلك الانقسام الذي حدث في الإسلام أساساً يبنى عليه حركة سياسية واسعة النطاق ذات صبغة جديدة مختلفة. وكان ذلك الشقاق القديم قد نجم عن يرث الخلافة، ثم استحال إلى ذلك الخلاف القديم بين نظريتي الانتخاب العام والحق الإلهي. فقد قال أصحاب المذهب القديم، أو مذهب السنة، إن انتخاب أول ثلاثة من الخلفاء الراشدين وهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، كان شورياً؛ في حين قال أصحاب مذهب الشيعة أن أصحاب الحق الإلهي في وراثة الخلافة هم أفراد عائلة الرسول. وعلى ذلك يكون من لهم الحق في الخلافة: هم عليّ زوج فاطمة بنت النبي، ومن بعده أولاده. فهؤلاء وحدهم

هم ورثة النبي . وهكذا أصبح علي بن أبي طالب بدوره رابع الخلفاء الراشدين ؛ غير أنه لقي معارضة شديدة وانتهى أمره بالقتل . وهنا أقصى أولاده ، أحفاد النبي ، عن الخلافة ، وحينما حاول أحدهم ، وهو الحسين ، أن يطالب بحقه فيها ، هزم وقتل . ومنذ ذلك الوقت ومأساة الاستشهاد في كربلاء بدأت تثير مشاعر الشيعة في المحرم من كل عام .

وكان اضطهاد الخلفاء الأمويين لآل محمد ، داعيا إلى عطف الناس عليهم والتأثر لمخبتهم . غير أن أحدا من خلفائهم لم يلبح نجده في سماء السياسة ، ومن ثم فإن الثورات العلوية التي كانت تحدث بين الفينة والفينة لم يكن لها شأن يذكر . وقد كان يمكن ألا تكون تلك الحركة أكثر من عارض حدث في عالم السياسة ، أو بمثابة تجربة سجلت على صفحات التاريخ . غير أن شيئا من هذا لم يحدث بفضل التطور الذي أدخله على تلك الحركة عبد الله بن ميمون طبيب العيون الفارسي الذي كان يشتغل بالسحر والشعوذة في آن الوقت . ولقد دبر هذا الرجل ، الذي كان يعقت العرب وخلفاءهم مقنا شديدا ، مؤامرة للقضاء على الدين الإسلامي ولتقوية نفوذ الفرس مرة أخرى . ولقد شجع مذهبه ، الذي اشتق من رأى العلويين القائل بالحق الإلهي ، كثيرا من الناس على الخروج على الدين الإسلامي والانضمام إليه ، وكذلك أولئك المتحمسون الذين كانوا لا يزالون ييكون مأساة كربلاء . ذلك إنه قال إن الله كان على الدوام مجسدا في بعض الزعماء الروحانيين أو الأئمة أمثال آدم وإبراهيم وهكذا حتى على . ولم يكن العالم في يوم من الأيام بدون إمام ، غير أنه ليس من الضروري أن يكون هذا الإمام بما تراه العين ، وهذا هو بيت الفصيد في الموضوع . وعلى ذلك فقد حدث أن قطعت سلسلة الخلافة من بعد علي ابن أبي طالب . غير أنه على الرغم من ذلك ، كان يوجد في الوقت نفسه إمام مخفي يتحين الفرصة للكشف عن نفسه أمام العالم ، وحينما ظهر هذا الإمام المخفي إذا بالناس يجدونه المهدي ، فيصرفون نظرهم عن الخلفاء الذين اغتصبوا سلطته ، وأثناء هذه المدة كان لابد لأولئك الذين ينتظرونه من أن يعدوا عدتهم من الرجال ولئن كان الإمام لا يزال مخفيا ، فإن هذا لا يمنع من أن يعمل أنصاره على دعوة الناس إلى الحق .

وهكذا كانت البداية سائرة على قدم وساق . وكانت هناك جمعية سرية تعمل

في الخفاء في العالم الإسلامي ، وقد لقيت نجاحا على الأخص في بلاد العرب وبلاد الموصل وشمال أفريقيا ، وكان دعاة الشيعة يختارون بعناية ويدربون على تعليم تلك المبادئ حتى يمتد بها الناس . أما أولئك الذين لم يتذوقوا العلوم والمعارف فكان لهم معهم سبيل آخر ، ذلك أنهم كانوا يلقنونهم ما يبدو في ظاهره دروس مستفادة من القرآن ، ولو أنها كانت مزوجة على الدرام بالإشارة إلى قرب وصول المهدي ، تلك الشخصية الرائعة الغامضة . وأما المثقفون ذوو العقول المستنيرة فكانوا يلجأون معهم إلى المناقشات التي تتناسب مع أقدارهم الواسع ، وبذلك يصلون بهم إلى ما يفتنون . ولم يكن هؤلاء الدعاة يشبهون المسلمين في شيء ، فقد كانوا فيما بين أنفسهم زنادقة ، وأمام الناس كل شيء . كما أن أهدافهم كانت سياسية محضة تلخص في قلب الإسلام على أعقابها ، وسلب المسلمين سلطتهم . ولقد استخدموا جميع الديانات المختلفة في غير مبالاة ، ولئن كانت تلك الديانات فاسدة بالنسبة للإله ولا تعنيهم في شيء ، إلا أنها كانت درجات لها قيمتها في توصيلهم إلى غايتهم . وكانوا يبدلون قصارى جهدهم في استرضاء من يعتقدون مذهبهم والاحتفاظ بهم ، فإنهم كانوا يودعونهم أسرارهم حتى يساورونهم بهم . وكانوا يستخدمون الإسم المقدس لسيدنا علي بن أبي طالب ، وينشرون بقرب محيى مسيح جديد ، لا لأنهم كانوا يعتقدون في أحدهما أو في الخلافة أو في التجسد الروحي ، وإنما كان لابد لهم من أن يضربوا على وتر رنان حتى يطرب الناس بنغماته .

ولقد أصاب دعاة الشيعة (١) ثلاث خطوات من النجاح : الخطوة الأولى هي سيادة القرامطة على بلاد العرب وبلاد الموصل وسوريا في القرنين التاسع والعاشر ، والخطوة الثانية هي امتداد الخلافة الفاطمية إلى شمال أفريقيا والقطر المصرى ، أما الخطوة الثالثة والأخيرة فكانت خشية الإسماعيليين أو الحشاشين في بلاد الفرس ولبنان . والذي يهمننا هنا على الأخص هو الخطوة الثانية ، على الرغم من أن كلا القرامطة والحشاشين كان لهما تأثير على مصر .

وكانت الخلافة الفاطمية ، التي اشتقت إسمها من فاطمة زوجة علي بن أبي طالب وبنت النبي ، هي أقوى وأبرز ما تمخضت عنه حركة الشيعة ، ووجد الشيعة بلاد البرابرة أرضا خصبا لنشر مبادئها بين البربر السذج . ولقد نجح الانقلاب حينما

(١) أو الإسماعيلية .

أفلحت الدعوة في إيجاد خليفة لعملي بن أبي طالب وزوجته فاطمة في شخص عبيد الله المهدي في القيروان عاصمة البلاد التي تسمى الآن تونس ، وكان ذلك في عام ٩١٠ . ولقد خضعت بلاد المغرب ، من فاس في مراکش حتى الحدود المصرية ، لنفوذ المهدي ، وذلك بعد أن غزاها مرتين . وقد استولت الأساطيل الفاطمية على أملاك أسرة الأغالة في تونس ، وهي الأسرة التي كانت تعتبر قوة بحرية عظيمة في أواسط البحر الأبيض المتوسط ، والتي كان قد تم لها الاستيلاء على صقلية وسردينيا وقورسيقا ومالطة ، ومنذ ذلك الحين أخذت تعمل على تدمير سواحل فرنسا وإيطاليا ، فكانت تسلب وتهب وتحرق أينما حلت . والخليفة المعز ، رابع الخلفاء الفاطميين من أسرة المهدي وصاحب الفضل في فتح مصر ، كان رجلا قادرا نزيها ذكيا ، وسياسيا بارعا متضلعا في شئون السياسة . وكان إلى جانب ذلك خطيبا مفوها ، باللغات اليونانية والعربية والبربرية . وعلى الجملة فقد كان يبدو مسلما عادلا آمينا لمذهب الشيعة (١) . وقد كانت هناك تفرقة واضحة بين المذهب الغمامي والمذهب الواضح في نظر أصحاب مذهب الشيعة ، حتى ليستحيل علينا أن نقطع برأى واحد . ولو أنه من المرجح ألا يكون المعز ، مثله في ذلك مثل معظم من جاءوا بعده ، قد شارك آراء الشيعة المتطرفة ، ولكنه اعتنق مبادئ القرآن بعد أن عدلتها آراء العلويين وتفسيراتهم الرمزية .

ذلك هو الخليفة الفاطمي الذي عزم أخيرا — بعد تقدمه في مستعمراته الأفريقية وحمل سلاحه حتى ساحل المحيط الأطلنطي (عام ٩٥٩) ، على أن يتم غزوه لمصر ، ذلك القطر الذي حاول جده الاستيلاء عليه دون جدوى ، رغم أن ذلك كان منهى ما تصبو إليه نفسه . ولم تكن أرض بلاد المغرب الجذباء ولا قبائلها الثائرة لتقارن بوادى مصر الخصب وتجارته الرائجة . ومن ثم كان الخليفة قد وضع الحطة لغزو مصر . ولم يكن الغزو إذ ذاك أمرا عسيرا ، ذلك أن جوهر ، عبده

(١) يجمل بنا هنا لاستجلاء الأمر أن نشير إلى التلمة التي كانت بينه وبين القرامطة ، على الرغم من أن هؤلاء كانوا مصدر الانقلاب الفاطمي . فلقد غزوا مصر مرتين بعد فترة وجيزة من الفتح الفاطمي ، وكان ذلك في عامي ٩٧١ ، ٩٧٤ م . وقد حاصروا القاهرة وشقوا الأنشيم طريقا بالقوة من أحد أبوابها . وليس ثمة ريب في أن كره المعز الزائد لأولئك الأعراب الاصموص كان له أساسه السياسي .

الرومانى الذى نشأ فى الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، قاد له مائة ألف مقاتل من القيروان فى شهر فبراير من عام ٩٦٩ ، فسلست مدينة الإسكندرية بدون قيد ولا شرط ، كما أن المصريين لم يقاوموا مقاومة تذكر ، إذ كان الإجهاد قد أصابهم نتيجة مجاعة أعقبت انتشار طاعون^(١) فى البلاد ، وكانوا فى حاجة إلى قائد كفء ، كما أن الجنود المصرية كانت قد لجأت إلى العصيان . وأخيراً كان هناك كثير من المعصدين للخلافة الفاطمية ممن كانوا يعملون فى السر ، ومن كان لهم أثر فى مصر . ولذا لم تدم رحى الحرب طويلاً ، وبعدها عبر جوهر النيل بالقوة حيث فر المدافعون وأخذت نساء مصر تطالبن بالرحمة . وقد أعقب التسليم عفواً شامل وأمر بالكف عن النهب والسلب . وهكذا استطاع الجيش الفاطمى أن يركب إلى مصر فى الخامس من شهر أغسطس .

وفى نفس تلك الليلة وضع جوهر أساس مدينة جديدة ، أو على الأصح أساس قصر حصين ، وذلك لاستقبال سيده العظيم ، وكان هو قد عسكر فى الأراضى الرملية التى كانت تمتد فى شمال شرق القسطنطينية على الطريق المؤدى إلى هليوبوليس . وهناك على مسافة تبعد عن النهر بما يقرب من ميل ، وضع حدود العاصمة الجديدة . ولم تكن هناك مباني سوى دبر العظام ، القديم ، كذلك لم يكن هناك زرع سوى تلك الحديقة الجيلة المسماة بحديقة كافور . وكان هذا الدبر وهذه الحديقة بما عاق جوهر فى بادى الأمر عن تنفيذ خطته . وقد وضعت القوائم فى مربع يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ألف ومائتين ياردة . وأخذ المنجمون المغاربة ، الذين كان المعز يثق فيهم ثقة عمياء ، يتشاورون فيما بينهم على تحديد موعد للافتتاح العظيم . وكانت الأجراس معلقة على الأحبال الممتدة من عمود إلى آخر ، وذلك انتظاراً للوعد الذى يحدده أولئك الحكماء لى تضرب ، حتى يبدأ العمال فوراً فى العمل . غير أنه حدث هناك ما عجّل بالأمر وسبق كلمة المنجمين ، إذ وقف غراب على طرف أحد الأعمدة وبذلك أخذت جميع النواقيس تدق . ومن ثم بدأت المعاول تعمل فى الأرض وتحفر الحفر اللازمة للبناء ، وكان ذلك طالعاً غير سعيد ، فقد كان الكوكب مارس Mars (الفاهر) فى صعود . غير أن شيئاً مما تم عمله ، لم يمكن نقضه على الإطلاق . وهكذا سعى المكان والفاهرة ، نسبة إلى هذا الطالع غير السعيد ، أملاً فى أن يتحول القال المشهور إلى نتيجة مظفرة . والواقع أنه يمكن القول بأن

القاهرة قد خيبت أو هام المنجمين . وكان اسم الخليفة العباسي قد حذف في الحال من صلوات يوم الجمعة في مسجد عمرو بن العاص القديم ، كما أن ملابس العباسيين السوداء قد حرّم لبسها . وكان الواعظ يرتدى ملابس ناصعة البياض ويتلو خطبة للإمام المعز ، أمير المؤمنين ، ويطلب له ولأجداده - على بن أبي طالب وفاطمة وجميع أفراد الأسرة المقدسة - البركة والنعمة . وكانت الدعوة إلى الصلاة من فوق المأذنة بما يتفق ورغبات الشيعة ، وكل هذه الأخبار السارة قد وصلت إلى الخليفة الفاطمي بواسطة الجبال التي تحمل رموس القتلى ، وصكت النقود بحيث تحمل عقائد الفاطميين ، وهذا بالإضافة إلى عقائد المسلمين الأخرى . وقد أبد صك النقود على هذا النحو ، آراء الشيعة ومبادئها لمدة قرنين من الزمن (١) .

غير أن هذا التحول كان أكثر من مجرد إبدال عقيدة بأخرى . وبما لا ريب فيه أنه بفضل التسامح السياسي لفتح مصر وتجنب مبادئ الشيعة المتطرفة ، وافق الناس على النظام الجديد دون أى معارضة أو تمقّب للذهب القديم ، اللهم إلا حينما احتفل القادمون الجدد أمام أعينهم باحتفال محرم لذكرى شهداء كربلاء . وكانت الغالبية العظمى قد ظلت غير مقتنعة بالعقائد الجديدة ، وكان ذلك الموقف يماثل موقفهم حينما استقبلوا إحياء المذهب القديم بعد ذلك بقرنين . على أن التغيير الصحيح كان من الناحية السياسية ، فلم تعد القاهرة عاصمة ولاية تابعة للخلافة القديمة ، وأضحى ولاية مستقلة ضمناً متصلة بتلك الخلافة ، وإنما كانت عاصمة دولة منافسة هي إمبراطورية البحر الأبيض المتوسط . حقيقة إن الإمبراطورية لم تلبث أن فقدت إقبالها الإفريقية البعيدة وجزرها الأوربية ، وانكسرت حتى لم تعد تشمل سوى إيالة ابن طولون . غير أن قوة الدولة الفاطمية وغناها كان شيئاً جديداً . وقد كان التنافس بين القاهرة وبغداد ، بين خلافة الشيعة الناشئة القوية وبين النظام السنّي المتداعى ، أثر بعيد المدى في مضمار السياسة والحضارة . وقد كان لقوة الفاطميين البحرية واتصالهم بدول أوروبا أثره في إيجاد عنصر جديد في السياسة الخارجية ، وتنشيط التجارة ، وتغيير حضارة مصر وسوريا من نواحي كثيرة مختلفة . ومن جهة أخرى نجد أن عزل القاهرة أدّى إلى نمو ثقافة منفصلة لم تكن من

(١) أنظر كتاب المؤلف A History of Egypt in the Middle Ages, pp.

الخير بالنسبة لها . ذلك أن المرواطة عزلتها عن المراكز الثقافية الهامة في العالم العربي - بغداد ودمشق وقرطبة - . ثم إن الامتزاج القديم ، الذي كان من شأنه أن يجلب الاساتذة والطلاب من كل أنحاء الإمبراطورية الإسلامية إلى مساجد المدن الكبيرة ، أصبح مستحيلا في عاصمة مثل مصر كانت المساجد فيها في أيدي مرواطة . ومن ثم كانت القاهرة بمعزل عن تقدم الدراسات الإسلامية في القرنين . الحادى عشر والثانى عشر . وقبلنا ظهر هناك قادة في محيط الفكر أو الادب العربي تحت الحكم الفاطمى . وفي بعض الفروع مثل الفلسفة والعلوم الطبيعية والطبية ، كان من المنتظر أن تكون هناك بعض النتائج الحسنة التى تمنحنت عن تفكير الشيعة الحر . وليس من شك في أن بعض هذه النتائج قد حدث بالفعل ، إذ حقق بعض الأطباء المسيحيين واليهود شيئا من التقدم . غير أن هذه الحالات الفردية القليلة لا تعد شيئا إن هى قيست بالنسبة إلى الخسارة العامة التى عادت على مصر من عزلتها عن بقية العالم الثقافى . وقد يكون مرواطة القاهرة استفادوا بعد ذلك بقليل من اختلاطهم بأوربا ، غير أن أوربا في القرنين العاشر والحادى عشر لم تكن شيئا يعتد به في مضمار الثقافة .

على أن الذين استفادوا حقا من تغيير الحكومة هم الأقباط المسيحيون ، لحتى ذلك الوقت كان مصيرهم على الدوام يتوقف على طبع الحكام العرب أو الأتراك المختلفين ، غير أنه بوصول الخلفاء الفاطميين بدأت فترة من التسامح واللين لا عهد لهم بها ، فقد كان الحكام الجدد ، باستثناء واحد فقط منهم ، يراعون على الدوام رعاياهم المسيحيين ، وكثيرا ما بنيت أو أصلحت كنائس في عهدهم .

وقد كان للخليفة العزيز بن المعز - والذي حكم من عام ٩٧٥ إلى ٩٩٦ م - زوجة مسيحية ، وكان إثنان من أخواتها بطاركة ملكانيين ، كما أن كلا من البطريرك البعقوبى افريم وسفيروس أسقف أشمونين كانا من خيرة أصدقائه . فقد كان الأسقف يُشجع على الحجى إلى القصر والتحدث في اللاهوت مع رئيس القضاة ، كما أن البطريرك قد سمح له بإصلاح كنيسة القديس مرقار يوس^(١) التى كانت توجد خارج مصر . وبحدثنا أحد الكتاب الأرمنيين بأنه كانت توجد قديما كنيسة مكرسة

(١) كنيسة أبى سيفين بمصر العتيقة الآن .

لهذا القديس ، تقع على ضفة النهر . غير أنها كانت متهمة وتستعمل كمخزن لنصب السكر . وبعد ذلك ، في عهد هذا البطريك ، بدأت الأسئلة تدور حول قانون الإيمان عند المسيحيين ، وهل كانوا يمتقدون في الكذب أم في الإيمان . وهنا اجتمع المسيحيون وذهبوا إلى الجبل ، وكان المسلمون واليهود قد خرجوا في نفس الوقت لغرض آخر . وقد تقدم كثير من زعماء الإسلام وأخذوا يصلون وينادون « الله أكبر ، ويتضرعون إلى الله طالبين معونته ، غير أن أية علامة لم تظهر لهم . وبعد ذلك تبهم اليهود ، إلا أن حظهم لم يكن بأحسن من حظ المسلمين ، وهنا تقدم البطريك بقبعة الدبّاغ ، الذي كان الله قد حقق له معجزة عجيبة ، ومن ورائهما جميع المؤمنين ، ثم أخذوا يصلون إلى الله العليّ العظيم ، ويحرقون البخور ، ويصيحون ثلاث مرات قائلين « كير باليسون » ، وما أن أتى ذلك حتى كان الله قد أتى بالمعجائب . ذلك أن الجبل كان قد تحرك ، ونقصد بالجبل ذلك الجزء من جبل المقطم القريب من تل المكشيش بين القاهرة ومصر . وقد حدثت هذه المعجزة خلال إيمان الدبّاغ الذي كان قد اقتلع عينه في حضرة العزيز وكبار رجال حكومته وقضاة الإسلام . وحينما شاهد العزيز هذه المعجزة العظيمة قال : « كفى أيها البطريك ، فنحن نعترف بما فعل الله لك . وبعد ذلك أضاف قائلاً : « اطلب مني ما تشاء ، وسوف أحققه لك » . ومهما يكن من شيء ، فإن البطريك رفض هذا الطلب شاكراً . غير أن العزيز ألح عليه في أن يطلب شيئاً ، وهنا طلب منه البطريك في أن يأذن له بإصلاح كنيسة قديمة كان قد لحقها الخراب . وبالفعل حقق له العزيز ما أراد وأمر بأن تصلح الكنيسة ، ويقال إن تلك هي كنيسة القديس مركوريوس Mercurius (١) . ويلاحظ أن البطريك لم يقبل المال الذي منحه إياه العزيز ، بل أصلح الكنيسة من ماله الخاص . وقد تم العمل تحت حراسة قوات الخليفة التي كانت تحمي المسيحيين من « عامة المسلمين » الذين لم يطبقوا التساهل مع أولئك « المشركين » . ولقد كان أحد وزراء العزيز يهودياً في أصله ، وكان ابن نسطوروس مسيحياً . وبطبيعة الحال كان المسلمون لا يظهرون ارتياحهم لمثل هذا التسامح الديني بما دعاهم إلى هجماء الخليفة . أما النساء فكان دائماً في صف المسيحيين ، وكانت لهم طريقتهن الخاص كما هي العادة . وحتى في أيام الحاكم — الذي سبقت الإشارة إلى أنه كان

ذون الخلفاء جميعا في معاملته للأقباط والذي جاء وقت كان يضطهدهم فيه اضطهادا مريرا ، كانت الوظائف الكبرى لا تزال في أيدي المسيحيين . وعلى الرغم من أنه حدث كثير من الاغتصاب والنهب أيام الوزير اليازورى في منتصف القرن الحادى عشر ، إلا أنه يبدو أن ذلك كان نتيجة عسرمالى وليس نتيجة اضطهاد دينى . وليس من شك فى أن التأثير العظيم الذى أحدثه الوزراء الأرمنيون فى النصف الأخير من ذلك القرن قد تمخض عن شعور طيب ، حتى أن الخليفة الحافظ فى القرن الثانى عشر كان يتلقى درسين فى التاريخ كل أسبوع من البطريرك الأرمنى . كما أن كثيرا من الخلفاء الذين جاءوا بعده كانوا يزورون الحدائق ذات الظلال الوارفة فى أديرة الأقباط ، حيث كان يستقبلهم الرهبان ويتغالبون فى إكرامهم . وكثيرا ما نقرأ عن مساعدات قيمة أسديت لإقامة إحدى الكنائس أو الأديرة . وكان للخليفة أمير ، من الرهبان بمثابة ساعده الأيمن ، كما أنه بنى استراحة له فى أحد الأديرة بقرب الجيزة ليستخدمها حينما يذهب للصيد ، وكان فى كل مرة يذهب إلى هناك يدفع ألف درهم للرهبان ، وكان يداخله السرور حينما كان يقف فى مكان القسس فى الكنيسة ، غير أنه كان يتجنب الدخول من الجانب الخلقى حتى يتحاشى الانحناء ، حينما يدخل من الباب المنخفض . كذلك كان العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، يلجأ إلى دير العذراء ، على بعد بضعة أميال من القاهرة ، حيث كان يتمتع بالهواء وبمنظر النيل الخلاب (١) .

وكما كان يعنى بأمر الكنائس ، فإن المساجد لم يكن نصيبها من العناية بأقل من ذلك . وعلى الرغم من أنه يقيم خلال الحكم الفاطمى فى مصر مساجد على يد ذوى الخير والمروءة ، مما تميزت به فترة حكم المماليك الأخيرة ، إلا أن ذلك الحكم اقترن بإنشاء جامعين كبيرين فى القاهرة كانت تعقد فيهما إجتماعات حافلة . فقد كان أول ما عمله جوهر بعد أن بدأ فى بناء أسوار القاهرة ، هو وضع أساس ذلك الجامع الذى لا يزال قائما حتى اليوم ، والذي يعرفه المسلم بأسره باسم الجامع الأزهر .

(١) هناك أدلة كثيرة على هذه العلاقة الوثيقة بين الخلفاء والرهبان الأقباط ، وردت فى كتاب أبى صالح الأرمنى السجى الذى كتب فيها بين عامى ١١٧٣ و ١٢٠٨ ، والذي ترجمه وعلق عليه ونشره المستر ايفتس Mr B.T.A. Evetts بمساعدة الدكتور بتر Dr A.f.Butler « كنائس مصر وأديرتها » The Churches and Monasteries of Egypt.

وكان اليوم الذى وضع فيه أساس هذا المسجد العظيم هو يوم الأحد الموافق ٢
لبريل عام ٩٧٠ م . وقد تم بناؤه فى الرابع والعشرين من شهر يونيه عام ٩٧٢ .
وفى عام ٩٨٨ أصبح العلماء يؤمنونه من كل حذب وصوب . ومنذ ذلك الوقت
صار ذلك الجامع من أهم الجامعات الإسلامية كافة ، يجتمع فيه عدد وفير
من الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامى ، من ساحل الذهب حتى ولايات
الملايو . ولكل شعب رواق خاص به . ويتلقى هؤلاء الطلاب على
أيدى الشيوخ دروساً فى مختلف فروع الثقافة العربية القديمة : القرآن والحديث
والتفسير والفقه والقواعد وعلم العروض والمنطق والبلاغة والجبر وما إلى ذلك .
وإلى عام ١٩٠١ كان يذهب إلى الجامع الأزهر أكثر من تسعة آلاف طالب
يتلقون علومهم على أيدى مائتين وتسع وثلاثين من الأساتذة . ويتعلم هؤلاء الطلاب
بالمجان ، ولم يدخل أهل العلم والأدب فى القاهرة وفى كثير من العواصم الأجنبية
بعلمهم وثقافتهم على طلابهم ، وكانوا يكسبون عيشهم من التدريس ومن نسخ الكتب
الخطية . وكان الطلاب الأجانب لا يتلقون العلم بدون مقابل لحسب ، بل كانوا
يعطون قدراً من الطعام يتفق عليه من المال الموقوف^(١) . وكانت الثقافة الأزهرية
فى بادىء الأمر محدودة ، ولكن على الرغم من ذلك فإنه مثال طيب للتعليم الحر
الذى يفتح أبوابه للفقراء دون تمييز فى الجنس أو اللغة أو الطبقة ، وليس من السهل
على المرء أن ينسى منظر الطلاب وقد التفتوا حلقة حول أستاذهم وأخذوا ينصتون
إليه كأن على رؤوسهم الطير ، أو منظرهم وهم يمشون مقبلين مدبرين يستظهرون
ما تعلموه من أستاذهم . والواقع أن هؤلاء يمثلون فى أذهاننا ما كانت عليه الثقافة
العربية فى العصور الوسطى ، حيث الرغبة الصادقة فى العلم ، التى لا تتحس فى طلبه
بقصد الحصول على الجوائز ، أو اجتياز الامتحانات ، وذلك بما نفقّر إليه
الجامعات الغربية .

والواقع أن قصفاً من البناء الحالى للأزهر ، يمثل البناء الأصيل القديم . فقد تم
إصلاحه أكثر من مرة ؛ وأعيد بناؤه على نطاق واسع فى القرن الثامن عشر وأواسط
القرن التاسع عشر ، الميلاديين . وعلى الرغم من أنه يوجد به بعض الآثار

الكوفية الجميلة والأروقة الفارسية التي تتميز بها فترة الحكم الفاطمي ، إلا أن صبغته الآن على وجه العموم صبغة حديثة . ومهما يكن من شيء ، فإن الفناء المربع الشكل يقع في نفس المكان الذي قام فيه الخليفة المزم بالصلاة في عام ٩٩٣ م . وكان ذلك بعد هذا النصر الحافل ، الذي تم بعد أن بعث جيش أسلافه ، إلى تلك المدينة الجديدة التي بناها قائده جوهر الأمين ، دون أن يحفل بالقسطاط ، العاصمة الأولى لمصر الإسلامية ، التي احتفلت بمقدمه احتفالاً رائعاً . وقد أم الصلاة في ذلك الاحتفال الذي أعقب شهر الصوم ، وكانت المسحة الدينية تعلوه حينما كان يلقي خطبته ، وغادر المسجد في موكب تحف به قواته ، وفي حراسة أولاده الأربعة المسلحين ، يتقدمه إثنان من الفيلة ، وظل على ذلك حتى وصل إلى القصر الذي كان جوهر قد أعد له . ولم يكن الغرض من بناء تلك الأسوار الحصينة التي بنيت حول المدينة أن يبنى في داخلها عاصمة للقطر المصري ، إنما كان الغرض منها أن تكون مقراً للخليفة ورجاله وعبيده وموظفيه وقواته من المغاربة . ولم يكن العامة من أهل مصر يدخلون إليها فلم يكن يسمح لأحد بالدخول من الأبواب بدون إذن ، بل أكثر من ذلك أن سفراء الدول الأجنبية كانوا يترجلون حينما يصلون إلى الأسوار ، ثم يصلون إلى القصر في حراسة بعض الجنود كما كان الحال في النظام البيزنطي . والواقع أن القاهرة كانت مكاناً ملكياً ، وليست مدينة عامة ، وجدرانها المرتفعة وأبوابها المقام عليها الحراس ، تمثل العزلة والغموض الذي كان يشعق به الخليفة ، كما أن اسمها الذي تعرف به وهو « القاهرة المحروسة » ، يوضح تلك العزلة وذلك الغموض .

وكانت الجدران الأصلية القديمة قد بنيت من الطوب الكبير الحجم الذي يبلغ طوله تقريباً قدمين وعرضه خمسة عشر بوصة . وكان سمك هذه الجدران بحيث كان يستطيع فارسان أن يركبا من فوقها ، الواحد بجوار الآخر . ولقد قاس المقرئ ما تبقى من هذا الحائط الأول في عام ١٤٠٠ ، وقال إن الأيام لم تبق على شيء من هذا الحائط (١) . وقد كانت المساحة الأصلية القديمة أقل بمقدار مائة قدم من كل جهة عن المساحة التي بنى فيها في عام ١٠٨٧ . ومن السهل علينا أن ندرك طول المدينة الأصلية التي بناها جوهر إذا علمنا أن باب الفتوح الحالي (بما في ذلك جامع الحاكم)

وباب زويلة (بما في ذلك جامع المؤيد) تقع خارج المساحة الأصلية بقليل . أما عرض تلك المدينة فكان يمتد من باب الغرب خلف الأزهر شرقا إلى الخليج غربا . والحد الغربى الذى كان يحاذى الخليج لا يزال يتمثل فى الشارع الذى يسمى بين السوريين فى آخر الموسكى . وهكذا كان المكان كله ، يبلغ طوله من كل جهة ألف ومائتى ياردة ، ومساحته تقريبا نصف ميل مربع .



جامع الحاكم

وبالقرب من الوسط ، كان يوجد ذلك الميدان المسمى « بين القصرين » ، وهو الاسم الذى لا يزال يوجد فى الموقع الأصيلى القديم فى جانب من الشارع الذى يعرف بسوق النحاسين ، والذى يتاخمه الآن بعض المساجد التى يرجع تاريخها إلى ما بعد ذلك . والإمام يفسر نفسه : ذلك أن الميدان الذى كان أعرض بكثير من الطريق الحالى وكان يتسع ل عشرة آلاف جندي للاستعراض فيه ، كان يفصل ما بين قصرين يواجهانه : هنالك كانت تعقد الاجتماعات العامة بالمدينة . أما القصر الذى كان يقع على الجانب الشرقى فهو قصر المعز العظيم ، الذى يقع خان الخليلي على أحد جوانبه الآن والحسين على جانب آخر . وأما القصر الآخر ، وهو الذى بناه العزيز بعد ذلك بقليل ، فكان أصغر حجما ، وكان يواجهه على الجانب الآخر (حيث يحتل مارستان قلاوون جانبا من موقعه) ، وكان ظهره يطل على حديقة

كافور الواسعة التي كان يقع فيها بيت الإخشيد . ويخصص المقريري ما يقرب من مائتي صفحة لوصف هذين القصرين العجيبين . فنحن نقرأ عن أربعة آلاف حجرة ، وعن البوابة الذهبية التي كانت تفتح إلى البهو الذهبي ؛ وعن الاستراحة الفخمة التي كان يجلس فيها الخليفة فوق عرشه الذهبي محاطاً بحجابه وأتباعه (وكانوا في العادة يونانيين أو سودانيين) حيث كان يشاهد احتفالات المسلمين من خلف ستارة ذهبية . كذلك نقرأ عن ردهة مصنوعة من الزمرّد وفيها أعمدة من الرخام ؛ وعن الإيوان العظيم الذي كان يوجد تحت القبة ، والذي كان يجلس عليه الخليفة في أيام الاثنين والخميس ؛ وأخيراً عن الرواق الذي كان يستمع فيه إلى المذنبين والمتظلمين .

هذه الأبنية المختلفة التي تكون في مجموعها ما يعرف بالقصر العظيم ، لم تكن وليدة عام واحد أو من عمل حاكم واحد . فقد بدأ جوهر في بناء القصر في نفس الليلة التي خط فيها أساس المدينة في يوليّه عام ٩٦٩ . وفي شهر مارس التالي كان قد تم بناء بوابتين ، وفي عام ٩٧٠ — ٩٧١ أقيم حائط حول القصر . ويقول ناصر خسرو — الذي كتب عن هذا الحائط بعد ذلك بثلاثة أرباع قرن — إن قصر الخلفاء كان يبدو من خارج المدينة كأنه جبل ، وذلك لما كان يوجد فيه من مباني شاهقة . غير أن المرء حينما كان يقرب منه ، قلما كان يتبين منه شيئاً وذلك لارتفاع الحائط الذي كان يوجد حوله^(١) . وكان الخليفة المعز نفسه هو الذي وضع تصميم هذا القصر الأصلي القديم الذي لم يتضمن نصف الأبناء الفخمة التي وصفها المقريري . وقد بنى الخليفة الذي اعتلى العرش من بعده ، وهو العزيز ، البهو الذهبي ، والإيوان العظيم ، والقصر الغربي الأصغر ، والمبنى الذي كان يستريح فيه في حديقة كافور . وقد وسّع الخلفاء والوزراء هذا القصر بعد ذلك ، وعبّدوا فيه . وكانت القصور الزاهرة — كما كانت تسمى جميعها مجتمعة — تشمل بضعة مساكن منفصلة ، وعدة غرف يتلو بعضها البعض بنيت في تواريخ مختلفة . وكان للقصر العظيم وحده عشرة بوابات ، عدا ما تحت الأرض كان يصل منه الخليفة راكباً إلى الجانب المخصص للحريم ، وكان يتبعه حيثئذ عدد من الجوّاري . وفي القرن الحادي عشر كان يوجد إثنا عشر ألف خادم في تلك القصور . وإذا

(١) من الواضح أنه يشير هنا إلى حائط القصر ، لأنه يذكر لنا في صراحة أن حائط المدينة لم يكن له وجود .

ما أضفنا النساء إلى هؤلاء ، وجدنا أن عدد من يقيمون في تلك القصور كان يصل إلى ثلاثين ألف .



باب النصر

وقد رسم رافيس Ravisse تصميم القصور الفاطمية ويبين دخائنها مستعينا بوصف المقرري ، وذلك في كتابين لها قيمتهما^(١) . وعلى الرغم من أن بعض التفاصيل يجب أن ينظر إليها على أنها ناقصة ومعرضة للنقد والمراجعة ، إلا أنه من المحتمل في الوقت نفسه أن تكون النتائج العامة تمثل التنظيم الحقيقي للدينة الفاطمية . ووفقا لما جاء في هذه الأبحاث الشيقة نجد أن القصر الشرقي العظيم كان يحتوي على الأخص على ثلاثة مباني كبيرة مستطيلة الشكل مختلفة الأحجام تكون في مجموعها ثلاثة أرباع المربع ؛ أما الجزء أو الربع الباقي فكان يوجد فيه قصر الاحتفالات ، وهو مكان مكشوف يقع بين القصر العظيم وقصر الوزراء ، حيث كان الناس يحتفلون بأيام الأعياد . وكان هذا القصر العظيم — الذي يحده الأزهر ودار الوزارة ، يحتل المكان ما بين خان الخليلي وحى الحسين في الوقت الحاضر ،

Mémoires de la Mission Archéologique au Caire, tomes I. (١)

and III. وهذا الكتاب القيم يجب أن يرجع إليه كل من يريد دراسة القصور الفاطمية .

حتى شارع الجمالية حيث يقع جامع بيبرس الجاشنكير . وكانت الأبنية والقاعات
والمكاتب المختلفة موزعة في تلك المباني . أما المرائب والمخازن فكانت لها أبنية
أخرى بعيدة منعزلة . وإلى الجانب الآخر من « بين القصرين » ، كان القصر الغربي
يبدأ من حيث يوجد المارستان الآن ، إلى حارة برجوان ؛ وكان له جناحان
بارزان في كلا الطرفين لكي يمتد بين القصرين . أما المسافة بين القصر الغربي
والحائط الغربي فكانت تحتلها حديقة كافور بما فيها من أكشاك مختلفة تطل على
الخليج . أما بقية المدينة المسورة خارج القصور فكان يوجد فيها حارات فرق
الجيش الفاطمي المختلفة ، مثل الجودرية ، والديلم ، وكتامة ، والبرقية ، وزويلة .



آذن على باب زويلة

كذلك كانت توجد حارة الروم ، وهكذا . أما أبواب المدينة فكانت «باب النصر» و «باب الفتوح» في الشمال ، و «باب القنطرة» المؤدى إلى جسر جوهر فوق الخليج ، و «باب الفرج» أو «باب الشعرية» (١) — كما يسمى أحيانا — و «باب السعادة» (٢) و «باب الخوخة» في الغرب بحيث كانت تفتح إلى الخليج ، ثم «باب زويلة» (٣) في الجنوب . أما في الشرق فكان يوجد «باب المحروق» الذي سمي كذلك لأن بعض المماليك أحرقوه في القرن الثالث عشر ، و «باب الجديد» الذي بناه الحاكم ، و «باب البرقية» الذي يعرف الآن باسم «باب الترييب» .

وقد سبق لنا أن ذكرنا بعض الخرافات الحديثة المتصلة بباب زويلة ، غير أنه كان على الدوام بقعة آهلة بالسكان . والقول بأن الإعدام كان يتم خارج هذا الباب لا يغير من الاعتقاد السائد شيئا . ويذكر لنا المقرئ أن الباب الأصلي ، الذي كان يوجد بجوار معبد شم Shem (ابن سيدنا نوح) ، كان يتكون من قنطرتين أو رواقين وكانت إحداهما تسمى «باب القنطرة» . وكان هذا الباب الذي دخل منه المعز حينما جاء إلى القاهرة الجديدة في زيارة رسمية ، وحذا حذوه الناس جميعا . أما القنطرة الثانية فكانت تعتبر شوما ، ومن ثم لم يكن يعبر منها أحد . ويقول المقرئ أن هذا الباب الثاني لم يعد له وجود وليس هناك أى أثر له ، والمكان الذي كان يوجد فيه يسمى «الحجرين» وهناك تباع الآلات الموسيقية مثل الطبول والعيود وما إلى ذلك ، ومن العقائد الشائعة بين الناس أن كل من يعبر من هناك سوف لا يستطيع أن يحقق رغباته في الحياة . ويقال إن السبب في هذا الاعتقاد أن تلك الآلات الموسيقية لا تستخدم إلا في اللهو والعبث ولا توجد إلا في منازل الموسيقيين والمغنين ، سواء منهم الذكور أو الإناث . غير أن الأمر على خلاف ما يقول هؤلاء ، ذلك أن هذا الاعتقاد كان سائدا بين سكان القاهرة منذ أن دخلها المعز ، وقبل أن يصبح ذلك المكان سوقا تباع فيه الآلات الموسيقية (٤) .

(١) نسبة إلى إحدى قبائل البربر .

(٢) نسبة إلى أحد قواد المعز .

(٣) يتطابق الاسم في المادة هذا : Zuweyla (زويلة) . أما العنق الصحيح فهو

Zawila زويلة نسبة إلى إحدى القبائل البربر .

(٤) الترييبى : جزء أول ص ٣٨١ .

ولعل تلك التفاصيل الطبوغرافية تم رجل الآثار أكثر من غيره ، ونحن يجب أن نبعث هنا في سجلات الرحالة عن الأوصاف التي تتعلق بالشكل والرسم . غير أنه من سوء الحظ أن الأجانب الذين كانوا يزورون ذلك القصر الفاطمي كانوا من الندرة بمكان كبير ، ومن ثم فإننا قلنا نجد وصفا جديدا نضيفه إلى ما قدمه لنا المقرئ . حقيقة إن الرحالة الفارسي ناصر خسرو ذهب إلى هناك في عام ١٠٤٧ م ، غير أن وصفه ليس واضحا تماما ، ولذلك فنحن نلجس وصفا يكتمله الفصوص حينما نقرأ عن الحجر التي كان يوجد فيها العرش الذهبي المنقوش عليه بعض الصور التي تمثل الصيد ، والذي كانت تتقدمه درجك من الفضة . ولعل أحسن وصف هنا هو ما ذكره وليم الصوري William of Tyre فيما يختص بحملة الصليبيين عام ١١٦٧ حينما قدم عموري على أنه حامي الخليفة ، على الرغم من أن القصر كان قد تغير كثيرا بعد مضي قرنين من إنشائه . وكان مثل السفراء المسيحيين أمام الحضرة المقدسة ، مما لم يسبق حدوثه ، لأنه لم يكن يتاح سوى للقبيل من المسلمين . غير أن عموري كان قويا ، ويمكن بذلك من أن يملئ شروطه الخاصة ، وعلى هذا فقد تم له السماح بالدخول ، واختار جرفى وهاغ سفيرين له ؛ وقد قادهما الوزير بنفسه في احتفال باهر إلى قصر الفاطميين العظيم ، حيث سارا في رداهات غامضة ، وأبواب يقف عليها حراس سودانيون أشداء يؤدون لها التحية بسيوفهم اللامعة . وبعد ذلك وصلا إلى فناء فسح مكشوف ومحاط بأروقة مقامة على أعمدة رخامية . وكانت السقوف تنشاها الصفائح وتزينها النقوش الذهبية الجميلة والألوان الزاهية البديعة . أما البلاط فكان من طراز الموزايك وقد انهرت عيون الفارسين في إعجاب ودهشة لكل ما قابها حينما سارا . هنالك كانت توجد نافورات رخامية ، وطيور ذات أصوات جميلة وريش بديع اللون مما لا يوجد له مثل في العالم الغربي . وفي قاعة أخرى كانت توجد حيوانات مختلفة ، تلك الحيوانات التي تتناولها يد الفنان بالرسم ، وتضعها قريحة الشاعر في إحدى قصائده ، وينسجها خيال النائم في حله وكلها حيوانات مما كان يستورد من جهات الشرق والجنوب المختلفة ، والتي قلنا سمع الغرب عنها .

وفي النهاية ، وبعد عمل المراسم المعتادة ، وصلا إلى الحجر التي بها العرش الذهبي ، حيث كان يقف عدد كبير من الخدم والأتباع يمثلون عظمة سيدهم الخليفة

وقد ارتدوا جميعا ملابس فاخرة سنية . وهنا أخرج الوزير سيفه من غمده وانحنى أمام الخليفة في خشوع زائد ثلاث مرات ، كما لو كان في معبد من المعابد يتبتل إلى الله . وبعد ذلك فتحت الستائر الثقيلة المرشاة بالذهب واللالى إلى الجانبين ، وهنا ظهر الخليفة العظيم جالسا على عرش ذهبي ، وقد ارتدى ملابس فاخرة ، لم يشح الكثير من الملوك إذ ذاك لبسها .

ثم قدم الوزير الفارسين الأجنيين في أدب جم وخشوع زائد ، وأعلن في صوت منخفض الخطر الخارجي ، وصداقة ملك بيت المقدس الوطيدة . وهنا أجاب الخليفة الشاب في وقار وجلال بأنه كان راضيا عن تلك العلاقة بينه وبين حليفه العزيز . غير أنه حينما مُطْلَب منه أن يعديده وأن يمهّد بذلك ، تردّد في الموافقة . وهنا تملك الفارسين الغضب والغيظ من ذلك الشعور بالقوة الذي بدا من الخليفة ، ولكن بعد فترة قصيرة مدّ الخليفة يده — وكان يلبس القفاز — إلى سير هاغ . غير أن الفارس الفظ قال له في صراحة : « سيدى إن العمود ليس له غطاء ، وثقة الأمراء دائما مكشوفة مجردة . وأخيرا خلع الخليفة قفازه في ألم وكان وقاره قد تخلى عنه وابتسم ابتسامة شاحبة ، ثم وضع يده في يد سير هاغ ، وأخذ يؤدى القسم كلمة كلمة حتى يكون وعده كاملا لأمريّة فيه (١) .

وليس هناك من شك في أن الخلفاء الفاطميين كانوا أكثر الملوك الذين حكموا مصر جلالة وعظمة وهما . ولم يكن المعزّ نفسه يحيط نفسه بسيّاج من الترف والآبهة والجلال ، فقد كان يستمع بنفسه على الدوام إلى كل كبيرة وصغيرة من شئون الحكم ، وكان يشرف على الأحكام في ساحة القضاء ، ويدير شئون الجيش الذي كان يستمد منه قوته وسلطته . وبني المعزّ حوضا في المكس لكي ترسو فيه السفن أكثر انخفاضاً في النهر من الأحواض السابقة في الروضة ومصر ، وبالقرب من موقع الأربكية الحالي . ولقد بقيت المكس ترسانة القاهرة وميناءها حتى ظهرت بولاتى حينما غير النيل مجراه ، وبقيت هناك بعدئذ ستمائة سفينة . وقد رأى

William of Tyre : Historia rerum in partibus transmarinis (١) gestarum, l.b. xixi, cap. 19, 20.

راجع كذلك كتاب المؤلف « صلاح الدين الأيوبي » Saladin من ٨٦ — ٨٨ . ويلاحظ أن هذه البعثة لم يذكرها المؤرخون العرب .

ناصر خسرو في عام ١٠٤٧ بعض سفن المعز راسية هناك في المكس ؛ وكان طول الواحدة يبلغ حوالى ٢٧٥ قدماً وعرضها ١١٠ قدماً^(١) . وعلى الرغم من أن المعز كان يميل إلى الجد والعمل ؛ إلا أنه كان يميل إلى حب الظهور في الوقت نفسه . فقد كان يذهب في عظمة وجلال ليقبم جسراً فوق الخليج ؛ كما كان ينفق مبالغ طائلة على غطاء الكعبة المكسو بالقصب في مكة ، تلك المدينة التي تعترف الآن بفضلها وعظمتها ، وكان ذلك الغطاء يعرض للناس في عيد الأضحى . والمعز هو واضع تصميم جميع مباني القصر ، ولم يكن جوهر أكثر من كاتب له في أعماله المختلفة . وكانت تلك المدينة الجديدة العظيمة أكبر دليل على ميل الخليفة إلى الترف وعلى تعدد موارده وكثرتها . والواقع أن ثراء الفاطميين الذى يصوره لنا المؤرخون يفوق كل وصف ، ونحن نقرأ عن ابنتي المعز التي تركت احدهما مليونين وسبعماية ألف دينار ، وتركزت الاخرى حجرة تشغلها مجوهراتها وفيها خمسة حقائب مملوءة بالزمرّد ، وثلاثة آلاف صندوق من الفضة ، والوشى والديباج المصنوع في صقلية ، تلك الاشياء التي استهلكت أربعين رطلاً من الشمع لحتمها . ولقد اشترى المعز نفسه ستارة حريرية من بلاد فارس بمبلغ اثني عشر ألف جنيه ، رسم عليها أقطار العالم وبلدانها . كما أن زوجته أنفقت مالا كثيراً في عام ٩٦٦ على مسجد لها في القراقة ، وهو الذى وضع تصميمه الحسن الفارسى ، وقام بتزيينه رسامو البصرة . ومن مزايها المهرطقة أنها كانت تقبل الآراء الفنية التي كان يمجتها أصحاب المذهب القديم ، والتي عمل على تشجيعها الفاطميون . من ذلك رسم الاشخاص وتمثيلهم في مختلف نواحي الفن ، ذلك النثر الذى كان محرمًا في نظر النبي^(٢) . ومهما يكن من شيء ، فإن ذلك المسجد الذى يوجد به ضريح والمسمى بمسجد القراقة يفوق كل شيء في هذا المضمار في مصر ، اللهم قصر خمارويه في مدينة القطائع . وهذا المسجد عبارة عن فناء مربع الشكل تحيط به الأروقة من جميع الجهات ، كما هو الحال في جامع الأزهر ، غير أن النقوش الموجودة فيه كانت عظيمة . وتؤدي الأبواب المربعة الأربعة عشر إلى الإيوان ، تعلوها أروقة مقامة على ثلاثة أعمدة

(١) Safar Nāma, ed. Schefer, 126.

(٢) للتوسع في فن الفاطميين ومناعمهم انظر كتاب المؤلف « فن العرب في مصر »

"Art of the Saracens in Egypt" ص ١٠ ، ١٦٣ ، ٢٠١ ، ٢٤١ .

رغامية مطلية باللون الأزرق والأحمر والأخضر . وكانت السقوف كذلك تغطي بالألوان ، ويقوم بذلك رسامون من البصرة . وفي مواجهة الباب الأوسط يوجد رواق مرسوم عليه أحد الكبارى في إفتان تام بحيث كان يبدو للرائى كأنه حقيقى ، وكان الرسامون يأتون من كل حذب وصوب ليشاهدونه ، ولكن أحدا منهم لم يستطع تقليده . ونحن نقرأ عن اثنين من الفنانين المتنافسين وهما القاصر وابن عزيز ، ويحكما الوزير اليازورى . وقد رسم الفنان الأول منها صورة لفنائه ترقص وترتدى الملابس البيضاء على ظهر إحدى الأروقة ، وكانت تبدو كأنها في داخل الرواق . أما الفنان الثانى فقد رسم فنائه أخرى ترتدى الملابس الحمراء وتبدو كأنها واقفة أمام إحدى الأروقة الصفراء . وكان يوجد في أحد المنازل في القراقة صورة رسمها القطامى ، وهو أحد الذين اشتركوا في زخرفة ذلك المسجد وتمثل تلك الصورة يوسف وهو في الهاوية يستغيث^(١) .

وكانت نفقات ذلك القصر الفخم ، بسكانه البالغ عددهم ما بين عشرين وثلاثين ألفاً ، وبما كان فيه من أوجه البذخ والترف ، تدفع من الضرائب الباهظة والأجور المتأخرة التى كانت تجمع في قسوة لم تعرف حتى ذلك العهد . كذلك أقيم ديوان مركزى للضرائب في بيت الإمارة القديم بجوار جامع ابن طولون ، وذلك بدلا من النظام البالى لمحصى الضرائب المحليين . وكانت مدينة مصر وحدها تدفع من الضرائب في اليوم الواحد من ٢٦ ألف إلى ٦٢ ألف جنيه ، وذلك وفقا للحالة التى عليها المدينة . وكانت جميع الضرائب تدفع بالعملة الفاطمية الجديدة ، لأن النفود العباسية لم يعد تداولها مباحا .

أما الوزير — الخليفة التالى — فقد اشتهر بتقديره للأحجار الثمينة . كما أنه أوجد بدعة جديدة في لبس العامة الموشاة بالذهب ، والأحزمة المرصعة بالمجوهرات والمعطرة بالعنبر الأسود ، والسرَج الموشى بالذهب للحصان ، وبعض مظاهر الترف والبذخ فوق المائدة مثل الكساء من جيل المقطم ، والأسماك الجميلة من البحر . وكان شغوفاً بالحیوانات الغريبة ، شأنه في ذلك شأن خازويه . وكثيرا ما كان يستورد بعض الطيور والحیوانات من السودان ، غير أنه في الوقت نفسه

كان يشبه أباه في حبه للسياسة وإدارة شئون البلاد ، ولم يكن لما عرف عنه من حب الترف أو البذخ أثر في الحد من قدرته السياسية أو الإدارية . فقد بنى أسطولاً ليحارب به الإمبراطور باسيل كما أنه شهد بنفسه حملة موقعة على سوريا التي لم تكن قد خضعت لسلطان الفاطميين . وكان عهده عهد سلام دائم في مصر ، وكان اسمه يذكر في صلاة الجمعة في المساجد من بلاد العرب حتى المحيط الأطلنطي ، كما أنه كان يقف أمام الناس في الجامع الأزهر كرئيس ديني وديني .

أما الجامع المعروف باسم جامع الحاكم ، فيرجع الفضل في وضع أساسه في أواخر عام ٩٩٠ إلى العزيز ووزيره ابن كلس الذي أنعم بحيث كانت تؤدي فيه صلاة الجمعة بعد ذلك بعام . أما الزخرفة والمآذن وغير ذلك من الأشياء الثانوية ، فلم تتم إلا في عهد ابنه الحاكم الذي أنجز جميع هذه الأعمال في عام ١٠٠٣ ، ووضع النقش النهائي على المنبر في شهر مارس عام ١٠١٣ . وهكذا شهدت القاهرة مسجداً ثانياً كبيراً تقام فيه الاجتماعات يعرف بجامع الحاكم ، وكان يسمى في الأصل « الجامع الجديد » ، أو « جامع الأنور » ، (على غرار الجامع الأزهر) . ولقد عانى هذا الجامع في تاريخ حياته أكثر مما عانى جامع عمرو القديم . لحقنا احتل الصليبيون القاهرة في عام ١١٦٧ ، حوّلوا جانباً من جامع الحاكم إلى الكنيسة . وأثناء إعادة الأيوبيين للعقائد الإسلامية القديمة ، لم يكن الجامع الأزهر يستعمل لفترة من الزمن على اعتبار أنه المقر الرئيس للشرطة ، وأصبح جامع الحاكم المكان الرسمي للعبادة . أما بعد ذلك فيبدو أنه قد استعمل كمرايط واصطبلات ؛ وفي صيف عام ١٣٠٣ قوَّض دعامته زلزال مروّع ، ثم أعيد بناؤه في العام التالي بواسطة يبرس . وإلى ذلك الوقت الذي كتب فيه المقرئ عنه في عام ١٤٢٠ ، كان ذلك المسجد حطاماً مرة أخرى بفعل الحريق والإهمال ، وبدأ سقفه يتساقط وحتى ذلك الحين كان قد تهدم في عهد يسوده البؤس والشفاء . أما الفناء فقد تحول بدوره إلى ملعب ومكان للتنزه ، ويصل إليه الإنسان من قهوة أو حانة أو غير ذلك ، ثم استعمل كمكان لمتحف الفن العربي ، الذي كان يشغل في العشرين السنة الماضية جانباً من أروقة الطرف الشرقي ، حيث كانت النقوش السكوفية والأروقة الجميلة لا تزال تحتفظ بشيء من جمالها القديم ، وهي كثيرة الشبه بالفن العربي .

وعلى الرغم من الكتابة التي تبدو الآن على فناء جامع الحاكم الفسيح وما حوله من الجدران والأروقة المتهمة ، فإنه لا يزال محتفظاً بأهميته . ويلاحظ أن الأروقة هي الاستثناء الوحيد للشكل الفارسي الشائع في البناء في العصر الفاطمي . ومن الواضح أن السبب في ذلك يرجع إلى تاريخها القديم وإلى تقليد بناء جامع ابن طولون . وبما يتميز به ذلك الجامع مأذنه التي يطلق عليها في العادة « مباخر » ، وذلك نسبة إلى شكلها المميز . ويلاحظ أن منارة أساس ذلك المسجد لا شأن له بالمآذن الأصلية على الإطلاق ، تلك المآذن التي كان يبنى الجزء الأسفل منها بحجر منتظم الشكل ، يوجد عليه بعض النقوش الفاطمية . وقد قام كل من هرز بك Herz Bey وفان برشم M. Van Berchem بأبحاث خرجا منها بأن استعمال قوالب الطوب في بناء المآذن يرجع إلى فترة الإصلاح السريع في عام ١٣٠٤ التي أعقبت الزلزال ، وسبقت الإشارة إليها . ولم يحاول يبرس أن يبدل أي جهد لإعادة المآذن إلى ما كانت عليه من قبل ، بل وضع لها قما مصنوعة من الطوب ، وأغلب الظن أنه قوى الأساس القديم بمكعبات كانت من عوامل اضطراب أفكار علماء الآثار وعدم استقرارهم على رأى معين حول شكل المآذن القديمة . ومهما يكن من أمر تلك المكعبات ، فإن عهدها يرجع إلى ما بعد ذلك ، وقد يكون لها علاقة بالحماية العسكرية لبوابة المدينة المجاورة . وبقايا المآذن الحجرية القديمة الموجودة بداخل تلك المكعبات لها أهمية خاصة ، حيث أنها هي الدليل الوحيد الذي لا يتطرق إليه الشك فيما يختص بتكوين المآذن في عصر الفاطميين . ويلاحظ أن المقرئ لم يكن يعلم في الغالب عن تلك المآذن حينما كتب يقول إنه لم توجد أية مآذن حجرية قبل مأذنة جامع قلاوون التي بنيت في عام ١٢٨٤ . وهذه المآذن تشبه تماماً في تكوينها تلك التي بنيت في أواخر عهد المماليك ، وهي تبدأ بأساس مربع الشكل ثم تتحول إلى مشمن (ذى ثمانى أضلاع) وأخيراً تنتهى بجزء اسطوانى الشكل . وفي الداخل كانت توجد درجات حلزونية الشكل تؤدي إلى النوافذ حيث كان المؤذنون يدعون منها إلى الصلاة ^(١) .

والخليفة الحاكم من أبرز شخصيات التاريخ المصرى ، ولو أنه شخصية متناقضة غربية ، حتى أن المؤرخين الذين كتبوا عنه كانوا في آخر الأمر يغمرون سلوكه

بضعف وانحلال في عقله . وقد كان الحاكم الإبن الوحيد للعزیز وزوجته المسيحية ، التي كانت أختا لإثنين من البطارقة . وذلك مصداق للقول بأن أقارب رجال الدين ليسوا بأحسن من سائر الناس في أحوالهم العامة . ولم يكن الطفل الغنى ليفهم شيئا عن الحكم حينما وجد نفسه يعتلى العرش طفرة واحدة وهو في سن الحادية عشرة . وكان قائده برجوان ، العبد السلاني ، الذي لا تزال نقرأ اسمه على إحدى الحارات التي تبعد عن د بين القصرين ، ، ينعم في قصر اللؤلؤة في حديقة كافور ، بينما كانت قوات البربر والآتراك تحارب بعضها البعض في الشوارع . وقد حدث وقتذاك أن أتى الحارس التركي إلى الحاكم برأس القائد المغربي . وكانت تلك خطوة قصيرة نحو قتل نائب الخليفة ، وبعد أربعة أعوام من الوصاية عليه ، وصل الشاب وهو في سن الخامسة عشرة إلى ذروة السلطة .

وكما بدا الخليفة الصغير أمام الشعب ، ظهر شذوذ خلقه وتناقضه . وقد كان وجهه الغريب وعينه الزرقاوان الخفيفتان تجعل الناس يهابونه ، كما أن صوته الأجش جعلهم يرتجفون منه . وكان مملّسه يطلق عليه « حرذون » ، (سَحْبِلَة) lizard ، وذلك أنه كانت له طريقة زلقة خاصة في التحرك بين رعاياه مثلا يفعل الحرذون تماما . وكان شغوا جدا بالظلام ، إذ كان يجمع مجلسه على الدوام في الليل . وكثيرا ما ركب حماره الرمادي الصغير وجاب به الشوارع ليلا ليتجسس على الناس ويطلع على ما يجري في صدورهم ، في حين كان يدعي أنه إنما كان يفتش على الموازين والمكاييل في الأسواق . وكان في الإمكان أن يأتمر الليل بأمره ويصبح نهارا . ذلك أنه أصدر قرارا بأن تباشر الأعمال ويتم البيع والشراء بعد غروب الشمس ، حيث تفتح الحوانيت وتضاء المنازل تحقيقا لرغبته . وأصدر إلى العامة أوامر مشددة بمراعاة ذلك . وحرم على النساء مغادرة منازلهن ، ومنع الرجال من الجلوس في الخيام . ولم يسمح لصانعي الأحذية بعمل أحذية للنساء حتى لا يتمكن من مغادرة منازلهن . وكانت نساء القاهرة لا ينظرن من النوافذ ، ولا يصعدن إلى أسطح المنازل للتمتع بالهواء النقي . وأصدر بعض التعليمات الخاصة بتنظيم الطعام والشراب . ولم يكن الحاكم يشرب الخمر ، شأنه في ذلك شأن جميع المسلمين كما ينبغي أن يكونوا ، وقد كانت الجمعة محرمة ، والخمر يصادر على الدوام ، والكروم تقطع ، بل حتى العنب المجفف كان من المحرمات . وكانت الملوخية يحرم أكلها كذلك ، كما كان

العسل يجمع ويلقى به في النيل . ولم يكن يسمح بلعب الشطرنج ؛ وكانت لوحاته التي تضبط تحرق حتى لا يلعب بها أحد . وكانت الكلاب تقتل حيثما وجدت في الشوارع . أما الأنواع الجيدة من الماشية فلم يكن يسمح بذبحها إلا في عيد الأضحي . وكل من تسوَّله نفسه بمخالفة إحدى هذه التعليمات كان يعاقب بالجلد وبقطع الرأس ، أو يلقي حنقه بإحدى الوسائل الغريبة التي كان يفخر الخليفة القذ بأبتداعها . وليس من شك في أن كثيرا من هذه اللوائح أو التعليمات قد أمته روح الإصلاح الحق ، غير أنها كانت روح مصلح مجنون . لقد كان الواجب دائما ألا تترك نساء القاهرة المرحات على هواهن يفعلن ما يبدو لهن . ولكن من كان يظن أن يكون السبيل إلى ذلك هو مصادرة أحذيتهم ؛ أما تحريم الخمر ولعب الميسر وغير ذلك من وسائل التسلية العامة ، فكان صادرا على شخص متمق في أمور الدين ، مطرحا للرغارف والملاهي ، رائده في ذلك العمل على رفع المستوى الخلق في البلاد ، غير مراعاة ما جره ذلك من استياء رعاباه وسخطهم . وقد تمت هذه التجولات الليلية ، والتقييدات التي لا داعي لها ، والأحكام التعسفية الصارمة على عقل لا اتزان فيه . وقد فعل الحاكم كل هذا برأيه الخاص .

ومن الصعب علينا أن نسير غور هذا الجنون أو نميط عنه اللثام . فقد كان المسيحيون في بادية الأمر يحتملون ما ينزل بهم من عسف ، ولكن حوالى عام ١٠٠٥ ، بدأت سلسلة من الاضطهادات والمضايقات وهدم الكنائس وتخريبها . غير أن المسلمين في الوقت نفسه لم يكن حالهم بأحسن من حال هؤلاء . فقد كان الوزراء سواء منهم المسلمون والمسيحيون ، يقتلون ويعدمون بلا تفرقة أو تمييز . وقد حدث أن اغتيل حفيد جوهر العظيم غدرا في القصر ، كما أن الموظفين على اختلاف طبقاتهم وعقائدهم كانوا يذَّبُون ويقتلون لأقل سبب . فقد أخذ أحد القواد المشهورين ثورة طالما أحدثت الفلائل في مصر لمدة عامين ؛ ثم جاء في اللحظة التي كان الخليفة يقطع جثة أحد الأطفال ، فأمر الحاكم بقتله عقابا له على قلة ذوقه وإزعاجه إياه . غير أنه على الرغم من كل هذا التعذيب والإرهاب ، كان الخليفة الصغير يشرف باهتمام عظيم على ذلك الجامع الذي يحمل اسمه (١) ؛ وعلى تزيينه كما

(١) مما بناه الحاكم كذلك « مصل البيد » بجوار باب النصر ، وجامع في السكس بجوار النيل . وآخر في الحى الذي كان يسمى « رشيدة » جنوب القطائع بالقرب من المقطم . انظر كتاب المؤلف : History of Egypt in the Middle Ages, 126.

أنشأ المعهد المعروف باسم «دار العلم» في دائرة القصر العظيم، حيث كان الرجال المثقفون على اختلاف آرائهم يجتمعون ويتناقشون في شتى الموضوعات تحت ضوء الشمس، تساعد في ذلك مكتبة قيمة. وهذه الاجتماعات الدينية تذكرنا بصالة العبادة التي بناها الأكبر في أجرا. وليس هذا هو وجه الشبه الوحيد بين الرجلين العظيمين على الرغم من أوجه الخلاف الكثيرة بينهما. فقد سمح أكبر لنفسه بأن يعبد الناس كإله؛ ووصل الحاكم في النهاية إلى نفس النتيجة، وكان كلا الرجلين يسيران تحت تأثير الشيعة.

وليس ثمة ريب في أن جولات الحاكم الفردية فوق الحمار الرمادي على تلال المقطم المقفرة، وتلك الليال الطويلة في المرصد فوق المنحدرات حيث كان يقوم رصد النجوم، وكلها تم على عقل تشبع بتعاليم الشيعة، وقد كان الحاكم — في نظر نفسه — إماما تجسم الله في شخصه، كما كان المالك الوحيد للأسرار الإلهية. وقد استغرق وصوله إلى هذه الدرجة أكثر من عشرين سنة، وقد ساعده في ذلك بعض المتصوفين الفرس الذين استقدمهم في عام ١٠١٨. حقيقة أن هؤلاء لم يفلحوا كثيرا في دعوتهم، والمناداة بتأليه الحاكم فقد قتل المسلمين وأصحاب العقائد القديمة، أحدم، وذبحوا آخرين ممن استباحوا مسجد عمرو القديم ودنسوه بتجديفهم. كما أن الدرزي، الذي اشتق اسمه من الدرروز أصحاب المذهب القريب في لبنان، قبض عليه واقتيد إلى القصر، ولم ينج بحياته إلا بعد جهد شديد، حينما تدخل الخليفة في الأمر. ولم يكن أحد ليقبل المذهب الجديد الذي كان يبدو شاذا في نظر أصحاب المذهب القديم، ويظهر أن الشيعة المعتدلين، كانوا في الواقع سفينة من المدرسة القديمة. وقد كانت مصر صاخبة وقاب قوسين أو أدنى من الثورة، إلا أن القوات السودانية ارتكبت عدة أعمال غاية في الحمجية، إذ نهبت العاصمة وسلبتها، واقتحمت المنازل، وشردت السكان، ولم يخمد صراخ الاستغاثة إلا سحابة غيظة من الرعب والفرع خيمت على الناس وجعلتهم يرضخون لآلام فيه، وهنا تجمع القوم في المساجد يطلبون النجدة والمعونة.

وقد جاءتهم المعونة فعلا، ولكن من طريق لا يتوقعه أحد. ذلك أن القوات السودانية حينئذ لم تنف أعمالها عند حد، أخذت منافسوها من الأتراك والمغاربة

بعد أن تغلبت الإنسانية في الفريقين على مطامعهم في السلطة — يعملون ممأ على قهر عدوهم المشترك ، وقد الحاكم سلطته على الجيش . وإلى جانب ذلك جعل النساء يحمان عليه حملة شعواء ؛ فقد طعن أخوته في شرفها ، ومن ثم وجدنا الأميرة بعد هذا ترفض الوقوف في صف أخيها ، ودبرت مؤامرة ضده . فبينما هو في إحدى جولاته على التلال في اليوم الثالث عشر من فبراير عام ١٠٢١ ، يسير في غير مبالاة ولا اكتراث كما كانت عادته ، عاجلته بضعة طعنات قضت على حياته . وقد وجد الحمار الذي كان يركبه والرداء الذي كان يرتديه وعليهما آثار الجريمة ؛ أما الجثة نفسها فلم يعثر لها على أثر . وقد ظل الناس ردحا طويلا من الزمن يتوقعون عودته في خوف ووجل ، شأنهم في ذلك شأن الدروز في لبنان حتى يومنا هذا .

وبعد زوال ذلك الكابوس المروع ، كانت القاهرة في حاجة إلى الراحة والاستقرار . وقد تحققت لها فعلا تلك الراحة وذلك الاستقرار . ولم يكن ذلك طفرة واحدة ، فقد أعقب الحكم العسكري القاسي حكم آخر فاسد في يد عصبة من رجال البلاط . وفي عام ١٠٢٥ حدثت مجاعة مروعة دفعت بالناس الجائعين إلى قطع الطرق ، وقد أرمقت نتيجة ذلك ميزانية الدولة وسلك عبيد الفصر طريق التمرد والعصيان . وكانت سوريا وقتذاك في ثورة ، بينما كان الظاهر الخليفة الجديد — ابن الحاكم — يروح عن نفسه بالاستماع إلى المغنيين والراقصين ، وقرمدة الفتيات الصغيرات في المسجد حتى يمتن جوعاً . إلا أن حظ الفاطميين على الرغم من كل هذا حالها مرة أخرى ، فإن فيضانات النيل الخصبية ، وإخماد الثورة في سوريا بواسطة نائب الخليفة النشط ، ثم العمل على إسكات الجند إلى حين — كل هذا جعل مصر تبدأ نسبيا لمدة ربع قرن . وكان وادي النيل في ذلك الوقت هو كل ما تبقى للفاطميين تقريبا . ذلك أنهم كانوا قد فقدوا مستعمراتهم العظيمة في بلاد المغرب في عام ١٠٤٦ ، كما أن سيادتهم القديمة على البحر الأبيض المتوسط قد ذهبت إلى حيث لا رجعة . وقد اضطرت سوريا إلى التسليم بعد جهد أمام قوة السلاح . وعلى الرغم من أن بلاد العرب — من المدينة إلى اليمن وحضرموت — كانت تخضع دواما للحكام المصريين ، إلا أن أميرها الشيعي لم يكن سوى حاكم مستقل . وأما ذكراهم الخليفة الفاطمي لمدة أربعين أسبوعا في عام ١٠٥٨ — ١٠٥٩ على منابر

مساجد بغداد القديمة (١) ، فهو دلالة على الدساتر والمكابد السياسية في الخلافة الشرقية ، أكثر من دلالاته على أى قوة حقيقية للفاطميين .

وعلى كل حال ، فإنه لم يكن ثمة ما يقلق الفاطميين في مصر ، فقد اعتلى الخلافة في عام ١٠٣٦ طفل صغير يبلغ من العمر ثمانية أشهر يدعى المستنصر ، واستطاع — دون أى مجهود من جانبه — أن يحتفظ لنفسه بالخلافة حتى عام ١٠٩٤ . وقد اقترنت تلك الفترة الطويلة منذ أن اعتلى العرش ، ولا يصح أن نقول منذ أن حكم ، بنجاح باهر وفشل ذريع . وعلى الرغم مما كان لوالدته السودانية من تأثير سيئ ، لجلبها كثيرا من أبناء وطنها المتبربرين لإفراغ سكان العاصمة وإرهاقهم ، فإن البلاد خيّم عليها السكون في أواسط القرن الحادى عشر مما لم يكن له مثيل من قبل . ولدينا هنا ما رواه ناصر خسرو فيما بين عامى ١٠٤٧ — ١٠٤٩ فقد ذكر أن مصر عامة كانت في ذلك الوقت في يسر ورخاء واستقرار وهدوء ، مما لم تشهده البلاد من قبل . ولقد كان الخليفة المستنصر محبوبا من الشعب إلى حد بعيد ، ولم يكن أحد يملكه الفزع أو الخوف حينما كان يوجد في حضرته . وقد ساد الأمن والنظام في ذلك الوقت ، لدرجة أن بائعى المجوهرات لم يعبأوا كثيرا بإغلاق متاجرهم ، خوفا من أن تمتد إليها أيدي اللصوص . وكان في القاهرة وحدها ما يربو على عشرين ألف متجر ، كانت كلها مملوكة للخليفة ، وكان كل متجر يدفع له من دينارين إلى عشرة في الشهر . وقد قبل إنه كان يملك عشرين ألف منزل ، ارتفاع الواحد منها خمس أربست طبقات ، وكان إيجار الواحد منها في المتوسط يبلغ إحدى عشر دينارا في الشهر (أى سبعين جنيا في السنة) وكانت المنازل تبنى بعناية تامة ، بالأحجار وليس بالآجر ، وكان يفصلها عن بعضها البعض حوائط جميلة . ولم تكن هناك في ذلك الوقت أسوار منيعة للمدينة ، إذ كانت الجدران الأولى قد تهدمت ؛ وأما الثانية فلم يتم بناؤها إلا بعد أربعين عاما من ذلك التاريخ ، غير أن المنازل المرتفعة كانت

(١) كان من المعتقد أن الخليفة الباسي سوف يرسل أسيرا إلى القاهرة ، وأن منافسه الفاطمي كانت له به عربة ذهبية صنعت خصيصاً من أجله . وأنه أغرق مليون ديناراً لهيئة القصر النوري لاستقبال ضيفه . والواقع أن العرش الباسي والملابس والعمامة الباسية قد بقيت جميعها في القاهرة حتى وقت صلاح الدين الأيوبي الذي استرد الملابس ؛ أما العرش فقد احتفظ به . ثم نقل فيما بعد إلى جامع بيرس الجاشنكير . أنظر كتاب المؤلف History of Egypt in the Middle Ages ص ١٣٩ .

في حد ذاتها ، كما يقول ناصر خسرو ، بمثابة تحصين منيع ، كما أن كل قصر أو منزل كان حصنا في ذاته^(١). وكانت هناك مسافة تبلغ ميلا ما بين القاهرة ومصر ، وكانت مغطاة بالحدائق والمنازل الريفية ، إلا أنها كانت تبدو كأنها بحر أثناء فيضان النيل . ولقد شهد الرحالة الفارسي ناصر خسرو ، أحد الاحتفالات الرائعة التي كانت تقام في القاهرة وهي حفلة وفاء النيل أو جبر الخليج ، التي كان المستنصر يشهدها بنفسه ، فقال إن الخليفة كان يركب على رأس عشرة آلاف فارس ، كل منهم فوق سرج موشى بالذهب والأحجار الكريمة ، وفوقه غطاء حريري ثمين منقوش عليه اسم الخليفة . وكانت الجمال يحمل كل منها هودجا مرصعا بالزينة والنقوش الفاخرة وحتى البغال كان لها نصيب في السروج المرصعة بالجواهر الثمينة . وكانت فصائل الجيش تسير الواحدة وراء الأخرى تجاه مصب الخليج ، وكانت تتكون من البرابرة من قبيلة كتامة وكانوا عشرين ألفا من الجند الأقوياء ، والمغاربة ويبلغ عددهم خمسة عشر ألفا ، والمصمودة ويبلغ عددهم عشرين ألفا ، والأتراك والفرس — وكانوا يسمون « المشارقة » على الرغم من أنهم ولدوا في مصر — وكان يبلغ عددهم عشرة آلاف ، والبدو من الحجاز وكان عددهم نحو خمسة عشر ألفا ، والسودانيين السود وعددهم ثلاثين ألفا ، ثم العبيد والحجاب والموظفين على اختلاف طبقاتهم ، والشعراء ، والأطباء ، وأمراء مراكش واليمن وبلاد النوبة والحبشة وآسيا الصغرى والقوقاز والتركستان ، وحتى أبناء أحد سلاطين دلهي الذي كانت أمه تقيم في القاهرة . أما الخليفة نفسه فكانت له طلبة هيمية ؛ إذ كان حليق الذقن ، يرتدى ثوبا طويلا ناصع البياض ، ويركب بغلا مجردا من أى زينة . ثم هناك ثلاثمائة من الفرس من الديلم سائرين على الأقدام يحملون الخراب ويرتدون الملابس اليونانية الموشاة بالقصب ، ويكونون حرسا خاصا للخليفة . وإلى جانب الخليفة يسير أحد كبار رجال الدولة حاملا شارة المملكة ؛ وعلى كلا الجانبين

(١) يذكر لنا ناصر خسرو أن المدينة كانت في ذلك الوقت مقسمة إلى عشرة أحياء وهي : حارة برجوان ، حارة زويلة ، حارة اليهودية (نسبة إلى قوات غامة أصلها من بلاد المغرب) ، حارة الأمراء ، حارة الديلمة (الفرس) ، حارة الروم ، حارة الباطلية (نسبة إلى بعض جنود جوهر) ، قصر النشوق (وهو قصر ثانوى) ، وعبيد الشعراء ، وحارة المصامدة (المغاربة المصمودة) . وهو يذكر لنا كذلك خمسة أبواب فقط : باب النصر ، باب القنوق ، باب القنطرة باب زويلة ، وباب الخليج .

يسير بعض الأغوات يحرقون البخود . وكان جميع الناس يشحنون في إجلال وخشوع حينما كان الخليفة يمر إلى الخيمة الحربية عند مصب الخليج ، وحين يقذف بمحارب إلى السد ، فيعمل الجميع بمجارفهم ومعاولهم إلى أن تسيل مياه النيل . وحينئذ يأخذ الناس في النزعة في النهر يتقدمهم قارب مملوء بلبف من الصم أو البكم حتى يكونوا فألا مليا .

ولقد كان ذلك الرحالة الفارسي - ناصر خسرو - سعيد الحظ حينما زار مصر . ذلك أن الأيام التالية لزيارته كانت تخبئ شرا مستظيرا ، فقد قاست القاهرة كثيرا من أعمال السلب والنهب وواجهت ذلك لأول مرة منذ تأسيسها من قرن مضى . وقد استطاع الوزير الكفء اليازوري أن يسيطر على جميع الأحزاب ويقضي على الخلافات الحزبية ، كما أنه بذل جهودا موفقة في معالجة المجاعات المتكررة ؛ ومن الممكن أن تكون بقايا مخازن الغلال الكاثنة بجوار مصر القديمة تمثل مخازن القمح التي بناها لكي تسد حاجة البلاد في أيام القحط . ولم يكن هناك في تلك الأيام Willcocks أو Scott Moncrieff لوضع تصميم قناطر أو سدود حتى يصبح النهر العظيم في خدمة الفلاحين الفقراء . وإذا لم يرتفع النيل في موسم الفيضان على مقياس النيل بالروضة فوق الخطوط التي تعرف باسم دوشنكر وناكر ، كان لابد من حدوث مجاعة ، وكثيرا ما كان يصحب المجاعة انتشار إحدى الآوبئة . وحينئذ يؤدي البؤس والجوع إلى الفوضى والإجرام .

وقد دفعت مخازن اليازوري الخطر عن العاصمة لبعض الوقت ؛ ولكن حينما دُسَّ له السم ومات في عام ١٠٥٨ ، لم يكن هناك من يسيطر مكانه على الخلافات والانقسامات الناشئة . وليس أدل على عدم استقرار الحكم بعد ذلك من أنه جاء هناك أربعون وزيرا في فترة لا تتجاوز تسع سنوات . وكان الخليفة يستمع إلى نصيحة أي إنسان ، وأصبح صفار القوم ينضمون إلى مجلسه . والواقع أن الحكم كان في الحقيقة في أيدي القوات التركية التي انضمت إلى صفوف البرابرة وتمكنت من طرد السودانيين المكرمين من القاهرة . وقد استقر السود في صعيد مصر ، حيث وزعت أعمالهم الناس ووقفت حجر عثره في سيل الزراعة . ثم لم يلبث البرابرة أن طردوا بدورهم وانتشروا في أنحاء الدلتا حيث أخذوا يفسدوا نظام الري ليصلوا إلى هلاك الفلاحين . وفي أثناء ذلك كان الأتراك

ينهبون العاصمة ويسلبونها ، ويجردون قصور الخلفاء الفخمة مما فيها ، ويشتمون مجموعات التحف الفنية (١) التي كانوا يجدونها بها ، وكذلك الأحجار الكريمة والمجوهرات . وأسوأ من هذا كله ، اقتحموا المكتبة النفيسة التي لم يكن يوجد لها نظير والتي كانت تحتوى على مائة ألف نسخة خطية ، وهي التي مازال المستشرقون يبحثون عن بعضها عينا ، ثم استخدموا تلك الكنوز الثقافية النفيسة لإصلاح أحذيتهم وإشمال الثيران ، بل كانوا يلقون بها في بعض الأحيان فوق أكوام القاذورات .

وحينما أصبحت مصر العليا والسفلى في قبضة السودانيين والبرابرة ، انقطعت المؤن عن العاصمة ، وبدأت المجاعة العظمى في عام ١٠٦٦ . ولقد استغرقت هذه المجاعة المروعة سبع سنوات قاست مصر منها الأمرين ، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الخراب . وكان الجنود المتفرقون في المقاطعات المختلفة يدخلون الرعب والوجل في قلوب الفلاحين ويشلسونهم عن العمل ؛ وبذلك لم يكن ثمة جهد في سبيل نحو آثار الفيضانات المنخفضة ، أو البذر للوسم التالي . وحينما انقطعت الموارد والمؤن العادية التي كانت تصل إلى القاهرة ومصر ، شمرت المدينتان بالحاجة والحرمان . ونحن نقرأ عن الرغيف من الخبز الذي يبيع بثمانية جنيهاً . والمنازل التي تنازل عنه صاحبه في مقابل ربع مثقال من الدقيق ، والنساء الغنيات اللاتي كن يلقين بمجوهراتهن الثمينة لقاء جزء من الطعام ، ولم يكن يجدن من يأخذها منهن ،

(١) يذكر لنا القزويني عرضاً مستفيضاً أطول من أن يقتبس جانب منه هنا . ويشمل هذا العرض عدا الكميات الواقعة من الأحجار الكريمة والأواني الفضية ، والأوعية المصنوعة من الذهب والبلور ، والملابس الموشاة بالذهب ، وجميع أنواع الفخار - كؤوس عفور عليها اسم هارون الرشيد ، وأواني معدنية ، هدية امبراطور روماني إلى العزيز ، سيف النبي ؛ درع الشهيد الحسين ، سيف المعز ، كميات من الخناجر المرسعة بالجواهر ، حرايب وبعض الأسلحة الأخرى الثمينة ، أطباق وعابر ذهبية ؛ رقائق الشطرنج موشاة على الحرير بالذهب والفضة والابنوس والماج ، مرايا من الصلب ، كؤوس للعب ؛ منضدة من العقيق ، طاووس من الذهب له عيتان من الياقوت الأحمر وريش من المعدن ؛ طلي مرصع باللؤلؤ ، التي كان يبلغ وزنها ١٧ رطلا ، ثمانية وثلاثون زورفا بينها واحد من الفضة ؛ خيمة الخليفة الظاهر ذات الجيوب الذهبية والواتاد المصنوعة من الفضة ؛ خيمة اليازوري ذات النقوش البديعة التي استغرق في صنعها سبع سنوات كاملة عمل خلالها فيها خمسون رساما ، وكان يبلغ طول عمودها مائة وعشرين قدماً ، وحيط الخيمة حوالي ألف قدم .

والأحصنة والخير - وحتى الكلاب والنقط - التي كانت تباع بثمان غال ، وتؤكل بشره ونهم . والاعجب من هذا أن الناس بدأوا يخطفون وباء طرون بعضهم البعض . وكان القصابون يبيعون اللحوم البشرية . وتلا هذه المجاعة وباء حصص الأرواح بمنجله حصدا ذريعا . ولم يفرق الوباء والجوع بين غنى وفقير ؛ فقد كان الجميع يقاسون تلك المحنة على السواء . وكان الأشراف المتناولون يحاولون الحصول على كسرة من الخبز في مقابل العمل في أحد الحاميات العامة . أما الخليفة نفسه ، فبعد أن سلبه الأتراك وهجرته زوجته وبناءً إلى بغداد تخلصا من الوباء ، كانت تقدم إليه بنت أحد العلماء رغيف من الخبز كل يوم ، إبقاء على حياته .

ولم يحدث أن عرفت مصير حياتها من قبل مثل تلك السنوات السبع العجاف غير أن كل شيء له نهاية ، إذ انتهت تلك الفترة المشؤمة ، فقد كان محصول عام ١٠٧٣ وفيرا ، كما أن قائد الأتراك قتل وقطعت جثته إرباً إرباً . وفي عام ١٠٧٤ جاء وزير عظيم لإنقاذ تلك الدولة المتداعية وهو بدر الجمالي الذي أرسل إليه الخليفة يستدعيه إبان محنته . وقد كان بدر أرمينيا وليس مسيحياً - بدأ حياته كأحد المييد . وكانت قدرته الفائقة سبباً في رفع شأنه وتقلبه في أرفع المناصب كما حكم لدمشق ثم لمعاً فيما بعد . وكان يحق رجل الساعة . وقد حدث أن دخل بدر الجمالي على الخليفة ، حينما كان يتلو له أحد المقرئين آية من القرآن الكريم ^(١) نصاح الخليفة مبهجاً : ولو أنك قرأت أكثر من هذا لأمرت بقطع رأسك . ، وبعد ذلك أخذ القائد المشهور يتحدث في إيجاز عن حكم الأقلية الأتراك . وما هي إلا عشية وضحاها حتى كان جميع القواد قد لقوا حتفهم نتيجة خدعة غادرة ، ولو أنها خدعة لم تخل من فائدة ، وهكذا انتهى عهد الإرهاب في القاهرة . ثم عيّن بدر الجمالي قائداً عاماً للجند ، ووزير السيف والقلم ، ورئيس القضاء ، وداعى الدعاة . وقد عمل في بادئ الأمر على إعادة النظام في العاصمة ، ثم سار بعد ذلك إلى الأقاليم وأخضع لأمره البرابرة والسودانيين والعرب في أقسوة زائدة ، ولم يكن يتردد في قتلهم إذ استدعت الحال ، وبذلك ساد النظام البلاد من الاسكندرية إلى أسوان . وقد بدأ الفلاحون - بعد أن عاد إليهم

(١) تشير الآية التي كان يترؤها إذ ذاك إلى غزوة بدر التي حدثت أيام محمد .

الأمن والطمأنينة - يزورون أرضهم مرة أخرى . فزادت موارد الدولة ، واستردت البلاد لمدة عشرين عاما نشاطها وحياتها .

والواقع أن القاهرة استفادت إلى حد بعيد من تلك السياسة الرشيدة البعيدة المدى التي اتبعها ذلك الأرمني العظيم ، بدر الجمالي . فقد ظلت لمدة قرن تقريبا منذ أن بنى العزيز القصر الغربي وهي لا تتمتع بشيء جديد له قيمته ، مع أننا نعلم بأن الحاكم أنهم بناء مسجد والده وبني قاعة العلم ، . وكان أفضل مكان يلجأ إليه المستنصر هو قصره الريني في هليوبوليس ، حيث كان يوجد كشك على نمط الكعبة الشريفة في مكة ، وبركة من الخبز تمثل برز زمزم . هنالك كان يتسلّى كثيرا ، حيث كان يتحكم على الحجر الأسود وعلى المياه الوردية ذات الأصل العربي . وحينما جاء حكم بدر الجمالي ، سمعت القاهرة مرة أخرى صوت مواج البنائين ، ذلك أن البلاد كانت في حاجة ملحة إلى التحصين وإصلاح ما سبق أن أفسدته القوات المتمردة فيها . فالسور القديم المصنوع من الآجر كان قد اختفى في ثنايا المدينة التي اتسعت في ذلك الوقت وأصبحت تصل إلى خارج الأبواب الثلاثة التي بناها جوهر . وهذه الأبواب الثلاثة هدمت ثم أعيد بناؤها من الحجر فيما بين عامي ١١٨٧ و ١١٩١ حتى تحيط بمساحة أكبر ، فقد دخل الحى اليوناني مثلا وكان يوجد إلى الجنوب ، في نطاق هذه الأبواب . كما بنى حائط جديد من الآجر حول المدينة . وقد عمل صلاح الدين الأيوبي على توسيع هذا الحائط فيما بعد ، إلا أن جانبا من الحائط الأصلي الذى بناه بدر الجمالي لا يزال موجودا ، أما في الشمال فكان هذا الحائط لا يزال يصل بين باب النصر وباب الفتوح ، ويمتد إلى طاييه على مسافة ثلاثمائة وثلاثين قدما غرب باب الفتوح ، وإلى زاوية شرق باب النصر بما يقرب من مائتي قدم . كذلك يوجد جانب من هذا الحائط بين المنازل القريبة من باب زويلة جنوب السياج . وإلى عام ١٨٤٢ كان لا يزال يوجد من السور الغربى إلى الجهة الغربية من الأزبكية .

أما الأبواب الثلاثة الكبيرة فلم يطرأ عليها تغيير كبير ، ولو أن أبراج باب زويلة قصرت لكي تستقبل مآذن جامع المؤيد في القرن الخامس عشر . وهذه الأبواب هي في الواقع أروع آثار الفاطميين ، إلا أنها يزنية وليست عربية إسلامية . ويذكر لنا المؤرخ أبو صالح الأرمني أن أحد الأقباط - يدعى جون -

هو الذى وضع تصميم الأسوار والأبواب الوزير الأرمنى . ولكن مهما يكن نصيب هذا الرجل في وضع تصميم تلك الجدران ، فلا يمكن أن يكون هو المهندس الذى بنى تلك الأبواب التى كانت على الطراز النورماندى^(١) . ومن الواضح أن المقرئ كان على حق حينما ذكر لنا أنها بنيت بواسطة إخوة ثلاثة من الرها . وهى مدينة حافلة بالأرمنيين حيث كان من الطبيعي أن يبحث بدر الجمالى - بحبرة فى سوزيا - عن مهندسين له . وقد بنى كل واحد من هؤلاء الإخوة واحدا من تلك الأبواب . وهذا القول الذى يعضده الطراز الذى يرجع إلى المدرسة السورية البيزنطية . وعلى الجملة - وكما أوضح فان يرشم - فإن أبواب القاهرة وأسوارها ترجع إلى طراز الـ Templar فى فن البناء العسكرى : المدرسة البيزنطية والعربية العظيمة التى يمكن تتبع خصائصها فى مختلف البلدان والعصور فى القسطنطينية ونيقيا وبروسة ، وفى الحصون العربية القديمة شمال سوريا ، على طراز الـ Templar ومباني العرب الحربية قبل الحروب الصليبية ، قبل أسوار بيت المقدس وغير ذلك . وأهم ما يميز هذا الطراز هو الحصون المربعة الشكل والفتحات المربعة كذلك ، على خلاف الأروقة الفارسية فى المساجد الفاطمية ، والحصون المستديرة فى حائط صلاح الدين الأيوبي . أما السائر فيبلغ سمكها من إحدى عشرة إلى ثلاثة عشر قدما ، وتحتوى على غرف للرماة (القواسين) وعلى آلات الحرب المختلفة . وتكون الأبواب من ممر له قنطرة ، ذى رواق مستدير ، يقع بين أبراج بها طبقات معدة لإصابة العدو منها ، ومتصلة بواسطة ممر رأسى فوق القنطرة ، حيث يوجد مكان يمكن أن يرى منه الطوب والقذائف على العدو . وما يزين باب النصر ، درجات حلزونية بديعة الشكل ، وأفاريز رائعة ، وبضعة دروع منقوشة ، وكتابة كوفية جميلة^(٢) . وهذه الكتابة — شأنها فى ذلك شأن كتابة أخرى على باب الفتوح — نعب عن عقيدة الشيعة ؛ إلا أنها على الرغم من ذلك بقيت كما هى طوال فترة استغرقت ثمانية قرون كانت العقائد القديمة فيها هى السائدة . والأبواب الثلاثة العظيمة هى فى

Abu-Salih, f. 51 a; Makrizy, i. 381; M. Van Berchem : (١)
Notes d'Archeologie Arabe (1801), 37-72,

وذلك التوسع فى هندسة بناء تلك الجدران والأبواب .

(٢) نشر هذه الكتابة المستترجم . لـ ك . كاي Mr. H. C. Kay فى مجلة Journal R. Asiatic Soc., N. S. xviii.

الواقع أثر رائع لواحد من وزراء القاهرة العظام في العصر الوسيط .
والحقيقة أن مصر استفادت كثيرا من حكم الأرمينيين لمدة تقرب من ستين عاما . وقد مات بدر الجمالي في عام ١٠٩٤ ، وهو نفس العام الذي توفي فيه الخليفة المستنصر . إلا أن الأفضل ، بن بدر الجمالي ، خلف أباه في الحكم ، وحكم مصر حتى عام ١١٢١ حينما أمر الخليفة الأمير بقتله . وفي عام ١١٣١ انتقلت السلطة إلى يد أبي علي بن الأفضل الذي حكم باسم المهدي المنتظر ، وبذلك عاد إلى نظرية الشيعة القديمة التي تقول باختفاء الإمام ، وتجاهل جميع مطالب الدولة الفاطمية . وحينما قتل بدوره وهو في طريقه إلى ملعب البولو ، أصبح يانس ، أحد عبيد الأفضل الأرمينيين ، وزيرا ، ومن بعده بهرام ، وهو أرمني مسيحي حكم حتى عام ١١٣٧ . وإلى ذلك الوقت كان نفوذ الأرمينيين المتزايد قد أدى إلى جعل جميع الوظائف الرئيسية في مختلف دواوين الحكومة في أيديهم . إلا أن هذه السلطة العظيمة كان لها رد فعل طبيعي ، فقد طرد بهرام ومعه ألفان من بني جلده ، وبذلك ذوت زهرة الأرمينيين ، بعد أن خدموا البلاد خدمات جليلة ، إذ حكموا على وجه العموم بحكمة وبعد نظر . فقد أسدى حكم بدر الجمالي وابنه ، ذلك الحكم الناجح المقرون بالحزم والاعتدال ، مزايا لا يستهان بها لأهل مصر . ولئن كانا قد جمعا ثروة طائلة^(١) ، فقد جمعاهما بالجد والعمل المنطوي على الذكاء والتفكير ، فقد جمعا في شخصيتهما صفات العدل والكرم . كما أن السياسة التي أتبعها إزاء القبط ، ألهمت ألسنتهم بشكره والثناء عليه . وحتى أبو علي ، الذي أحيا العقيدة القائلة بالإمام المختفي الذي كان مرسوما على النقود ، قد ورث عن أبيه وجده صفاتهما الطيبة ، ولذا أظهر اعتدالا وتسامحا إزاء المسيحيين ، وبدا صديقا حبا لهم ، ونصيرا للعلم والثقافة .

وسوف نرى أنه منذ عهد وزارة بدر الجمالي أصبحت مصر لا يحكمها الخلفاء ، وإنما الوزراء . وهذا يشبه ما كان حادثا قديما في النظام الميروفنجي^(٢) Merovingian

(١) قيل إن الأفضل ترك بعد وفاته أكثر من ثلاثة ملايين جنيها من الذهب ، وإن ثمن اللبن الذي كان يجلب من أبقاره بلغ في عام واحد ١٥٠٧٥٠ جنيها .

(٢) نسبة إلى أول أسره من اللوك الـ Frankish في فرنسا القديمة - وأصل الاسم من Merwig جد Cloyis وملك الـ Franks الغربيين

الذى شعاره، major domo، كما لو كانت القصة القديمة ذاتها قد نقلت إلى العربية. والواقع أنه منذ عهد استبداد الحاكم، لم يحاول أى خليفة أن تكون له سلطة مباشرة فى شئون الدولة، إلا الأمر الخليفة الفاطمى الذى حاول لبضعة سنوات أن يكون وزير نفسه بمساعدة الراهب ابن كنه، غير أن هذه التجربة لم تؤد إلى نتيجة حاسمة، إذ تملك هذا الراهب الزهر والمعجب بنفسه، حتى أسر الأمر بقتله، وقد كانت قسوة الأمر سببا فى كرهه. وفى ذات يوم، بينما كان عائدا من المودج، ذلك المنزل الصغير فى جزيرة الروضة الذى كان يذهب إليه ليستطلع فيه آراء جروسة البدوية وميلها إلى الصحراء، قتله بعض الإسماعيليين، وكان ذلك فى عام ١١٣٠. وكل ما كان للخليفة الأمر من فضل أنه بنى جامع الأقرم فيما بين القصرين. ومنذ مقتل الأمر تنازل الخلفاء عن السلطة للوزراء الذين كانوا هم أنفسهم أداة تحريكها الانقسامات والأحزاب العسكرية. وكانت التقوى الروحية والعزلة التى ينادى بها رجال الدين الفاطميون لا تزال تراعى فى ذلك الوقت، كما رأينا فى وصف وفادة الفارسين. غير أننا يجب أن نعرف أن ذلك التبجيل والاحترام الزائد تحول إلى المزول دون الجد. فقتل كل من الأمر والظافر، وحبس الحافظ، وقتل الوزير رضوان أمام جامع الأقرم على يد حراسه السود المدمنين على الخمر. ودمس الخليفة السم لابنه على أيدى طبيبه المسيحي. ثم منظر سفك الدماء المروع فى القصر، حيث أظهر الطفل، الفاتز، أمام رجال القصر على أنه إمامهم الروحي^(١). كل هذا لا يدل على أى احترام حقيقى لخلافة الشيعة الغامضة. ولقد كانت بغداد تعرف الخلفاء الإسميين منذ وقت طويل؛ وكان منافسوم على ضفاف النيل ظلالة لأسماها لها جلالها.

وكان الرعب الذى حل بالبلاد أخيرا أكثر من أن يحتمله سكان القاهرة الذين طالما قاسوا واحتملوا. فإن قتل الخليفة الظاهر الذى حدث بعد إغتيال الوزير الكردى ابن السلال بفترة وجيزة، والمذبحة المروعة التى حدثت فى القصر، والجرائم التى تمت بتدبير الأقرباء والندماء، والوحشية الفظيعة التى بنطوى عليها عرض

(١) هذا المشهد يصفه لنا الأمير العربى أسامه الذى كان موجودا فى القاهرة فى ذلك الوقت، والذي كان صديقا لعماس قاتل الخليفة والوزير على السواء. أنظر Derenbourg, Vic d'Ousama, 205-260

الخليفة الطفل البالغ من العمر أربع سنوات في القصر وسط هالة من الرعب والفرع .
لا شك أن كل هذا آثار عاصفة من الانتقام ، وبينما كان الوزير الجديد عباس هاربا
قتل بالقرب من البحر الميت ، أما القاتل ، ويدعى نصر ، فقد تسلمته جماعة
الدارية Templars في فلسطين مقابل ثلاثين ألف جنيه وأرسلته إلى نساء القصر
اللاتي عذبه وأرسلنه ثمقدا فأفاد البصر لكي يعرض في شوارع القاهرة ثم
يصلب حيا عند باب زويلة . وبينما سحائب الضيق والحزن تخيم عليهن ، أرسلت
النساء إلى حاكم أشمونين في صعيد مصر خصائل من شعرهن ، وقد أجا بن الأمير
طلائع بن رزق إلى ملتصين في لطف وأدب زائدين ، وكان ذلك عام ١١٥٤ ،
وبعد ذلك لوح بالخصائل ثم ركب إلى القاهرة يتبعه حارس عربى ، وجينا جلس
على كرسى الوزارة في دار المأمون (١) ، استعادت العاصمة ثقها . وكان طلائع ، الذى
أنبع عادة الوزراء المحدثين وجعل من نفسه ملكا وتسمى بإسم الملك الصالح ، هو
آخر دعامة في الدولة المتداعية . فقد كان رجلا واسع الأفق وشاعرا في الوقت
نفسه ، كما كان كريما ومتواضعا وسياسيا . ثم أن مسجده ، الذى لا يزال يوجد
بالقرب من باب زويلة ، ينم عن السخاء والتفوى . ولقد حاول جهده أن يبعد
عن مصر العاصفة التى كانت تهددها من الارتباك السياسية في سوريا وفلسطين
إلا أن نساء القصر وجدن أنهن قد استدعين لإيقاظهن رجلا قاسيا ، فقتلته دون
أى تقدير لفضله . وقد كانت آخر كلماته هو أسفه على أنه لم يعمل على غزو بيت
المقدس واستئصال شاة الفرنجة ، وتحذيره لابنه لكي يحترس من شاور الحاكم
العربى لصعيد مصر . وكان صادقا في أسفه وتحذيره : فإن شاور عزل رزق
و ابن الوزير ، وقتله في مستهل عام ١١٦٣ ، وفي غضون العام نفسه ، كان ملك
بيت المقدس المسيحى في مصر .

وقبل أن نتغل إلى غزو الصليبيين للقاهرة ، ونفتح صلاح الدين الأيوبي ، ونهاية
الفاطميين بموت آخر خلفائهم العاضد ، يجمل بنا أن نذكر شيئا عن بقايا المدينة
التي خلقتها تلك الدولة الآيلة للسقوط واحتفظت بهبتها وجمالها . ومن بين جميع
مبانيهم ، لا يوجد ما يشهد على عظمة الفاطميين سوى الأبواب العظيمة الثلاثة ،

(١) بنى هذا القصر وزير سابق ثم جوله صلاح الدين الأيوبي إلى معبد علمي . وكان يوجد
بالقرب من الجامع المال الذى يسمى جامع الإشراف في شارع النورية .

وجانب من الجدران ، وبقايا أربعة (١) مساجد . وقد ذهبت المساجد تماماً ؛ ذلك أن خلفاء الفاطميين لم يستعملوها ، ومن ثم أخذت تهدم على مر الزمن . ولقد أنشد الشاعر عمارة النيني قبل عام ١١٧٤ يشير إلى ذلك . كذلك إخفت دار العلم ودار المأمون ودار الوزير وجميع القصور الأخرى التي كان يستعملها خلفاء الشيعة وأتباعهم . غير أنه لم يحدث هناك خراب أو دمار عام ، وكل ما هنالك أن المباني قد هجرها وأهلها القادمون الجدد ، فكان ذلك سبباً في تدهورها وتدميرها . ومن بين الآثار القليلة الباقية ، نجد أن أقدمها وأصدقها هو جامع الحاكم . ذلك أن الأزهر لا يحتفظ إلا بالقليل من بنائه الأصلي وزخرفته القديمة . وجامع الأقر الذي بناه الخليفة الأمر فيا بين القصرين ، هو أول مسجد بني من الحجر ، إذ كانت جميع المساجد من قبل تبنى من الآجر . ومما يكن من أمر هذا المسجد ، فإن واجهته وحدها هي التي بقيت من الحجر ، وكانت منتظمة الشكل وجميلة النقش . أما الأروقة الداخلية فكانت من الآجر أو الأعمدة الرخامية . وعلى الرغم من صغره وتدمره فإنه يتميز ، من بين سائر المساجد الفاطمية ، بواجهة جميلة تختلف كثيراً عن الواجهات العادية البسيطة للمساجد السابقة . كذلك يسترعى إنتباهها خاصاً تلك النقوش الموجودة في المشكاة ، والتدييع الجميل المنقوش على الأعمدة ، والأفريز الكوفي الذي يحيط بالمشكاة الجانبية ، (٢) . وهناك نقشان يحملان إسم الأمر وتاريخ ٥١٩ هجرية (١١٢٥ ميلادية) يتعلقان بالأساس . ثم هناك آخران يسجلان إعادة بناء الجامع بواسطة الأمير بلوغا السالمى في عام ٧٩٩ هجرية (١٣٩٦ ميلادية) . غير أنه من حسن الحظ أن إعادة البناء هذه لم تتناول المسجد بالكثير من التغيير . وعلى الرغم من أن مسجد الوزير طلائع رزق بالقرب من باب زويلة (١١٦٠) قد تهدم كثيراً ، إلا أنه يربنا قدماً ملحوظاً في مضمار البراعة في فن النقش . فن الصعب علينا أن نجد مثيلاً لتلك النقوش العربية في أى مسجد جاء بعد ذلك . وهناك

(١) أسس الخليفة الظاهر في عام ١١٢٩ المسجد المعروف باسمه والذي لا يزال يوجد في ركن الكرية (سوق السكر) ويعرف باسم جامع الفكهان ؛ غير أنه قد أعيد بناؤه تماماً في عام ١٧٣٥ .

أمثلة عديدة هامة في متحف الفن العربي تصور لنا في جلاء قدرة الفاطميين وبراعتهم في فن النقش. ونحن نخص بالذكر هنا الأبواب المغشاة بالصفائح المأطورة، بما عليها من نحت وكتابة للحاكم في جامع الأزهر. كذلك نذكر المحاريب الثلاثة، التي منها لإثنان من الجامع الأزهر وبيدهما واحد يحمل كتابة تسجل تشييده هناك بواسطة الأمر في عام ١١٢٤، والثالث من ضريح السيدة رقية حوالى عام ١١٣٥، وهذا الأخير يحوى نقوشا هندسية معقدة بالغة الروعة، وزخارف عربية وكوفية بديعة.



جامع الجيوشى

ومن سوء الحظ أنه إذا كانت الآراء والعقائد التي هي أقرب إلى البدع، قد عملت على تشجيع النواحي الفنية، إلا أن الوقت نفسه أدت إلى هدم ما تم لها عمله. فلو أن الفاطميين لم يكونوا هراطقة، لابقى خلفاؤهم على قصورهم الجميلة، بما فيها من أوجه فنية رائعة. وكان القوم الأتقياء الذين جاءوا بعد ذلك يتحسسون لإزالة كل ما يمت إلى الخلفاء الشيعة بصلة، أولئك الخلفاء الذين أنفقوا أموالا طائلة على تزيين مدينتهم بكل ما ينم عن ذوق جميل.

الباب السادس

قلعة صلاح الدين

عوامل غزو مصر - الأتراك والصليبيون - شاور وضرغام - عموري وشيركوه
في مصر - صلاح الدين يخذل الوزارة - عزله الخليفة الفاطمي - حروب صلاح الدين -
أعمال صلاح الدين في القاهرة - الأسوار الجديدة - القلعة - سدود خزان الجيزة -
الثورات في القاهرة - رأس الحسين - صلاح الدين يشيد المدارس السنية - عبارة ابن
جبير - المستشفيات - خصائص المدارس والمساجد - أثر إحياء المذهب السني
ونسج العلم

كانت القاهرة في مستهل القرن الثالث عشر مدينة تختلف تمام الاختلاف عنها يوم
كانت مقراً للفاطميين . ذلك أنها كانت تغطي مساحة أكبر ، وتحتوى على عدد من
المباني الجديدة ذات صبغة لم نعرفها مصر من قبل ، كذلك كان يوجد بها قلعة . وكل
هذه التغيرات ترجع الى صلاح الدين الأيوبي ، ولو أنه لم يش ليها حتى نهايتها .
والواقع أننا إذا أردنا أن نتبع في شيء من التفصيل الأسباب التي أدت إلى غزو
مصر بواسطة ملك بيت المقدس الصليبي وطرد الفرنجة بواسطة جيوش نور الدين
سلطان دمشق ، فإذا سوف نخرج بذلك عن الموضوع الأصلي الذي نحن بصددده . ولقد
كان العنصر الأساسي في الموقف السياسي يتلخص في تقسيم سوريا بين قوتين عدائيتين
جديتين ، هما الصريين والأتراك السلاجقة . وكان تسرب الضباط الأتراك التدريجي
إلى خلافة بغداد ، قد أدى إلى غزو كبير ، يفوقه السلاجقة الذين أخضعوا بلاد
الفرس وبلاد الموصل بأكملها في أواسط القرن الحادى عشر ، وجعلوا الخليفة العباسي
آلة في أيديهم ، وأكثر من هذا غزوا المستعمرات الفاطمية في سوريا التي لم يكن
من السهل القبض على زمامها ، واستولوا على دمشق في عام ١٠٧٦ . وكان العائق
الوحيد الذي منعه من غزو مصر هو الرشاوى التي دفعها الوزير الأرميني بدر
الجمالى والإسحكات الحربية التي أقامها . وفي أواخر ذلك القرن انتهت امبراطورية
السلاجقة ، إلا أن سوريا برعاية زنكي وابنه نور الدين ، كانت أقل ضرراً للفاطميين
من بقاء امبراطورية السلاجقة . وفي الوقت نفسه كان هناك تعقيد جديد قد دخل في

السياسة السورية عند ابتداء الحروب الصليبية ، ذلك هو استعادة المسيحيين لبيت المقدس في عام ١٠٩٩ وتكوين المملكة اللاتينية هناك : وكان الجند الفاطميون يطردون تدريجياً نحو الجنوب . وبعد أن حاول الأفضل الأرميني ، ابن بدر الجمال المفاوضة ، قام بعدة حروب في فلسطين ، إلا أن تقدم الصليبيين لم يكن في الإمكان منعه ، ففي عام ١١٠٩ سقطت طرابلس ، وفي عام ١١٢٤ سقطت صور . وبعد فترة طويلة سلت Ascalon ، آخر معاقل الفاطميين ، في عام ١١٥٣ . وقد أصبح الصليبيون بعد ذلك على الحدود المصرية وكانت حصونهم في الكرك ومنتربال عند البحر الميت سبباً في قطع المواصلات مع سوريا .

وكانت كلا القوتين مملكتي بيت المقدس اللاتينية وسلطنة دمشق التركية ، عاجزة عن أن تستحق إحداهما الأخرى . وكانت مصر هي الحل الوحيد لذلك الموقف . فإذا ما استطاعت إحدى القوتين أن تستولي على نهر النيل ، كان من السهل عليها أن تجلب القوة المعادية إلى إحدى جانبيه ثم تستولي عليها . وكان الامتزاج الطبيعي هو بين الدولتين المسلمتين : القاهرة ودمشق ، إلا أن التشيع الديني وقف حاجلاً في الطريق . فقد كان نور الدين مسلماً متحمساً للذهب القديم ، ولم يكن له شأن بهراطفة الشيعة . حقيقة أن الوزيرين ابن السلار وطلائع دخلا في مفاوضات دبلوماسية مع ملك دمشق ، إلا أنهما لقيتا تشجيعاً قليلاً . وقد اضطر نور الدين أخيراً أن يرسل قواته إلى مصر حينما وصل جيش الصليبيين إلى القاهرة . وكان الإعراض راجعاً إلى خصومة الوزراء المتنافسين الذين كانوا يتنازعون على مائتي من حكم الفاطميين . وكان أحد هؤلاء ، ويدعى شاور ، قد طرده ضرغام ، ومن ثم لجأ إلى نور الدين أما ضرغام فقد لجأ إلى مخالفة عموري ملك بيت المقدس ، الذي كان قد تم له غزو مصر ليطالب بالإعانة المالية السنوية (١) التي كانت الحكومة الفاطمية المتداعية تدفعها أخيراً كثأوة إلى جارتها المسيحية . وقد عاد شاور في عام ١١٦٤ يماونه في ذلك جيش سوري بقيادة شيركوه ومعه أركان حربه صلاح الدين الأيوبي ابن أخيه . أما ضرغام ، فبعد أن هزم في بلبس ، وقف مرة أخرى في القاهرة حيث استول على المدينة الفاطمية ، بينما احتل شاور والسوريون مصر . وكان ضرغام شخصاً محبوباً ، إذ كان عربياً شجاعاً اشتبك مع الصليبيين في غزه وقاد كتيبة من الجيش

(١) يسمى William of tyre هذه الإعانة Annua tributis pensio

الفاطمي من أهل بركة . وقد كان ذلك حافزاً له على أن يستولى على أموال الوقف ليوافقه حاجات قواته ، وتخلي عنه أتباعه نتيجة لذلك وامتنع الخليفة عن مساعدته وكان المشهد الأخير مفاجئاً .

فبعد ما اضطر إلى القتال ، نفخ في بوقه يدعو الجند للحرب ، ولكن الطبول كانت تدق ، والأبواق كانت تنادى دون جدوى . كما أن عبارة الله أكبر كانت تتردد من فوق الحصون ، إلا أن أحداً من الرجال لم يكن ليجيب . وعيثاً وقف الأمير اليائس ومن حوله حرسه المؤلف من خمسمائة فارس هو ما تبقى له من جيشه القوي ، يتوسل أمام قصر الخليفة يوماً كاملاً ، حتى بعد أن آوت الشمس إلى مخدعها ويتضرع إليه مستحلفاً إياه بأجداده ، أن يتقدم إلى النافذة ويهتم بدعواه . إلا أنه لم يكن ثمة جواب ، وكان الحرس نفسه قد بدأ بتشتت حتى لم يبق منه سوى ثلاثين فارساً . وفجأة سمع صوت صياح ينذره : أنظر إلى نفسك وأنتقد حياتك ، وهناك كانت تسمع طبول شاوور وأبواقه ، صادرة من باب القنطرة . وبعد ذلك ركب القائد المخذول وخرج من باب زويلة . إلا أن القوم المتذمرين قطعوا رأسه وطارفوا بها الشوارع مبتهجين أما جثته فقد تركوها فريسة للكلاب . تلك كانت النهاية المفجعة لشاعر شجاع وبطل شهيم .

وبعد أن استغنى عن ضرغام ، طفق شاوور الخائن يولى وجهه شطر منقذيه ويطلب مساعدة عموري لطرد السوريين . وبعد نزاع دام طويلاً ، عقدت في نهاية الأمر هدنة ، وانسحب الجيشان المسيحي والسوري دون أية نتيجة مباشرة . غير أن الغزو كان بداية احتلال دائم . وبينما كانت القوات السورية عائدة في طريقها إلى دمشق أخذت تصف ضعف الحكم الفاطمي وتحت نور الدين على غزو مصر موضحة له أهمية ذلك . ولم يكن من السهل إغراء السلطان الحذر ، غير أن حينما وصلته أنباء خرابها أن عموري يدبر مؤامرة مع شاوور مرة أخرى انطلق الجيش السوري ثانية إلى النيل حيث عبره كما فعل الصليبيون تماماً ، وكان ذلك في عام ١١٦٧ . ومهما يكن من أمر عموري فإنه نجح في الاستيلاء على القاهرة وعمل معاهدة مع الخليفة ، تلك المعاهدة التي سبقت الإشارة إليها ووصف قدوم الفارسين (١) . ومن جهة أخرى فإن شيركوه غزا مصر العليا ، كما أن صلاح الدين

الأيوبى استولى على مدينة الاسكندرية لمدة خمس وسبعين يوماً ، وبعد ذلك نظمت
هدنة جديدة ، وعاد الجيشان إلى سوريا وفلسطين . ومهما يكن من شيء ، فإن
الفرنجية تركوا نائباً فى القاهرة ، وسلدوا حراس الأبواب ، كما وضعوا حارساً فى
مسجد الحاكم . وكان هؤلاء النواب ، الذين كانوا بمثابة شاهدين على فرضى حكومة
مصر وضعفها ، مدعاة إلى قدوم عمورى ثانية فى العام التالى عاقداً النية على ضم
البلاد . وكان هذا - بالإضافة إلى المجزرة البشرية الوحشية التى تلت ذلك فى بلبس ،
بما أشاع الرعب والجزع فى قلوب المصريين ، حتى أنهم أرسلوا بضعة التماسات
عاجلة إلى نور الدين . وقد دخل معه الخليفة فى نقاش حرج حول خصائل شعر
زوجته . وللمرة الثالثة ، فى أوائل عام ١١٦٩ ، وصل شيركوه وصلاح الدين
الأيوبى إلى مصر وكانت إقامتهما فى هذه المرة خيراً وبركة عليهما . فقد انسحب
عمورى دون أن يشتبك فى قتال ، كما أن شاور ، بعد أن دبر مؤامرة لاغتيال منقذيه
قبض عليه وأعدم . وقد عين شيركوه بعد ذلك وزيراً ، وحينما وافقه منيته بعد
شهرين من ذلك التعيين ، تقلد صلاح الدين الأيوبى مهام منصبه فى مارس عام ١١٦٩ .

ومن الواضح أن منصب صلاح الدين الأيوبى كوزير للخليفة الشيعى ، وكنائب
فى الوقت نفسه لسلطان دمشق من أصحاب المذهب القديم ، لم يكن من السهل
الدفاع عنه . وعلى الرغم من أنه اضطلع بأعباء الحكم فى ذلك المنصب النازلة لمدة
عامين ، إلا أنه كان من الجلى أن الخلافة الفاطمية لم تكن لتدوم طويلاً ، وأنها
كانت تشرف على نهايتها . فى صلاة يوم الجمعة العاشر من شهر سبتمبر عام ١١٧١ ،
نودى بخليفة بغداد العباسى فى مساجد القاهرة . وقد روى رحالة عربى من أسبانيا
وصف الإحتفال بعد ذلك التاريخ يأتى عشر عاماً .

وفى واحد من تلك المساجد أقيمت صلاة الجمعة . هنالك قام الواعظ بالطغوس
الدينية مستهلاً وعظه بدعاء الصجابة والتابيعين وأمهاة المؤمنين اللاتى من زوجات
النبي ، وإلى عبه الكريمين حمزة والعباس : وبعد ذلك قام بوعظ بليغ ، وبحديث
مؤثر كان له أعظم الأثر فى نفوس سامعيه ، حتى لانت له أصاب القلوب .
وذرفت عيونهم الدمع السخين . وكان يقوم بالوعظ مرتدياً الملابس السوداء
وفقاً لقواعد العباسيين . ذلك أنه كان يلبس مشملة سوداء عليها طيلسان من الكتان
الاسود الجميل — وتسمى فى أسبانيا دأحرام ، — وكانت عمامته كذلك سوداء

اللون كما أنه كان متمطقاً بسيف . وحينما صعد إلى المنبر طرق على الدرجة بعمده حيث بدأ في الصعود ، لكي يسمعه جمهور المصلين ، إشارة منه إلى التزام السكون وفي منتصف السلم طرق مرة أخرى وحينما وصل إلى القمة طرق مرة ثالثة ، أخذ بعدها يتلو الدعاء وكان يقف هناك بين عشرين أسودين عليهما علامات بيضاء اللون كانا مثبتين في الجزء العلوي من المنبر . وفي هذه المناسبة دعا أولاً إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله ؛ وبعد ذلك إلى معبد سلطانه يوسف بن أيوب وهو السلطان صلاح الدين الأيوبي ؛ ثم إلى أخيه ووريثه أبي بكر ، الذي يسمى سيف الدين ^(١) . ولم تدهش تلك الصلاة الجمهور الذي سمعها في عام ١١٧١ ، كما أن أحداً لم يكن ليتذمر في ذلك الوقت ، إذ من المحتمل ألا تكون الدعوة الشيعية قد قلبت في النفوس . وكان جمهرة الناس لا يظهرون ميلهم إلى العقائد القديمة على الرغم من سيادة هرطقة الشيعة لمدة قرنين . وفي النهاية تم الانقلاب دون مقاومة . فقد قضى على آخر الخلفاء الفاطميين دون أن يثير أية ضجة ، وأسر أقاربه ، وشتت عيده وأتباعه وكانت القصور أعظم مما تستلزمه حاجات صلاح الدين المتواضعة ؛ ومن ثم أسكن فيها ضباط جيشه ، واحتل هر نفسه دار الوزير . أما المكتبة النفيسة التي كانت تحتوى على مائة وعشرين ألف كتاباً جمعت بعناية بعد أن أنقلت المكتبة الأولى منذ قرن مضى ، فقد أعطيت إلى القاضي الفاضل ووزعت الأشياء النفيسة أو بيعت ، كذلك اختفت قصور الفاطميين وكل آثارهم بالتدرج ، عدا مساجدهم . وهكذا ساد المذهب القديم مرة أخرى في مصر .

وكانت أغلب حياة نصير الإسلام العظيم خارج مصر . ذلك أن صلاح الدين الأيوبي لم ينفق من حكمه البالغ أربعة وعشرين عاماً سوى ثمانية أعوام في مصر ، وكان حكمه فعلياً منذ البداية ، على الرغم من أنه كان تابعا اسمياً للملك دمشق لمدة الخمس سنوات الأولى ، كما أن أعظم انتصاراته ونكباته على السواء حدثت في سوريا وبلاد الموصل وفلسطين . وحينما ترك القاهرة في الحادى عشر من شهر مايو عام ١١٨٢ ، حضر إلى ركابه ضباط القصر العظيم ليودعونه ؛ وعندما توقف المركب عند بركة الحبش ، سمع صوت يطنى على أنغام الموسيقى والغناء ولم توجد كوة في مصر لصلاح الدين بعد ذلك ، كما أن القاهرة لم تر له بعدها وجهاً . فقد غزا أرض الفرات ، واستولى على دمشق التي كان قد تم له ضمها بعد

موت نور الدين . كما أنه انتصر على الصليبيين انتصاراً باهراً في موقعة حطين ؛ واسترد بيت المقدس ، التي كانت مقدسة بالنسبة له كما كانت بالنسبة إلى الصليبيين وأخضع له الأرض المقدسة بأسرها . كذلك حارب طويلاً فرسان أربا حيث دام القتال في عكا حوالي عامين ، وانجلى في نهاية الأمر عن تلك المعركة مع ريتشارد التي جعلت اسم صلاح الدين يتردد حتى في أوروبا . وبعد الهجوم الأخير على يافا وما تبع ذلك من رد فعل ، أمضت معاهدة السلم ، وفي شهر مارس التالى من عام ١١٩٣ توفي صلاح الدين الأيوبي ودفن في دمشق .

لقد انتهت الحرب المقدسة ، وانتهى معها صراع خمس سنوات ، وقبل الانتصار الباهر في موقعة حطين في شهر يولييه عام ١١٨٧ ، لم يكن هناك شبر واحد من فلسطين غرب الأردن في أيدي المسلمين . أما بعد صلح الرملة في سبتمبر عام ١١٩٢ فقد أصبحت جميع الأراضي ملكاً لهم ، ماعدا جزء ضيق من الساحل مابين مدينتي صور ويافا . وعلى أثر تداء البابا هبت المسيحية بأسرها تذود عن حوضها ، فالامبراطور ، وملوك إنجلترا وفرنسا وصقلية ، وليوبولد امبراطور النمسا ، ودوق برجاندى ، وكونت الفلاندرز ، ومئات مشاهير البارونات والفرسان من جميع الأقطار - كل هؤلاء انضموا إلى ملك فلسطين وأمرائها وفرسان المعبد والداوية بقصد إنقاذ المدينة المقدسة واسترداد ملكة بيت المقدس التي كانت قد تلاشت . إلا أن الامبراطور توفي ؛ وعاد الملوك من حيث أتوا ، ودفن كثير من أنباهم في الأرض المقدسة . وكانت بيت المقدس لا تزال مدينة صلاح الدين الأيوبي ؛ وكان ملكها الإسمي يحكم ملكة صغيرة في عكا . هذا إلى أن جميع قوى المسيحيين التي تركزت في الحرب الصليبية الثالثة لم تفت من عضد صلاح الدين . فحينما انتهت حرب السنوات الخمس بما كانت تحويه من محن قاسية ، كان لا يزال يحكم حكماً مطلقاً من جبال كردستان حتى صحراء ليبيا . وخلف هذه الحدود ، كان ملك جورجيا وكاثوليك أرمينيا وسلمان قوية وامبراطور القسطنطينية يتوددون إليه ويتطلعون إلى صداقته وتحالفه (١) .

وعلى الرغم من أن صلاح الدين الأيوبي لم يقيم طويلاً في القاهرة ، إلا أن أحداً من سبقوه من الحكام لم يترك فيها مثلاً ترك صلاح الدين من آثار . فإنه

يرجع الفضل في اتساع العاصمة وشكلها منذ ذلك الوقت حتى عهد قريب ، كما أن القلعة - وهي من أجلى مظاهرها - من عمل صلاح الدين ، وهو الذي أدخل نظام المدرسة في القاهرة ، كل هذه التغيرات يرجع الفضل فيها إلى قدرته ونشاطه .

وحينما غادر القاهرة بعد ثمانية أعوام لم يفتأ يزورها بين الحين والحين ليرسل جنودها إلى حروبه السنوية ، وترك من ورائه بعض الضباط والأقارب لينجزوا ما سبق أن بدأه من أعمال . وكانت هذه الأعمال بعضها دفاعياً والبعض الآخر دينياً . أما الأعمال الدفاعية فكانت تنحصر في القلعة والصور الجديد والسد العظيم ، وكلها ذات خصائص جديدة لم تكن توجد من قبل . وحتى ذلك الوقت كان حكام مصر المختلفين يقنعون ببناء ضواحي حكومية أو ملكية ، كل منها يبعد نحو ميل إلى الشمال الشرقي . وحتى مدينة الفاطميين ، القاهرة - كما سبق أن رأينا - كانت مقراً رسمياً وقصراً غمماً للخلفاء ، وليست عاصمة لمصر . أما صلاح الدين الأيوبي فقد كان أول من أحكم وضع تصميم جامع لعاصمة عظيمة . فبدلاً من أن يحدو حذو من سبقوه من الحكام ويبني مثلاً بنوا من ضواحي جديدة ، عقد العزم على أن يوحد الأحياء المسكونة التي كانت تزدحم وقتئذ ، ويحيطها بسور واحد عظيم ، ثم يتوج الجميع بقلعة رائعة . وقد صمم كذلك على أن يحيط مدينة مصر التي كانت قد احترقت والتي كانت تناضل في ذلك الوقت ، ليزيح رمادها وتتنفس الحياة مرة أخرى ؛ وكانت المباني المبعثرة فوق موقع الأحياء المتهدمة تقترب بعضها من بعض وكذلك عمل على ضم ميناء المرسى إلى المدينة بواسطة سور ، على نحو ما كانت عليه يروس بالنسبة إلى أثينا . وكان ذلك السور العظيم المحيطة بالمدينة يصنع من الحجر ويمد في استحكامات بدر الجمال الأرميني إلى المرسى غرباً ، وإلى جبل المقطم جنوباً ثم يحيط بعد ذلك ببقايا مدينة الخيمة القديمة حتى يحف بالنيل .

إلا أن هذا المشروع العظيم لم يتم قط . ذلك أن صلاح الدين - واضع المشروع - كان مشغولاً في حروبه في سوريا . ومن المرجح أن أعوانه في القاهرة كان لديهم الكفاية على العمل بجمع المال والرجال لمعونه دون أن يشيدوا من المباني إلا ما كان ضرورياً . ومن المحتمل كذلك أن يكون إعادة التفكير في المشروع قد هدته - أو هدت مبعوثيه - إلى أن فكرة ضم مدينة بالية مثل مصر لم تكن توازي نفقات سور ضخم يبلغ طوله ميلين . إنما الذي تم بناؤه فعلاً هو مد سور بدر

شمالاً من نهايته عند الخليج إلى النيل ، حيث أقيم حصن المقس المنيع . أما من جهة الشرق ، فقد مد الحائط القديم جنوباً حتى باب الوزير ، بالقرب من سور القلعة الجديدة . إلا أن موت السلطان أدى إلى وقف العمل قبل أن يتم ضم الأسوار ؛ وحتى الأسوار الجنوبية والغربية لم يكن قد بدأ في بنائها . وبلا حظ أن جانباً كبيراً من أسوار صلاح الدين لا تزال قائمة حتى الآن . وعلى الرغم من أنها كثيراً ما ضاعت بين المنازل ، إلا أنه يمكن تتبعها فيما بين الخليج وباب الحديد (الذي كان يسمى من قبل باب البحر ، جوار حصن المقس الذي لم يعد له وجود) ، حيث يمكن المقارنة بين القلعة القديمة المربعة الشكل في حائط الفاطميين ، وبين القلعة المستديرة القريبة في سور صلاح الدين بما فيها من حدبات وأبراج و منافذ للراقبة . ونفس هذه الخصائص توجد فوق السور الشرقي الذي يفصل المدينة من قرافة قايتباي ، حتى يظهر طراز حديث عند باب الوزير (١) . وهناك جانب من السور عند الزاوية الشمالية الشرقية - بما فيه من برج الظافر - يوجد خارجاً في الصحراء ويدل على أنه في تلك البقعة وحدها انكشفت المدينة الجديدة في داخل حدود القرن الثامن عشر .

والواقع أن الأسوار لم تكن إلا تطوراً لأسوار بدر الجمالي القديمة ، أما القلعة فكانت فكرة جديدة ، وقد يكون صلاح الدين استوحى تلك الفكرة إلى حد ما نتيجة كرهه للقصور الخاصة بالخلفاء الشيعة ، فعلى الرغم من أنه لم يعش ليقم في القلعة - اللهم في زيارة قصيرة - إلا أنه ما من شك في أنه عزم على أن يجعل منها مقراً له ؛ ولقد فعل خفاؤه ذلك . غير أن التفسير الواضح لبناء القلعة هو ما رآه صلاح الدين في سوريا . هناك كانت كل مدينة لها قلعتها ، فكان من الطبيعي إذن أن ينظر صلاح الدين إلى قمة جبل المقطم ، فيدرك لأول وهلة - ومن وجهة نظره العسكرية - أنها مكان صالح لبناء قلعة . حقيقة أن القلعة ولو أنها كانت تسيطر على القاهرة من علو ماتي وخمسين قدماً ، إلا أن هناك مواضع أخرى في جبل المقطم تعلو هذه القلعة . ولكن مهما يكن من أمر هذا العيب ، فإنه لم يكن بذى خطر في وقت كان يستخدم فيه قذف الأحجار كوسيلة من وسائل القتال . ولقد كان موقع القلعة حصيناً ، فيه الكفاية بالنسبة لمهندسي القرن الثامن عشر ،

ولم يأل هؤلاء جهداً في جعلها حصينة من أسفل في حالة إذا ما قامت هناك ثورة في المدينة . وقد بدأ العمل في عام ١١٧٦ - ١١٧٧ تحت إشراف الأغا قراقوش - أحد أمراء صلاح الدين المخلصين - الذي اختلط في أذهان الشرقيين بتلك التسمية المضحكة ، على الرغم مما قام به من خدمات جليلة وأعمال حربية كثيرة . ولم يوضع اسم القاعة عليها إلا بعد ست سنوات من ذلك التاريخ ، حيث كان ولا يزال يعلو د باب المدرج ، في الجزء الغربي الأصلي من القلعة .



قلعة الكبيش

وكانت أهرامات الجيزة تستعمل بمثابة محاجر لجلب الأحجار اللازمة ، كما أن جانباً من البناء قد تم بواسطة الأسرى الفرنجة أو الأوربيين الذين أسروا في حروب صلاح الدين . ولقد شاهد الرحالة الأندلسي ابن جبير ، العمل يتم على قدم وساق حينما زار القاهرة عام ١١٨٣ . فهو يحدثنا بأن كل العمال الذين استخدموا بالقوة في بناء القلعة وكذلك المشرفين على عملهم كانوا من الأسرى المسيحيين من الفرنجة وكان عدد هؤلاء من الكثيرة بحيث يتعذر حصره ، وبدونهم لم تكن ثمة وسيلة لانجاز ذلك العمل . ذلك أنهم وحدهم هم الذين يحملون مشقة نشر الرخام ، وتنميق الكسكسل الحجرية الكبيرة ، وحفر القناة حول سور القلعة ، تلك القناة التي استخدمت فيها العتل لقطع الحجر الصلب ، والتي ستظل أعجوبة العجائب إلى الأبد

ثم إن هناك في مكان آخر يوجد أحد الأبنية الأخرى الخاصة بالسلطان والتي يقوم بالعمل فيها الأسرى الفرنجة . ولكن حتى المسلمين ، الذين يخدمون في مثل هذه الأعمال العامة وغيرها ، يجب أن يقوموا بالعمل بدون مقابل ، ذلك أنه ما من أجر يدفع لمن يقوم بالعمل هنا . والواقع أن السخرة لم تكن شيئاً جديداً في مصر ؛ مهما بدت من الغرابة في نظر الرحالة الأندلسي .

ولم يكتمل بناء القلعة إلا في عام ١٢٠٧ - ١٢٠٨ ، حينما كان الكامل ابن أخى صلاح الدين ملكاً . ولقد كانت هذه القلعة المقر الرئيسي والحصن المنيع لكل الحكام الذين تعاقبوا حتى عام ١٨٥٠ ، ومن ثم تناولها كثير من السلاطين المماليك بالتغيير والتوسيع ، وأخيراً عدل فيها محمد على باشا حتى لم يعد هناك فيها مسجد أو أى أثر لقصر يرجع تاريخه إلى عصر صلاح الدين الأيوبي . فالجامع القديم بناه الناصر في عام ١٣١٨ ، وأما المسجد الأكثر وضوحاً ذو المآذن التركية الرقيقة فقد بدأه محمد على باشا في عام ١٨٢٤ . و . قاعة يوسف ، التي يعتقد كثيرون أنها خاصة بصلاح الدين ، لم تكن سوى جانب من أحد قصور المماليك وكذلك الأبراج الداخلية ليست جديدة والباب الذى يفتح إلى الرميطة ، قد بنى في أواسط القرن الثامن عشر ولكن في الوقت نفسه لا يزال هناك كثير من بقايا المباني الأصلية إلى جانب بر السبع سقايات ، التي يبلغ عمقها مائتين وثمانين قدماً والتي كان حفرها قراقوش . ثم أن هناك جانباً كبيراً من أسوار صلاح الدين لا زالت على حالها ، ورغم ذلك يجب معرفة هندسة فن البناء لتمييز هذه الأسوار من تلك التي أضيفت عليها بعد ذلك ، كما أن هناك بعض الممرات الداخلية التي يرجع تاريخها إلى تاريخ وضع الأساس . والواقع أن الاستعمال السائد هناك هو للأبراج الدائرية والبارزة التي تطل على جانب كبير من السور ، وعدم وجود حجرات داخلية أو منافذ في الأسوار والفتحات المربعة ، يضاف إلى جانب ذلك بعض المميزات الخاصة في البناء . كل هذا يميّز لنا الثامن من البناء الأصلي القديم ، ويجعله أقرب إلى المدرسة الفرنسية السورية Franco-Syrian School منه إلى المدرسة البيزنطية Byzantine School ، في فن البناء .

وآخر الأعمال الدفاعية ذو قناطر الجيزة العظيمة على الشاطئ الغربي للنيل . ويصف لنا ابن جبير هذه القناطر فيقول : إنه كفخر وكميل خالد من شأنه أن يخدم حاجة المسلمين ، بدأ السلطان يبنى سداً عظيماً ذا قناطر إلى الجهة الغربية من

مصر ، وعلى بعد سبعة أميال منها . وهذه القناطر بمثابة نكالة للسد الذى يبدأ فى مواجهة مصر ويمتد على جانب النيل بحيث يشبه تلالا انبسطت عن الأرض ، والذى بعد أن تعبره تصل إلى القناطر التى تكمله بعد أن تكون قد قطعت ستة أميال . وهذه القناطر تكون من أربعين قنطرة من القناطر الكبيرة الحجم التى تستخدم فى الكبارى ، وتمتد اتجاه الدلتا التى تجرى بعد ذلك إلى الاسكندرية . وهى تعتبر عملا عجيبا لا يفكر فيه سوى ملك بعيد النظر ، بحيث يجعل منه تحصينا ضد الهجوم المفاجئ . لقدوا قادم من حدود الاسكندرية فى وقت الفيضان ، حيث تظنى المياه على الأرض فيصبح الطريق العاوى من المتعذر مرور القوات فيه . وهكذا فإن هذه القناطر تكون مرا يفيد جميع الحاجات المختلفة ^(١) . والفرض من هذا الدفاع واضح كل الوضوح ، ذلك أن صلاح الدين لم يكن قد نسى تاريخ الغزوات الفاطمية المتعاقبة من جهة ليبيا ، حينما لم يكن هناك ما يمنهم من التقدم للغزو ، ومن ثم وجدناه يتخذ الحيلة والحذر ويستعد لمثل هذا العدوان . ويذكر لنا ابن جبير أنه كانت هناك مخاوف من هجوم الـ Almohades الذين ، بعد أن أخضعوا جميع مراكش وجنوب أسبانيا - غزوا الجزائر وتونس وطرابلس فى عام ١١٥٨ ، حتى أصبحت النخوم التى وصل إليها قائدم المنتصر عبد المؤمن ، تحف بمحدود مصر الغربية . والواقع أن صلاح الدين أحسن باتخاذ الحيلة ، على الرغم من أنه لم يحدث ثمة غزو يهدده .

هذه الأعمال الدفاعية ضد الأعداء الخارجيين كان يصحبها فى الوقت نفسه اجراءات خاصة بأعمال أخرى تختص بالنظام الداخلى . ويجب ألا نفرض أن النظام الجديد قد لاقى شيئا من الصعوبة اعترضت سبيله ، وعلى الرغم من أن الناس كانوا على وجه العموم راضين عن حاكم مثل صلاح الدين الأيوبي أظهر كثيرا من الشهامة والكرم ، ولو أنه لم يكن من السهل قهره . إلا أن قتالين من الزمن لم يكن من السهل القضاء عليها فى يوم وليلة . فقد كان أنصار الدولة الفاطمية متعددين وذوى نشاط موفور . وقبل موت الخليفة الفاطمى العاضد ، حدثت هناك ثورة مروعة قامت بها القوات السود ، وأذكى نارها الخليفة نفسه ، ولم يكن من السهل على صلاح الدين أن يخمدها . وفى النهاية طرد السودانيون إلى الخليج وبدأ

(١) ابن جبير - طبعة Wright ص ٤٩ . المقرئى : المخطوط ج ٢ ص ١٥١ :

الذبح فيهم واستمر لمدة يومين . وكذلك حرق ذلك الجزء المسمى المنصورة — خارج باب زويلة — الذي كانوا يقيمون فيه ثكناتهم ، وتحول إلى حدائق ، بحيث أن صلاح الدين (بعد بضعة سنوات) حينما كان يركب من القصر إلى القلعة الجديدة كان يمر من بين الأشجار والزهور . وحينما كان يقف بجامع ابن طولون ، كان يستطيع أن يرى باب زويلة دون أية أبنية أخرى . وأعقب ذلك عدة مؤامرات أذكى نارها الفرنجة الذين هددوا الإسكندرية ، ومن ثم كان لابد من اتخاذ اجراءات شديدة قبل أن يشعر السلطان الجديد بأن سلطته في أمان . وطالما كانت هناك جهة قوية تعطف على أسرى الدولة التي تم سقوطها ، كان هناك خطر على الدوام .

ونستطيع أن ندرك مدى تحمس الشيعة وقتئذ من خلال المشهد الذي يصفه لنا الرحالة الأندلسي في الضريح الذي حفظ فيه رأس الشهيد حسين ، المسجد الذي يتأخم قصر الفاعلميين العظيم . فالرأس محفوظة في صندوق من الفضة مدفون تحت الأرض ، شيد فوقه بناء ضخيم يعجز عن تصويره كل وصف . فجدرانته موشاة بالديباج من مختلف الألوان ، كما يحيط به ما هو أشبه بأعمدة ضخمة بها مصابيح بيضاء ، ولو أن بعضها صغير الحجم ؛ وأغلبها بها شمعدانات من الفضة الخالصة أو مطلاة بالفضة . وإلى أعلى توجد مصابيح فضية مدلاة ، وجميع الجزء الذي فوق ذلك به مصابيح ذهبية مرتبة بشكل يشبه الروضة — الضريح الذي دفن فيه النبي في المدينة . والواقع أن الجبال والبهاء هناك ، مما يبهز الأنظار ؛ ذلك أنه يوجد هناك مختلف أنواع الرخام الملون على الطراز الموزايك mosaic الذي يفوق كل وصف ؛ كما أن كل من يحاول وصفه سوف ييؤ بالفشل . والداخل إلى ذلك الضريح يمر من خلال مسجد لا يقل عنه روعة وجمالا ؛ ذلك أن جميع جدرانته كانت موشاة بالرخام على النحو الذي تقدم . وإلى يمين الضريح (حيث توجد الرأس) وإلى يساره توجد حجرتان إذ تدخلهما تجد أنه ينطبق عليهما كل تفاصيل الوصف المتقدم . هنالك توجد ستائر موشاة على جميع الجوانب . غير أن أغرب الأشياء التي شاهدناها هناك كانت توجد عند مدخل الجامع ، ذلك أنه يوجد هناك حجر في الحائط الذي يواجه الداخل إلى المسجد . وهذا الحجر من السواد والطلاوة بحيث تنعكس عليه صورة الداخل بأكملها كما لو كانت تبدو على صقال مرآة من الصلب الهندي صقلت حديثاً . ولقد رأينا الناس يقبلون هذا الضريح

المقدس (حيث يوجد رأس الحسين) ويضمونه بأذرعهم ويخرون ساجدين أمامه ، ثم يضعون أيديهم فوق البساط الذى يغطى الضريح وهم يتزاحمون فوق بعضهم البعض ، ويلتفون حول البناء ، ويصلون ، ويكفون ، ويتضرعون إلى الله ، الذى له الحمد والشكر ، أن يبارك فى ذلك الضريح المقدس ، ويدلون أنفسهم أمامه بطريقة تشيع فى النفس الأسى وتملك شعور المتفرج ؛ وهذا أمر غريب ، ومشهد يبعث الفزع . ألا فليها لنا الله فرصة الاستفادة من البركات التى خصصت لذلك الضريح المقدس (١) .

ومثل هذه المظاهر التى يكتنفها الفرح والسرور يدلنا على أنه بعد اثنتى عشرة سنة بعد عزل آخر الخلفاء الفاطميين وموته ، كان التعصب الشيعى لا يزال قويا فى القاهرة . ولقد كانت سياسة صلاح الدين الأيوبي فى معاملته إزاء هذا المذهب ، تصطبغ بصبغة خاصة . فعلى الرغم من طبيعته السمحة الكريمة ، كانت له القدرة على الانضهاد الشديد ، وذلك من أجل التقوى وحفاظة على البر والصلاح . فالمسلم الصحيح - من معتنقى المذهب القديم - الذى تأثر إلى حد بعيد بالآراء القويمة فى الدين التى كان يتناقش فيها مع رجال الدين المتعصبين ، لم يكن ليتساهل مع المهرطقة والكفار . كما أن اضطهاد الأقباط المميب وتخريب كنائسهم عند قيامهم بحركة الإصلاح الدينى ، يدلنا فى جلاء على أن عظمة صلاح الدين الأيوبي لم تمتد إلى مسائل الدين . غير أنه فى حالة الشيعة ، وجد نفسه إزاء حركة أقوى وأخطر ، كان قد تم لها السيادة منذ قرنين من الزمن ، وهو لم يقابلها بالاضطهاد الصريح ، بل بدعاية مقابلة . ومن ثم كان ينبغى على الناس جميعاً فى القاهرة أن يتعلموا الدين الصحيح ، وحيث لا يكون ثمة خوف من المهرطقة . وعند ارتقائه الحكم ، لم يكن يوجد فى مصر معهد واحد لتعليم الدين الصحيح . وهكذا عمل صلاح الدين فى الحال على سد هذا النقص ، وبدأ ببنى تلك المدارس ، - أو المعاهد الدينية - التى أصبحت بعد ذلك الحين أهم ما تصطبغ به القاهرة فى مضمار البناء .

ففى عام ١١٧٦ . بنى أول مدرسة ، وجدت فى مصر . وكانت هذه المدرسة تتجاوز ضريح الامام الشافعى الذى أسس مدرسة المذهب القديم الذى اتسمى إليه معظم المسلمين من المصريين . وقد يكون الضريح لا يزال يزوره الكثيرون فى وسط

القبور جنوب القاهرة ؛ إلا أن المدرسة نفسها قد اختفت منذ أمد بعيد . ويصف لنا ابن جبير هذا الضريح في عام ١١٨٣ بأنه معبد نظم عظيم السعة ، متين البناء ، يقع في مواجهة المدرسة . وقد بلغ من كبره وكثرة إحاطة المباني به أن أصبح يشبه أكتاف مدينة بأسرها ، وبجذاته يوجد الحمام ، وجميع المسكاتب الأخرى اللازمة ، والبناء وملحقاته لا يزال يجرى فيها العمل بنفقات طائلة . ويشرف على ذلك الشيخ نجم الدين الحبشاني بنفسه بوصفه إمام المسجد ومن الرجال المثقفين الأتقياء . وقد عمل السلطان صلاح الدين الأيوبي على تزويد البناء بكل ما يحتاج إليه في كرم وسخاء ، وأمر بالاعتناء بالمباني وتجميلها . وبأن تدون له جميع النفقات . ولقد قابلنا الحبشاني هذا وكسبنا نعمة صلاته ووصلت شهرته إلينا حتى في الأندلس ولقد زرناه في مسجده وفي مسكنه الخاص داخل المنطقة ، وكان منزلاً صغيراً له فناء ضيق ، وهنا صلي من أجلاً حينما غادرنا المكان . والواقع أننا لم نجد له مثيلاً في مصر بأسرها (١) .

(١) ابن جبير - طبعة Wright ص ٤٤ - ٤٥ . هذا الرحالة القدير الذي ندين له بالكثير من الوصف الحاس بمصر صلاح الدين الأيوبي ، يعطينا وصفاً دقيقاً للترافة الكبيرة الموجودة جنوب القاهرة ، والتي تعتبر إحدى الأماكن القليلة التي تعود بنا إلى أيام الفتح العربي فهناك ترقد عظام معظم المحاربين الأوابين والشهداء ورجال الدين الذين كانوا ينتمون إلى مدينة الحنية (القضاة) ، على الرغم من أنه لا تميز قبورهم الآن غير الرواية وحدها . ومن الواضح أن التمييز في أيام ابن جبير كان يكتنفه الشك ، ذلك أنه يرفض أن يتحمل صحة مسؤولية ما نقله عن المؤرخين ، على الرغم من أنه يصرح لنا بأن صحة رواياتهم أبعد من أن يتسرب إليها الشك . ونحن لذاء تلك الروايات عن القابر مثل ضريح النبي صالح وضريح روبن بن يعقوب وضريح آسيا زوجة فرعون ؛ نجد وصفاً لمدافن أربع عشرة من خلفاء علي بن أبي طالب من الرجال ، وخسة من النساء ، وكل ضريح منها له حارس خاص به ووقف للاتفاق عليه ، ومن بين تلك الأضرحة ضريح زين العابدين - ابن الشهيد حسين - وزينب حفيده ، وأم كلثوم بنت الإمام السادس جعفر الصادق . كذلك كانت توجد أضرحة عقبية (حامل علم النبي) ، وأبو الحسن (صفيه الحاس) ، وسارية الجبل (الذي احتفل باسمه بأفانمة مسجد له في القلعة ، على الرغم من أنه لا يوجد هناك ما يربطه بمصر) ولدهي الخليفة أبو بكر الصديق وبنته ، وابن الزبير القائد أيام عمرو بن العاص ، وابن عبد الحكم ، والجلوهري ، هذا إلى جانب بعض الشواذ مثل الرجل الذي اشتهر بالأعاجيب حيث كان يذكر آيات القرآن وهو في قبره ، الذي ظل أربعين عاماً لا ينس بيت شقة ، والعروس التي ظهرت لها أعجوبة حينما رفقت الحجاب عن نفسها لزوجها . كذلك كان يوجد مكان الشهداء حيث كان يدفن المحاربون الذين سقطوا شهداء وهم يحاربون من أجل الإسلام بقيادة «سارية» وكان السهل مفتى في كل مكان يربي قبورهم . وجميع مباني الترافة ، سواء مساجد أو أضرحة ، تحتضن القرباء من الأهل والمثقفين والمستطعين على السواء =

وإلى جانب المدرسة الشافعية ، بنى صلاح الدين مدرسة قريبة من حصن العدو ، ضريح الحسين ، وحول قصر المأمون القديم إلى مدرسة سيف الدين لأصحاب المذهب الحنفي ، وبنى مدرسة أخرى للشافعيين ، وخامسة للبيكانيين في مصر . ونحن إذ نسجل أعمال صلاح الدين الخيرية يجب ألا يغرب عن بالنا ما بناه من مستشفيات . فكل منا يعرف المارستان أو مستشفى السلطان قلاوون المملوكي في سوق النحاسين ، غير أنه ليس من المعروف دائماً أن هذا البناء الإنساني كان قد فكر فيه صلاح الدين من قبل . وهنا يقول لنا ابن جبير :

ومن بين المنشآت الشهيرة التي شاهدناها لهذا السلطان ، المارستان (أو المستشفى) الذي يوجد في مدينة القاهرة . وهو واحد من القصور العظيمة هناك ؛ فهو فسيح ونخم . والشئ الوحيد الذي دفع السلطان إلى بناء هذا المستشفى الخيري ، أمله في أن يكتسب نعمة الله ، والثواب في العالم الآخر . ولقد عين له مديراً ، وهو رجل ذو علم موفور ، وضع تحت تصرفه كمية كبيرة من العقاقير ، ومنح سلطة مزج هذه العقاقير بعضها ببعض وفقاً للوصفات الطبية ، ووصفها ، وتوضيح استعمالها . وفي حجرات هذا القصر كانت توجد مضاجع يستعملها جماعة المرضى كأسرة ، وكل من هذه المضاجع كان مزوداً بملايس للنوم . وكان لدى المدير خدم يأترون بأمره ، من واجهم أن يستمروا عن صحة المرضى كل صباح ومساء ، وكان الطعام والدواء يعطى إلى المرضى بالنسبة إلى مراتبهم . وبإزاء هذا المارستان يوجد مستشفى آخر منفصل عنه ، ومخصص لمرضى النساء ، وكان لائق أيضاً من رعاها ، وفي ملاصقة هذين المستشفيات يوجد بناء آخر له فناء فسيح ، وتوجد به حجرات ذات قضبان حديدية تستخدم لإقامة المجانين ، وكذلك لفحص من يأتون لزيارتها كل يوم وتزويدهم بما يؤدي إلى تحسين حالتهم . ويفتش السلطان بنفسه على حالة هذه الأبنية المختلفة ، يحقق في كل شئ ، ويسأل عن كل شئ ، ويتأكد من أن العمل يسير على مايرام ، مهما كلفه هذا من جهد وعناء . كما أنه يوجد في مصر أيضاً مستشفى آخر على نفس نمط المستشفى الذي تقدم وصفه .

== ذلك أن كل بناء له رصيد خاص يدفع نصفه لمساعدة السلطان ، والنصف الآخر للمدارس القاهرة ومصر . ولقد قيل لنا إن مجموع تلك المنح كان يربو على ألفي دينار مصرياً كل شهر ، أي مايمثل أربعة آلاف دينار مراكشي . أما فيما يتعلق بجميع عمرو بن العاص العظام في مصر ، فقد قيل لنا إن نفقائه كانت تربو على ثلاثين ديناراً مصرياً كل يوم للحراس والقربين وغيرهم .

وبين مصر والقاهرة ، يوجد ذلك الجامع العظيم المسمى باسم منشة أحمد بن طولون ، والذي يعتبر أحد المساجد القديمة التي تقام فيها صلاة الجمعة . وهو رائع البناء ، عظيم الاتساع ، جعل منه السلطان في الوقت الحاضر مأوى للفرباء من البلاد الغربية ، حيث يمكنهم أن يقيموا ويعقدوا اجتماعاتهم ؛ كما أن السلطان قرر إعانات شهرية لهم . ومن أغرب المسائل التي وصلت إلى أسماعنا مارواه لنا أحد العارفين بالأمور من أن السلطان يسمح للفرباء بأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم تماماً ولا يفرض عليهم سلطته ؛ ذلك أنهم ينتخبون من بينهم حاكماً لهم يصدعون بأمره ويرضون بحكمه في كل ما يتعلق بأمورهم . فهم قوم يبحثون عن العيش في كنف الصلاح والسلام ، ولا ينشغلون إلا في عبادة الله . وهكذا . وعن طريق حظوتهم لدى السلطان . يكتسبون نعمة توصاهم إلى الصراط المستقيم . والواقع أنه لا يوجد جامع كبير أو صغير أو أى ضريح من الأضرحة المقامة فوق قبور الأولياء ، وكذلك لا يوجد معهد أو مدرسة ؛ إلا ونجده موضع رعاية السلطان . كما أن أموال الخزانة العامة تنفق بإشراف على كل من يتردد على هذه الأماكن أو يقطن فيها بحكم الضرورة ، وذلك سداً لحاجة المحتاجين .

وذلك البناء الذي أدخله صلاح الدين والذي يسمى « المدرسة » ، يعتبر فتحاً جديداً في عالم البناء في القاهرة ، حتى ذلك الوقت كانت المساجد ذات شكل واحد فحسب ، هو شكل الجامع (وسمى كذلك لأنه كان يجمع الناس في الاجتماعات العامة) حيث كانت تؤدي فيه صلاة الجمعة . وكان ذلك الجامع من الاتساع بحيث يسع جسم غفير من الناس ، فكان « الإيوان » يوجد في الطرف الشرقي ، ليستطيع لفيف كبير من المصلين أن يسجد هناك ومن فوقه ما ينظرون . أما إذا وجدت أعداد وفيرة . كما كان يحدث في بعض الأعياد والاحتفالات . فإن الفناء المكشوف العظيم كان يمكن عدد كبير من الناس أن يولي وجهه شطر القبلة . وأما الأروقة التي تحيط بالفناء ، فكان يستخدمها الأسانذة بمثابة فصول للدراسة ، وكأوى للفقراء والمتسولين . غير أن هذه الأروقة ليست جزءاً أساسياً في الجامع الذي كان الغرض منه . كما سبق أن رأينا من مدلول اسمه . عقد الاجتماعات للصلاة فحسب . وعند ما زار ابن جبير القاهرة لم تكن فيها سوى أربعة جوامع من هذا القليل ، وهي الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع ابن طولون ، وجامع عمرو بن العاص . أما المساجد القليلة الأخرى التي كانت توجد في ذلك الوقت . مثل مسجد الأقر ومسجد الصالح طلائع

واثنين أو ثلاثة غيرهما ، فقد لحقها الخراب ، ومع أنها كانت في شكل الجامع وكانت تستخدم في وقت من الأوقات للصلاة الجامعة ، إلا أن استخدامها قد بطل منذ وفاة مؤسسها أو لأى سبب آخر ، ومن ثم لم تصبح في عداد المساجد العصرية وقتئذ . ولقد كانت تبقى هناك جوامع جديدة على الدوام من آن إلى آخر ، كما سنرى في الفصل القادم . وكانت ولا تزال تعتبر على الدوام أهم المساجد في القاهرة ؛ إلا أنها على أى حال لم تكن النوع الوحيد من المساجد .

وكلمة « مسجد » نفسها تأتي في أصلها من الكلمة الإيطالية القديمة meschita (وبالأسبانية mesquita) التي تطورت فيما بعد فأصبحت moschea ، ومعناها «مكان للعبادة» ، ولكنها لا تدل على معنى الاجتماع . وكانت المساجد التي تعرف «بالجوامع» قليلة العدد نسبياً ، وكانت تلك التي تحمل هذا الاسم منها صغيرة الحجم تستخدم على وجه الخصوص للصلاة الخاصة (١) . وهناك اسم آخر يستخدم كثيراً وهو «زاوية» ومعناها الصحيح هو مدلول نفس هذه الكلمة ، أى زاوية . غير أننا لا نلصق فرقاً كبيراً عند استخدام كلمة «زاوية» للمسجد ، اللهم إذا كانت الزاوية التي تستخدم كاستراحة أو مكان لاجتماع الطلاب أو المتعبدين ، تدل على فرق بين الاثنين . والواقع أن المسجد والزاوية هي أبنية لا تتميز بشئ خاص نسبياً ، ونحن نشك كثيراً فيما إذا كان أى زائر عادي إلى القاهرة قد لاحظ شيئاً خاصاً في أى منهما ، اللهم كشيء يزين الزقاق الذي توجد فيه .

والواقع أن الأبنية التي تعرف والتي تسمى بالمساجد تعتبر «مدارس» بالمعنى الصحيح . وهي تشمل أحسن ما في المدينة من أبنية مشهورة ، مثل مساجد السلطان حسن ، وبرقوق ، وابن مظهر ، والناصر ، وقلاوون ، وما إلى ذلك ، وهي تختلف تماماً عن الجوامع ، سواء في الشكل أو في الغرض الذي أنشئت من أجله . ذلك

(١) يصف لنا القرزى تسعة عشر مسجداً فقط (بخلاف ما يوجد في القرافة «) ، إلى جانب ٨٧ جامعاً . ويبدو أن للمساجد التسعة عشر لم يكن لها شأن كبير ، وهي مما بناه الفاطميون أو الأيوبيون ، وتوجد خارج أبواب زويلة والنصر والفتنة والسعادة ، أو في حديقة كافور . ولو أنه كان يوجد ثلاثة منها فيما بين القصرين أو بالقرب منها إلا أن هذه المساجد لا يوجد لها أثر الآن ؛ فقد اختفت جميعاً . ويذكر لنا القرزى كذلك خمسة وعشرين «زاوية» وكلها «معاد» واحدة من بناء المماليك . وكان سبعة منها خارج باب النصر أو باب الفتوح ؛ وأربعة خارج أبواب أخرى مختلفة ؛ وخمسة عند القس أو بالقرب منها . وعلى الجملة فإنه يبدو لنا أن كلمة «مسجد» كانت تطلق أيام القرزى على أماكن العبادة القديمة الواقعة في الضواحي بينما «الزاوية» كانت تطلق على تلك الواقعة في الجهات البعيدة والخاصة بقرية المماليك .

أنها لم تستخدم لإقامة صلاة الجمعة لحسب ، بل كانت تبقى لغرض التثقيف الديني خاصة وكان هذا الغرض بطبيعة الحال له تأثير في تصميم شكل المسجد . فبدلاً من إقامة قنائه فسح مكشوف ؛ يستطيع أن يتجمع فيه جمهور كبير من المصلين في أيام الجمعة ، كان يوجد مربع في الوسط . وكان هذا المربع في معظم الحالات يغطي بسقف مكون من ألواح مطلية ؛ وربما كانت توجد هناك قبة صغيرة أو كوة في الوسط . أما الأجناب ، فبدلاً من أن تكون محاطة بأروقة طويلة ، كانت تتكون من أربعة أجنحة كل منها له قنطرة مرتفعة خاصة . والجناح الذي تجاه الشرق - الذي يكون الإيوان - أعظم من الأجنحة الثلاثة الباقية ، وبه محراب ومنبر وغير ذلك من مستلزمات الصلاة حيث كانت الصلاة تقام هناك ، وكل واحد من الأجنحة الأربعة كان في الأصل مخصصاً - أو على استعداد لأن يخصص - لواحدة من المدارس الأربعة القديمة ، أصحاب المذهب الشافعي والمذهب المالكي والمذهب الحنفي والمذهب الحنبلي وفي كل منها كنا نجد نجدة لقيفاً من الطلاب يتلقون تعليمهم على أيدي أستاذهم وفي أغلب الأحيان كان يوجد للطلاب والأساتذة مسكن خاص في المدرسة كما كان يوجد هناك قاعات للدرس ومكاتب ومعامل وغير ذلك من الأبنية الملحقة في الأماكن الواقعة بين الداخل الذي على شكل صليب ، والخارج الذي على شكل مربع .

تلك إذن كانت خطة صلاح الدين في مقاومة الهرطقة ، وهي بناء عدد من المدارس لتلقين الدين الصحيح ، وبطبيعة الحال كانت الدولة تتفق على تلك المدارس . ولم تكن تلك الفكرة خاصة ؛ إنما استمدتها من سوريا ، حيث كان يحرص نور الدين على بناء مثل تلك المدارس للحنفيين في دمشق وغيرها من المدن . وحتى نور الدين نفسه لم يفعل أكثر من أن حذا حذو السلطان ملكشاه السلجوقي العظيم ، الذي كان وزيره ، نظام الملك المشهور وصديق عمر الحيام ، قد بنى المدرسة النظامية في بغداد . ومهما يكن من أمر إدخال المدارس في مصر ، فإنه كان بمثابة انقلاب في الثقافة والبناء على السواء . فقد زالت وصمة الهرطقة من جبين مصر ، كما أخذت الثقافات المختلفة تندفق إلى القاهرة مرة أخرى من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، وذلك بفضل تلك المعاهد التي بنيت فيها . وكانت السلطة العليا في مصر أثناء غياب صلاح الدين الطويل في أيدي أخيه أو ابنه ، اللذين كانا يعملان بنصائح

القاضي الفاضل ، وهو عربي من أسكالون ، ورجل عاقل ذو ثقافة واسعة ، يتكلم دائماً بما ينم عن حكمة وعقل ، وبفضل تأثيره بدأ الطلاب الأجانب مرة أخرى يفدون على مساجد القاهرة . وبذلك ازدهر الإسلام في مصر . فقد كان الأساتذة من أقصى مدن بلاد فارس ، يقابلون رجال قرطبة المثقفين . ففي عام ١١٧٦ على سبيل المثال ، وصل هناك رجل أجنبي من أقصى استراليا ، وقد استهوته في الشرق حركة إحياء العلوم والثقافة . ذلك هو ابن فرو . Ibn Firro الذي كتب قصيدة رائعة مكونة من ١١٧٣ بيتاً وموضوعها الدروس المختلفة الموجودة في القرآن . وحسب ذلك الرجل علماً وثقافة أنه تمكن من وضع هذه المعجزة الثقافية . ومع ذلك ، فإنه حينما جاء موعد اللقاء بين الجمهور المحنشد من المستمعين ، لم تكن هناك كلمة واحدة لا تدل على معنى من المعاني . ومن ثم لم يكن من العجيب أن يسكنه القاضي الفاضل - رئيس القضاة وحاكم مصر في ظل صلاح الدين ، في منزله الخاص وبواريه التراب بعد موته في مقبرته . والواقع أن وجود مثل أولئك الفلاسفة كان من شأنه أن يخفف مما كان به الرؤساء من نهب وسلب . فقد كان كبار الرجال العسكريين في ذلك الوقت محبوبون بحالة ذوى الثقافة والفكر . وكان نور الدين يميل إلى مجالس المثقفين ؛ فكان الشعراء والأدباء يجتمعون في قصره كما أن صلاح الدين كان له شغف خاص في مناقشة رجال الدين والفقهاء (١) . ويقول لنا عبد اللطيف - طيب بغداد - إنه وجدده أميراً عظيماً يوحى مظهره لأول وهلة بالاحترام والحب . كما كان سهل المقابلة ، واسع الأفق ، لطيفاً ، حسن التفكير . كذلك يذكر لنا أنه وجدده عاهلاً بلفيف من رجال الفكر يتناقشون في شتى العلوم ، وكان هو ينصت إليهم في اهتمام ويتجاذب معهم أطراف الحديث . ويكفي صلاح الدين شهرة وإسماً أنه أدخل نظام المساجد المدرسية في القاهرة . حقيقة قد يكون التعليم في تلك المدارس في ذلك الوقت على نطاق ضيق ، إلا أنه على أي حال كان النظام السائد في العالم الإسلامي بأسره ، ومن ثم كان تطبيقه القاهرة مما جعلها في مصاف المراكز الإسلامية الشهيرة .

الباب السابع

بناة القباب

العادل سيف الدين - المجاعة العظمى - غزو الصليبيين - فردريك الثاني والكمال -
نظام المالك - شجرة الدر والمالك البحرية - حلة لويس التاسع - المالك الأتراك - حروبهم
ضد المغول - حروبهم ضد الفرنجة - إحياء الخلافة العباسية - بيرس - قصر المالك - طيش
الأمرأ - بيت قلاوون - الناصر - التسامح الديني بالنسبة للمسيحيين - التنصب المحبوب -
الفتى - الناصر وأبو القداء - الإنتاج القوي - مساجد الأمرأ - أسلوب المالك الأول في
البناء - السلطان حسن - مسجد السلطان حسن - المالك المراكية - الفساد - الحروب -
الذوق الرفي - فن البناء - فاينباي - مباني فاينباي - المساجد داخل الجدران - الوكالة -
مساجد الأمرأ والقاضي ابن مظهر - المدرسة الجديدة - مباني التوري - الفتح المثنائي .

أولا - المالك البحرية

لقد استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يرفع القاهرة مرة أخرى إلى مرتبة
العواصم العالمية الشهيرة وذلك بفضل تحصيناته لها من هجمات العدو ، وما شيده فيها
من أماكُن لنشر الدين والعلم ، حتى أصبحت حلقة ذات قيمة في سلسلة الثقافة
الإسلامية العظيمة . وليس ثمة ريب في أنه أضاف كثيراً إلى أعباء حكام مصر
المقبليين ومسئولياتهم ، حيث وجدوا أنفسهم أمام مشاكل وفصال وحرب مع
حكام مدن سوريا ممن لم يكن لهم شأن كبير ، أقرباء صلاح الدين ، وكذلك مع
فرنجة ساحل فلسطين الذين لم يكن قد فارقهم بعد حلمهم العزيز ، والذين كان يدور
بخلدهم وقتئذ أن الطريق الذي يؤدي إلى المدينة المقدسة - ولو أنه كان يبدو ملتويًا
- كان يمتد إلى مصر . ونحن لا يعني هنا عند التحدث عن تاريخ القاهرة أن نسرّد قصة
الحروب التي شنها العادل سيف الدين ، أخو صلاح الدين وصديق الملك ريتشارد
الذي قلده أحد أبناء سيف الدين القروسية المسيحية ، كما أن Humphrey of Toron
كان قد قلده لصلاح الدين نفسه . والواقع أن العادل بعد أن حكم امبراطورية
أخيه في عام ١٢٠٠ ، أثبت بحق أن فقدان البطل لم يذهب إلى غير رجعة . فلقد
خدم صلاح الدين بإخلاص كساعده الأيمن لمدة ربع قرن من الزمن . ولمدة ربع

قرن آخر وجدناه يقبض على زمام الاميراطورية التي لم يأل أقالبه جهوداً في العمل على تثبيتها وتقسيمها . ولقد استخدم القبطنة في إبقاء علاقته مع الفرنجة وذلك بتنازله عن اثنين من الموانئ في فلسطين . وكل عدااء حدث على الرغم من هذا التساهل ، لم يقال من مزاياه العالية مثقال ذرة . ولقد وصفه أحد معارفه بأنه رجل كثير الخبرة ، واسع المعرفة ، بعيد النظر ، قوى البنية ، عالى النفس ، في وسعه أن يأكل حلاً بأكله في وجبة واحدة . ويذكر لنا أحد الشعراء العرب المعاصرين نشاطه وسيطرته على جميع أنحاء مستعمراته الواسعة .

ومهما يكن من أمر نيقظه ، فإنه لم يستطع أن يدرأ عن البلاد تلك الكارثة التي طالما هددت مصر في العصر الوسيط - ألا وهو نقص الفيضان وما كان يصحبه من وباء وفساد ومجاعة . ولقد حدث ذلك في عام ١٢٠١ ثم تكرر حدوثه في عام ١٢٠٢ ، وكانت النتائج التي تمنحس عنها وخيمة إلى حد بعيد . ولدينا رواية شاهد عيان تنطوى على صورة صادقة لما كان في ذلك العهد من رعب وفرع .

دون عبد اللطيف - طبيب بغداد الذي عاش في القاهرة لمدة عشر سنوات (١١٩٤ - ١٢٠٤) ، واستمع إلى محاضرات الأساتذة في جامع الأزهر - ما صعب المجاعة من أحداث مروعة . فلقد بلغ من عظم النكبة أن كان السكان يرحلون جماعات عن الأحياء والقرى التي أصبحت خاوية منهم ، أما أولئك الذين بقوا حيث كانوا ، فقد كانت تواجههم أخطار لا طاعة لهم بها . وكان من المألوف أن يأكل الناس اللحوم البشرية ، وحتى الآباء كانوا يذبحون أبناءهم ويطهونهم ، ولقد وجدت امرأة وهي تأكل لحم زوجها نيئاً . وكان الرجال يكتمون للنساء في الشوارع ليستولوا على أطفالهن ، بل إن الناس كانوا يتشبشون القبور بحثاً وراء الطعام . وكان كل هذا يحدث في مصر من أقصاها إلى أقصاها ، فقد أصبحت الطرقات مكدسة بالموتى ، وساد القتل والسرقة دون حساب ، وسارت النساء في طريق الفجوة والضللال وراء الأشرار الذين عمل اليأس والفوضى على فسادهم . وكانت الفتيات الأحرار يبعن بما يوازي خمسة شلنات للواحدة ، كما أن كثيراً من النساء جئن يتوسلن لكي تباع الواحدة منهن مع العبيد حتى لانهلك جوعاً . وكان الثور يباع بسبعين ديناراً والمذ^(١) من القمح بأكثر من عشرة شلنات . وكانت

الجلد تبق غير مدفونة في الشوارع والمنازل ، مما أدى إلى انتشار طاعون مخيف في أنحاء الدنيا . وفي البرية وفي الطرق الزراعية ، كانت العقبان والضباع وبنات آوى تتمقب طريق الموت . وكان الرجال يخرون صرعى بجوار المحراث بفعل الوباء . ولقد حدث في يوم واحد في الإسكندرية أن أدى أحد الأئمة صلاة الموت لأكثر من سبعمائة شخص ؛ كما أنه حدث في شهر واحد أن جاءت إحدى الثروات لأربعين وريراً على التوالى . ولقد نقصت قيمة الأملاك إلى حد عجيب ، ونظراً لتناقص عدد السكان ، انخفضت إيجارات المنازل في القاهرة إلى سبع ما كانت عليه . وكانت أثاثات القصور وتحفه تكسر لتوقد بها الأفران . هذا إلى أن الزلازل العنيفة التي كانت تهدد سوريا وشمالاً حتى أرمينيا ، أخذت تهدم عدداً لا حصر له من المنازل ، وتخرب مدناً بأسرها ، فزيد بذلك من هول البلاء .

ثم أن غزو جان دى برين الذى استولى على دمياط ، جعل مصر في قلق وجزع مدة ثلاثة أعوام (١٢١٨ - ١٢٢١) . غير أن العادل - الذى توفى في أوائل ذلك الضيق - خلف من بعده ابنأ كفتأ ، هو الكامل . فلقد رحل الصليبيون يمحرون أذيال العار ، وعند ما أتى الإمبراطور فردريك الثانى بنفسه حاملاً الصليب إلى فلسطين ، لم يكتف السلطان الماقل بأن سمح للإمبراطور بتتويج نفسه في بيت المقدس دون أى نضال ، بل عقد محالفة دفاعية مع فردريك ضد الفرنجة في سوريا (١٢٢٩) . ولقد سلت المدينة المقدسة والطريق المؤدى إليها إلى المسيحيين ؛ غير أن المسلمين احتفظوا بجامع عمرو المقدس وما يحيط به ؛ وهو كل ما كانوا يهتمون به . وقد كانت المعاهدة المتقدمة الذكر هى أغرب ما تم بين قوتين مسيحية وإسلامية . غير أنه يجب ألا يغرب عن بالنا في الوقت نفسه أن البابا أطلق على فردريك بأنه من أتباع محمد ، وأن مراسلات الإمبراطور مع الفيلسوف العربى ابن سبعين والمناقشات الميتافيزيقية التي تمت بينه وبين سفراء الكامل - كلها تدل على وجهات نظر متساهلة ، جلبت خطراً داهماً للقوم الوجليلن المتزعزين . وكان الكتاب العرب يعجبون كثيراً بفردريك ويشيدون به ؛ أما الكامل فقد أثبت بحق أنه واسع العقل ، إذ رحب برسول الإمبراطور - الأسقف برنارد - في القاهرة ، وأطلق سراح المسجونين الذين أسروا في حملة الأطفال الصليبية ، وبذلك سار وفقاً للمعاهدة . وليس من العجيب بعد ذلك أن ينظر إليه أفاضل القوم من المسلمين ، نظرة أسقف روما

للإمبراطور . ومهما يكن من شيء ، فإنهم كانوا مخطئين ، ذلك أن الكامل كان مسلماً صادقاً ، ولم يتعامل مع رئيس المسيحيين إلا لتحقيق السلام . ثم إن المعهد الذى بناه ودار الحديث ، أو الكاملية ، والذى لا تزال توجد بعض آثاره فيما بين القصرين ، يشهد على مبلغ غيرته على الإسلام واهتمامه به . ولطالما كانت عقلية والده الجبارة تشرق فى ذهن الابن حينما كان يشترك فى اجتماعات العلماء فى قصره مساء كل خميس . هذا إلى أن القاهرة تدين له بإتمام القلعة التى اتخذها مقراً لنفسه . كذلك تحسنت مصر من الناحية الزراعية ، بفضل إشرافه الدائم على شئونها ، وحفره الترع وإقامة السدود أكثر مما كان يقام من قبل .

وكانت الخطة الجديدة التى انتهجها الأيوبيون من خلفاء صلاح الدين ، قد أوجدت شيئاً آخر إلى جانب نظام الحكم وإحياء العلوم والثقافات القديمة ، هو نظام الإقطاع الذى ساد مصر - لحسن حفظها أو لبيوتها لمدة ستمائة عاماً ، بما كان له أثر ظاهر فى الحياة الاجتماعية ، وفى الفنون والآداب والنواحي المادية فى القاهرة . ويمكن القول بأن فترة المماليك بدأت بصلاح الدين . وفى الواقع كان يوجد هناك مماليك - أى أرقاء بيض - منذ أمد بعيد ، وأن كثيراً منهم قد أصبح لهم شأن كبير . فابن طولون - أو على الأقل أبوه - كان مملوكاً ، كما أن كثيراً من الحكام الذين جاؤوا بعد ذلك ينتمون إلى نفس طبقة العبيد المتبردين سواء الأتراك منهم أو اليونان - من آسيا الصغرى أو من التركستان . ولقد استطاع العبيد فى عهد الخلفاء الفاطميين أن يرتفعوا إلى أسنى الدرجات . فقد كان جوهر - مؤسس القاهرة - من اليونانيين أو السلافة - ولو أننا لا نستطيع أن نذكر من أيهما كان على وجه التحديد . كذلك رأينا كيف أن العبد الأرمنى بدر ، قد أصبح فى الواقع سيداً لمصر ، فليس الرق فى الشرق إذن من العار فى شيء ، بل على العكس من ذلك نجد القرابة تطنى وتسمو على مجرد الخدمة المأجورة . ذلك أن العبد كان يعتبر فى العادة كأحد الأبناء . ونحن نجد مثالا لطيفاً لهذا الشعور يتجلى فى وصية العار التى انطبعت على جبين الأمير المشهور توزون فى القرن الرابع عشر ، حينما لم يحالفه الحظ ليصبح عبداً ، شأنه شأن سائر القوم فى ذلك الوقت . ولقد كانت جيوش الفاطميين حافلة بمثل هؤلاء المماليك ممن أحرزوا جاهاً وثروة . غير أن هذا النظام أو المذهب لم يكن قد وصل إلى الكمال الذى نجده

في عهد خلفاء صلاح الدين . ولقد ترعرع بطل الإسلام الأعظم في كنف النظام المملوك ، كما وضعه السلاجقة وأتباعهم ، ممن كانت تركز قوتهم على أساس عسكري مكون من قوات مأجورة أو مشتراة ، تدفع لها رواتبها من مستغلات الإقطاعات والأراضي والقصور والمدن ، أو حتى الإيالات بأجمعها . وكانت هذه القوات تقوم على أساس نظام عسكري بالغ الصرامة . وكان الكبار من أصحاب الإقطاعات يؤجرون جانباً من إقطاعاتهم لأتباعهم الأقل شأنًا ، الذين كان عليهم أن يحضروا عدداً معيناً من الرجال لسيدهم . كما أن هذا السيد بدوره كان عليه أن يحضر جنوده لمساعدة السلطان في حروبه . وكان هذا النظام سائداً في جميع الإيالات التي يحكمها ضباط إمبراطورية السلاجقة . ولقد عمل نور الدين ، الذي كان من الضباط السلاجقة ، على إدخال هذا النظام في سوريا ، كما أن صلاح الدين - الذي تدرّب في ظل نور الدين - أوجده في مصر ، حيث كانت الأراضي والقرى تقسم على قواد جيوشه الذين كانوا يعيشون فيها في الشتاء ، فإذا ما أقبل فصل الصيف ، موسم الحرب في ذلك الوقت ، ساروا على رأس أتباعهم ليلحقوا بسيدهم الأعظم .

ونحن نجد أن نظام الإقطاع هذا كان سائداً في مصر منذ وصول صلاح الدين وجنوده الأتراك ، حتى تولى محمد على باشا الحكم في القرن التاسع عشر . وقد تجلّت سيادته في القاهرة حينما كون العادل - حفيد الصالح - كتيبة مختارة من المماليك في القصر الجديد والشكنات التي بناها فوق جزيرة الروضة في مواجهة مدينة مصر . ومن موقع هذه الشكنات على النهر (البحر) ، عرف أولئك المماليك باسم المماليك النيلية ، أو المماليك البحرية . ولقد كانت بسالتهم الرائعة في موقعة المنصورة ، بقيادة بيبرس ، حداثاً فاصلاً في مصير حرب لويس التاسع الصليبية . ومن ذلك الحين أخذوا يحكمون مصر لمدة قرن ونصف . وعلى الرغم من الفوضى والاستبداد والجور والدسائس والمذابح - مما كان سائداً في ذلك الوقت - فإن حكم المماليك البحرية يعد من أروع الصفحات التي سجلها تاريخ القاهرة . ويجب ألا يغرب عن بالنا أن انتصارهم الباهر في موقعة المنصورة لم يكن بالشئ اليسير ، إذ كانت تحكّمهم في ذلك الوقت امرأة . ونحن نعلم أن التاريخ الإسلامي لا يشتمل على ملكات إلا فيما ندر ، ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم وقف ضد ذلك الأمر . غير أنه من بين النساء

المسلمات الثلاث أو الأربع اللاتي ارتقين على العرش ، كانت الملكة وشجرة الدر تحتل المكانة الأولى . ولم تكن شجرة الدر هذه سوى واحدة من العبيد . ولقد مات سيدها وزوجها الصالح - حميد العادل - أثناء الحرب مع الصليبيين ، ومن ثم هبت هي في الحال للقيادة ، وجعلت من خبر موت السلطان سراً مطوياً حتى يحضر ابنه من أقصى الإمبراطورية . وهكذا أمسكت زمام الحكومة ، ونظمت الدفاع ، وأصدرت أوامرها إلى القواد والحكام الخاضعين لها ، وبذلك استطاعت بفضل شجاعتها وفائق ذكائها أن تسيطر على الدولة كلها . وعندما حضر الوريث في عام ١٢٥٠ تخلت عن نيابتها للملك . غير أنه حينما قام المماليك الحانقون على الوريث القاسى وقتلوه - وكان ذلك بعد شهرين تقريباً - استعادت شجرة الدر سلطاناً . ويمكن القول إن القديس لويس يدين بحياته إلى كرم أخلاق الملكة وشهامتها لقبول الفدية منه .



جزيرة الروضة

كانت شجرة الدر ذات صفات عظيمة ، تحمل لقباً انتقل إليها بولادتها ابناً للسلطان الأيوبي الراحل . ولقد مات الطفل ، ولكنها حكمت بعد ذلك باسم

الأمومة . وكانت امضاؤها ونقودها^(١) تحمل صفوها من الألقاب النسائية : آخرها :
« والدة الملك المتصر خليل » .

إلا أن شجرة الدر لم تترك لتحكم بمفردها طويلا ، ذلك أن فكرة تولي النساء
العرش كانت أكثر من أن يحتملها تحيز المسلمين وتعاملهم . وهنا تدخل خليفة
بغداد في الأمر بكل ما أوتي من قوة وسلطان . فقد كتب إلى أمراء القاهرة يقول :
« إذا كانت الرجال قد عدت عندكم ، فأعلمونا حتى نسير إليكم رجلا ، . ومن ثم
تزوج القائد وأبيك ، الملكة شجرة الدر ، وعين . باعتباره من أقارب صلاح الدين .
سلطانا يرعى شئون الدولة الراحلة . إلا أن شجرة الدر استمرت تحكم بالفعل ، إذ
وضعت يدها على الخزينة ، كما أنه من الواضح أنها لم تكن تعامل زوجها الجديد
بالاحترام الواجب . والواقع أنها لم تكن بأكثر من امرأة ، فقد انتابها الغيرة
وجعلته يطلق زوجة أخرى . كما أنه حينما سولت له نفسه الاقتران بإحدى أميرات
الموصل ، استسلمت الملكة بأذى الأمر وطوت الخبر على حقد مرير . غير أنها لم
تلبث أن استدرجته بكلماتها المعسولة إلى القلعة ، وهناك مات أليك على يد غلمانها
في الحمام ، وكان ذلك في عام ١٢٥٧ . وكان جزاؤها على تلك الفعلة الشنعاء سريعا
ورادعا ، فبعد ثلاثة أيام كان كل شيء قد انتهى . ذلك أن المماليك وضعوها في
البرج الأحمر حيث أخذت تسحق مجوهراتها وحليها في هاون حتى لا تترين بها امرأة
أخرى من بعدها . وكان الحقد وهي تقوم بذلك العمل يمزق قواها تمزيقا . ثم
سبقت أمام الزوجة التي أكرمت أليك على تطليقها ، وما لبثت أن لقيت مصرعها
بقباقيب النساء . وقد بقيت جثتها في صحن القلعة بضعة أيام حتى تكون عبرة لمن
يعتبر ، إلى أن جاء أخيرا بعض السامريين وتولوا دفنها . ويمكن مشاهدة قبرها الذي
مازال قائما بجوار ضريح «الست نفيسة» ، ولقد قام أحد أفاضل القوم فغطاه بقماش
مكتوب عليه اسم شجرة الدر بالذهب .

(١) العملة التي تحمل اسم شجرة الدر توجد في المتحف البريطاني . (أنظر كتاب المؤلف
Catalogue of Oriental Coins الفصل الرابع ص ١٣٦) . وكان لقب شجرة الدر هو
« إسمات الدين » وكانت تكتب « بالسلطان » ، وذلك لأن «سلطنة» ليس لها عمليا .

وهنا بدأ حكم الممالك البحرية خالصا دون أن تشوبه شائبة ، بسطان من بيت صلاح الدين ، ولو أنه في الوقت نفسه لم يسلم من المعارضة والدسائس من جانب أفراد الأسرة في سوريا ، ولا من العداء من جانب عرب مصر الذين قاموا بحركة وطنية ، ولكن لم يلبثوا أن سكتوا حينما استخدمت معهم القسوة والقوة . والواقع أن القائمة المجردة التي تدلنا على الثلاث عشرين سلطانا من الممالك البحرية - وجميعهم من الأتراك وأغلبهم من الففجاق الذين خلفوا أبيك ، وحكموا من عام ١٢٥٧ إلى عام ١٣٨٢ - قد تفضلنا ما لم نضع نصب أعيننا الظروف التي أحاطت بحكمهم . ومن بين الثلاث والعشرين هؤلاء ، لا يوجد سوى أربعة فقط حكموا فترة طويلة . فجموع الفترات التي حكمها بيرس ، و ، قلاوون ، و ، الناصر ، و ، حسن ، تبلغ أكثر من نصف مجموع الفترات التي حكمها الثلاث والعشرون سلطانا . ولم يكن السلطان في الواقع بأكثر من ملوك كبير المقام ينتخبه وقفاؤه ، وكان يشعر الواحد منهم بأنه ند له . مثال ذلك حينما انتخب لاجين سلطانا نتيجة دسيسة الأمراء ، سار هؤلاء في ركابه وأقسموا له بيمين الطاعة والولاء . غير أنهم في الوقت نفسه جعلوه يقسم ، ثم يعيد القسم ، بأنه سوف يكون واحدا منهم ، لا يعمل شيئا دون أن يستشيرهم ، ولا يؤثر بماليكه دونهم . وحينما عاد لحث في يمينه وخص بعضهم دون البعض الآخر ، لم يكن نصيبه سوى الاغتيال من هؤلاء الأمراء الذين أردوه قتيلا . والواقع أنه لم يكن ليصمد طويلا في ذلك المنصب الخطير سوى الأقوياء وحدهم . ولعل بعض الفضل في بقاء بيرس طويلا في منصبه ، يرجع إلى تلك الحروب الرائعة التي قام بها في سوريا . وحينما أطاح القدر بحياة هذا الرجل القوي ، كان على ابنه أن يعتلي العرش سدا للثلمة التي حدثت ، بينما أخذ الأمراء المتنافسون يتبارون في إظهار قوتهم ، ويعقدون الاجتماعات ، ويستميلون خصومهم . وهنا يتقدم أكثرهم قوة - أو أكثرهم سياسة ودهاء - ليعتلي العرش ويحتفظ به على قدر استطاعته ، ثم تمضي السنون تترى ، وتظهر المشكلة من جديد ، وهكذا دواليك .

ولا يخفى أنه يجب علينا أن نوفي الممالك حقهم كجنود أكفاء . فقد كان عليهم أن يواجهوا أربع مرات أبشع الغارات ، التي شنها عليهم قبائل المغول بقيادة خلفاء جنكيزخان ، وكانوا في كل مرة يردونهم على أعقابهم . وكان قطر أشدهم بأسا في القتال . وكان رسل هولاكو من المغول يفدون على القاهرة ، يلتمسون الإذعان

والتسليم في خضوع تام . إلا أن قطز قطع دءوسهم وعلقها فوق باب زويلة ، ثم تقدم إلى سوريا حيث هزم المغول هزيمة ساحقة عند عين جالوت في عام ١٢٦٠ ، فخلص منهم البلاد . كما أن ديبيرس ، عبر نهر الفرات عائداً على رأس قواته وهزم المغول في بيرا عام ١٢٧٣ ، ثم اتجه إلى الغرب حيث قتل سبعة آلاف رجل من الاعداء في أبلستين وارتنى عرش السلاجقة الذي اغتصبه المغول ، وذلك في *Caesarea of Cappadocia* . أما قلاوون ، فقد رد غزواً آخر في عام ١٢٨١ ، واستطاع بفضل سيطرته وسلطانه أن يحشد الحراس من الممالك ، وكذلك الأتراك ويبدو الصحراء ، وعرب الفرات والحجاز . وكان يشد أزر هؤلاء جميعاً جنود حماة ، المحنكين (وكان لا يزال يوجد في حماة ، أحد الأمراء من عائلة صلاح الدين) ، وبذلك أحرز السلطان نصراً مبيناً في إمساك حيث خاض جيشه غمار معركة حاسمة ، وهكذا حرر سوريا مرة أخرى من جشع المغول . غير أن هؤلاء ما لبثوا أن عادوا أثناء حكم ابنه ، الناصر ، ولكن الجيش المصري اتخذ هذه المرة في معركة *Treasurer's Ghyll* بالقرب من *Emesa* عام ١٢٩٩ . وقد سقطت مدينة دمشق ، وظهر في القاهرة رسل المغول ، كي يعملوا على أن يذعن السلطان . إلا أن الممالك على الرغم من هذا لم يفقدوا روحهم المعنوية ، فقد كان صناع الأسلحة في القاهرة يقومون بعملهم في جد ونشاط ، وكان المجندون يفدون جماعات من كل حذب وصوب . وقد بلغ من شدة الحاجة إلى الجياد أن ارتفع ثمن الواحد منها طرفة واحدة من اثني عشرة جنيهاً إلى أربعين جنيهاً . أما سوريا فكانت تخيم عليها سحابة من الرعب ، عقب ما خلفه فيها المغول من فوضى ومجون . إلا أن كبار الأمراء ، ديبيرس الجاشنكير ورؤساء الممالك الآخرين ، ركبوا في كبرياء في طريقهم إلى النصر . وهكذا تقابل الجيشان المتعاديان مرة أخرى . وفي السهل المسوى د مرج الصفر ، عام ١٣٠٣ ، والبرة الرابعة والأخيرة ، هزم المغول وطردوا من سوريا . ولقد عاد الناصر إلى القاهرة متوجاً بإكليل من المجد والفخر . وكان الرسل قد أذاعوا الأنباء ، وأخذ الأمراء يتنافسون فيما بينهم على إقامة السراقات والحيام النفيسة على جانبي الطريق الذي سيمر فيه الموكب . وكان محرماتاً على العمال في ذلك الوقت أن يقوموا بأي عمل آخر سوى تشييد تلك الزينات الفاخرة . وأجرت الحجلات التي على جانبي الطريق ،

حتى تراوح إيجار الحجرة الواحدة منها بين جنين وأربع جنين في ذلك اليوم ، وقد بسطت الطنافس الحربية على طول الطريق ، وأخذ السلطان الفخوري بمر بركابه بين الزينات الرائعة وبأخذه العجب مما أقامه الأمراء ، بينما سارت جماعات الأسرى من المغول ، كل أسير منها يحمل رأس زميل له من المغول مربوطة في عنقه وتدلى منه ، حتى تم بذلك بهجة النصر . وكانت الأصوات والحنافات تنبعث في كل مكان وأنغام الموسيقى وفرع الطبول يصم الأذان .

ولم يكن المغول وحدهم هم الذين لقوا الأمرين ولمسوا شدة بأس المالبك . فيبرس الأول وهو تركي أزرق العينين من القيقاق أصابه مرض في عينيه ، فاضطر إلى الزواج إلى سوق الرقيق مقابل عشرين جنياً . وعلى الرغم من نشأته المتواضعة ، كان له من الشجاعة والحماس ما جعله يطمع في أن يصبح يوماً مثل صلاح الدين . ومن ثم وجدناه يقوم بالحرب المقدسة لمدة عشر سنوات في فلسطين ، حيث كان يميل الفرنجة إلى التحالف مع المغول . ولقد استولى على كل من قيصرية وأرسوف في عام ١٢٦٥ بعد أن أحاطها أطلالا دارة ، ثم جر حاتهما إلى القاهرة بعد ما لحقهم من خزي وعار ، وهناك استعرضهم وهم يحملون الأعلام المنكسة والصليبان المكسورة . وعلى الرغم من أن بيت المقدس كانت قد استردت من المسيحيين قبل ذلك بعشرين عاماً ، فإن آثار الحرب الصليبية كانت لا تزال تفتقر تحت الرماد على الساحل وفي بعض الحصون الداخلية . ولقد عقد يبرس العزم أن يخذل آخر جذوة هناك : ففي عام ١٢٦٨ سقطت يافا ، ثم استسلمت بلقورت ، أما أنطاكية العاصمة المسيحية لشمال سوريا فقد حوصرت وأحرقت عن آخرها ، وبعد ذلك بثلاث سنوات سقطت قلعة فرسان المعبد العظيمة ونكست عليها ، وقدد الفرسان الجرمان (١) ، وحتى جزيرة قبرص التي كان يستورد منها الفرنجة مؤنهم قد غزاها أسطول المالبك ، وقد تم الاستيلاء على الحصون الموجودة في الجبال وتجريدها من السلاح . وقبل أن يلقى يبرس حتفه ، كانت أوامره تظاع من بيراموس Pyramus ونهر القرات حتى جنوب بلاد العرب والشلال الرابع

(١) تم كسر شوكة الصليبيين حينما هزم « قلاوون » « مارجات » وطرابلس ، وحينما حاصر « خليل » مدينة عكا في عام ١٢٩٢ ، أما المدن القليلة الباقية فقد سقطت بعد ذلك مباشرة . وبذلك عفا كل أثر للصليبيين هناك .

للنيل . كما أن المدن المقدسة : مكة ، والمدينة ، وبيت المقدس ، كانت ملكاً له . كذلك استولى على ميثاقى وسواكن ، و « أبدهاب » ، Aydhab على البحر الأحمر . وكان عرب الصحراء جميعاً طوع أمره ، كما أن رؤساء المغاربة كانوا يدفعون له جزية . وكان الخان الأعظم Ilkhan للقبيلة الذهبية Golden Horde على نهر القولجا حليفاً له ، وقد أرسل إليه ابنته لتكون زوجة له . فعلى الرغم من أن « بركة خان » كان مغولياً ، إلا أنه كان عدواً قديماً للغول فى بلاد فارس وهم الذين كانوا قد انتشروا فى سوريا ، كما أن السفارات قد تبودلت مع الإمبراطور الشرقى الذى سمح بإعادة بناء أحد المساجد فى القسطنطينية ، بينما زوّده ببيرس بأحد البطاريك كذالك كانت هناك ثمة علاقات سياسية وتجارية مع كل من Manfred of Sicily و Charles of Anjou و Alfonso of Seville و James of Aragon . ولكن يتوج بيبرس انتصاراته هذه بأكليل من الفار ، عمل على إحياء الخلافة العباسية القديمة التى أسقطها المغول فى بغداد عام ١٢٥٨ . ومن ثم أحضر إلى القاهرة رجلاً من سلالة الخليفة العباسى ، حيث أسكنه فى القلعة تحوطه الأبنية والجلال ، وبذلك جعله الخليفة الشرعى الأعلى للإسلام . وقد مثل هذا بين يدى الخليفة فى خضوع حيث تسلم الرداء الأرجوانى والمهامة السوداء والسلسلة الذهبية والخاتم الذى كان يرمز لسلطان فقره القوة الروحية . ومنذ ذلك الوقت أصبح يوجد فى القاهرة خليفة - على الرغم من أنه كان العربى فى يد السلطان - حتى جاء الغزو العثمانى واتخذ السلاطنة الأتراك الخلافة فى عام ١٥٣٨ (١) .

ولم يكن بيبرس جندياً محنكاً وسياسياً ماهراً بحسب ، بل كان قادراً على إدارة شئون البلاد فى قوة وحزم ، وفى عهده تمت السيطرة على الأراضى المقدسة ، ولم يكن مجهوده فى ذلك خافياً . وكان يبدو وكأنه فى عدة أماكن فى وقت واحد ، ذلك أن رحلاته كانت سرية وحثيثة . ومن الحيل المحيية إليه أنه كان يظل مخفياً فى القلعة لبضعة أيام يراقب أعمال نوابه ، فى الوقت الذى كان يسود فيه اعتقاد جازم بأنه قد سافر إلى سوريا . ولقد أمضى الجانب الأكبر من حكمه فى حروب خارج مصر ،

(١) اكتشف ا. ت. روجرز بك E. T. Rogers Bey فى عام ١٨٨٣ مقبرتين لإثنين من خلفاء عصر العباسيين وبعض آثارهم ، وذلك بالقرب من مسجد السيدة نفيسة فى الجانب الجنوبي من القاهرة .

ولكنه كان يمضى شهور الشتاء في القاهرة عادة ، بينما كانت قواته تبقى حيث هي ، إذ كان يعوق سيرها الثلج والمطر . وكان ينتهز تلك الفترات ليقوم بإصلاح البلاد وعاصمتها . ولم يكن شغفه بالشئون العامة يتجلى فقط في بناء المساجد والمدارس وإحيائها ، أو إعادة بناء وقاعة العدل ، عند سفح القلعة . فقد عمل على توسيع قنوات الري القديمة وحفر أخرى جديدة ، كما مد الطرق ، وبني الكبارى ، وحصن مدينة الإسكندرية وأصلح المنارة . كذلك عمل على حماية مصب النيل من خطر الغزو الأجني ، وأحيا الأسطول المصرى بأن بنى أربعين سفينة حربية . وكان عدد قواته المنظمة اثني عشر ألفاً ، وهذا بطبيعة الحال عدا الجنود المصريين والعرب والجند المؤقتة . ومن الطبيعي أن نفقات الحرب الطائلة هذه ، كانت تقتضى منه جمع ضرائب باهظة . وعلى الرغم من أنه حينما تولى الحكم أراد أن يحجب الناس فيه ، فعمل على تخفيض الضرائب التى فرضها فطر إلى ستائة ألف دينار في السنة ، إلا أنه وجد نفسه مضطراً في نهاية الأمر إلى مواجهة نفقات حروبه بفرض ضرائب ثقيلة . ومع ذلك فتحن كثيراً ما نقرأ عن إلغاء ضرائب قديمة أكثر مما نقرأ عن فرض ضرائب جديدة ، كما أن خزينة الدولة لم تكن تملؤها ضرائب مصر مثلاً كانت تملؤها العطايا من البلدان المهزومة وأنحاء سوريا ، وكذلك الجزية من الأقطار التابعة ، ثم رسوم الجمارك من الموانئ .

وكانت حكومته مستنيرة ، عادلة ، حازمة . فلقد واجه مجاعة عام ١٢٦٤ القاسية باستعداد سريع ينطوى على كثير من التعقل والكرم ؛ ذلك أنه نظم مكبال القمح وعمل - وأرغم الأمراء والضباط أن يعملوا معه - على إيجاد ما يكفى المعوزين من القوت لمدة ثلاثة أشهر . كما أنه لم يسمح للخمر (على الرغم من أن الضرائب المفروضة عليها كانت تصل إلى ستة آلاف دينار في العام) ولا للجنة أو الحشيش بالدخول في مستعمراته ، كذلك حاول أن يستأصل شأفة الأمراض المعدية بواسطة الطرق العلوية . وكان بالغ الصرامة فيما يختص بأخلاق رعاياه ، إذ أغلق الخانات والمراخير وأقصى النساء الأوربيات عن المدينة ، وذلك على الرغم من أنه هو نفسه كان منهمكاً في اللذات . إلا أنه مع ذلك لم يكن مترفاً ، فقد كان يقبل على العمل في نشاط قلباً نجد له مثيلاً ، وإذا كان قد وهب النهار للقتل ورمى الرمح والتنشين والرياضة المختلفة ، فإنه كان يخص الليل بالعمل ، إذ كان الرسول الذى يصل في

وقت السحر يتسلم الرد بعد ثلاث ساعات دون تأخير أو إهمال . وفي بعض الأحيان كان يملأ أكثر من خمسين رسالة ثم يوقعها ويحتمها في الهجيج الأخير من الليل بعد أن يكون قد أمضى وقتاً طويلاً في التريض المضنى . وكان البريد يرسل مرتين في الأسبوع بواسطة الخيول المعدة لذلك ، هذا إلى جانب الحمام الزاجل المنتظم .

ليس بمجيب إذن أن يكون مثل هذا الرجل محبوباً لدى الشعب الذى اتخذه مثالا للبلك الذى تجلى فيه صفات الكرم والشهامة ، والذى لا يزال يصفى في شغف تام إلى القصص التى تروى في مقاهى القاهرة عن الظاهر بيبرس . وحتى رجال الدين كانوا يعجبون به ويرون فيه ملكاً يعرعى الأصول الدينية ، ويعادل بين المدارس الأربعة المختلفة التى جعل لكل منها قاضياً خاصاً بها . بيد أن الأمراء والضباط وحدهم هم الذين كانوا يخشونه ، لأنه - وإن كان حسن المعاملة مع كل من يطيع أمره - لم يكن يغفر لأحد منهم ، وكانت شكوكه تلاحقهم على الدوام في حركاتهم وسكناتهم . ومن ثم اشتد به الحقد ، حتى مات كذا بعد حكم زاهر ، دام سبع عشرة عاماً بكأس من السم ، أغلب الظن أنه كان قد أعد لها لغيره ، وانتهت حياته سنة ١٢٧٧ .

كان بيبرس المؤسس الحقيقى لدولة المماليك ، والقائم على تنظيم سياستهم . ومنذ اليوم الذى تولى فيه قيادة حرس المماليك البحرية ضد لويس ملك فرنسا في موقعة المنصورة ، دأب على تقوية الجيش وحمايته ، والتوسع في التجنيد ، وتشجيع الخدمة الصالحة بواسطة توزيع الإقطاعات بكثرة . تلك كانت سياسته الأجنبية التى طبقها في مصر سنوات عديدة ، واتخذ منها قصره أنموذجاً للسلطان المتعاقبين . ولقد كان هذا القصر بالغ الروعة والبهاء ، حيث كان يجلس السلطان يحيط به كبار ضباط الدولة ورجال البلاط ، ونائب السلطان ، والقائد الأعلى للجند ، والقهرمان (كبير الطهاة) ، وقائد الحرس ، وحامل السلاح ، وأمير آخور Master of the horse ، والساقى ، والجاشنكير ، والبازدار ، وحامل الخف ، وأمير سلاح ، والاستادار ، وثلاثون من قارعى الطبول ، كل منهم يتبعه أربعون فارساً ، وجوقة مكونة من عشرة طبول وأربعة أبواق ومزامير ، والغلبان ، والقرسان والحجاب ، وكاتم الأسرار ، وأطباء القصر ، والقضاة ، ورجال الدين . كل هؤلاء الموظفون كان لهم رواتب وإقطاعات . فقارع الطبول مثلاً كان يصل دخله إلى حوالى ستة عشر ألف جنيه في العام . ونستطيع أن نقدر الأموال التى كانت تنفق على القصر

إذا علمنا أن عشرين ألف رطل من الطعام كانت تعد كل يوم في بيت المئونة (الخزندار) . وكانت تباع أثمان اللحم والخضر في القصر أيام الناصر ما بين ثمانمائة واثني عشرة ألف جنيه في اليوم الواحد .

وكان ضباط القصر العظام وضباط الجيش هم بطبيعة الحال أكثر الرجال سلطة بعد السلطان مباشرة ، وكان كل منهم يعد نفسه خلفاً صالحاً للسلطان . وعلى إخلاصهم وولائهم ، وخاصة إخلاص حرس السلطان الخاص ، وهو لواء مكون من عدة آلاف من الجند المختارين ممن كانت لهم إقطاعات واسعة في مصر ، كانت ترتكز سلامة السلطان وسلطته ، ذلك السلطان الذي كان في الواقع تحت رحمتهم . وكان كل واحد من الأمراء العظام — سواء كان من ضباط الحرس أو من رجال البلاط أو مجرد نبيل من النبلاء المقربين — صورة مصغرة للسلطان المملوكي . فقد كان له بدووه حرس خاص به من العبيد ، وكان هذا الحرس يقف بباب القصر عندما يفادوه النبيل في إحدى رحلاته ، كما كان رهين شارته لاقترام الحمامات العامة وإخراج النساء منها . كذلك كان يعمل على حماية هذا النبيل عندما كان يحاصر قصره نبيل آخر منافس ، وأخيراً فقد كان يسير وراءه في طريقه إلى ميدان القتال . هؤلاء السادة النبلاء ، وأتباعهم كانوا خطراً دائماً يهدد السلطان الحاكم . فقد كان يكون بعض الساخطين منهم أحياناً حلفاء يعضده بعض ضباط القصر أو الحرس الخاص ، وهنا يتجمع أتباعهم في طريقهم لمواجهة السلطان ، بينما يوجه ساقى الخمر — أو غيره من الضباط الذين يقتضى عملهم ملازمته — الضربة القاضية للسلطان ، أو يدس له السم في الكأس ، ثم يتقدم المتآمرون عقب قتله لينتخبوا من بينهم من يشغل منصب السلطان المقتول . إلا أن هذا لم يكن ليسلم أحياناً من بعض المقاومة ، ذلك أن حرس السلطان الخاص لم يكن من السهل دائماً رشوته أو مقاومته ، كما أن الجولم ينحل أحياناً من بعض النبلاء ممن لم يقيموا في العادة بأى خليفة للسلطان من بينهم ، فقد كان كل واحد منهم لا يرضى بغير نفسه بديلاً ، ومن ثم كان عليه ألا يتردد في مقاومة الخطوة المرسومة للتأمر على السلطان . وهناك يتمخض الموقف عن قتال في الشوارع . فيغلق التجار حوانيتهم فرعين ويفروا إلى منازلهم ، وبوصد الناس من رعبهم الأبواب الكبيرة التي كانت تفصل بين الأحياء والأسواق المختلفة في المدينة ، ويتقدم الحزب المنافس من المالكين راكباً ويطوف بالشوارع التي لم يتم

أغلاقها بعد، فيتلف منازل خصمه ويسلبها، ويخطف النساء والأطفال، ثم يتقدم ليعاقل عدوه أو ليلقي عليه وابلا من الرماح والحراب من خلال نوافذ المنازل التي يصعد فيها . ومثل هذه الاضطرابات لم تكن قليلة الحدوث ، وكانت دائماً تؤثر على حياة طبقة التجار في القاهرة ، ونحن نقرأ كيف أن السوق العظيم - خان الخليلي - كان يفلق أحياناً لمدة أسبوع كامل ، بينما كانت المعارك تدور في الشوارع في الخارج ، وكان تجار القاهرة الأثرياء ينفقون خلف الأبواب الضخمة وهم يرتجفون فرعاً ورعياً .

ولقد حدث مثل هذا حينما عزل كتبغا السلطان الطفل والناصر، فترة من الزمن . ذلك أن الأشرفية ، أو ، اليك السلطان الأشرف خليل ، قاموا بثورة وحاصروا القلعة . وحينئذ ركبت قوات كتبغا لتقمع الثورة ، فاخترقت جموع المتظاهرين ومن قتهم تمزيقاً . وكان نتيجة ذلك أن أصيب هؤلاء المتمردون بإصابات جسيمة قضت على الكثير منهم ، كما أن عدداً ليس قليلاً منهم فقد بصره أو لقي حتفه غرقاً . وهكذا بدأ حكم جديد في عام ١٢٩٤ . ولقد أعقب ذلك انتشار وباء ، حيث أخرجت سبعمائة جثة من أحد أبواب القاهرة في يوم واحد . غير أنه سرعان ما تلبد الجو بالغيوم وظهرت مؤامرة جديدة اضطرت كتبغا إلى الهرب من أجلها ، فانتخب نائبه لاجين خلفاً له . وبذا حلت الزينات في الشوارع محل المجازر البشرية التي كانت تراق فيها الدماء ، وساد الفرح والارتياح البلاد . ذلك أن السلطان الجديد كان رجلاً كريماً ، وقد وعد بالتسريح في جمع الضرائب ، وكان الحزين رخيصة ، وهكذا أصبح لاجين محبوباً .

ومع أن فكرة وراثة الخلافة كانت غريبة تماماً عن نظام المماليك ، إلا أنه كان فيها الخلاص الوحيد من تلك المشاهد الدامية التي كانت تحدث من آن إلى آخر لاغتصاب العرش . وبعد فترة من الزمن وجد هناك نوع من وراثة اللقب ، فلقد خلف وقلاوون ، ابنه خليل ، ثم جاء بعده ابن أصغر يدعى والناصر محمد ، في عام ١٢٩٣ . وعلى الرغم من أن هذا الأخير عزل فترة من الوقت إلا أنه عاد إلى العرش مرة أخرى في عام ١٢٩٨ بعد قتل صهره لاجين . وبعد محاولة أخرى لاغتصاب العرش قام بها دبيرس الجاشنكير ، في عام ١٣٠٨ ، استرد الناصر سلطته وبدأ حكماً ثالثاً استغرق واحداً وثلاثين عاماً (١٣١٠ - ١٣٤١) . وبعد وفاته جلس خلفاؤه

الضعفاء على العرش ، ولم تكن لهم أى سلطة حقيقية ، وقد ظل الحال على هذا حتى نهاية الأسرة . وهكذا نجد أنه فى الفترة ما بين عامى ١٢٧٩-١٣٨٢ ، اللهم إلا ست أو سبع سنوات ، كان يحكم مصر أفراد بيت واحد ، بيت قلاوون . ولقد كان مؤسس هذه الأسرة ، الذى يدحض تاريخه النظرية القائلة بأن هؤلاء الأجانب كان حكمهم مجدياً فى مصر — شخصاً له مكاتبة ، قائد شجاعاً ، وسياسياً حكيماً ، وابعثاً على تشجيع التجارة وازدهارها . فقد كان يسمح للتجار بالذهاب حتى الهند والصين ، وكان يبذل أقصى ما فى وسعه لتنمية تجارة مصر . وكان بالإضافة إلى كل هذا ، مهتماً بالبناء ، شأنه فى ذلك شأن أغلب سلاطين المماليك . وإنه لمن القريب حقاً أن يشغف بالبناء رجال ، لم يكن لهم هم سوى الحروب وتدير المؤامرات . فلقد بنت الملكة شجرة الدر — أول من حكم مصر من المماليك — ضريحاً لزوجها — الصالح أيوب ، لا يزال قائماً فوق جانب من موقع قصر الفاطميين القديم فيما بين القصرين ، وكان ذلك فى عام ١٢٥٠ . وبني ، ببرس ، مدرسة عام ١٢٦٢ فى مكان آخر من القصر يسمى وقاعة الخيمة ، وشيد مسجداً كبيراً خارج «باب الفتوح» فى عام ١٣٦٧ - ١٢٦٩ ، ولا يزال كلا البنائين موجوداً ، على الرغم من أن المدرسة قد أصبحت خراباً ، والمسجد كان يستعمل مخبأ للقوات الفرنسية منذ قرن مضى ، ثم تحول أخيراً إلى مجزر لذبح المواشى الخاصة بالجيش البريطانى . أما قلاوون ، فقد اتابه مرض خطير فتمهد ببناء مستشفى . ونحن لا نزال نرى ومارستان قلاوون ، حتى الآن فى جهة «النحاسين» ، على الرغم من أنه لم يعد يستعمل للغرض الذى بنى من أجله ، ذلك أنه كان مأوى للجائنين إلى قرن مضى ، وهو يقع بالقرب من مسجد قلاوون ، وضميريه . ويتميز هذا الضريح بالنقوش المصنوعة من الجص ، والأعمدة المصنوعة من الجرانيت ، والمذئذنة ذات النقوش البدئية والنحت الدقيق . ولقد بنى كل من «ابن طولون» ، و«صلاح الدين» بعض المستشفيات ؛ وكذلك سار قلاوون ، على هذا النهج القويم . فقد كانت حجرات القوم للرضى تيجل بفنائين ، وكانت توجد على جوانب فناء آخر ، قاعات وحمامات ومكتبة وصيدلية وكل ما يحتاج إليه المستشفيات فى ذلك الوقت ، وحتى الموسيقى كانت توجد هناك لتخفف من آلام المرضى ، كما كان يوجد كذلك بعض المقرئين لترتيل القرآن . وكان الفقراء والأغنياء يعالجون دون مقابل سواء بسواء . وكانت توجد هناك

مدرسة مجاورة كان يتربى فيها ستون يتيماً ويتلقون العلم بالمجان . ولا يزال الناس حتى اليوم يزورون المقبرة التي دفن فيها هذا السلطان العظيم وابنه « الناصر » ، وذلك لكي يلبسوا ملابسهما ، اعتقاداً منهم أنهم سوف يشفون من عللهم وأمراضهم المختلفة .



قاعة يوسف - قصر الناصر في القاهرة

ولقد كان حكم « الناصر » الذي دام طويلاً ، عصرًا ذهبياً لفن البناء المملوكي . وعلى الرغم من أن هذا السلطان استفاد كثيراً من الاستقرار الذي أوجده الأخذ بنظام الوراثة ، إلا أن جلوسه طويلاً على عرشه ، يرجع إلى حد كبير إلى صفاته الشخصية . فإن هذا الرجل الرزين ذو الإرادة الحديدية الحاكم المستبد الذي يحكم بمفرده ، عديم التناسق في تكوينه الجثامي ، قصير القامة ، ذو ساق عرجاء ، وسجامة على العين ، هذا إلى جانب ملابسه البسيطة ، وأخلاقه الصارمة ، وذهنه المنقذ ، ونشاطه الذي لا يعرف الكلام ، وذوقه المذهب ، وميوله المستنيرة ، وسياساته الحاذقة التي أخذت تفضمحل حتى أصبحت مجرد خداع لا جدوى فيه ، وشكوكه الدائمة ، وانتقامه القاسي ، وقصره الفخم ، ومبانيه الرائعة . هذا الرجل واحد من أبرز رجال العصر الوسيط . وما من شك في أن عصره كان الذروة التي وصلت فيها الثقافة والمدينة المصرية إلى أقصى مراحل الرقي . ولقد أكمل « الناصر » الأعمال

التي بدأها من قبله ، بيرس ، و د فلارون ، ، وعقد محالفة مع القبيلة الذهبية ،
 Golden Horde وتزوج أميرة من الفولجا Volga اسمها طلية ، لانزال مقبرتها
 موجودة حتى الآن مع مقبرة زوجة أخرى له في الجبابة الشرقية . وحافظ كذلك
 على حدود الإمبراطورية من بيراموس Pyramus ونهر الفرات حتى سواكن
 وأسوان ، ونظم - وإن لم يكن في صورة تحالف - اتصالات سياسية مع امبراطور
 القسطنطينية وملك بلغاريا ، ومع حكام الحبشة وبلاد العرب . وقد زوج أحد
 عشر بنتاً له لأشرف التتلاء ، وكلفته كل زوجة نصف مليون جنيه . ولم يكن الناصر
 سياسياً خصب ، بل كان في الوقت نفسه مزارعاً ، وصيداً ، ورياضياً . فقد كان
 يدفع أربعة آلاف جنيه ثمناً للحصان الواحد ، وكان لديه سجل خاص بالخيول ، كما
 كان يعرف أصل هذه الخيول وأثمانها وأعمارها . ولديه ثلاثة آلاف رأس من الغنم
 وكان يستورد أحسن أصنافها من الخارج ، كما كان شغوفاً بصيد الباز ، كسائر
 سلاطين المماليك . ويصف لنا ابن بطوطة ، - الذي رأى الناصر في عام ١٣٢٦-
 هذا السلطان فيقول إنه ذو خلق نبيل وفضائل جمة ، كريم بالنسبة للسافرين ،
 ومثابر على واجبه الذي كان يجعله يجلس مرتين كل أسبوع يستمع بنفسه إلى
 الشكاوى والقضايا . ولقد أسرت مصر كثيراً تحت حكمه ، فألغيت الضرائب
 الثقيلة ، وأنشأ نظام جديد لمسح الأرض . كذلك عوقب بالجلد أولئك الطبايعين
 والخبازين الذين حاولوا رفع الأسعار في السنوات التي أصاب البلاد فيها
 القحط . وعندما وصل إليه أن أحد أزواج بناته ، الأمير العظيم ، توزن ،
 قد قام ببعض السلب والنهب ، اطمه بسيفه وضرب ركبيل أعماله بالسياط . وكانت
 الأسعار منخفضة بفضل تيقظه وسهره ، وكان عقاب شرب الخمر والبغاء صارماً .
 ولئن كان الناصر قد أزال السلب والنهب بين صفوف التتلاء ، واقتلع نبات
 الخنشاش (١) ، دون ترو ، فإن الشعب قد استفاد كثيراً ونجح في حكمه إلى أبعد
 حدود النجاح .

ولقد كان الناصر متسامحاً حتى مع الأقباط ، على الرغم من أن المسيحيين لم
 يجدوا أيام المماليك معاملة حسنة مثلاً وجدوا تحت حكم الفاطميين وأيام الكامل .

(١) نبات تستخرج منه مادة الأفيون ويعرف باسم « أبو النوم » .

وعندما غزا صلاح الدين مصر ، حدث هناك تخريب هائل في الكنائس ، إلا أن هذا يرجع في الغالب إلى حرق مصر وفوضى الحرب ، أكثر مما يرجع إلى تعصب الفاتحين . ولم يكن صلاح الدين نفسه صديقاً للمسيحيين ، فقد كان متشدداً في دينه الإسلامي بحيث لم يكن يتسامح معهم . إلا أنه على الرغم من ذلك لم يكن يضطهدهم أو يلحق بهم أى أذى . ولقد كان سبب هروب - أو طرد - البطريرك الأرمنى هو وأتباعه ، يرجع إلى علاقة الأرمنيين الوثيقة بحكومة الفاطميين ، أكثر مما يرجع إلى التعصب الدينى . إلا أن الحرب المقدسة في فلسطين ، على الرغم من أنها كانت ضد الفرع اللاتينى من الكنيسة الكاثوليكية ، كان لها رد فعل سىء على الأقباط . وكان العادل أخو صلاح الدين يعامل رعاياه المسيحيين معاملة بالغة الصرامة والقسوة ، وكثيراً ما كان ابنه ، الكامل ، يتشفع لهم . وحينما اعتلى هو نفسه عرش مصر أظهر روحاً نادرة من التسامح لم تكن مألوفة في ذلك العهد ، ولقد أحسن استقبال ، القديس فرنسيس St. Francis ، من أسيسى Assisi . وأجمع المسيحيون على أن ، الكامل ، كان حاكماً على جانب عظيم من التسامح الدينى . ويبدو أن ابنه ، الصالح ، سار على منواله خلال الفترة الوجيزة التى حكم فيها ، إذ كتب إلى ، انوسنت الرابع Innocent IV ، يعبر له عن أسفه لأنه لم يستطع التحدث مع الرهبان الدومينيكيين Dominicans بسبب جهله باللغة اللاتينية .

ومن الطيى أن تقلب حرب لويس التاسع الصليبية هذه العلاقات الودية رأساً على عقب . وليس بعجيب أن يوجه المسلمون انتقامهم إلى أكثر كنائس مصر فيخربونها ويعملون على إتلافها . كذلك لم يستطع خلق السلاطين المالك المتعاقبين - بعد أن احتاج بفعل الانتصارات المتكررة فوق بقاع الفرنجة في سوريا - أن يؤدى بهم إلى تفاهم حسن مع رعاياهم المسيحيين . ثم أن المدارس الجديدة التى أنشأها صلاح الدين وخلفاؤه ، كان من شأنها أن تحدث تغييراً في القاهرة . فقد كان مدرسو هذه المعاهد الدينية يشجعون روح التعصب ، وقد أخذ نفوذ هؤلاء المدرسين يقوى شيئاً فشيئاً على مر الزمن . وفي عام ١٢٨٠ فصل جميع المكتبة الأقباط الذين كانوا يعملون في ديوان الحرية ، وحل محلهم في وظائفهم مسلمون . وفي عام ١٣٠١ أعيدت من جديد تلك الأحكام التى كان من شأنها أن تمنح كرامة الأقباط عن طريق تخصيص زى خاص بهم . وفي عام ١٣٢١ حدثت هناك سلسلة من الثورات

كان من نتيجة أن حل بالمسيحيين اضطهاد مروع . ولقد بدأ الاضطراب حينما أخذ عمال الناصر يحفرون بحيرة يطلق عليها « بركة الناصر » بالقرب من « جسر الابد » (١) فأضعفوا أركان كنيسة الزهرى - التي كان الناصر قد أمر بعدم التعرض لها - وذلك بالحفر تحتها . وقد حدث أن اندفع الناس عقب صلاة أحد أيام الجمعة إلى الكنيسة فأتلفوها عن آخرها ، وكان ذلك بدون علم الحكومة . وبعد ذلك توجهوا إلى كنيسة القديس مينا في « الحرة » ونهبوها . وفعلوا مثل هذا أيضاً في كنيسة العذارى بجوار طواحين المياه السبعة ، حيث أخرجوا منها الراهبات عنوة ثم أشعلوا فيها النيران بعد أن استولوا على ما فيها . إلا أن السلطان حينما وجد الدخان يتصاعد من الكنائس المتداعية ، اتابته سورة من الغضب ، وأرسل من فوره بعض القوات لكبح جماح الشعب . وفي تلك الأثناء ترامت الأنباء بأن ثمة كنيسيتين قد أتلقتا في أحباء زويلة واليونان ، وأن الشعب يتعدى على « الكنيسة المعلقة » بحصن بابليون . ومن حسن الحظ أن قوات السلطان وصلت في تلك الآونة لتحمي الكنيسة . ومن الواضح أنه كان هناك هياج عام من الصعب قمعه . وكان الدراوشة الثائرون يقفون في المساجد ويهتفون : « تسقط كنائس الكفار » إلى الكنائس ! إلى الكنائس ! ، وكان يحدث مثل هذا في جميع أنحاء مصر ، كما كانت الكنائس تحرق في الاسكندرية ودمشق وقوص .

وبعد ذلك بشهر أخذت تشتعل في مصر نيران لم يعرف سبب اندلاعها . وبدأت السنة النيران تندلع في كل مكان ، وكانت الرياح العاتية تساعد على انتشار اللهب هنا وهناك . هنا أخذ الناس يصعدون إلى المآذن ويضرعون إلى الله ، ظناً منهم أن المدينة بأسرها سوف تلتهمها النيران ، وكان هناك صراخ وعويل يصحبان تلف المنازل والامتنع . ولقد بذل القوم ما في وسعهم لإخماد النيران ، إذ حضر جميع السقائين من فورهم ، وكان هناك أربع وعشرون من أنبل الأمراء يعملون على رأس صفوف الرجال الذين كانت مهمتهم تحويل المياه من الحمامات والأحواض ، وهدم بعض المنازل الأنيقة لإفساح الطريق حول المباني المحترقة . وكان الشارع من حى ديلم حتى باب زويلة تدفق منه المياه كالنهر ، ولم يكن القوم ليتهاوا من إخماد

(١) غرب باب اللوق . بالقرب من جامع طيرس .

إحدى النيران ، حتى كان يبدو لهم في الأفق لهيب نار جديدة ، وهكذا كانت الحرائق تتكرر يوماً بعد يوم .

ولقد لوحظ أن هذه النيران كان هدفها الوضع هو المساجد ، وأن اشتعالها كان عمداً بدليل العثور على ملابس مغموسة في الزيت والقطران والنفط . وقد ألقي القبض على أحد المسيحيين بجوار مسجد الظاهر معه كميات من النفط والقطران يحاول إشعالها في المسجد . وعندما أخذ المسؤولون يعملون على تعذيبه اعترف لهم بأن الحرائق كانت عملاً منتظماً من صنع المسيحيين . كذلك اعترف إثنان من الرهبان - تحت تأثير التعذيب - بأنهما أشعلا النيران عمداً للانتقام لما لحق كنائسهم من تخريب ودمار . وهنا استدعى بطريرك الأقباط الذي صرح - والدمع يشمر من عينيه - بأن هؤلاء ليسوا سوى متحمسين ثائرين أرادوا أن يجيبوا على مخبري الكنائس الحق بنفس الأسلوب الذي يفهمونه . وحينئذ أرسل إلى منزله وسط حالة من التبجيل والتكريم . ومهما يكن من شيء ، فإذا القوم وقتند لم يكن لديهم استعداد لأن يروا أمام أعينهم البطريك مكرماً ، وكان بودهم لو مزقوه إرباً ، لولا وجود حارس السلطان معه . وقد حدث أن أحرقوا أربعة من رهبان دير القصير ، المسمى في تلال المقطم . وحينما ألقي القبض على إثنين من المسيحيين بتهمة الحرق عمداً ، أمر السلطان بحرقهما حين في حفرة بحضور جمهور سره كثيراً أن يرى مثل هذا المشهد . وقد تصادف أن مر في ذلك الوقت كأنهم سرق قطي برى ، فلم ينقذه من الموت المحقق سوى مروقة السريع من الدين . والواقع أن الشعب كان يتحول من خطر إلى خطر يوماً بعد يوم . ولقد انزعج السلطان لذلك كثيراً ، فأمر باتخاذ إجراءات حاسمة ، وبذل أقصى ما في وسعه تهدئة القوم . ومن ثم صدرت الأوامر إلى القوات بالتوجه إلى جميع أنحاء القاهرة لثفرقة الشعب دون التعرض له ، إلا أن الأنباء كانت قد سبقها . وهكذا وصلت هذه القوات فوجدت الأسواق مغلفة والشوارع مقفرة . ولم يكن يوجد هناك رجل واحد ما بين القلعة وباب النصر . وقد ألقي القبض على مائتي رجل بالقرب من النيل ، فأحضروا أمام السلطان الذي أمر بقتلهم أو بقطع أيديهم ، وعشاً حاولوا إثبات براءتهم . وقد تشفع لهم الأمراء . إلا أن الناصر عقد العزم على أن يجعل منهم عبرة وعظة ، وهكذا أقيمت المشاقق على طول الطريق من باب زويلة حتى الرملة ، وهناك

شق سيو الحظ من المسلمين حتى يكون شفقهم درساً قاسياً يعلم الشعب ألا يتور
مرة أخرى .

ولقد تمخضت هذه الإضطرابات عن إعادة الأحكام القديمة الخاصة بزي
المسيحيين ، وهى الأحكام التى حاول الناصر إلغائها منذ عام ١٣٠١ . وهكذا كان
المسيحى الذى يضبط عنطياً صهوة جواده ، أو لباساً عمامة بيضاء ، يقتل لساعته .
وقد أُلزم الأقباط بلبس عمام زرقاء ، وتعلين جرس حول عنقهم فى الحمامات ،
وركوب الخيل دون سواها ، على شرط أن يكون وجههم شطراً ذليلاً . ولم يكن يسمح
للأمراء بتشغيل خدم مسيحيين . كذلك لم يكن يشغل الأقباط أية وظائف فى الدولة
على الإطلاق . ولم تكن لديهم الجرأة على الظهور فى الخارج ، وقد دخل الكثير
منهم الدين الإسلامى . ولعل هذا هو أسوأ اضطهاد حدث منذ عهد الحاكم - قبل
ذلك بثلاثة قرون . غير أنه يجب ألا يغرب عن بالنا فى الوقت نفسه ، أنه كان هناك
إثارة خواطر شديدة من كلا الطرفين ، وأن القلاقل كانت تحدث نتيجة غضب
الشعب ، لا نتيجة تعصب الحكام ، ولقد استمر مثل هذا الاضطهاد - ولو أنه لم
يكن على هذا النطاق الواسع - خلال مدة المماليك ، وبذلك دفع الأقباط - الذين
عوملوا بالحسنى والتسامح خلال الفترة الأخيرة من حكم الفاطميين - ثمناً غالياً لذلك
التسامح . والواقع أنهم كانوا ينحدرون شيئاً فشيئاً إلى زوايا النسيان والإهمال ،
ولكنهم بدوا يرتفعون أخيراً بعض الشيء .

وبينما كانت الكنائس تخرب وتدمر على تلك الصورة ، كان بناء المساجد يتم
على قدم وساق فى اضطراب عجيب . والواقع أن كلا البناء والمهندس لم يلقيا رعام
مثلياً لبقيا فى عهد الناصر ، وكان الساطان نفسه فى هذا مثالا يحتذى . فقد كان رجلاً
له ذوق رفيع وثقافة عالية ، كما كان نصيراً للعلم والمتعلمين ، وصديقاً حميماً للتورخ
العالم . أبى القداء ، الذى أعاده لإمارة حماء ، وهى الإمارة التى استولت عليها
عائلته منذ أيام سلفه أخ صلاح الدين . وهكذا كان عصر الناصر عصر حافلا
بالإنتاج الفنى . كما أن المبالغ الطائلة التى أنفقها السلطان وأسراره على المباني وأعمال
الزخرفة ، تدل على أن ثروة البلاد كانت موفورة ، وأنها كانت تنفق فى أجل الوجوه
وأحسنها . ولقد أمكن الاحتفاظ ببعض أثاث الناصر نفسه (١) ، كما أن أهم بنايين

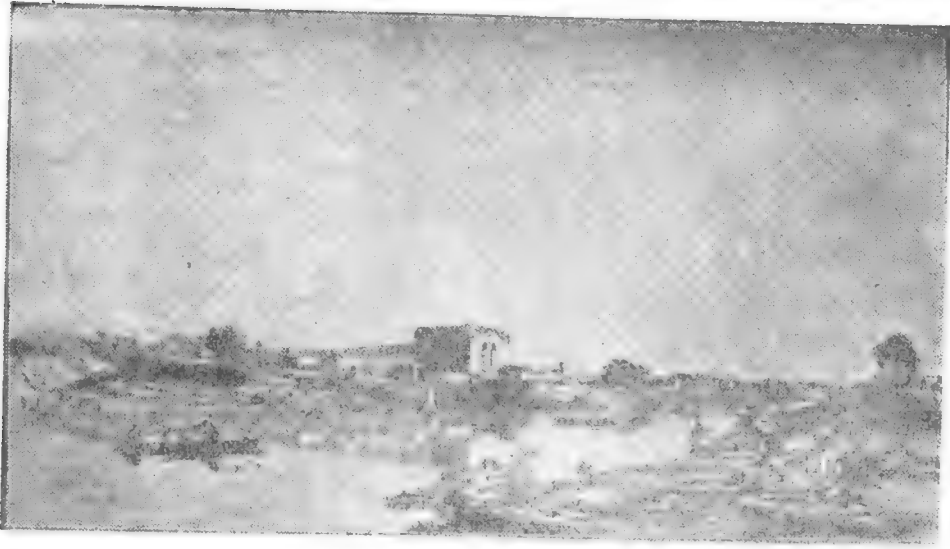
(١) يوجد له فى المتحف العربى بالقاهرة منضدتان منقوشتان بالفضة .

لهما المدرسة التي بين القصرين (١٣٠٤) بجوار المارستان ، التي فيها بوابة على الطراز القوطي (١) أحضرها من عكا أخوه خليل ، ثم الجامع القديم (١٣١٨) في القلعة . وهذان البناءان يدلان على سلامة ذوقه ، على الرغم من أنهما - لسوء الحظ - لا يدلان إلا على القليل من آثارهما الأصلية . فقد سقطت القبة العظيمة التي كانت تعلو فيها مضى مسجد القلعة . كذلك اختفت أغلب الأحجار الرخامية الملونة التي كانت تزين القبلة ، والنافذة الحديدية التي كانت تفصل مقصورة السلطان . إلا أنه لا يزال يوجد صف من التوافد حول المسجد ، وإن كان الزجاج المنقوش والملون لم يبق له أثر . ولكن على الرغم من ذلك فإن هناك عشرة أعمدة من الجرانيت ، وقوش رخامية ملونة على الحائط الجنوبي ، أخرى مختلفة ، ترينا كلها أي مسجد كان هذا في يوم من الأيام . ولعل أخص ما يميزه هو وجود كتابة باللون الأخضر حول مآذنه ، بما قد يعزى إلى النفوذ التتري لروحة الناصر التي كانت تنتمي إلى العائلة المالكة للقبيلة الذهبية . والفضل في أن مسجد القلعة لم يهدم تماماً . يرجع إلى عناية الكولونيل س . م . واتسون Colonel C. M. Watson الذي أنقذه من أن يصبح مخزناً للجيش ، وأزال الحواجز الخشبية التي كانت قد شيدت حينما تحول المسجد إلى سجن . ولقد كان يوجد في يوم من الأيام « هو الأعمدة ، الخاص بالقصر الأبلق ، الذي بناه الناصر بالحجارة البيضاء والسوداء في القلعة (٢) ، والذي كان لا يزال قائماً منذ ثلاثة قرون . وقد أعيد تنظيم القلعة في عصره وألحقت بها بعض الأبنية . كذلك فإن القناة التي كانت تمد القلعة بمياه النيل - على الرغم من أنها تنسب في العادة إلى صلاح الدين ، ربما كانت عبارة عن إعادة حفر إحدى المجاري المائية الأيوبية - من عمل الناصر (١٣١١) ، ثم دُمها والفوري ، فيما بعد بالحجارة ، هذا إلى أنه بنى مسجداً بجوار ضريح السيدة نفيسة ، ودقبة النصر ، بجوار الجبل الأحمر ، وغير ذلك من المساجد والقباب .

وحينما كانت السلطان ، تبعه رجال البلاط . ولم يكن أمراء ذلك العهد يهدأ لهم بالمالم بينوا مسجداً ، أو مدرسة ، أو ضريحاً ينهض دليلاً على تقواهم ، ويحلب لهم النعم والخيرات . ولقد تأثر الرحالة المغربي ، ابن بطوطة ، - الذي كان في

(١) أو الطراز التتري أو الموحى Gothic - هندسة القرون الوسطى .

(٢) قبل إن هذا القصر تكافئ بناؤه عشرين مليوناً ، ولو أن هذا الرقم يبدو خيالياً .



المنظرة العاتقة وراء السبع طواحين المائية

القاهرة عام ١٣٢٦ - من تنافس الأمراء العجيب في بناء المساجد وصوامع النساء ، مثل الخانكة ، أو صومعة بيبرس الجاشنكير ، التي لا تزال قائمة ، وهو يعطينا وصفاً شائقاً لنظم النسك والعبادة في ذلك الوقت (١) . كما أنه يذكر لنا أن المدارس كانت أكثر من أن يحصرها عد ، وأنه أعجب أيما إعجاب بمستشفى قلاوون بما فيه من أجهزة وعقاقير ، ونفقاته التي كانت تصل - على حد قوله - إلى ألف دينار كل يوم . ولقد أنشئ أكثر من أربعين مسجداً ومدرسة فيما بين عامي ١٣٢٠ و ١٣٦٠ - أي أكثر من ربع مجموع العدد الذي سجل منذ القرن الهجري حتى أيام المقرئ - ولا يزال الكثير منها قائماً حتى اليوم ليشهد على كرم النبلاء العظام في ذلك الوقت . ومن تلك المساجد وجامع الأمير حسين ، (٧١٩ هـ - ١٣١٩ م) ، وجامع الماس ، حاجب السلطان (٧٣٠) ، وجامع قوصون ، (٧٣٠) ، وجامع بشتاك ، (٧٣٦) ، وجامع التذيقا المرداني ، ساقى الخمر (٧٤٠) ، وجامع أسلم ، حامل السلاح (٧٤٦) ، وجامع أفسنقر ، (٧٤٧) ، وجامع أرغون الإسماعيلي ، (٧٤٨) ، وجامع منجك ، الوالي (٧٥٠) ، وجامع شيخو ، (٧٥٠) . ومن المدارس :

(١) ابن بطوطة - ص ٧١ - ٧٤ .

ومدرسة الملك، مدرب لعبة الـ Polo (٧١٩) ، و مدرسة سنجر الجاولي، (٧٢٣) ،
ومدرسة أحمد المهندس، رئيس الاحتفالات (٧٢٥) ، ومدرسة أكبفاء القمرمان
أو ناظر المطبخ (٧٣٤) ، و مدرسة صرغتمش، رئيس الحرس السلطاني الخاص
(٧٥٧) . ومن المعابد : «خانقاه قوصون» (٧٣٦) ، و «خانكة الجاولي» (٧٢٣) ،
و«خانكة شيخو» (٧٥٦) . هذا إلى جانب «جامع السيدة مسكة» ، وهي من موالى
الناصر وتدعى «هوك» (٧٤٠) ، و مدرسة السيدة تتر الحجازية ، بنت الناصر
(٧٦١) ، و «جامع السلطان حسن» ، بن الناصر الذى يواجه القلعة (٨٥٧ - ٧٦٠) .



مسجد السلطان حسن

وإذا ما أردنا أن نسهب بعض الشيء فى وصف هذه المساجد الخاصة بفترة
الناصر، كان علينا أن نكتب سفراً كاملاً . حقيقة أن بعض هذه المساجد قد تهدم
ولم يعد يمثل البناء الأصيل إلا قليلاً . كذلك فإن بعضها قد تم إصلاحه ، مثل :
«جامع أقسنقر» الذى أصلحه «إبراهيم أغا» عام ١٦٥٢ ، و«جامع إسماعيل» الذى
أصلحه أحد أفراد الأسرة الخديوية منذ ربع قرن مضى . وكان إصلاح الجامع
الأول يدل على ذوق فنى كبير ، على عكس الجامع الثانى الذى لم يكن فيه متقال ذرة
من الذوق حينما أصلح . ولكن على الرغم من ذلك ، فإن ماتبقى على صورته

الأصلية القديمة من المساجد الأحد عشرة التي سبق ذكرها ، يدل على تنوع واختلاف في الشكل العام والتفاصيل والنقوش ، حتى أن الوصف هنا لا يمكن أن يعبر تعبيراً صادقاً يستغنى به عن مشاهدة هذه المساجد . والواقع أن كلا من هذه المباني جدير بالبحث الدقيق والدراسة الثاقبة على حدة . ومهما يكن من شيء ، فإننا نستطيع أن نذكر هنا ثلاثة خصائص تميز بها تلك الأبنية . فالمساجد القديمة لم يكن بها نقوش من الخارج ، إذ كانت الجدران المحيطة بها خلواً من الزخارف والرسوم . ذلك أن واجهة المساجد لم تظهر إلا في أواخر العهد العباسي في « مسجد الأقر » . أما مساجد المماليك - التي اقتبست من غير شك من مباني الصليبيين في فلسطين - فإنها تحتوي في العادة على واجهات جميلة ، ونقوش غائرة ، وأبواب جانبية ، وأفاريز مزينة . والخاصة الثانية هي تطور المآذن التي أصبحت أكثر رونقاً وجمالاً ، كما بدأت تبنى بحجارة جميلة الشكل ، وتحتوي على تفاصيل دقيقة وزخارف مختلفة . أما الخاصة الثالثة والأخيرة فهي بناء القباب ، ففي ذلك الوقت ، كانت القبة الصغيرة فوق المحراب أو فوق المدخل ، هي أقصى ما استطاعت هندسة البناء القديمة أن تنجزه . حقيقة أن خلفاء صلاح الدين أوجدوا القباب الكبيرة ، مثال ذلك القبة الموجودة في ضريح الإمام الشافعي في القاهرة . وأغلب الظن أن ثمة أبنية أخرى تحتوي على مثل هذه القباب ، إلا أن ماتبقى لنا من أبنية الأيوبيين ، من القلة بحيث لا يسمح لنا أن ندلي برأى قاطع في شأنه .

على أن المماليك كانوا بحق سادة بناء القباب . وكان جانب غير قليل من مساجدهم ومدارسهم بمثابة أضرحة لمؤسسيها ، فكان القبر يلاصق البناء الرئيسي ، وكانت القباب شيء يختص بالأضرحة قبل كل شيء . وهكذا بدأت المدينة منذ عهد المماليك تزدهر بتلك القباب الجميلة التي مازالت حتى اليوم تضفي على مبانيها صبغة خاصة . ولقد جاءت بعد القباب الصغيرة القديمة التي سلف ذكرها ، تلك القباب المنقوشة ، ثم القباب المغطاة بالزخارف الهندسية المختلفة ، والنقوش العربية ، والرسوم الدقيقة ، وجميعها منقوشة على الأحجار . والواقع أن أروع زخرفة ترجع إلى السلاطين الشراكسة في القرن الخامس عشر ، إلا أن القباب في القرن الرابع عشر كانت قد احتلت مكانها اللاتق بين أهم ما يميز فن البناء العربي .



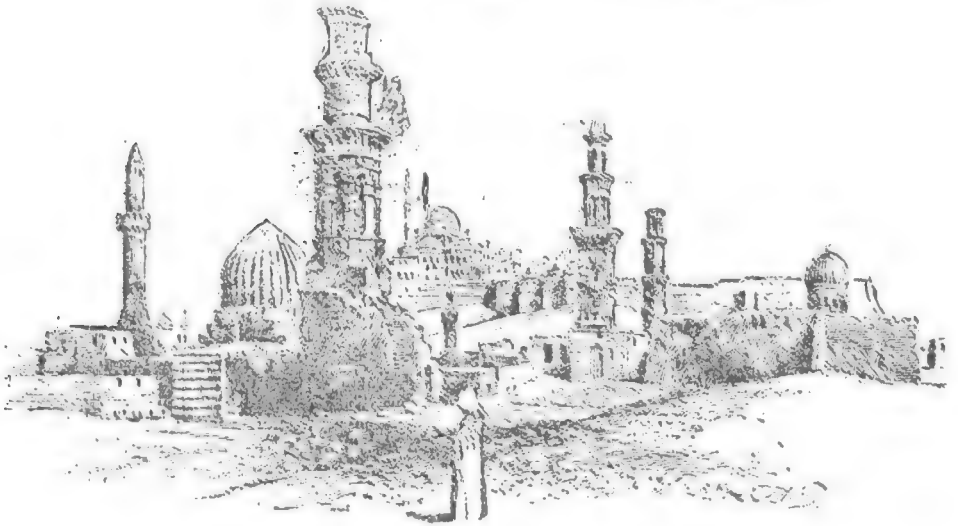
شارع مسجد السلطان حسن

وأعل أحسن مثال لدينا لأسلوب البناء في القرن الرابع عشر هو جامع السلطان حسن العظيم ، الذي يحتوى على أغلب خصائص عصر الناصر ويعرضها لنا على نطاق واسع . ولقد كان السلطان حسن — الذي جلس على العرش من عام ١٣٤٧ إلى عام ١٣٥١ ، ثم عزله الأمراء ، وبعد ذلك أعيد إلى العرش من عام ١٣٥٤ إلى عام ١٣٦١ — أبعد من أن يكون شخصية محبوبة أو ذات قيمة ؛ إنما كان مسجده هو الشيء الوحيد الذي رفع من اسمه . وقد بنى هذا المسجد فيما بين عامى ١٣٥٦ ، ١٣٥٩ (٧٥٧ — ٧٦٠ هـ) ، وقيل إن بناءه كان يكلفه في اليوم الواحد ألف دينار ، إلا أننا لا نصدق هذه الأرقام التي بالغ فيها مؤرخو الشرق .

ولقد بلغ من شدة إعجاب السلطان وشغفه بهذا المسجد الرائع ، أن أمر بقطع يد المهندس الذى قام بتشيدده ، ظنا منه أن هذا سوف يحذف من عبقريته ولا يتيح له فرصة إعادة بناء مثل هذا المسجد الفريد ، ويتكون مسجد السلطان حسن هذا على هيئة مدرسة ، إذ يوجد به فناء فى الوسط ، وأربعة أروقة عميقة متفرعة منه . أما ضريح السلطان حسن نفسه ، فيمكن أن يقارن بالهيكل الذى يوجد خلف صحن الكنيسة . أما خارج المسجد فإنه لا يدل بطبيعة الحال على شكله الداخلى ، وذلك لأن زواياه المختلفة بها عدة حجرات ومكاتب . ولعل أول ما يلاحظه الناظر إلى هذا المسجد من الخارج هو ارتفاعه إذا قورن بالمساجد الأخرى المختلفة ، فارتفاع الجدران ١١٣ قدما ، وهى مبنية من حجارة دقيقة مأخوذة من الأهرامات . وتتميز ، على غير ما هو مألوف فى فن البناء العربى ، بوجود قاعدة مسطحة فى أسفلها . أما النوافذ - ومنها اثنتان يعلو كلا منهما قوس على شكل (حدوة الحصان) ، والباقية بها قضبان حديدية متقاطعة - فإنها على صورتها هذه لا تزين الحائط الضخم العظيم الاتساع ، وإنما الشئ الجميل حقا هو ذلك الإفريز الذى يتكون من ستة صفوف كل منها يعلو الآخر ، والذى يزين الجدار بأكمله . وهناك بعض الأعمدة المنقوشة فى الأركان ، وواجهة نخمة بها مشكاة مقوسة يبلغ ارتفاعها ٦٦ قدما ، وتحتل نصف دائرة مقامة على اثنى عشر صفا . وما يزيد فى جمال هذه البداية ، تلك النقوش العربية المستديرة الشكل ، والزخارف الهندسية المأطورة ، والأعمدة ذات الرموس المنقوشة الموجودة فى الأركان .

أما فى الداخلى ، فإن أول ما يسترعى النظر هو اتساع المسجد العظيم . فالمسافة العظيمة التى توجد بين أضلاع الأروقة الأربع ، التى يبلغ ارتفاعها من الشرق ٩٠ قدما واتساعها ٧٠ قدما تقريبا ، لا مثيل لها فى القاهرة بأسرها . إلا أن الطلام الداخلى من الجص ينتقص من التأثير العام لداخلى المسجد . وكذلك الرخام والنقوش الملونة - وإن كانت جميلة حقا - فإنها لا تصل من حيث تصميمها وتناسقها إلى نظائرها بما يوجد فى محاريب المساجد الأخرى . هذا إلى أن الألوان السوداء والبيضاء والصفراء الموجودة على الجدران زاهية أكثر مما يجب ، وكذلك الحال فى ألوان المنبر . غير أن المشكاة المحفوفة نفسها حافلة بالنقوش ، وبذلك أن يكون المنبر عاديا مكونا من الخشب المسطح ، فإنه مقام على أعمدة حجرية بها رخام ملون بديع الشكل . وهناك إفريز من النقوش الكوفية حول أعلى الجدران . أما حجرة الضريح ، التى تصل إليها عن طريق المصلى من باب جميل الشكل عليه نقوش عربية

من البرونز ، فإنها محاطة بمسطح من الرخام ارتفاعه ٢٥ قدما ، مكتوب فوقه بالخشب آية الكرسي التي جاءت في القرآن . وتصل الأركان إلى دائرة القبة بواسطة نقوش وزخارف من الخشب تآكل أكثرها ، أما في الوسط فيوجد قبر مؤسس المسجد الرخامي . والقبة نفسها على الطراز الحديث نسبيا ، وهي ليست جديدة بهذا المسجد العظيم . وأما القبة الأصلية العظيمة التي أعجب بها « بيتروديلافالي » ، Petro della Valle في عام ١٦١٦ ، فقد سقطت في عام ١٦٦٠ . وكان لابد أن يكون هناك أربع مآذن ، ولكن المئذنة الثالثة بنيت بصعوبة بعد أن هوت في عام ١٣٦٠ وسحقت ما يقرب من ثلاثمائة طفل في المدرسة الواقعة في أسفلها . وبعد ثلاثة وثلاثين يوما أغتيلت حياة السلطان حسن . ولقد تهدمت إحدى المئذنتين الباقيتين ثم أعيد بناؤها في عام ١٦٥٩ ، غير أنها كانت بالغة القصر . أما المصاييح الكبيرة المصنوعة من البرونز ، والمصاييح الصغيرة ذات الزجاج المنقوش ، فمحفوظة في متحف الفن العربي بالقاهرة . وفي عام ١٤١٠ نقل « المؤيد » باب المسجد الرئيسي ذا الصفائح البرونزية إلى مسجده الخاص .



مقبرة مسجد برقوقي فرج

وكان موقع مسجد السلطان حسن سببا فيما أصابه من تلف . ذلك أن سطحه الفسيفسائي كان مكانا رائعا لإطلاق النار منه خلال الثورات الكثيرة التي حدثت أثناء حكم المماليك . وكثيرا ما كانت النيران تتبادل بينه وبين القلعة حتى عهد محمد

على باشا . ونحن نستطيع أن نشاهد أثر الرصاص الذى ما زال موجوداً فى البناء حتى الآن . وحينا وجد برقوق ، أن هذا المسجد بالغ الخطر كمكان للهجوم ، أمر بهدم درجاته الأنيقة وإغلاق البوابة العظيمة . ولقد حدث أن ظل هذا المسجد مغلقاً نصف قرن ، وكان على الطلاب والمصلين أن يلجوه عن طريق إحدى النوافذ أو الأبواب الجانبية . وحتى المئذنة العليا كان يربط المئذنة العليا كان يربط فيها جبل متين فى منتصف القرن الخامس عشر يصل إلى القلعة ، وذلك لكي يمشى من فوقه أحد الرياضيين الأوربيين أمام جمهور المتفرجين المعجبين . ومن الواضح أن المسجد كان يمكن أن يسلم من كل هذا لو أنه بنى فى مكان أكثر هدوءاً . ولكن على الرغم من ذلك ، وبعد أن شوه جدران الرصاص وزالت قبة ومآذنه الأصلية ، فإنه ما زال أبهى وأجمل أثر من آثار الفن العربى فى القرن الرابع عشر .

ثانيا - الممالك البرجية

يعد أن حكم سلاطين الممالك من خلفاء الناصر محمد مدة أربعين يوماً ، لا قوا فيها الأسرى من تحكم بعض الأمراء الأقوياء من أمثال قوصون ، و شيخو ، و صرغتمش ، وغيرهم ، اغتصب الأمير برفوق ، السلطة في عام ١٣٨٢ ، ولم يحدث هذا ثمة تغيير يذكر في حكومة مصر . فقد كان مبدأ الوراثة في الواقع أمراً صورياً ، ولم يعمل به في مصر بصفة جدية إلا في أواخر القرن التاسع عشر . وكانت الأسرة الحاكمة الجديدة تتكون من بعض الأمراء الذين كانوا يوصون أحياناً بالعرش لأحد الأبناء . ثم يأتي أمير آخر فيعزل السلطان القائم ، ومن لم يكن لهم بيت مالك قوى كما كان الحال بالنسبة إلى قلاوون ، أما الأسرة الحاكمة الجديدة فكانت تسمى الممالك البرجية . - أو بمالك البرج أو الحصن ، وذلك لأنها تنتمي إلى لواء من الجند كان مقبياً في القلعة منذ أن جند قلاوون قبل ذلك التاريخ بما يقرب من مائة عام . كذلك كانوا يسمون الممالك الشراكسة ، نسبة إلى أصلهم الذي ينتمون إليه ، وذلك لأن أحداً منهم لم يكن تركياً ، ولو أن اثنين منهم كانا من اليونان . ومهما يكن من شيء ، فإنه لم يكن ثمة فارق كبير بين الشراكسة وأسلافهم الاتراك ، وكان التغيير على أي حال من سيم إلى أسوأ . ذلك أن سلاطين الأسرة المملوكية الجديدة أصبحوا تحت سيطرة قواد الجماعات العسكرية أكثر من ذي قبل . ثم أن حرس السلطان أخذ يكون لنفسه حزباً مستقلاً ، وكان يسميه نسبة إلى السلطان الجالس على العرش - مثل الأشرفي ، و المؤيدي ، و الناصري ، . أما بعد موته أو عزله ، فقد كان الحزب يبقى عاملاً قائماً بذاته من عوامل السياسة ، ويشترك في كل عام ما يحدث في عصره من مؤامرات واغتيالات وثورات . ولم يكن السلاطين يستطيعون كبح جماح جنودهم إلا نادراً وإن كثرة تغيير الحكام لرينا في جلاء كيف أن العرش لم يكن مستقراً . فقد حكم ستة سلاطين من السلاطين البرجية لمدة مائة وثلاث سنوات من مجموع الفترة كلها التي تبلغ مائة وأربع وثلاثين سنة . ومعنى ذلك أن الإحدى وثلاثين سنة الباقية حكم فيها سبعة عشر حاكماً ، أي أن كلا منهم حكم أقل من سنتين .

ولم يكن خلق الحكام يختلف كثيراً عن سبوقهم ، مع أن الضعف كان يسود البلاد . قلما كان يوجد بينهم من يعشق الحرب ، ولعل ذلك راجع إلى حد كبير إلى عدم اتصافهم بالهبة والقوة ، ولم يظهر بذلك من بينهم حكام اتصفوا بخوض غمار الحروب ، من أمثال بيبرس وفلاوون . والواقع أن الشراكسة لم يكونوا جنوداً ، بل أصحاب مشروعات ليس إلا ، فقد كان اعتمادهم على النجاح في الحرب أو الشجاعة الشخصية أقل من اعتمادهم على المؤامرات والخديعة والخيال ، وذلك لرغبتهم في الاحتفاظ بالسلطة . فقد فاق « خوشقدم » اليوناني سواء في سياسته الحاذقة إزاء الأحزاب المتخاصمة وفي استيلائه على تلك الرشاوى الفادحة التي كان يستولى عليها نظير بيعه الوظائف العامة . فقد دفع حاكم دمشق خمسة وأربعين ألف دينار للحصول على هذا المنصب . كما أن وظيفته السابقة نيعت إلى أحد الرجال بمبلغ عشرة آلاف دينار . أما وزراء الدولة فقد كانوا يعملون عن هذا إذا ما أثار أعداؤهم قيمتها في نظر اليونان ، ثم أن زيارات هذا السلطان الداهية كانت تكلف من يقتربون بها كثيراً . ولقد ساد الفساد كثيراً خلال الفترة التي حكمت فيها أسرة الشراكسة ، ولم يكن للعدل أو النزاهة وزن في سير الأمور الجارية ، حتى أن شيخ الإسلام - وهو الحاكم الديني - كان يختلس أموال الودائع . وكان الجنود - ممن كانوا يشتررون من العبيد البيض من اليونان والشراكسة والأتراك والمغول ، يقومون بشركات في الشوارع ، حتى أن السيدات لم يجرأن على مغادرة منازلهن . وكان الفلاحون يخشون جلب حاصلاتهم إلى الأسواق حتى لا تقع غنيمة في يد المالك أو في يد الحكومة . أما في القرى فقد كان الناس يتلاشون إزاء ضغط الجند ، وقلما يوجد في العاصمة سلام أو نظام . وفي بعض الأحيان كانت الأحزاب المتخاصمة يقاتل بعضها البعض من فوق أسوار القلعة ومن سقف مسجد السلطان حسن المقابل لها ، وتقام المنابر في الشوارع ، ويجعل من الأسواق ساحات للقتال ، حيث كان المتمردون يوقعون في سروج الجبال حتى يلحقهم الموت . وكان كل هذا من الأمور العادية في ذلك الوقت .

ولكن على الرغم من كل هذا العنف والفساد الذي ساد البلاد ، قد كان السلاطين البرجية لا يحاولون الاحتفاظ بسلطة مصر لحسب ، وإنما كانوا يعملون على توسيع مستعمراتها وتنمية تجارتها . ولقد وقفوا في حزم أمام تيمورلنك عام ١٣٩٩ ، ولو أنهم وجدوا في نهاية الأمر أنه من الأفضل قبول شروطه . ولكن الفاتح العظيم في الوقت نفسه لم يجرؤ على غزو مصر . ثم أنهم قاموا بعدة حملات على آسيا

الصغرى حيث أخضعوا حيناً من الوقت كلا من كرمان وقيصرية ولازندا وحتى قبرص التي كانت وكرأ للقرصنة الذين كانوا يهددون الملاحة المصرية ، وقد غزوها في عام سنة ١٤٢٦ بأسطول بحرى مكون من عدة سفن مصنوعة في ميناء بولاق . وبعد أن أسروا الملك جيمس ملك لوزيمبان في موقعة Chierocitia ، أحضره ظافرين إلى قلعة القاهرة ومعه تاج قبرص وأعلامها المخدولة ، حيث أرغموه على تقبيل الأرض أمام السلطان بارسباى . ولقد افتداه فنصل البندقية والتجار الأرييون ، ومن ثم ركب خلال الشوارع والأسواق في عظمة وجلال ، بعد أن أصبح تابعاً لملك مصر . وكانت قبرص تدفع جزية حتى نهاية دولة الشراكسة . إلا أن عدة محاولات لغزو رودس ما بين عامى ١٤٤٠ - ١٤٤٤ كان نصيبها الفشل ، إذ ردت على أعقابها بواسطة الفرسان . وحتى نهاية الأسرة التركسية كانت الحدود المصرية لا تزال تمتد شمالاً حتى Pyramus II ونهر الفرات . ولعل من أغرب ما يروى في تاريخ الشرق ، هو امتزاج ذلك الفساد والانحلال وتلك القسوة والوحشية بالرقي الحضارة المادية وانتعاش الفن ، مما ندسه لدى سلاطين المماليك . والواقع أن الشراكسة لم يكونوا أقل من أسلافهم الأتراك في مضمار هندسة البناء . ولقد كان كثير من سلالة المماليك الثانية ذوى ثقافة عالية ، فقد كان برقوق ، ود المؤيد ، ود قايتباى ، شغوفين بالمجتمع المثقف والدراسات الأدبية . وعلى الرغم من أن بارسباى ، لم يكن يعرف إلا قليلاً من اللغة العربية ، فإنه كان يحب أن يستمع إلى العيني ، وهو يقرأ عليه التاريخ التركى وقصصه . ثم أن تمر بفا ، اليونانى كان لغوياً ومؤرخاً عالماً دينياً . هذا إلى أنهم كانوا مسلمين حقيقيين ، يصومون بانتظام ويمتنعون عن شرب الخمر ، ويحجون إلى بيت الله الحرام ، ويضمنون مكانهم في العالم الآخر ببناء المساجد والمدارس والمستشفيات والمعاهد الدينية . فقد كان د المؤيد ، على سبيل المثال ، ولو أنه كان عاجزاً تماماً عن إخماد الثورات والاضطرابات في عهده ، رجل دين وعلم ، موسيقياً بارعاً ، شاعراً ، خطيباً ، مدققاً في مراعاة أحكام الدين ، بسيطاً كل البساطة في ملبسه ونظام معيشته ، يسلك سلوك أى مسلم عادى بين جمهرة المصلين ، ويلبس رداء من الصوف الأبيض البسيط حزناً على الوباء الذى اجتاح البلاد . والرواق الشرقى في مسجده الرائع (١٤١٥ - ١٤٢١) لا يزال موجوداً في شارع السكرية ، حيث يمكن أن نرى عدداً من الصيانيان (١٤)

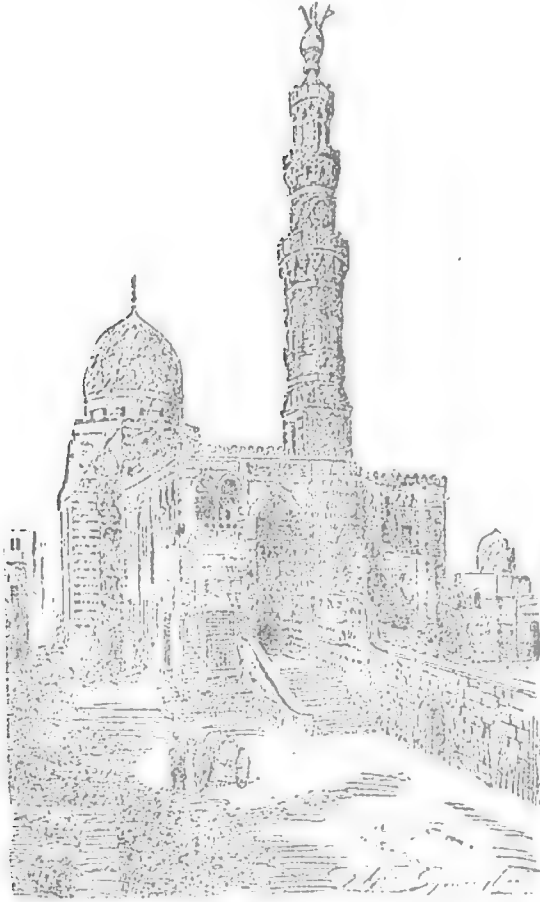
منسكبين على الدرس ، ومن فوق رؤوسهم النقوش الذهبية البديعة والزخارف والرسوم المختلفة على الجدران ، وهى التى أحيأها باعتناء هرنز بك ، الذى اكتشف آثاراً للزخارف الأصلية القديمة التى كاد الزمن أن يذهب بها ، أما مآذن الجامع فبنية على أبراج باب زويلة الجانبية . وهناك أيضاً مستشفى مهتم (المارستان المؤيدى ١٤١٨) بجوار القلعة مما يدل على تقواه وأعماله الخيرية . ولا يزال جامع بارسباى العظيم - الأشرقية ١٤٢٣ - مكاناً تعقد فيه الاجتماعات ، على جانب الموسيقى حيث يؤدى إلى الغورية . ولقد بنى دبرقق ، فى عام ١٣٨٦ مدرسة نفمة فيما بين القصرين ، وهى التى قام باصلاحها أخيراً هرنز بك . كما يعد ضريحه ذو القبتين - وهو الذى بدأ العمل فيه فى عهده وأكمله من بعده ابنه السلطان فرج فى عام ١٤١٠ - واحداً من أروع ما تحويه المقابر الشرقية بما فيها من قباب جميلة ومآذن رفيعة رقيقة . إلا أن أقرب ضريح إلى السكال فى تلك المجموعة ، هو ضريح قايتباى (١٤٧٢) ، الذى يمثل آخر ما وصلت إليه المدرسة المملوكية من رقى . والواقع أن النقوش العربية الرائعة الموجودة فى قبة الجميلة ، والانتقال التدريجى البديع فى مئذنته الفخمة من المربع إلى المثلث ، ومن المثلث إلى الدائرة ، ثم البراعة فى تغطية الزوايا المختلفة ، والرخام المنقوش الموجود فى الإيوان - كل هذه الأشياء تعتبر تحفاً فنية رائعة على الرغم من الإهمال والتخريب الذى لحقها فى القرون المختلفة .



القرافة الشرقية - مقابر الخلفاء

أما «قايتباي» - الذي يعتبر حكمه الذي بلغ ثمانية وعشرين عاماً (١٤٦٨ - ١٤٩٦) حادثاً غريباً في تلك الدولة السريعة التغير - فقد شق طريقه بنفسه ، رغم أنه لم يكن من أصل نبيل . ذلك أن «بارسباي» اشتراه بأدى ذى بدء بمبلغ خمس وعشرين جنياً ، ثم طلق ينتقل من سيد إلى آخر ، ويرتقى من درجة إلى أخرى ، حتى انتهى به المطاف إلى أن أصبح القائد الأعلى للجيش أيام «تمربغا» اليوناني . ولقد كلف ذلك الجيش خزانة الدولة ما يقرب من ثلاثمائة ألف جنية ، وهو اعتماد ضخم للجيش في القرن الخامس عشر . وكان قايتباي جندياً محنكاً ، وبارعاً في رمي الرماح ، وقد أكسبته حياته خبرة ودراية بالعالم ، وكان يتصف بالشجاعة ، والعدل ، وبعد النظر ، والنشاط ، والحزم . ولقد طغت شخصيته على ممالكه الذين كانوا يخلصون له ويخشون منافسه . وكانت قوته الجنائية تظهر أحياناً حينما كان يصفع بنفسه في بعض الأحيان رئيس مجلس الدولة أو غيره من كبار الموظفين ، لحثهم على اغتصاب المال لخزانة الدولة . وقد كانت تلك الاغتصابات والضرائب الباهظة ضرورية لمواجهة الحروب التي كان عليه أن يشنها . ومن ثم وجدناه لا يكتفي بضريبة الأرض التي كانت تبلغ خمس المحصول الناتج منها ، بل أضاف إليها ضريبة جديدة بمعدل نصف درهم على كل أردب من القمح . أما أغنياء اليهود والمسيحيين فقد كانت تمتص أموالهم في غير رحمة ولا شفقة ، وكان هناك كثير من مظاهر القسوة : فقد كان الأبرياء يضربون بالسياط حتى يدركهم الموت في كثير من الأحيان ، وقد حدث أن وثقت عيننا الكياموي «على بن المرشوشي» وقطع لسانه لأنه لم يستطع أن يجبل الصدا ذهباً .

وعرف عن السلطان البخل إلى درجة الشح ، ومع ذلك فإن قائمة الأعمال العامة التي قام بها - لا في مصر وحدها ، وإنما في سوريا وبلاد العرب - تدلنا في جلاء على أنه أنفق دخل البلاد على أشياء رائدة . فمسجده في القاهرة - وأحدهما في الخارج بين «مدافن الخلفاء» ، (١٤٧٢) والآخر بالقرب من مسجد ابن طولون (١٤٧٥) والوكالات التي بناها ، تعتبر من أجمل نماذج الزخرفة العربية في فن البناء الإسلامي . ثم أنه عمل كثيراً على إصلاح آثار أسلافه المتهدمة ، كما تشهد بذلك النقوش المختلفة في المساجد والمدارس والقلعة وغير ذلك من مباني القاهرة الكثيرة . هذا إلى أنه كان كثير الأسفار ، إذ رحل إلى سوريا ونهر الفرات



مسجد قايتباى - القرافة الشرقية

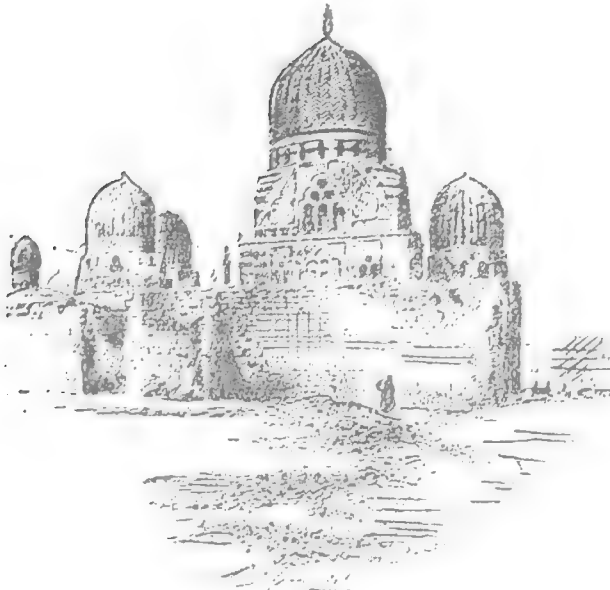
وصعيد مصر والوجه البحرى ، كما كان يقوم بزيارة مكة وبيت المقدس . وحيثما ذهب ، كان يترك آثاراً للتقدم فى الطرق الجيدة الممهدة ، والجسور ، والمساجد والمدارس ، والتحصينات ، وغير ذلك من الأعمال الخيرية أو غيرها . والواقع أنه مامن حكم - عدا حكم الناصر بن قلاوون - خلال فترة المماليك الطويلة ، يفوق هذا الحكم فى مضمار البناء والفنون المختلفة . حقيقة أن الشعب دفع ثمن هذه الأشياء غالياً ، إلا أن جمالها بقى لتشهد به الأجيال المتعاقبة (١) .

ونحن نستطيع أن نقبين فى مباني « قايتباى » ومعاصريه ، إيمان الفن العربى الخالص والنقوش الهندسية الرفيعة . وفى بداية تاريخ الفن العربى ، كانت الزخارف

(١) أنظر كتاب المؤلف A History of Egypt in the Middle Ages

تصنع من الجص الرقيق . وكان استخدام الآلة - لا الغالب - في هذه المادة الرقيقة يكسب النقش حرية في الأداء ، مثال ذلك النقوش الموجودة في جامع ابن طولون . وقد استمر الجص أساس زخرفة الأفرز طوال الفترة الفاطمية . ويمكن رؤيته في الأروقة الأصلية القديمة للجامع الأزهر ، وفي المصلى الشرقى للجامع الحاكم . وعلى أى حال ، فإن أجل نموذج للنقوش المصنوعة من الجص يمكن رؤيته في مسجد فلاون وضريحه ، حيث تتكون أطراف الأقواس التى كانت تحمل القبة الأصلية القديمة ، وكذلك أقواس النوافذ العليا من نقوش رقيقة مصنوعة من الجص مستمرة حول نطاق واسع ، بحيث يصعب على الناظر أن يتوقف قبل أن يحيل نظره فيها بأكملها . وبعد الناصر ، - الذى استعمل أيضا الملاط - كان الحجر يفضل بدلا من الجص ، على الرغم من أننا لا نزال نشاهد نماذج رائعة للنقوش المصنوعة من الجص في قبة أفسنقر وفي الزخارف الجميلة الموجودة في « القبة القديونية » . وفي جامع السلطان حسن ، نجد جميع النقوش - ماعدا الإفريز السكوني - مصنوعة من الحجر ، وبما أن هذه المادة صلبة لاتلين ، فإننا ندس لأول وهلة شيئا من الجفاف والصلابة في النقش ، وتقييدا في خطوط الزخرفة ، وميلا إلى إحلال الرسوم الهندسية محل النقوش العربية الخالصة . ويعتبر المنبر الحجري الذى بناه « قايتباى » عام ١٤٨٣ في مسجد بروجى ، واحداً من أروع نماذج النقوش الهندسية في القاهرة فنظره الجانبي مثلث الشكل ، شأنه في ذلك شأن المنابر الخشبية الموجودة في سائر المساجد الأخرى . ولكن بدلا من ألواح الخشب الجانبية الموشاة بالزخارف والنقوش المختلفة ، نجده يتكون بأكمله من ألواح حجرية ملتصقة ببعضها ، وعليها رسوم هندسية تغطي السطح جميعه ، بحيث يتكون في مجموعه من شبكة من الزخارف البديعة التى تكون شكل أنموذج للنجمة ، يشغل الفراغ فيها أزهار منقوشة على الطراز العربى الجميل . ومثل هذه النقوش تزين جوانب السلم الحلزونى والرواق في ذلك المنبر الفريد .

ولقد كان « قايتباى » أكثر مهندسى القاهرة تدقيقا ، إذ لم يسمح بأى إهمال بسيط في أبنيته . هذا إلى أن الزخارف الكثيرة التى كانت تزينها ، كانت تنقش جميعا



أضرحة

على الحجر الجيري (الكلس) أو الرخام^(١) . ونحن نستطيع أن ندرك بهاء هذه الزينة وفخامتها حينما نرى مسجده داخل المدينة بالقرب من مسجد أحمد بن طولون، حيث يتكون الرواق الأساسى فيه من إثنتين وعشرين كتلة من الحجر على كل جانب ، لونها أبيض وأحمر على التبادل ، وكل واحدة من الحجارة البيضاء مغطاة برسوم هندسية أو نقوش عربية ، بحيث لا توجد إثنان منها متماثلتان . وتكون النقوش العربية من شكل زهرة النفل وحولها أوراق الشجر المتشابكة فى صورة تقليدية جميلة . أما الرسوم الهندسية - ولو أنها تبدو لأول وهلة أنها مكونة من أشكال خماسية وسداسية غير منتظمة - فإنها منقوشة فى صورة منتظمة . وتكون فى مجموعها رسماً رائعاً . ويلاحظ فوق أطراف الأقواس أيقونة - ومثلها كثير فى القاهرة - عليها اسم السلطان وبعض الدعاء له . وهناك بضعة سور قرآنية مكتوبة على شكل إفريز ويتمثلها بعض النقوش العربية ، أسفل تيجان الأعمدة . والتأثير

(١) لم يكن استخدام الرخام شائعاً قبل القرن الثالث عشر حيث بدأ فى استخدامه على أوجه الكنائس . وأحسن ما يمكن أن نراه منه فى السقوف المنقوشة والجدران التى على الطراز «الموازيك» Mosaic . وكانت هذه الجدران تتكون من قطع رخامية مختلفة الألوان تلصق إما بالملاط أو تثبت فى لوح كبير من الرخام .

العام لكل ، هذا هو الإسراف العجيب في النقوش والزينة ، إذ لا توجد مسافة مهما صغرت إلا ونجد عليها بعض الرسوم . وحتى الوكالات والحانات لم يتركها « قايتباي » دون شيء من الزخارف الرقيقة ، وقليلة هي تلك المباني في القاهرة التي تفوق في زخرفتها تلك الوكالة التي توجد في الشارع الواقع غرب الجامع الأزهر . أما الداخل فإنه أسوأ الحظ قد لحقه البلى ، ولكن ما من شك في أنه كان يحوى أبدع الرسوم في يوم من الأيام . وأما الواجهة فإنها لا تزال في حالة جيدة ، وتستحق دراسة فاحصة من جانب كل من يرغب في تفهم النقوش العربية والهندسية في أحسن صورها وأجلاها (١) . وحين نصفها بذلك ، قد تكون هناك معارضة فخراها أن بعض النقوش تكرر في صورة واحدة متشابهة ، على عكس الطريقة الأيبنة التي كان يتبعها قدامى الفنانين الذين كانوا يمتثلون التكرار ويحتفرونه . غير أنه في عصر « قايتباي » ، أدرك القوم أن لوحدة الشكل Uniformity جمال معين ، كما وجدوا أن تناسق الرسوم وتكرارها يحدث تأثيراً رائعاً . ويعتبر هذا التغيير جزءاً من الاتجاه العام إزاء الهندسة الموحدة والزخارف الرتيبة ، التي تميز أسلوب الفترة الأخيرة من عهد المماليك . ومهما يكن من شيء ، فإنه يوجد هناك تنوع كثير في النقوش العربية والهندسية التي تزين الحدود العليا لثلاث عشرة حائوتا ، وفي البوابة المقدسة الجميلة الموجودة في الوسط ، وفي العمود المنقوش الموجود في الركن بجوار السبيل ، بما فيه من زخارف رائعة في قته . وليس ثمة ريب في أن هذه الوكالة كانت في حالتها القديمة من أروع الأبنية وأجملها ، وحتى وهي على هذه الصورة الراهنة ، نستطيع أن نعتبرها بمثابة مرجع للزخارف العربية .

والواقع أن أغلب عصر « قايتباي » كان تكراراً - من حيث البناء - لعصر « الناصر » ، الزاهر . ومساجد الشراكية هي في العادة أكثر ما يفضل المهندسون ، وحتى النظارة العاديين الذين لا خبرة لهم في مثل هذه الأشياء ، فأجزاءها المتناسقة ومآذنها الآنيقة ، وقبابها الجميلة النقش ، وواجهاتها الفاخرة ، وتيجان أعمدتها

(١) عندما كنت في القاهرة عام ١٨٨٣ استخرجت على ورق (عليه طبعة من المجلس الباريسي للزوج بالفراء) جميع النقوش للوجود في هذه الوكالة . ويمكن معاينة بعض النقوش التي صنعت من تلك القوالب في المتحف الموجود في South Kensington .

المنقوشة ، وزراباها الحافلة بالزخارف ، ورخامها رائع الرسم ، وقبلاتها كثيرة النقوش - كلها بالغة الروعة في الذوق والوضع . وإلى جانب مسجد قايتهباي الفاخرين ، نجد مساجد الأمراء وأربك اليوسفي ، (١٤٩٥) ووخير بك ، (١٥٠٢) والأمير «أخورقاني بك» ، (١٥٠٣) - حافلة بالنقوش الدقيقة الجميلة . ولعل أروع أنموذج لفن البناء الشرقي جدير بالمشاهدة ، هو مدرسة القاضي أبو بكر بن مظهر (١٤٨٠) ، التي تم إصلاحها بمهارة فائقة على أيدي جماعة حفظ الآثار العربية . التي بذل مهندسها هرز بك مجهوداً صادقاً في تتبع الألوان الأصلية وإعادةتها إلى ما كانت عليه . وهناك إصلاح دقيق آخر حدث في مسجد الأمير وكجاس الإسماعلي ، (١٤٨١) . وكلا الإصلاحين يدلان على تحسن واضح عن التجارب الأولى التي أجريت لإصلاح مدرسة البروقية .

وبلاحظ أن الشكل الصليبي القديم للمدارس قد حدث فيه تعديل كبير في القرن الخامس عشر . وعلى الرغم من أن المدرسة ، كانت لا تزال مهتداً للعلم ، إلا أنها بدأت تتعدى على وظيفة الجامع ، أو المسجد الذي تعقد فيه الاجتماعات . وهكذا كانت صلاة الجمعة تقام في المدرسة ، حيث لم تكن تبني هناك سوى جوامع قليلة - وكان أهمها جوامع المؤيد ، وبارسباي ، و«أربك» - وقد وسّعت الفضاء والجناح الأيمن (المصلي) ، بينما أصبحت الأجنحة الجانبية أصغر عن ذي قبل ، بحيث لم تعد سوى أجواف ضيقة . وربما كان تضيق الأجنحة الجانبية على هذه الصورة يرجع - إلى حد ما - إلى أنه لم يكن يتبع من المذاهب الأربعة القديمة في مصر سوى إثنين ، هما المذهب الشافعي والمذهب الحنفي ، ومن ثم لم يبق هناك حاجة إلى الاحتفاظ بأربع قاعات منفصلة للمحاضرات . وكانت النتيجة أن وجدنا هناك توفيق بين المدرسة والجامع في عهد السلاطين الشراكسة ، إذ أدخل تعديل على صورة المدرسة ، بحيث أصبحت تلائم مقتضيات الجامع . وهذه الصورة المعدلة للمدرسة تعتبر شائعة إلى حد بعيد في فن البناء الشرقي ، ولعل أهم خواص هذه الصورة الجديدة - اتساع المصلي وصغر الأجنحة الجانبية - تتضح لنا في جلاء في مدرسة وكجاس ، (١).

(١) أنظر كتاب M. Van Berchem : Corpus Inscr. Arabicarum ص ٥٢٣

فيما يختص بتغيير الشكل الصليبي للمدرسة .

والى نهاية عصر المماليك فى مصر ، وحينما أصبح الغزو العثمانى قاب قوسين أو أدنى ، كان المماليك الشراكسة يحتفظون بكثير من قوتهم وقدرتهم . والواقع أنه لا يوجد فى سلاتهم أعجب من ذلك السلطان الطاعن فى السن « الغورى » ، والذى اعتلى العرش فى عام ١٥٠١ بعد أن تولى العرش أربعة سلاطين خلفوا « قايتباى » ، كل واحد منهم كان أضعف من الآخر . وكان الغورى هذا رجلاً ذا رأى قاطع وعزيمة ماضية ، إذ أخذ الفوضى التى حدثت فى القاهرة ، وجمع ضريبة عشرة أشهر دفعة واحدة حتى يملأ خزانة الدولة ، كما فرض ضرائب جديدة على الطواحين المائية ، والقوارب والجمال ، واليهود ، والمسيحيين ، والخدم ، وكل مورد يمكن استغلاله . كذلك عمل على زيادة الرسوم الجمركية ، واحتكر الضياع الواسعة ، وفرض ضرائب ثقيلة على الموتى . وبعد أن أنفخ دخل الدولة على هذه الصورة ، وصار اسمه مقروناً بالسلب والاختصاص ، بدأ ينفق فى سخاء على الأعمال العامة العظيمة . وكان من بين أعماله الجليلة شق الطرق ، وحفر الترع ، وتحصين السواحل ، وتوسيع قلعة القاهرة ، وتحسين طريق الحجاج إلى مكة ، ولانزال مدرسته (١٥٠٣) ومسجده (الذى لم يدفن فيه) بواجه كل منهما الآخر ، على جانبيين متقابلين من الشارع الذى يحمل اسمه - الغورية - على الرغم من التشويه الذى لحقهما أثناء الإصلاح الآخرى الذى أجرى فيها منذ ثلاثين عاماً . كذلك فإنه بنى مئذنة للجامع الأزهر ، وشيد مقياس النيل بجزيرة الروضة ، وسيل المؤمنين فى الرملة ، وطواحين المياه فى مصر العتيقة ، كما أصلح قناة المياه التى تصل إلى القلعة . وكان أيقاً فى قصره ، كريماً بالنسبة إلى الشعراء والموسيقين ، فى حين كان يفرض غرامة على وارثى نبلائه ويسلب من التامى أموالهم . وعندما تحقق من أهمية تجارة الهند - التى كان يهددها البرتغاليون فى ذلك الوقت - أنشأ أسطولاً فى البحر الأحمر وأرسله إلى الهند ، حيث هزم - بمساعدة حاكم ديو Diu - البرتغاليون المهربين بقيادة « الميدا Almida » ، فى موقعة خارج « شول Chaul » ، عام ١٥٠٨ . وفى النهاية - بعد أن كان السيف قد سبق العزل - قاد جيشه إلى سوريا ليحارب العثمانيين المتقدمين ، وسقط وهو يحارب فى سن السادسة والسبعين فى موقعة « مرج دابق » المشهورة بالقرب من « ألبو Aleppo » ، حيث انسحب جانبان من الجيش بقيادة « خيربك » و « الغزالى » ، وتركوا السلطان المعزوز وحيداً مع حرسه لتطأه بأقدامها

جياذ الفرسان الذين حاول عبثاً أن يجمع شملهم ، وكان ذلك في الرابع والعشرين من شهر أغسطس عام ١٥١٦ . وفي موقعة أخرى في هليوبوليس شمال القاهرة ، كان انهزام المماليك ساحقاً . ولقد حاول طومان باي ، أن يحول دون تقدم الغزاة عند باب النصر ، إلا أن سليماً استدرجه إلى الجانب الآخر ، حيث دار هناك قتال بدأ بيد في الشوارع ، ودمرت القلعة ، و صلب طومان باي ، عند باب زويلة ، وبذلك صارت مصر ولاية من ولايات الإمبراطورية العثمانية .

الباب الثاني

مدينة ألف ليلة وليلة

إتساع القاهرة - ظهور بولاق - الناجد - الانتراب من بولاق - ألف ليلة وليلة
في القاهرة - تجاوزه التالست في مصر - حوائث التجار - خان الخليل - خان
مسرور - وكالة قوصون وسوق الأزهار - الشوارع والأحياء - فن النقش على
الفضة - صناعة المعادن في القاهرة - البندقية - نحت الخشب - عمل الشريعة -
خصائص الفن العربي - رجال الأدب خلال فترة المماليك .

اتمينا في الفصل السابق ، من تاريخ القاهرة كعاصمة لدولة مستقلة ، ووصفنا
بعض المباني الجميلة التي كان يزين بها السلاطين المماليك والنسلاء المدينة . إلا أن
حياة المدينة لا تقتصر على ما يدور في بلاط الملك ، ونحن إذ نقتصر على التحدث
عن السلاطين وما بنوه من مساجد ومدارس ومقابر ، لانكون إلا صورة جد
ناقصة عن القاهرة في العصر الوسيط . وعلى الرغم من أن المدينة تفرثت تحت
أقدام الفاتحين الظافرين ، إلا أنه كان لها حياة حافلة خاصة بها تمثل في التجارة
الرائجة ، والسعادة الاجتماعية ، والثقافة الأدبية . ولم يعد المجتمع القاهري مقصوراً
على رجال البلاط بين جدران القصور الفاطمية الشائخة ، إنما اتسع إلى كل جهة
ماعدة الشرق . فقد تدفق إلى ما وراء الأبواب الشمالية وكون الضاحية الجديدة
التي تسمى الحسينية ، حيث أقيمت عدة مساجد وأضرحة . كما أنه انتشر إلى
الغرب في المسافة الواقعة بين الحائظ الفاطمي القديم ونهر النيل ، ولقد تراجع النهر
إذ ذاك فهد لشكريين ميناء بولاق الجديدة وعدداً كبيراً من المنازل فوق ذلك الجزء
الذي كان فيما مضى يجري للنيل ، ثم حدث أن تحطمت سفينة تسمى القيل ، كان
من نتائجها أن تكون شاطئ رملي يدعى جزيرة القيل ، وهي الجزيرة التي
غيرت مجرى النيل وأوجدت موقعا ممتازاً للبناء . أما في الجنوب ، فإن المسافة التي
كانت توجد بين الأسوار الفاطمية والقلعة ومسجد ابن طولون - حيث لم يكن يوجد
فيها أيام صلاح الدين الأيوبي سوى الحدائق والمنازل الصيفية والغدران التي

تنشأ من فيضان النيل - قد ازدحمت بالمنازل التي كان يبرز من بينها عدد كبير من قباب المالك ومآذنتهم .

ويمكن تتبع اتساع المدينة ، في السجل القيم الذي وضعه المقرئ عن بناء المساجد ، مما يستلزم بطبيعة الحال وجود سكان مجاورين . ويدل مسجد « بونس » (عام ٧١٩) ومسجد « ابن الطباخ » (ابن طاهي الناصر - عام ٧٤٦) في حي « اللوق » ، على أن النهر قد ارتد عن المكان الذي كان يجري بالقرب منه فيما مضى . وعلى نفس الصورة يدل أساس مسجد « ابن غازي » (٧٤١) ومسجد « الطواشي » (٧٤٥) إلى الخارج من (أو غرب) باب البحر ، ثم زاوية « أبو السعود » (٧٢٤) خارج باب القنطرة - على أنه حدث هناك اتساع إلى جهة الغرب ، على الرغم من أن الأرض في تلك الجهة لم تكن تفرعها المياه فيما مضى . ويمكن أن نستدل من تاريخ المساجد على الاتساع العظيم الذي حدث إلى الشمال نتيجة ارتفاع « جزيرة الفيل » قبل عام ١٢٠٠ ميلادية وعلى ظهور « بولاق » بعد ذلك بمائة عام . ويحدثنا « المقرئ » ، بأن « جزيرة الفيل » لم تكن تفرعها المياه إلا أيام الفيضان فقط ، أما بقية العام فكانت تبقى عبارة عن مسطح من الرمال والأعشاب ، حيث كان المالك يتدربون على الرماية في الوقت الذي كانوا يجهلون فيه لعبة « الجولف » . غير أنه حينما تراجع نهر النيل ، أخذ الناس في عام ١٣١٣ بشيكون المنازل نتيجة للإصلاحات التي قام بها الناصر في تلك الجهة ، إذ حفر القناة الجديدة التي كانت تعرف في ذلك الوقت باسم « خليج الناصري » ، والتي تعرف الآن باسم « الإسماعيلية » ، وكانت تستخدم بمثابة مصرف للبقاع هناك ، وقد أعلن هناك في القاهرة ومصر بوجوب البناء في تلك المنطقة دون تأخير ، ومن ثم أخذ الأمراء والجنود والتجار وأفراد الشعب يبنون لهم منازل هناك ، وهكذا برزت بولاق إلى الوجود في تلك الفترة (١) . ويضيف لنا المقرئ إلى هذا أن المياه كانت تؤخذ من النيل بواسطة السواقي التي كانت توجد حيث بنى مسجد « الخطير » ، فيما بعد ، مما يدل على أن النهر لم يتراجع كثيراً منذ ذلك الوقت ، لأنه مازال يجري حتى الآن بالقرب من هذا المسجد الذي بناه « أبدمر »

الخطيرى ، عام ٧٣٧ على أرض كانت تغمرها المياه قبل ذلك التاريخ بثلاثين عاماً . ومن بين المساجد الأخرى فى بولاق مسجد وابن صارم ، والباسطى ، (٨١٧) .

وكان يوجد وراء ، أو شرق ، بولاق - فى المكان الذى يسمى الآن طريق العباسية - قطعة من الأرض بجوار جزيرة الفيل تسمى « أرض الطباله » ، وذلك لأن الخليفة ، المستنصر ، أهداها إلى فتاة مغنية كانت تشيد بمجد الفاطميين بمصاحبة طبلتها . وهناك أيضاً بدأت المنازل تقام ، كما شيد مسجد والكينختى ، على القناة الجديدة ، فى عام ٧٩٠ هجرية . وكان قد أقيم قبل ذلك مسجد الاسبوطى ، حوالى عام ٧٤٠ فوق جزيرة الفيل ، كما أقيم مسجد « ساروجا » ، على القناة الجديدة بالقرب من « بركة الرطل » ، وإلى جهة الشرق أيضاً نجد عدداً من المساجد مقامة فى الأحياء الجديدة خارج أسوار المدينة القديمة ، منها جامع « الملك » ، (٧٣٢) ، و « ابن الفلك » ، فى حى الحسينية ، و « أقوش » ، « ابن المغربى » ، على القناة فى الخارج ؛ ثم صوامع « يونس » ، « الجبغا » ، (٧٥٠) ، « ابن غراب » ، (٧٩٨) ، ثم زوايا « الجعبرى » ، (٦٨٧) ، « نصر » ، (٧١٩) ، « القلندرية » ، (٧٢٢) ، « الخلاقى » ، (٧٣٧) إلى الخارج من « باب النصر » - وكلها تشهد على اتساع المدينة إلى جهة الشمال .

والواقع أن القاهرة كان لها إلى حد بعيد نفس الأجزاء التى كانت لها منذ خمسين عاماً ، قبل أن تنمو الأحياء الأوروبية على نهر النيل . ومن المحتمل أن يكون هناك فارق بسيط - سواء فى المظهر الخارجى أو حياة الطبقتين الوسطى والدنيا - بين القاهرة فى القرن الخامس عشر ، وبين المدينة التى زارها وكتب عنها أو صورها الأوربيون أمثال ولكنسن Wilkinson وبوخاردت Burckhardt ولين Lane وجون فيليب John Philip وهى Hay فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . ويوجد فى هذا الكتاب بعض رسوم Hay و O. B. Carter التى صورت حوالى عام ١٨٣٠ ، وهى يمكن أن تمثل بحق المدينة التى كانت لا تزال بأهم خصائصها فى العصر الوسيط .

وكانت القاهرة فى ذلك الوقت تبدو مختلفة كل الاختلاف بالنسبة لكل قادم جديد يصل إليها من الاسكندرية عن طريق التربة المحمودية ثم برسوفى بولاق .

إذ كان عليه حينئذ أن يركب ميلا كاملا من شاطئ النهر في بولاق حتى ، الباب الحديد ، حيث كسبت تدخل القاهرة من الزاوية الشمالية الغربية ، وبدلا من المنازل الكثيرة التي توجد اليوم ، لم تكن ترى منزلا واحداً في ذلك الوقت . ويحدثنا « لين » Lane^(١) بأنه يوجد هناك طريقان رئيسيان يتماثلان تقريباً في الطول يؤديان من بولاق إلى القاهرة ، إما الطريق الشمالي - الذي يتخرج في بعض الأحيان - فهو يعتبر الطريق الرئيسى للتجارة ، إذ لم تكن هناك سكك حديدية في ذلك الوقت ، فيؤدى إلى « الباب الحديد » . وأما الطريق الجنوبي ، فبعد أن يعبر قناتين يدخل الجانب الغربى من الأزبكية . ونحن إذ نسلك الطريق الأخير ، نمر بمسجد « أبى العلاء » على الجانب الأيمن ، ولقد عمل الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر على تلمية هذا الطريق ، بقصد مده خلال المدينة حتى ينتهى إلى القلعة . وهو طريق مستقيم ومنسج ، إلا أنه غير مستو ، وينقصه صف من الأشجار على جانبه الجنوبي لكى يظله . وقد تم تلمية هذا الطريق بضعه أقدام فوق مستوى السهل ، حتى يصبح بعيداً عن تأثير الفيضان . ويوجد على كلا الجانبين خلال فترة الفيضان مستنقعات وحقول غارقة . وحالما يرتد الماء عن هذه الأراضي ، يبذر فيها القمح والفول والنفل وغير ذلك . ثم إنك تجد هنا وهناك بعض أشجار النخيل والجزر والسنت . وكان يحده السهل شرقاً فيما مضى تلال كثيرة من القاذورات (هى بدون شك بقايا المقس) كانت تحتفى المدينة ورائها تقريباً . ويعبر الطريق قناتين يوجد فوق كل منها جسر مبنى من الحجر ، وعلى طول الجانب الغربى من القناة الثانية - على يمين الطريق - توجد سلسلة طويلة من الأنقاض والقاذورات . ومن أعلى هذه السلسلة - على بعد حوالى ربع ميل من باب الأزبكية - نستطيع أن نحصل على منظر عام للقاهرة .

ذلك هو طريق الوصول إلى القاهرة في النصف الأول من القرن التاسع عشر . ولئن كان الوصف يكتشفه شئ من الوحشة والخسونة ، إلا أنه يربنا في الوقت نفسه أى مكان كانت مصر قبل أن يدخل فيها البناء الأوربى . وحينما كان السامح يسير مكشوداً في الطريق غير المستو بين حقول الفول في عام ١٨٣٥ ، إنما كان يحترق

(١) لين : « القاهرة منذ خمسين سنة » ص ٣٤ - ٣٥ Lane: Cairo Fifty Years Ago

تماماً نفس المكان الذى كان يطأه فرسان الممالك بضعة قرون ، وكان يقترب من مدينة كانت فى جملتها مدينة ألف ليلة وليلة . وليس هناك أى شك - كما هو واضح فى الداخل - فى أن هذه القصص المشهورة نشأت فى القاهرة . وبطبيعة الحال يمكن تتبع أصولها إلى حد بعيد فى بلاد الفرس والهند ، إلا أنها اصطبغت بصبغتها النهائية فى مصر . وعلى الرغم من أن كثيراً من مناظرها يقع فى بغداد - حيث لعب هاون الرشيد المشهور دوراً ظاهراً وغريباً فى آن واحد - فإنه من الواضح لدى أى طالب من طلاب الطوبوغرافيا أن الكتاب كانوا يعرفون مدينة الخليفة على وجهه جديداً ناقص . إنما القاهرة هى التى يعرفونها ويصفونها ، مهما يكن من شأن الأسماء التى يعطونها لمناظر رواياتهم . وهناك ما يجعل من المحتمل أن تكون ألف ليلة وليلة قد اتخذت صبغتها الحالية - فى كل كبيرة وصغيرة - قبل منتصف القرن الرابع عشر . وآخر شخصية تاريخية ذكرت هى صلاح الدين ، وهناك كثير من الأسباب التى تجعلنا نعتقد أن هذه القصص جمعت وكتبت فى صيغة تقرب من صيغتها النهائية أثناء حركة إحياء الآداب التى توجت العصر الذهبى لحضارة الممالك فى مصر . فالمجتمع الذى يصفونه هو بعينه ما نعرفه عن زمن الممالك : مجتمع مسلم قويم يصطبغ بصبغة القاهرة .

ولعله من الغريب حقاً أن يكون أمر ذلك الكتاب المشهور محل شك ، إلا أن التفسير من السهولة بمكان كبير . فقد كان المثقفون ورجال العلم فى الشرق ينظرون إلى مثل هذه القصص على الدوام نظرة ملؤها الاحتقار ، وذلك لأنها كانت خلواً تماماً من القيمة الأدبية التى كانت تعتبر الفخر الأول لرجال الأدب الحقيقين . ومن ثم فإنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء ذكر ألف ليلة وليلة إلا فى اثنين أو ثلاثة من المراجع غير الموثوق بها التى لا تعين على وجه التحديد تاريخ تلك الرواية . فلقد كتبت وألف ليلة وليلة ، للشعب ، للجمهور الذى كان يجتمع فى المقامى ليصغى إلى ما يسرده القصاصون المحترفون ، للطبقة الوسطى غير المثقفة الكثيرة العدد فى القاهرة . هذا هو ما يجعل لهذه القصص قيمة خاصة فى نظر طلاب مصر فى العصور الوسطى . ونحن نعرف أعمال الملوك والأمراء من الصفحات المسهبة التى كتبها المقريزى ، وغيره من الكتاب المعروفين . أما حياة الشعب فإننا نصل إليها خلال صفحات ألف ليلة وليلة ، وهى حياة يفصلها عن حياة العظماء حوة سحيقة قلباً يثب من فوقها

المؤرخون الشرقيون . وألف ليلة وليلة تشمل على وجه الخصوص مغامرات التجار وأصحاب الحوانيت . حقيقة أننا نقرأ فيها عن الخلفاء السلاطين والوزراء ، كما نجد فيها شيئاً عن الجن والغاريت والمردة ، إلا أن أبطال القصص الحقيقيين هم التجار الذين لديهم حوانيت يتجرون فيها ، والذين لهم مغامرات في البحار حيث تسكثر أسفارهم . ومن الممكن أن يكون وسندباد ، قد سمع الكثير من مغامراته الشخصية من أفواه أشبات الجاهيل التي كانت تحتشد على أرصفة ميناء مصر من كل حذب وصوب . ولقد وقف ابن سعيد ، في الميناء وشاهد بنفسه شحن المراكب في عام ١٢٤٦ حيث لاحظ وصول سفن من جميع الأقطار . أما فيما يختص بتجارة البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر التي تأتي إلى مصر فإنها أبعد من أن يحيط بها أى وصف ؛ فهي تفرغ هنا - لافي القاهرة - ومن ثم توزع على جميع أنحاء القطر المصري . وما كان يصدق عن مصر ، والمقس ، كان يصدق أيضاً عن ميناء القرن الرابع عشر التي جاءت بعد ذلك وهي «بولاق» . ومن «بولاق» هذه ركب أحمد ، سفينة - بعد أن أنفق كل ميراثه مع زوجته في جزيرة الروضة - قاصداً دمياط ، ومنها إلى حيث يبحث عن ثروة جديدة . وكثرة الإشارة إلى الرحلات التجارية والثروات الطائلة يدلنا تماماً عما كان يحدث لشعب لم تقتصر ثروته على التربة الخصبة ، وإنما كانت تعتمد كذلك على التجارة الأجنبية الواسعة النطاق .

ونحن نستطيع أن نستدل على قيمة تجارة الترانست في مصر أيام المماليك من بضعة حقائق قليلة . فقد كانت السفينة الواحدة التي تفرغ حمولتها في الإسكندرية تدفع رسوماً جمركية مقدارها واحد وعشرون ألف جنيه . وقد وجدت الجمهورية الإيطالية أنه من الواجب أن يكون لها وكلاء قناصل في مصر . وليس أدل على وجود مستعمرة قوية من التجار الأوربيين ، من أنهم استطاعوا - وعلى رأسهم قنصل البندقية - دفع فدية لملك قبرص ومقدارها مائة ألف جنيه . وكان أهل البندقية يتمتعون بامتيازات خاصة في مصر منذ أيام «العادل» سنة ١٢٠٨ ، حيث سمح لهم ببناء فندق خاص بهم في الإسكندرية . وكان لأهل «بيزا» قنصل خاص بهم هناك ، كما أن امتيازات البندقية تم تجديدها في عام ١٩٣٨ . ومن جهة أخرى ، فإنه كانت توجد على البحر الأحمر موانئ «السويس» و «الطور» و «القصر» و «عيدماب» و «دهلك» و «سواكن» ، حيث كان السلاطين المماليك يفرضون رسوم جمركية تبلغ

عشر قيمة البضاعة . واقد نمت تجارة الهند وازدهرت أيام سلاطين المماليك البرجية . وكاف هناك تنافس شديد وحرب جمركية بين الموانئ العربية والموانئ المصرية في البحر الأحمر ، وذلك لضمان الرسوم الجمركية الثقيلة التي كانت تفرض بالإضافة إلى عشر قيمة البضائع . ونحن نعلم أن أربعين مركباً تجارية أتت من الهند وبلاد الفرس في عام ١٤٢٦ ثم رست في جدة ، حيث دفعت رسوم جمركية بلغت ستة وثلاثين ألف جنيهه ، وفي مكة ، التي كانت مثلها كانت ينبع ، ميناء مصرياً . ولم تكن الضرائب الجمركية الحكومية مقصورة على التوريد . فقد كان هناك بعض الاحتكار : فقد كان كل من السكر والفلفل والخشب والمعادن لا يباع إلا في مستودعات الحكومة بالأسعار الحكومية ، كما يكون معرضاً للضرائب . وكانت رسالة الفلفل التي تشتري في القاهرة بخمسين ديناراً ، تباع للأوربيين في الإسكندرية بمائة وثلاثين ديناراً وفقاً لقوانين الحكومة . وبعد أن فشل أهل البندقية في مساعدتهم القنصلية ، أرسلوا أسطولاً إلى الإسكندرية ليحضر جميع تجارهم ، وقد اضطروا بارسباي ، إلى التساهل في بعض شروطه القاسية .

وينضح لنا اهتمام السلاطين الشراكسة بتجارة الترانست بين الهند وأوروبا ، من المجهود الضخم الذي بذله الغوري ، لسحق البرتغاليين في بحر العرب حالما أدرك التنافس الخطر لطريق رأس الرجاء الصالح . وما من شك في أن تجارة الترانست كانت مصدراً هاماً لثروة البلاد ، وقد قال بحق المستر كامبرون Mr. Cameron - فنصل إنجلترا في بورسعيد - أن السلاطين المماليك سادة مصر وسوريا على السواء . فقد استولوا على الموانئ وطرق القوافل بين أوروبا وبين تجارة الهند ، وفرضوا رسوم جمركية على كل بضاعة شرقية تصل من الخليج الفارسي والبحر الأحمر لتقلها إلى الموانئ التي بين الإسكندرية والإسكندونة ، ولتضخها إلى البندقية . وحتى اكتشاف طريق الكاب في عام ١٤٩٨ وما نتج عنه من تطور ، كان المماليك يتمتعون باحتكار جميع تجارة الهند مع بلاد المشرق ، وكانت البندقية - بتساهلها التجاري معهم - عميلتهم الوحيدة في القارة . ولتحاول الآن أن نعيظ الثأم من معنى هذا الاحتكار ، فالناجر العربي - مثل السندباد البحري - يشتري ما قيمته عشرة آلاف جنيهها من الحرير الخام وجوز الطيب والفلفل والنيلة والقرنفل والعصى من بلاد الفرس أو كلكتا ، ثم يوزعها إلى البصرة أو السويس . وكان الطريق البحري عبر الخليج

الفارسي أقصر منه عبر البحر الأحمر . غير أن طريق القوافل من البصرة إلى حلب كان أكثر خطورة من الرحلة القصيرة خلال مصر . وعند إزال البضائع إلى البر ، كانت الضرائب تصل إلى أربعة آلاف جنياً ، ومن ثم تصيح قيمة البضائع عشرين ألف جنياً . وهناك تاجر عربي آخر على ساحل البحر الأبيض المتوسط (أو ربما على أرصفة ميناء بولاق) يبيع من البضائع ما قيمته ٣٠٠٠٠٠ جنيه لواحد من أهل البندقية ، الذى يكون عليه أن يدفع رسوماً جمركية مقدارها خمسة آلاف جنياً قبل أن يتمكن من تفريغ بضاعته . وهكذا - سواء على هيئة رسم جمركى أو رسم مرور أو هدايا للحكام المحليين والحراس - فإن ربع الخمسة والثلاثين ألف جنياً التى دفعها التاجر البندقي لا بد أن يذهب إلى السلطان المملوكى والإشراف لمجرد امتيازهم فى تجارة الترانست . (١)

ولم تكن الحكومة وحدها هى التى تستفيد من هذا ، فقد كان التاجر القاهرى الذى يستورد البضائع الثمينة من الهند وجزائر البهار ، أو على الأقل يشتريها من التجار الهنود فى موانئ البحر الأحمر ، يكسب هو الآخر مبالغ طائلة . و ، ألف ليلة ، حافلة بمثل هذه المغامرات الناجحة ، ألم يقل « الشيخ الثانى ، الذى قاد والسكبين الأسودين ، فى وصف رحلته : أعددتنا بعدنا ذلك سلعنا واستأجرنا سفينة أنزلناها فيها ، ثم بدأنا رحلتنا التى استغرقت شهراً كاملاً وصلنا فى نهايته مدينة صرفنا فيها بضاعتنا ، بحيث كنا نكسب عشرة قطع ذهبية فى كل قطعة واحدة ؟ وما من شك فى أن مثل هذه الصفقات كانت كثيرة الحدوث . ولم تكن التجارة تخرج برمتها إلى العاصمة ، فقد كان جانب كبير منها يجد طريقه إلى الأسواق ليبيع إلى خيرة سكان القاهرة ، ويرضى تلك الأذواق المترقة الخاصة بأتباع السلطان المملوكى . ونحن لا نستطيع أن نكون سوى فكرة ملهفة عن « الفندق ، فى العصر الوسيط ، وذلك من الأسواق الحالية . « والفندق ، ، أو « الخان ، ، أو « الوكالة ، - وليس هناك سوى فرق بسيط بين الثلاثة - عبارة عن عدد من الحوانيت ومستودعات البضائع تحيط فى العادة بفناء - وتكون أحياناً على هيئة رواق مغطى - حيث يحتفظ التجار بسلعهم ، كما يجدون فيه مأوى لهم ولدوابهم فى

خلال رحلاتهم . ومن الخانات التي كانت توجد في العصر الوسيط والتي ما زال يعرفها كل سائح : خان الحلي ، أو البازار التركي ، الذي بناه جركس الحلي وأمير آخور ، السلطان « برفوق » - في عام ١٤٠٠ فوق البقعة التي كان يوجد عليها في وقت ما قبور الخلفاء الفاطميين الذين اقتلعت عظامهم ونقلت فوق ظهور الحير إلى ربي القاذورات خارج الباب الشرقي . ومن الأسواق المعروفة كذلك « الجزاوى » - أو سوق القماش ، كما لا تزال توجد بجزوار الأزهر وفي « السروجية » اثنتان من وكالات « قايىباى » تتميزان بأن واجهتهما تزينهما النقوش العربية والرسوم الهندسية واسم السلطان المنقوش على الخشب . وحينا وصف « لين ، Lane القاهرة في عام ١٨٣٥ ، كان يوجد فيها حوالى مائتين وكالة . وحتى في الوقت الحاضر نجد أنه قلما نعبّر أحد الشوارع دون أن نجد واحداً من تلك الأبنية يحيط به عدد من الحجرات - حانة الشرق - تنفتح إلى بوابة مرتفعة .

وكانت « غانات » القاهرة في القرن الخامس عشر تعتبر أسواق التجار المزدهرة . وكان أمراء المالك - الذين كانت لديهم فكرة واضحة عن قيمة امتلاك المنازل - يتنافسون بعضهم البعض في بناء « الوكالات » الأنيقة التي يمكن أن تجلب كل حجرة فيها إيجاراً مرتفعاً . ومن الخانات الشهيرة التي كانت توجد في ذلك الوقت ، « خان مسرور » الذي نزل فيه ذلك الرجل الذي نقرأ عنه في « قصة الأحديب » . فقد استقر هذا الرجل هناك حيث أودع سلعه ، وبعد أن استراح ليلة ، حمل معه بعض بضائمه وذهب إلى « قصرية جركس » وهي من أشهر أسواق القاهرة في العصر الوسيط يرجع تاريخها إلى الفاطميين - وذلك لكي يبيعها إلى التجار . وهناك قال له شيخ البهاسرة : « افعل مثلاً بفعل التجار الآخرون ، وذلك بأن تباع سلعتك بالدين لفترة من الزمن ، بحيث تستخدم كاتب عرائض ، وشاهداً ، وبائع نقود ، ثم تسلم جانباً من الأرباح كل خميس وإثنين . وهكذا فإنك سوف تجعل من كل قطعة فضية قطعتين . هذا إلى أنه سوف يتبقى لك متسع من الوقت لزيارة مباهج القاهرة ونيلها . وقد عمل الرجل بنصيحته وترك بضاعته لتباع له ، بينما أخذ يعيش هائناً في « خان مسرور » يتناول طعام الإفطار المكون من الخبز والدجاج ولحم الضأن والحلوى ، ويتعطر بأجمل العطور وأشدها ، إلى أن قابل فتاة في حانوت « بدر الدين » - البستان - وهناك حدث ما كان يخفيه القدر ، إذ جعل منه عبدة لمن يعتبر .

ولم يكن من الغريب في أيام الممالك أن يقطع الجلاذ يد هذا الرجل عند باب زويلة . وقد تم ، خان مسرور ، هذا - وهو عبارة عن خانين أحدهما كبير والآخر صغير - على جانب من موقع قصر الفاطميين العظيم ، حيث كان يباع العبيد بواسطة مسرور ، وكان عبداً محبوباً لدى صلاح الدين - الذي ترك المسكان هبة لصلاح الفقراء . وكان البناء الكبير في الخان يحتوى على مائة حجرة ، ويعتبر المأوى الرئيسي لتجار سوريا . ويقول المقرئى عنه أنه أشهر الخانات وأعظمها ، إلا أن نجاحه تضاعف بعد محنة سوريا على أيدي تيمورلنك ، فزال عنه مجده ، وتهدم كثير من جوانبه .



سوق الرقيق

ومن الخانات الشهيرة كذلك ، خان بلال ، وهو عبد الصالح ، حفيد أخ صلاح الدين ، وقد بلغت حظوة بلال ، درجة كبيرة حتى أن السلطان قلاوون كان يقول : ليرحم الله سيدنا الراحل والصالح . لقد اعتدت أن أحمل نعل هذا العبد بلال ، حينما كان يذهب إلى حضرته . وكان هذا العبد غنياً يقوم بأعمال كثيرة صالحة ، امتدحه كثير من الشعراء ونالوا منه عطاء موفوراً . ومن أعماله الفاضلة بناء الخان ، حيث كان يضع التجار ضماديقهم عظيمة القيمة . ويقول المقرئى : كنت أدخل هذا

الفندق فأجد الصناديق المقدسة ، منها الصغير والكبير ، بحيث لم يكن هناك سوى مسافة صغيرة في الوسط ، وكانت هذه الصناديق تحوى من الذهب والفضة ما يذهل المرء . كذلك كان يوجد هناك « خان السيل » - إلى الخارج من « باب الفتوح » - الذى شيده « قرقوش » وزير صلاح الدين لأبناء السيل والمسافرين الفقراء الذين كانوا يقيمون فيه دون مقابل . ثم هناك « وكالة فوصون » التى بناها صهر الناصر بجوار مسجد الحاكم ، حيث كان التجار السوريون يخزنون الزيت والسمسم والصابون والمربب والفسق واللوز والشراب وما إلى ذلك . وكانت كل حجرة لاتؤجر - على حسب أوامر الأمير - بأكثر من خمس دراهم ، حتى لا يكون هناك سلب أو نهب . والواقع أن هذا الخان كان مكاناً جد مزدحم أيام المقرئى ، مرغوباً فيه للغاية بالنسبة لخصه أسعاره ، حافلاً بالناس وبالسلع ، وبصيحات الحمالين . وكانت توجد فوق حجرات البضائع ثلاثمائة وستون حجرة للسكن جميعها مشغولة ويسكن فيها حوالى أربعة آلاف نفس . إلا أن تخريب التتر لحق هذا الخان أيضاً . وفى مواجهة باب زويلة كان يوجد سوق الفاكهة حيث كانت تباع حاصلات البساتين التى حول القاهرة . وكان لهذا السوق سقف - شأنه فى ذلك شأن أغلب الأسواق فى سالف الزمان - لينع أشعة الشمس من النفاذ إلى داخله . وكانت الفاكهة - ذات الرائحة التى تشبه رائحة حدائق الجنة - ترتب فى صورة تم عن ذوق كثير ، وتزدان بالورود والحشائش الجميلة . (١)

وهناك كثير من الأبنية الماثلة ، يروى لنا تاريخها المقرئى ، بحيث نستطيع أن نكون من خلال وصفه صورة لما كانت عليه المدينة فى القرن الخامس عشر . والحق أن القاهرة كانت مكاناً جميلاً وأنيقاً فى تلك الأيام . وكانت قصور المماليك القديمة - التى لا نجد لها أثراً سوى فى تلك البقايا التى تتمثل فى الجدران الضخمة الباهتة لقصر « بشتاك » ، والبوابة الضخمة « لدار يشبك » بجوار مسجد السلطان حسن ، ثم قصور « قابتبای » ، والأمير « دماى » (ويعرف باسم « بيت القاضى ») - كل هذه القصور كانت فى ذلك الوقت فى أوج عظمتها . وكانت الأحياء المختلفة لاتزال منفصلة عن بعضها البعض بواسطة الأبواب المثينة التى تغلق حينما يرعى الليل سدوله . وكانت

الأسواق تظلل بواسطة الحصر أو السقوف الخشبية ؛ كما كانت التوافد ذات المشريات الدقيقة الصنع تطل على الشوارع . ويصف لنا المقرئ سبعة وثلاثين حارة ، وثلاثين حياً (خطأ) ، وخمس وستين شارعاً (داراً) ، وواحد وعشرين شارعاً جانبياً ومتفرعاً (زقاقاً وخوخة) ، وتسع وأربعين ميداناً (رحبة) ، وخمسين سوقاً ، وثلاث وعشرين سوقاً كبيراً (قبصرية) ، وأحد عشر فندقاً (خاناً ، وكالة) ، وخمسة وخمسين قصراً شهيراً (داراً) ، وأربع وأربعين حماماً عاماً ، وثمانية وعشرين حكراً وحديقة (بستاناً) ، وأحد عشر ميداناً ، وكثيراً من منازل التزهة (منظره) .

ولا يزال كثير من الشوارع يوجد في نفس مكانها القديم ، كما أن بعضها لا يزال يحتفظ بإسمه ، مثل : الصليبية ، ، بين القصرين ، ، جارة برجوان ، ، سوق السلاح ، و خان الخليلي ، و الدرب الأصفر ، و الدرب الباني ، و الخرنفش ، ويلاحظ أن أحياء القاهرة القديمة لم يطرأ عليها من التغيير مثلاً طرأ على أحياء لندن القديمة مثلاً ، إلا أن سبب ذلك جد مؤلم ، فمدينة لندن قد طرأ عليها تغيير لانها تمت واتسعت ، بينما ظلت مدينة القاهرة كما هي نسيباً لأنها كانت تتلاشى تدريجياً . فققدان جانب كبير من تجارة الهند ، والاعتماد على تركيا ، وسوء حكم الباشاوات والبكوات المماليك - كل هذا حمل على التقليل من نجاح تلك المدينة التي ازدهرت إلى حد كبير أثناء حكم السلاطين الأتراك والعثمانيين .

وقد سحب الاضمحلال التجاري اضمحلال آخر في الفن ، ولا يزال يوجد حتى الآن في القاهرة أشياء قليلة مصنوعة ومنقوشة من النحاس ، والحديد ، والمجوهرات ، إلا أنها تعتبر أشياء غير ثمينة بالنسبة لما كان يوجد حقاً في القاهرة في ذلك الوقت . وما على المرء إلا أن يزور دار الآثار العربية ، ليقف على الإنتاج الرائع لفنانى القاهرة أثناء فترة المماليك . وكانت الفنون مرتبطة بالمساجد أشد الارتباط ؟ فقد بلغت هذه المساجد وقتئذ شأواً كبيراً من العناية والزينة ، وكان أهم ما تحويه دار الآثار العربية في وقت من الأوقات هو أجزاء من نقوش أو أثاث المساجد حوالى القرن الرابع عشر : المناضد الفضية والنحاسية المنقوشة نقشاً جميلاً ، وصناديق القرآن ، والمصابيح ، والشمعدانات ، والأواني ، والمباخر ، وزجاج المصابيح الملون . وكانت الصفائح المنحوتة المرصعة بالعاج والأبنوس والخشب الثمين ، تزين أبواب المساجد ومنازلها في وقت من الأوقات ، كما أن النقوش المصنوعة من البرونز والنحاس

ترجع إلى نفس العصر . وهناك أمثلة رائعة لهذه الفنون في متحف جنوب كينسجتون South Kensington Museum ؛ كما أن المتحف البريطاني British Museum يحوى مجموعة نادرة من المعادن العربية المنقوشة . ومن سوء الحظ أنه لا يوجد الآن في القاهرة ، سوق النفاشين ، مثلما كان يوجد في زمن المقرئى . والواقع أن ترصيع الأواني النحاسية بالنقوش والرسوم العربية المصنوعة من الذهب والفضة ، يعتبر من أهم وأروع خصائص الفن العربى ، فهو ليس فى أصله مصرى ، إنما يرجع إلى صانعى الخلى من الساسانيين فى بلاد الموصل . وأقدم نماذج نعرفها لهذا النقش أتت من الموصل على نهر دجلة ، وهى البلدة التى كانت مشهورة بأنها منبع صانعى المعادن ، بحوار المناجم التى كانت توجد فى ملكه طوروس . وليس ثمة شك فى أن صناع الموصل رحلوا إلى القاهرة فى الأيام الزاهرة لعهد السلاطين المماليك ، أو حتى قبل ذلك . وعلى الأقل فإنه من المؤكد أن بعض أعمالهم الرائعة قد صنعت للسوق المصرية ، وهى حتى تحمل أسماء مشاهير حكام القاهرة وأسرانها . فنحن نجد على سبيل المثال صندوق الخلى والمجوهرات منقوش عليه اسم والقباب ، العادل الثانى ، حفيد أخ صلاح الدين ، الذى جلس على عرش مصر عام ١٢٣٨ إلى عام ١٢٤٠ ، ثم جاء من بعده ، الصالح ، زوج شجرة الدر . فهذا الصندوق على طراز الموصل الذى يرجع إلى عهد جد بعيد ، لجوانبه تزيينها ثمانية قطع نحاسية منقوشة باللغة العربية (تشبه تماماً ما يزين النقود الفضية الخاصة بأسرة صلاح الدين) تحتوى : مناظر للصيد ، معركة مع أسد ، فارس وعلى معصمه (المغطى فى العادة بقفاز هذا الفارس) صقر جارح ، وما إلى ذلك . أما القاعدة الداخلية فيوجد عليها نقش عربية باللغة الروعة ، وعلى مثلث فى النطاء يوجد اسم السلطان وألقابه وعلى القمة يوجد تشخيص الكواكب الستة (الخاصة بالعلوم العربية) تحيط بالشمس (الكوكب السابع) : - القمر ويمثله شخص جالس يحمل غللا ، وعطارد ويمثله أدوات الكتابة ، والزهرة ويمثله امرأة تلعب على العود ، والمريخ ويمثله مقاتل مستل سيفه ويحمل رأساً تدمى ، والمشتري ويمثله قاضى متوج ، ثم زحل ويمثله حامى الصوص وهو يحمل هراوته وكيس نقوده . وإلى خارج هذه الكواكب يوجد شريط يحتوى على علامات البروج

الإثني عشرة في هيئتها العادية . وعلى قاع الصندوق توجد كتابة منقوشة تقول إن
هذا الصندوق صنع خصيصاً لخزانة ملابس العادل .



في الدرب الأحمر

ويلاحظ أن مناظر الصيد ورسوم الأشخاص والحيوانات ، تعتبر من
خصائص صناعة الفضة في بلاد الموصل ، ونحن نجد في المتحف البريطاني British
Museum أيقونة كبيرة منقوش عليها نسر ذو وجهين ، وذلك على مبخرة للعطور
كثيرة النقوش ، وهي مصنوعة - كما تخبرنا بذلك الحروف المصنوعة من الفضة -
بأمر السلطان ، السكريم ، السيد الأعلى ، الأمير المعظم ، الأستاذ المجيد ، القائد ،

لذا تم عن القصيدة ، حامي الإسلام ، القدير ، عضد السماء ، المتصر ، الملك
الظاهر بيبرس ... الخ . ويجب أن يكون تاريخها قبل عام ١٢٧٩ ؛ بينما هي تحملنا
إلى أيام قلاوون وابتداء عظمة المماليك . ولقد كان الظاهر بيبرس من أعظم
وأترف الأمراء المماليك الأولين ، وكانت مبخرة العطور التي تقدم ذكرها تدل في
جلالة على ما كان في قصره من رخاء ورفاهية . والواقع أن بيبرس كان ينظر إلى
راحته على أنها أهم بكثير من طموحه وآماله ، فلقد رفض شرف العرش الوقفي
مرتين خلال فترة عدم الاستقرار التي أعقبت موت قلاوون ، حينما كانت الخلافة
في متناول أقوى الأمراء . إلا أنه لم يستطع مع ذلك أن يتخلص من النتائج التي
لحقت ثروته وشهرته ؛ وعلى الرغم من طبيعته التي تميل إلى الإنطواء على النفس ،
فإنه اتهم بادعاء السلطة ، وجرّد من ثروته ، وكثيراً ما كان يزج به في سجن القاهرة ،
وكان قصره فيما بين الفصرين يغطي مساحة مقدارها أربعة أفدنة ، ويحتوي على أجمل
فسيفساء mosaic وأرق أبواب منقوشة في القاهرة على الإطلاق . والواقع أن
الأمير بدر الدين يسرى ، كان أترف رجال عصره . فقد كان يحب أن يحيط
نفسه على الدوام بالأشياء الجميلة ، وكان حرسه الخاص يختار من أحسن الجند .
وما من ثروة كانت تقوى على مواجهة نفقاته الباهظة ، ذلك أنه لم يكن ينفق
على نفسه خسب ، إنما كان يجزل العطاء لكل من يسأله . لقد كان الكرم
عقيدته التي لا يحد عنها ؛ وكانت عطاياه للفقراء تصل إلى خمسمائة أو ألف درهم لكل
سائل . وكان يوزع كل يوم ثلاثة آلاف رطلا من اللحم ، وهدية تتكون من ألف
قطعة من الذهب ، وخمسة آلاف مداً من القلال ، ومائة ألف مثقال من عسل
النحل . ولقد كان أحد مماليكه يصيبه كل يوم تسعون رطلا من اللحم وسبعون
مثقالاً من الشعير ، مما لم يكن يستطيع هو وأحوصته معاً أن يستهلكوها . ومن
الطبيعي أن يكون يسرى ، بعد ذلك مديناً على الدوام . فقد كانت ديونه تصل في
المادة إلى أربع مائة ألف درهم ، ذلك أنه لم يكن ليوفى ديناً من ديونه ، حتى يهم
باقتراض آخر من نفس المدين . وكان جانباً كبيراً من مصروفاته ينفق على إعداد
مائدة الطعام ، فن المعروف أنه لم يكن يشرب من كأس واحدة مرتين . ويذكر لنا
المقريزي أن حياة القرن الثالث عشر كان يهبها القوم في وقت من الأوقات للشراب
والملاذات ، ومن ثم لا بد أن يكون عدد الكؤوس في ذلك الوقت لا حصر لها .

إلا أن الأمير العظيم كان يحتاج إلى أكثر من الكوروس لراحته ؛ فقد كانت لديه موائد مرصعة يوضع عليها طربان نحاس كبير مرصع بالذهب والفضة ويحتوى على مايفى حاجته من نيزد العنب . كذلك فإن ردهات قصره الأنيقة كانت تضاء بشموع موضوعة في شمعدانات فاخرة مغطاة بنقوش فضية ، وحتى الصحاف وأواني الطهى كانت توجد عليها نقوش ورسوم عربية رائعة . كما أن قصره كانت تفوح في أرجائه رائحة البخور المنبعثة من المباخر المرسوم عليها صور الفرسان في مطاردتهم ، وكلاب الصيد ، والفريسة ، وكل ما كان ينقشه الصائغون العرب على الفضة .

على أن أقدم نماذج لصناعة المعادن وأبدعها هي التي ترتبط بإسماء ملوك القاهرة وأشرفها ، وأصلها من الموصل ، على الرغم من أنه يحتمل أن تكون قد صنعت في سوق النقاشين ، بواسطة الفنانين الذين اجتذبهم القصر إليه . وما من شك في أنه كان يوجد هناك فن فاطمى قديم له مثل هذه الخواص ؛ غير أننا في الواقع لانعرف من النماذج ما يفوق بضعة أشياء معينة منها خزانة Bayeux في باريس ، وبعض النماذج المصنوعة من البلور الموجودة في البندقية . وهما يكن من شيء ، فإن القاهرة تكونت لها مدرسة خاصة بها أثناء حكم السلاطين المماليك ، وهي التي يبدو أنه كان لها تقليد خاص وصلها من مصدر غير المصدر الذي أخذت عنه الموصل . وأسلوب القاهرة هو الذي زاء على الصواني والآواني والكؤوس والمباخر وغير ذلك من أوعية المماليك في مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وهي التي تحتفظ بها في متاحفنا ومجموعاتنا الخاصة . ونحن نستطيع أن نلص بعض أوجه الشبه بين هذه الأشياء وبين ما أنتجه الموصل ، إلا أن العناصر الجديدة فيها جد واضحة : فصور الفرسان والأمراء الجالسين اختفت إلى حد بعيد ، وهذا طبيعي بالنسبة للأمراء الأتراك الذين اعتادوا أوامر الإسلام المشددة فيما يخص بصور الكائنات الحية في الفن . إلا أنه لانزال توجد حتى الآن على بعض الجدران صور تمثل حيوانات الصيد ، كما توجد هناك أرضية عليها رسم بطة وطائر آخر . والسبب في كثرة صور البط في ذلك الوقت - وهو الذي يسهل فهمه بالنسبة لمستنقعات بلاد الموصل - ويرجع إلى أن مؤسس سلسلة السلاطين الذين حكموا مصر مايقرب من قرن من الزمن ، كان تركياً من القبحاق اسمه وفلاوون ، الذي معناه في لغة المغول ،

وهي لفته الأصلية - دبطة . (وهذا يشبه الجنس الموجود في اسم « أبوت اسلب ، Abbot Islip فوق قبره في مدافن وستمنستر (Westminster Abbey) .
والنقوش الموجودة على نماذج الممالك المصنوعة من المعادن ، تختلف اختلافاً ينفراً في أسلوبها عن نقوش الموصل ، فهي مرتبة في شرائط عريضة لها مسطح كبير مرصع بالفضة ، ومقسمة بواسطة نقوش مستديرة الشكل يوجد في وسطها اسم السلطان بين خطين متوازيين ، أو بواسطة دروع يحملها أصحابها ومرسوم عليها في العادة كأس ، أو عصا البولو Polo (نسبة إلى وظيفتي ساقى الخمر ومدرّب لعبة Polo) ، أو شكل المعين الهندسي ، أو تقليد غريب لبعض النقوش الخطية الموجودة على آثار قدماء المصريين ، والتي كانت غامضة من غير شك بالنسبة للقلدين . وحول النقوش المستديرة توجد زخارف من الأزهار وأوراق الشجر ، تذكرنا بالصورة التي كانت تكتب عليها ألقاب دمشق ، ثم هناك أزهار وأوراق شجر أخرى تتخللها طيور ، تغطي الأرض . ولم يكن إنجاز التصميم أقل روعة من التصميم نفسه ، ذلك أنه لم يكن هناك عمل غير متقن لدى الفنانين العرب . فقد كانوا يقومون بحفر التصميم كله على النحاس ، ثم يذيبون الأطراف حتى يتمكنوا من قبض أطراف الصفائح المصنوعة من الذهب أو الفضة لطرقها وصبغها . كما أنهم كانوا ينقشون كل صفيحة من الفضة مهما صغرت ، فكانوا يغطون الشقوق - حيث كان يظهر النحاس - بمزيج أسود خمرى كان يضاف على النقش رونقاً خاصاً . ولقد تلف جانب كبير من الطلاب كما يلي جزء غير قليل من الفضة ، وذلك بفعل الاستعمال والقدم . وإنه لمن الصعب علينا أن نتخيل الصورة الجميلة التي كانت عليها أغلب الآواني والصواني التي وصلت إلينا . إلا أن الفحص الدقيق من شأنه أن يكشف لنا عن المهارة الفائقة ، والعناية الكبيرة ، والصناعة المتقنة - تلك الأشياء التي لا يمكن للزمن أن يمحو أثرها .

ومن نقش الفضة هذا - شأنه في ذلك شأن هندسة البناء ونحت الخشب والعاج وسائر وسائل التعبير عن الجمال - انتهى إلى ازدهار عجيب للفن والثقافة في عهد « الناصر بن قلاوون » في النصف الأول من القرن الرابع عشر . وكلما وقع بصرنا على نموذج بديع لصناعة الممادِن في متحف من المتاحف ، لا بد أن نجد في

العادة إسم أحد الأمراء الناصريين - أى أحد ممالك أو رجال حاشية الناصر - منقوشا عليه ، وفى بعض الأحيان قد نجد إسم السلطان نفسه .

ويحدثنا المقرئى بأنه حدث فى عصره - أى فى مستهل القرن الخامس عشر - أن أصبح هذا الفن الجليل من سقط المتاع . فقد أصبح - على حد قوله - شينا محببا ، إذ رأينا من الأشياء المنحوتة مالا يحصرها عد ، ومن النادر أن يخلو منزل فى القاهرة أو فى مصر من بعض النماذج النحاسية المنحوتة . ومن الأشياء التى كانت تهدي للعروس فى العادة عند زواجها : رف به صمات وأوعية منحوتة ومرتبة فوق اطار من الخشب والعاج المنقوش ، وكان يتكلف فى العادة مائتى ديناراً . ثم يضيف المقرئى قوله : غير أن مصر الآن تفتقر إلى الفن فقد قل فى عصرنا هذا الإقبال على طلب هذا النحاس المنقوش ، وأعرض الناس منذ بضعة سنوات عن شراء كل ما يصنع منه . وهكذا الآن فى السوق من نماذج النقاشين النحاسية سوى شئ قليل . (١)

والواقع أن الفن لم يكن قد احتضر ، وإنما كان قد انتقل إلى مكان آخر . ذلك أن التراث الذى ورثته القاهرة من الموصل ، أورسته بدورها إلى البندقية . ولقد رأينا أن أهل البندقية كانوا الوكلاء الأوربيين للتجار المصريين ؛ ولأن نكون مبالغين إذا قلنا إن البندقية كانت مدينة نصف شرقية . فقد طغت على إيطاليا آثار كثيرة للشرق . ونحن نعلم أن شاعر القرن الثانى عشر برنى « بيزا » Pisa لأنها آلت إلى المغاربة والهنود والآراك . كذلك كان يوجو هناك طريق « سراسينا » Sarracena فى « فرارا » ، كما كانت « لوسيرا » Lucera مطبوعة بالطبع الإسلامى وذلك منذ أن استحضر « فردريك الثانى » Frederick II الرماة (القوَّاسين) العرب . غير أن البندقية لمست هذا التأثير أكثر من غيرها ؛ فقد كانت تجارتها ومستعمراتها سبباً فى إيجاد علاقة بين تجارها وبين نواحى الفن فى الشرق ، كما أن سفراءها كانوا يجلبون إليها مدايا السلاطين الممالك الفاخرة ، كذلك أخذت تستورد الفنانين والتحف الفنية على السواء . ولقد أطلق على ذلك الأسلوب العربى فى الفن اسم Opus Salomonis ومعناها « صناعة اليهود » وكثيراً ما يشير أدب ذلك العصر

إلى هذا . من ذلك أن الشاعر الانجليزي « تشوسر » Chaucer حينما سمع عن هذا الفن كتب في « سير ثوباس » Sir Thopas يقول :

« التي هي من صنع اليهود ، وهذا عدا النماذج الرائعة » .

ولقد برعت البندقية على وجه الخصوص في نقش الصواني الكبيرة على الطراز العربي ، ولو أنها كانت تختلف كثيراً من حيث الرسم والآداء . فالفضة مستعملة غالباً في خطوط ضيقة بدلا من الصفائح الواسعة ؛ أما الرسوم فعربية في العادة ، بينما شكل الأواني نفسها يدل على تحسن مدروس أدخل على ذلك الشكل الخشن الذي كان يصنع في القاهرة . ولقد أخذ الفنانون الإيطاليون ينقلون الفن الذي أدخله محمد الكرد ، وزملاؤه العرب ثم أطلقوا على أنفسهم اسم « Azzimine » ، أي الصانعون على الطراز الفارسي all' Agemina - فقد كان من الشائع أن يسمى الفن العربي فارسياً . ونحن نقرأ عن فنانين إيطاليين - أمثال Giorgio Ghisi Azzimina من مدينة « ماتوا » Mantua و Paulus Ageminius - برعوا كثيراً في الفن الذي أتى إليهم من مصر .

ولقد أخذنا صناعة الفضة من دون سائر الفنون في القاهرة في العصر الوسيط ، لأنها في الواقع فرع من الفن يمكن لنا أن نتبع فيه التطورات دون أن يتطرق إلينا الشك ، وذلك بواسطة سلسلة من النماذج المعروفة تاريخياً . إلا أن أهم فنون الزينة التي استخدمها بناء المساجد هي نحت الخشب وتلوين الرخام على الطراز المزاياكي mosaic . وتزيين منابر المساجد وأبوابها بالصفائح المأطورة - التي أوحى بها دون شك ضرورة وجود أسطح صغيرة في الجو الحار حتى لا تتلوى وتفسد - يعتبر من أهم ما يميز زينة القاهرة على الإطلاق . كذلك فإن استخدام الرخام الملون في محاريب المساجد كان يكسبها روعة وبهاء ويجعلها تبدو ساطعة . وكان هذا الرخام الملون يستعمل أيضاً في تزيين الجزء الأسفل من الجدران في منازل الأشراف ، إلا أن أغلبه - من سوء الحظ - في طريقه الآن إلى الزوال . وما يسترعى النظر حقاً هو استخدام الخشب على نطاق واسع في مباني القاهرة ، في الوقت الذي لم تكن تنتج فيه مصر من الخشب النافع سوى القليل . ولكننا نجد من جهة أخرى أن المناخ الجاف يحفظ الخشب لمدة بضعة قرون ، على الرغم من أنه يتسبب في تواتره . من ذلك أن الأربطة الخشبية الأصلية في أعمدة جامع ابن طولون قد عاشت ألف عام

وما زالت في حالة جيدة ، كما أن جانباً من سقف الأورقة نفسها ما زال محتفظاً بنفسه حتى الآن . وهذا السقف الخشبي يدلنا على أن القرن التاسع كان يستخدم نفس الطريقة التي تشاهد في جميع عصور الفن العربي قبل أن يصل إليها الأسلوب الأوربي . فهو يتكون من روافد من جذوع النخيل مقسومة إلى قسمين ، والجوانب الثلاثة المكشوفة تواجه الراحاً خشية حتى تجعل من الشكل مربعاً . أما التجاوب في القطع الخشبية فكانت تقسم بواسطة قطع خشبية متقاطعة إلى أجزاء غير عبيقة . وكانت هذه الروافد الخشبية في المنازل الخاصة تترك في العادة دون غطاء في صورتها الطبيعية نصف المستديرة وسواء كانت هذه الروافد تغطي بالراح خشية أو تترك كما هي ، فإنها كانت تكسى دائماً بطبقة من الجص - توجد في العادة فوق طبقة من القماش السميك - منقوش عليها بضعة رسوم عربية باللون الأزرق القاتم والأحمر القاني والذهبي . وهذه السقوف المقسمة على الصورة المتقدمة - ويمكن رؤيتها في كثير من المنازل - لها تأثير عجيب فاخر بما فيها من ألوان حمراء وزرقاء وذهبية . وكان الانتقال من السقف إلى الجدران مغطى بنقوش وزخارف تدل على كثير من الخدق والدقة ، ومطلية بالوان فاخرة . وهناك سقوف أخرى أقل في قيمتها من السقوف المتقدمة - على الرغم من أنها هي الأخرى لها تأثير كبير . وتتكون من ألواح خشبية ملتصقة ببعضها البعض ومثبتة في وضع أفقي فوق روافد خشبية ومغطاة بطبقة رقيقة من الجص مرسوم عليها نقوش عربية مختلفة قوامها الأزهار ، ومطلية باللون الذهبي ، أو رسوم وزخارف هندسية من الخشب الرقيق المطلي باللونين الذهبي والأحمر ، وفي الشقوق يوجد جص عليه نقوش عربية .

والواقع أن نحت الخشب كان يتجلى كثيراً في المناير والمقاريء وأبواب المساجد الداخلية وخزائنها . وبعض النماذج القديمة من مسجدى ابن طولون والحاكم يمكن رؤيتها في دار الآثار العربية بالقاهرة ، والنقوش الحلزونية الشكل المبيعة المنحوتة على صفايح ذات إطارات ، يبدو أصلها البيزنطى في جلاء ، وتشبه الصفايح القديمة التي لا يعرف تاريخها بالضبط والتي وجدت في «عين الصيرة» جنوب القاهرة . أما في القرن الثالث عشر فإن الأسلوب يتغير ، فبدلاً من الرسوم المكونة من أوراق الشجر ، نجد زينة أكثر تعقيداً ورقة موزعة على رسوم هندسية في صفايح أصغر مساحة من تلك التي تقدم ذكرها . ولعل أجمل مثال لهذا هو خزانة مقبرة «الشيخ»

(١٢١٦) التي يوجد أحد جوانبها في متحف جنوب كينسينجتون Museum at South Kensington ، والجوانب الثلاثة الأخرى في متحف الفن العربي بالقاهرة . وثمة نموذج آخر يتجلى لنا في خزانة ضريح الصالح أيوب (١٢٤٩) : فالصفائح الصغيرة مكونة على شكل نجمة سداسية الشكل ومنحوتة في رقة وعناية فائقتين . وهنا يتجلى لنا عرض جذوع أشجار الفاكية ، وهو مظهر شائع في نحت الخشب في القرن الثالث عشر . فالمحراب الذي كان يوجد في ضريح السيدة رقيصة - والذي يرجع تاريخه في الغالب إلى نفس القرن - يستحق منا انتباهاً خاصاً لما فيه من دقة مكونة من جذوع متفرعة من أناء ^(١) . إلا أن فن نحت الخشب لم يزدهر ولم يبلغ أقصى مداه إلا أثناء حكم السلاطين المماليك ، وعلى الأخص حكم الناصر . فقد كانت الأخشاب ذات الألوان المختلفة تستخدم لإحداث تأثير ملطف ، كما حل الترسيع محل النحت في الكنل الصلبة . وأحياناً كنا نجد كل صفيحة صغيرة منحوتة توضع في إطار من الأبنوس حافل بدوره هو الآخر بالنحت والنقوش ، وكثيراً ما كان يتكون من إطارين أو ثلاثة إطارات متميزة الواحدة منها خارج الآخر . ومن الغريب أن الرسم الداخلي لم يكن يتكرر في صفيحتين ، على الرغم من مئات الصفائح التي كانت توجد هناك . ولا يخفى علينا مقدار الجهد الذي كان يتكلفه نحت تلك الصفائح ووضعها - بعد نقشها إلى جانب بعضها البعض . وهناك نماذج كثيرة توجد في المساجد ، كما أن هناك نماذج أرق منها تتمثل في الأبواب الخشبية المرصعة بالعاج في كنائس « بابليون » القبطية ، والتي أغلب الظن أن المسلمين أخذوا منها قنهم . إلا أن أروع نماذج لنحت المماليك توجد الآن في لندن ، ذلك أن عدداً كبيراً من تلك النماذج نقل أثناء حكم الخديوي إسماعيل - وحتى قبل ذلك - إلى المتحف الموجود جنوب « كينسينجتون » . فهناك نستطيع أن ندرس على مهل بعض النقوش العربية الفاخرة - والتي ليست جد متقنة في الوقت نفسه - المأخوذة من المنبر الذي بناه « لاجين » في مسجد ابن طولون عام ١٢٩٦ . وهناك قطع أخرى منحوتة من جامع « المرداني » (١٣٣٩)

(١) Herz Bey : Catalogue of the Arab Museum, pp. 47,48

وهو كتاب صغير لاغنى عنه لطلاب الفن العربي .

موضوعة في شكل غير مقبول فوق منضدة فرنسية ، وبمجموعة نائلة - لعلها من منبر جامع « قوصون » - موضوعة كذلك في إطار حديث ولو أن النحت العربي ما زال محتفظاً برويقه وجماله ، وأخيراً نجد منبراً كاملاً يحمل اسم « قايتباي » ، ولكن لا يعرف من أى مسجد أخذ . وهذه الأشياء في مجموعها تكون معرضاً جميلاً لنقش الخشب في أحسن عصوره . (١)

ومهما يكن من شيء ، فإن المجموعات فيها بعض الاختلاف - وأحياناً شيء من التدهور ، وأن دراسة فاحصة للرسوم سوف ترينا أن الفن وصل إلى أقصى مداه في نقوش « المرداني » أى بعد حكم « الناصر » مباشرة . فمبنى « شيخوخ » (١٢٥٨) ليس نموذجاً طيباً ، ومنبر جامع السلطان حسن مبنى من الحجارة ، كما أن منبر جامع « المؤيد » (١٤٣٠) قليل الشأن ، وحتى منبر « قايتباي » - الذى كان أمير البناء في القاهرة - يمكن مقارنته بنماذج منتصف القرن الرابع عشر . ذلك أن الرسوم قد أصبحت أقل جودة عن ذى قبل ، والخطوط أضحت ميكانيكية الشكل . كذلك فإننا نجد في نحت الحجر عنصراً جديداً لم يكن معروفاً من قبل وهو عنصر التكرار . وقد يكون تفسير ذلك هو استخدام العاج كمادة لترصيع الصفائح ، لأن العاج - على الرغم من إمكان استخدامه في النحت الرفيق - يصعب نقشه في الخطوط المتتوية . إلا أن السبب الرئيسى ربما يكون هو تفضيل النقش على الحجارة والاهتمام به إلى حد بعيد . فعند ما أصبحت الحجارة هى المادة السائدة للزينة ، أمسى نحت الخشب وليس له شأن كبير . ولقد كان منتصف القرن الرابع عشر هو النقطة التى حدث عندها هذا التحول ، فقد أصبحت الحجارة هى المادة المرغوب فيها ، ومن ثم وجدنا ناحتو الخشب - الذين لم يتركوا نحت الخشب ليعملوا في نقش الحجارة - يصيغون أسلوبهم طبقاً لرسوم النحاتين الذين يعملون في نقش الحجارة . وكان الاضمحلال هو ما تخضعت عنه هذه الحركة .

وإذا كان نحت الخشب قد قل شأنه بعد منتصف القرن الرابع عشر ، فإن هناك فرعاً آخر في صناعة الخشب قد تطور وازدهر ، فن أجل ما يميز منازل القاهرة من الخارج هو « المشربية » دقيقة الصنع . وليس هناك من سبب بدعونا إلى الاعتقاد

بأن هذا النوع من صناعة الخشب قديم جداً . غير أنه - سواء بسبب سهولة كسرها أو بسبب الاضطرابات التي سادت المدينة - لا توجد الآن نماذج قديمة من المشريات ، . والنوافذ القليلة المصنوعة من الخشب الرقيق المتشابك والتي لا تزال موجودة في المساجد القديمة ، لها طابع آخر مختلف : فهي مكونة من أربعة أجزاء مقسمة إلى أقسام بها حواجز رأسية مربعة ومستديرة الشكل ، مثل التي توجد في مقبرة «قلاوون» . وهناك نوافذ أخرى عبارة عن مجرد حواجز متشابكة من القضبان المتقاطعة التي تترك فيما بينها مربعات كثيرة ، وليس فيها أى شئ يدل على تصميم قى . وهناك نوع أرق يوجد في منبر لاجين ، بجامع «ابن طولون» (١٢٩٦) حيث التشابك أضيق والعقد منقوشة ومنموتة . ومن الغريب أن المشربية الحقيقية بأنواعها المختلفة وتأثيرها الذي يحدثه تشابكها العجيب - ظهرت أول ما ظهرت في حاجز المصلى الموجود في جامع «المردان» ، مما يدل كذلك على أرق التطورات التي طرأت على نحت الخشب . وبينما اندثر فن من الفنون ، تحسن وازدهر فن آخر . فهناك أمثلة رائعة من صنع المشريات في الجزء الأول من القرن الخامس عشر ، كما في منبر مسجد «أبي بكر بن مظهر» . وأغلب مشريات المنازل حديثة العهد إلى حد كبير ، على الرغم من أنه من المستحيل تحديد تاريخها بالضبط ، وأن اختفاؤها لحسارة فنية كبيرة لا يمكن أن يحل محلها شئ آخر على الإطلاق . إلا أننا يجب أن نعترف في الوقت نفسه بأن هذه المشريات كانت من أشهر العوامل لتقل النيران من منزل إلى آخر ومن شارع إلى آخر ، تلك النيران التي كان القوم يشعلونها عمداً في بعض الأحيان .

والشئ الذي ينبغي ذكره في هذا المقام عن كل فرع من فروع العمل الفني في القاهرة في العصر الوسيط - سواء كان فن البناء ، أو نحت الخشب أو الحجر ، أو نقش المعادن ، أو صناعة الزجاج وزخرفته - أنه يحتوى دائماً على عنصر الجدة والابتكار Originality . ذلك أن العرب لم يحضروا معهم أى فن من الفنون ، ويبدو أنهم كانوا يفتقرون في الواقع إلى الحاسة الجمالية . فقد تلقوا فنونهم على أيدي رعاياهم الأجانب ، ومع ذلك فإنهم كانوا يدخلون على الدوام عنصراً خاصاً هو الذي يميز الفن العربي على سواء ، من ذلك أنهم تعلموا نقش المعادن من بلاد الفرس ، وحاملاً جعلوه فناً خاصاً بهم . كذلك فإنهم نحتوا الخشب البينظلي

والقبطي ، وأضافوا إليه رأيهم الخاص فيه الذي جعل منه فنا قائما بذاته . ثم أنهم
 وجهوا صناعة الزجاج في مصر ، وحصلوا على أسرار تلوين الزجاج وتذهيبه من
 القبطية ، وبعد ذلك أنتجوا تماذج من المصاييح الملونة لا تكاد نجد لها مثيلا في
 أي بقعة من بقاع الأرض . وليس اختلاف الأسلوب أو الشكل وحده هو الذي
 يحدث الاختلاف : فالصبغة التي يصطبغ بها كل فرع من فروع الفن العربي ، صبغة
 فريدة في نوعها Sui generis . ولم يكن العرب مجرد ناقلين يحذون حذو أمثلة مختلفة
 من الفن ، وإنما كانت لديهم قدرة خاصة على تذيب الأصول التي ينقلون عنها
 وتفتيحها . ولعل أغرب ما في الأمر أن أحسن وأرق تذيب لما نقلوه قد تم في
 أوقات عصبة كان فيها السادة الأجانب بعيدين عن الثقافة والفن ، بحين لسفك
 الدماء . ومع ذلك فإن عصر السلاطين المماليك كان العصر الذهبي لمصر الإسلامية
 في الفن والآداب على السواء ، ولا يجب أن يغرب عن بالنا أن بعض الأقطاب
 المسلمين في الدين والفقه والتفد والتاريخ ، كانوا يعملون كقضاة أو أساتذة في مساجد
 القاهرة ومدارسها ، كذلك يجب ألا ننسى أن فترة المماليك أنجبت - أو عملت على
 تشجيع - كثير من الكتاب أمثال ابن خلدون ، والنويري ، وابن دقاق ، والمقريزي ،
 وابن حجر ، والعيني ، وابن عرب شاه ، وأبو المحاسن ، والسبوطي ، وابن أبياس ،
 وهؤلاء إما أنهم ولدوا في مصر ، أو أمضوا وقتا طويلا في القاهرة مثل أبي الفداء .
 ولقد كان القرن الخامس عشر أخصب فترة في الأدب المصري ، كما أن هذا النشاط
 كان يعمل على تشجيعه في سوريا نفس السلاطين .

الباب التاسع

البكوات والباشاوات

سلطة الأمراء المماليك (البكوات) لا زالت قائمة - ضعف الباشا - حرب
الشوارع - البك العثماني - رضوان الجاني - أسرة الشرايبي - المكتبات - حالة
التعليم - التمصب - الخرافات - مساجد الفترة العثمانية - علي بك - عبد الرحمن
كنغدا - محمد بك أبو الذهب - محمد علي - استئصاف أموال الوقت - بمشة حفظ
آثار الفن العربي - رسالة إلى اللورد كرومر - وفاة الأتار - إحيائها - ثانون
لورد كرومر - المنح من أعضاء لجنة الدين العام والحكومة المصرية .

لم يقدم أحد على كتابة تاريخ مصر خلال ثلاثة القرون التي خضعت فيها
للسلاطين الأتراك ، منذ أن فتحها ، سليم الغوري ، في عام ١٥١٦ إلى أن أنشأ
محمد علي أسرة مستقلة في عام ١٨٠٥ . وهذه الفترة متشابهة الأحداث إلى حد
بعيد ، كما ينقصها أقطاب من الذين ظهروا في الفترة الأولى من عهد المماليك ،
ويبدو أن الأشخاص الذين ظهروا على مسرحها لم يكن لهم شأن كبير . وقد
تجردت الحكومة المحلية من كل ما كان يحفز إلى الروح الوطنية ، وساعدت على
ذلك الحروب الأجنبية . كما أن نفقات القصر الطائلة وترفيه الباذخ ، وتنافس
الأمراء ، لم تجعل مجالاً لتشجيع الفن والفنانين . هذا إلى أن عدم الاكتراث
بالمحافظة على الاستقلال ، وسياسة الامبراطورية العثمانية الجشعة في جمع المال ،
أدى إلى ضياع كثير من مجد المماليك القديم . ومع ذلك فإنه لم يكن ثمة فارق كبير
بين القاهرة تحت حكم الباشاوات ، وبين المدينة التي يصورها لنا المقرئ أحياناً .
فكل شيء ، في الشرق يتغير تغييراً حثيثاً لا يكاد يدركه أحد ، وإن طواحين الزمن
تدور في مصر بنفس البطء الذي تدور به تلك السواقي المنتشرة فيها . حقيقة إنه
حدث هناك اضمحلال ، إلا أنه لم يحدث طفرة واحدة ، فقد كان الأمراء لا زالت
لهم قوة يمتد بها ، ولعل أهم فرق هو أنه بدلاً من أنهم كانوا ينتخبون أحد
السلاطين ، أصبح يعين لهم الباب العالي على رأسهم أحد الباشاوات . وكانت سلطة
الباشا يقف في طريقها مجلس من الأمراء المماليك - أو البكوات ، كما كانوا

يسمون بعد ذلك . وكثيراً ما كان يعزل بواسطتهم أو بواسطة مؤامرات الجند الثائرين . فعلى الرغم من أن الباشا كان يصل في بعض الأحيان تصحبه حاشية مكونة من إثني عشر ألف رجل ، كما كان ينثر المتاديل المملوءة بالنقود الذهبية في أيام الأعياد ، إلا أنه مع ذلك كان من الصعب عليه مقاومة حكم الجند المستبدين . فقد كان رئيس الممالك - أو شيخ البلد كما يدعى - له شخصية أقوى بكثير من شخصية الباشا نفسه . وكان الأمراء إلى حد بعيد - أشبه ما يكون بما كانوا عليه أثناء حكم الممالك الشراكسة : لم يكونوا نفس الرجال - لأن سلباً ، قتل منهم كل من كان يقع في قبضته - وإنما كانوا متشابهين (أتراك و Georgians وشراكسة يرتفعون من مرتبة العبودية ثم يتقلدون الوظائف الكبيرة) ، وكان لهم جلال وعظمة في قصورهم بجوار بحيرة الازبكية أو على بركة الفيل ، أو في شارع الأسلحة . كما كان يتبعهم أتباع عديدون ، واستمرت أحقادهم الدفينة ، وحروبهم الأهلية ، وحروب الشوارع ، كما كانت من قبل . وقد ظهر إذ ذاك عنصر من عناصر القوضى سيبه قوات Azabs and Janizaries التركية في ثكنات القلعة . وقد أصبح قواد هذه القوات أقوى أمراء مصر عامة ، غير أن هؤلاء أيضاً كان لهم نفس طابع الممالك الأولى ، وفيما عدا اختفاء السلطة القوية التي كان يظهرها بعض السلاطين أحياناً - والتي لم تكن بتاتا لدى الباشا الحاكم - كان من الصعب التفرقة بين حالة القاهرة تحت الحكم الجديد ، وبين حالة القوضى التي كانت تسودها أيام معظم الملوك الشراكسة المتأخرين .

والواقع أن مصر كانت لاتزال خاضعة لحكم الممالك . وكان الباشوات يغيرون على الدوام ويعيشون في فزع وخوف من جنودهم ، أما الأمراء فكانت في أيديهم السلطة الحقيقية ، وكانوا يستخدمونها وفقاً للطريقة القديمة وذلك لمصلحتهم الخاصة والقضاء على منافسيهم سواء بالنفي أو الإعدام . وكانوا يكونون من أنفسهم جماعات أو أحزاب قوية - مثل Kàsimis و Fikàris - وكان أتباعهم يقاتلون بعضهم البعض في الشوارع ، إلى أن حاصروا قوات Azab الحكومية بضعة أشهر . وكانوا قد اكتشفوا أن القائمة يمكن التحكم فيها وذلك بوضع مدفعية على التل الموجود خلفها . ونحن نقرأ في تاريخ الجبرق ، عن قوات من الجنود كانت تحصن نفسها في مساجده ، ابن طولون ، و د الماس ، و د المحمودية ، و يطلقون

قذائف المدافع من المآذن المجاورة لها . وقد أتى وقت كانت الفوضى فيه تفوق كل وصف ، فقد هجر القوم الشوارع ، ونهبوا المنازل ، ولم يكن يجرؤ أحد على الوصول حتى بولاق أو مصر القديمة . وقد تلت هذه الفوضى فترة من الهدوء أكدتها السيادة المؤقتة لأمير عظيم . والواقع أنه يصعب علينا كشف أى فارق جوهرى بين هؤلاء الأمراء المتأخرين ، وبين أولئك الذين ظهروا خلال العصر الذهبى لحضارة المماليك . حقيقة أن فرصهم المواتية كانت أقل ، لأنهم لم يقفوا على القتال فى سوريا أو آسيا الصغرى لمصالحهم الخاصة . وذلك لأن الخطط التى كانت ترسم فى مصر على الدوام للاستغلال الأجنبى ، كانت تستخدم كجانب حشيل للجيش العثمانى . إلا أن من الواضح أن شخصياتهم وأعمالهم وميولهم كانت تشبه إلى أبعد الحدود ما كانوا عليه فى القرنين السابقين لهم . فقد كان الفرق إذن فى الحكم لا فى النوع : ذلك أنهم لم يكونوا أناسا ذوى فرص عظيمة مثلاً كان كان أسلافهم ، وإنما كانوا يشبهونهم فى الجنس والخلق والعمل إلى حد بعيد .

والحقيقة أن بعضهم كان ذا شخصية قوية يمكن مقارنتها بشخصيات المدرسة القديمة . فعثمان بك ذو الفقار - على سبيل المثال - فى النصف الأول من القرن الثامن عشر ، - بعد أن قام بدور بارز فى الحرب الحزبية التى كانت تدور حول « ذى الفقار بك » و « شركس بك » ، وبعد أن شاهد بعينه مقتل أحد عشر أميراً من ذوى النفوذ فى قصر الدفتردار فى الوقت الذى تمكن هو فيه من الحرب بأعجوبة - أصبح أبرز نبل القاهرة ، وفى قدرته أن يرفع ماله إلى مرتبة الإمارة ، وفى عام ١٧٣٩ أصبح أميراً للحج - وهو من أشهى المناصب فى مصر . وحينما قتل على الجاني ، النائب ، عزول عثمان بك الباشا وعين « رضوان » نائباً على قوات Azab . وكان عثمان بك هو أول أمير يجرؤ على دعوة باشا مصر لولاية فى قصره ، وقد كان خضع بسيطرته بقية نبل مصر خضوعاً تاماً . كما أنه كان يعقد مجلساً فى قصره الخاص ليبحث أسباب الشكوى ، وكان يعاقب فى صرامة وشدة كل حالات الاعتصاب والظلم - لأنه هو نفسه كان نقياً نزيهاً . كذلك كان يراقب مفتش الأسواق عن كذب ، ويحدد أسعاراً ثابتة للخبز وغيره من ضروريات الحياة ، ويتأكد من أن أموال البر تنفق فى الأوجه الصحيحة . ولقد كان سامياً فى خلقه ، ذا أفكار وآراء نبيلة ، عادلاً ، قوياً ، نزيهاً ، ذا حياة شريفة ، أياً كرمياً ،

بحيث أنه خلف من ورائه أثراً - حينما تسيت مؤامرات خصومه في نفيه من مصر - كان من نتيجته أن كان ينسب إليه عصر من المصور ، فقد كان القوم يقولون مثلاً : إن ذلك الشيء حدث بعد رحيل عثمان بك بضعه سنوات ، أو لقد كان عمرى كذا من السنين حينما رحل عثمان بك .

ولقد كان « رضوان بك الجلفى » - الذى أشرنا إليه آنفاً - علماً بارزاً آخرأ من أعلام القرن الثامن عشر . لحينما كان يتولى السلطة هو ونائب آخر يدعى « ابراهيم » ، كانت البلاد تتمتع بسلام شامل ، وكان الطعام أرخص منه فى أى وقت قبل ذلك . وعلى الجملة فإن جميع الطبقات كانت تعيش فى يسر ورخاء . وكان كل رجل عظيم فى تلك الأيام يفتح منزله مرتين كل يوم - فى الظهر والمساء - لكل قاص ودان ، وذلك فى بهو عظيم الاتساع . وكان السيد وضيوفه يتصدرون المائدة ، ثم يليهم المالك والأتباع ، وكان من العار ألا يسمح لأى غريب بالدخول ما دام قد قدم بنفسه الى هناك . أما فى أيام الأعياد فكانت توزع أطباق كبيرة من الأرز وعسل النحل أو اللبن على الفقراء . كذلك كانت توزع الحلوى فى أيام الجمع والاحتفالات الرسمية . وكان أحد منازل رضوان الأنيقة يقع على الأزبكية (التى كانت توجد فى ذلك الوقت) ، وكانت تعلو ردهاته قباب بديعة الزينة ، فيها نقوش عربية من الذهب على أرضية لونها أزرق ومرصعة بالزجاج باللون المتناسق الذى يكسبها روعة فوق روعة . كذلك فإنه بنى أكشاكاً فى حديقة بجوار القناة ، حيث كان قد حفر بركة وأقام جندلاً ، وهناك - وحينما تخدم أطعمته وآماله - كان يتغمس فى المذبات التى كان يسر منها كثيراً . والحقيقة أن « رضوان » لم يكن يهتم بالأخلاق مثلاً كان يهتم « عثمان بك » ، ولكنه أعطى حرية زائدة للنساء القاهرة ، إذ أصدر أوامره إلى رجال الشرطة ألا يزعمروهم أو يعترضوا طريق المعجيين بهم^(١) . وكانت القاهرة فى ذلك الوقت بمثابة مرعى للغزلان ، أو جنة للحدوديات . وكان سكانها يحسبون كؤوس الشراب واللذة حتى الجمالة ، كما لو كان قد خفي عليهم أن هناك حساباً عسيراً عليهم أن يؤدوه يوم الحساب . وليس بغريب بعد ذلك أن يتغنى الشعراء فى مدحه بقصائد مثل « الخمر الأرجوانية » ،

و ، عطر الجنة ، . ولا يوجد في حي الازبكية الآن أى أثر لقصر ، وضوان ، ،
غير أن بوابته التى تسمى « باب العزب » ، والتى تؤدى إلى القامة من الرميّة
- لا تزال تحتفظ بذكرها . ولقد كانت نهاية « وضوان » ، هذا مفاجئة . فقد أحاط
المأمرون بمنزله فى شارع قوصون ، وبدأت الفذائف تنطلق فى الوقت الذى كان
هو فيه مشغولاً بحلقة ذفنه . ومن ثم أخذ يقاتل بكل قوته ، إل أن كسرت
إحدى ساقيه فامتطى صهوة جواده وهرب ليوت فى صعيد مصر . وكان هو آخر
قواد Azabs .

لم يكن الأمراء وحدهم من الذين يملكون مثل هذا المنزل الذى كان يملكه
« وضوان » . فقد كان هناك على بحيرة الازبكية أيضاً منزل يملكه تاجر مشهور
اسمه « أحمد الشرايبي » ، كانت عائلته تنجب أمراء ونفثى بمالك ، وكانت تملك
ثروة طائلة تنفقها مثلاً كان النبلاء ينفقون ثرواتهم . وكان العلماء الرجال المثقفون
يترددون على منزل هؤلاء القوم الذى كان يزخر بكثير من الأصول والمراجع
الثمينة . ذلك أن هذه العائلة لم تكن تدع كتاباً يظهر فى السوق إلا وتشتري منه
نسخة - مهما غلا ثمنها - لمكتبتها حيث يكون فى متناول جميع الزائرين فكان من
المؤكد أن يجد كل عالم ما يريد من كتب فى مكتبة « الشرايبي » ، وكان له أن
يستعيره ، أو حتى يحتفظ به لنفسه : ذلك أن كبار التجار لم يكن الواحد منهم
يفكر فى أن يطلب إعادة كتاب معار ، إنما كان يبحث عن نسخة أخرى من
الكتاب ليشتريها . ومن وجهة نظر العلماء والمثقفين ، يبدو أنه من المستحيل أن
توجد طريقة أفضل من هذه . وكان أفراد هذه العائلة أكثر من مجرد شغوفين
باقتناء الكتب أو إعارتها ، بل كانوا يراعون فى دقة وصرامة حكم الملكانيين ،
ويلزمون جانب الأخلاق القويمة ، ويعتقون دائماً على الحياد فى علاقاتهم واتصالاتهم
وكانوا لا يزوجون إلا فى محيط عائلتهم ، ولكن بناتهم لا يغادرون المنزل إلا فى
حالتين فقط : الزواج والوفاة ، وكان يحسن الاحتياط دائماً فى وقت كان فيه
« وضوان » ، الباذخ يعمل على تشجيع مغامرات الغزل ، وكان فريق من النساء
الأنبيات يركبن لاستنشاق الهواء - مثلاً تفعل نساء القاهرة الآن - فى الوقت
المناسب على ضفاف بحيرة الازبكية ، ثم يعدن أدراجهن بعد أن سلبن حلين
وتجردن من ملابسهن . إلا أن أسرة « الشرايبي » - على الرغم من شدتها وصرامتها -

كانت أحياناً تلين . لحينما كانت تقام احتفالات الزواج - على سبيل المثال - كانوا يقدمون براجم حافلة باللبو والطرب ، غير أنهم كانوا يحرسون على صون بناتهم ، إلى حد أنهم كانوا ينتظرون حتى ينتهى المدعوون من صلاتهم في جامع وأربك ،^(١) المقابل لمنزل الأسرة . وبعد ذلك يسرعون في إرسال العروس إلى منزل زوجها في صحبة وصائفها ، وهنا يطلق القوم النيران ويحملون المشاعل ويمضون ليلتهم في فرح وهناء . وكان من تقاليد الأسرة أن تعين واحداً من أفرادها قيساً على ممتلكاتها وشؤونها . فكان عليه أن يجمع الإيرادات ، ويحصى المحاصيل ، ويتسلم أرباح التجارة ، ويدفع جميع نفقات العائلة بما في ذلك الملابس والمصروف الخاص . وفي نهاية العام ، كان عليه أن يعد قائمة الحساب ويدفع لكل فرد من أفراد العائلة ما يستحقه . وكان من المنتظر أن تستمر هذه الطريقة الرائعة طويلاً ، ومن ثم فلن تستجب إذا علمنا أنه حدث في نهاية الأمر أن كان يتشاجر الأفراد الصغار فيما بينهم على الحساب مما أدى إلى انتهاء الشركة بينهم ، ولقد كانت تلك ولا شك عائلة يمكن استئناؤها . إلا أنه في الوقت نفسه كان يوجد كثير من نوعها ، ونحن نجد الآن في القاهرة كثير من العائلات الكريمة المنبت التي تسير في الطريق القويم وتحترم قوانين الأخلاق الصارمة .

وشغف هذه العائلة باقتناء الكتب يافى لنا ضروماً هاماً على العلم والمعرفة في ذلك الوقت . ولقد كانت تكونت في القاهرة مكتبات هامة في خلال الأيام الأولى لحكم المماليك . وكان بعضها من غنائم المساجد السورية . وإن نحن أردنا أن نستدل بالتراجم الطويلة وسير بعض المشايخ والأساتذة ورجال الدين والمؤرخين والشعراء بمن أعجب بهم ، الجبرتي ، وجدنا أنه كان يوجد هناك نشاط فكري في مصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولو أنه لم يكن نشاطاً من المرتبة الأولى لأنه لم يات بمجديد . ويذكر لنا الجبرتي محادثة غريبة وقعت في عام ١٧٥٠ بين أحمد باشا - العالم بالرياضيات - والشيخ عبد الله الشبراوي من الجامع الأزهر . فقد لاحظ الباشا أنه طالما سمع عن مزايا مصر العجيبة ومحاسنها كمنبع العلم والمعرفة ، ولكنه

(١) تهدم هذا المسجد في عام ١٨٩٩ . وكان قد بناه الأمير المشهور « أربك بن تنس » التي سميت الأربكية نسبة إليه .



شارع قرب باب الحرق

كان يود كثيراً أن يرى النتائج بنفسه . ومن ثم قال له الشيخ : حقيقة ياسيدى أن مصر كما سمعت ، منبع العلوم والمعرفة . وهنا سأله الباشا : ولكن أين هي ؟ أنك على قدر ما أستطيع أن أرى - لا تعرف شيئاً سوى الشريعة والعلوم الإلهية وغير ذلك من الدراسات القليلة الأهمية ، وتحقر العلوم العملية كلية . وكان على الشيخ أن يعترف بأن الجامع الأزهر لم يكن يعلم الرياضيات ، اللهم الحساب الذى كان ينفع فى قانون الوراثة . وبعد ذلك عاد الباشا إلى أسئلته فقال : وماذا عن علم الفلك ؟ إنه يلزم لساعات الصلاة والصوم وأشياء أخرى كثيرة . وهنا صرح الشيخ بأن قليلين كانوا يدرسون علم الفلك الذى يتطلب كفاية خاصة ، وأجهزة ، وشروط فسيولوجية ، وميل إلى الهدوء والدعة ، وذلك لمواصلة أبحاثه . ثم قال للباشا إن فى قدرته أن يرشد إلى رجل من النوع الذى يريد ، ولكن ليس فى الجامع الأزهر . وحينما ظهر الرجل ، أعجب الباشا كثيراً بمعضلاته الحسائية وأهداه رداء من الفرو

باعه فيها بعد بثمانمائة ديناراً . فقد رسم ساعات شمسية جميلة على الرغام^(١) ليين أوقات الصلاة ، وعليها بعض الآيات المناسبة ، وقد وضعت اثنتان من هذه الساعات في الجامع الأزهر وفوق سطح مسجد الإمام الشافعي . من هذه الواقعة - ومن كثير مما جاء في مؤلفات هذا المؤرخ - نستطيع أن ندلم أن الدراسات في القاهرة كانت في ذلك الوقت غير عميقة ، وأن العلم كان قد انضمحل دون شك^(٢) .

ولكن من جهة أخرى ، نجد أن الدين أقوى كثيراً عن ذي قبل . وتاريخ البشوات حافل بكثير من الإشارات إلى نفوذ أسانذة الأزهر وسادته . ونحن نسمع عن حدوث شبه ثورة حينما قام أحد الوعاظ الأتراك في مسجد المؤيد وناهض فكرة الدعاء والتبذل إلى الأولياء ، وهو شيء محبوب لاعتلاقة له على الإطلاق بعقيدة محمد . وقد حث الواعظ الجمهور على عدم القباب الموجودة فوق مقابر الأولياء ، مما جعل أسانذة الأزهر المحافظين يلافون صعوبة شاقة في تهدئته وتسكين الشعب . وكثيراً ما كانت توجد هناك قوانين صارمة لجعل سلوك الشعب متفقاً مع أحكام الدين . فقد كنا نرى - على سبيل المثال - تحريمياً باتماً للتدخين في الشوارع . وكان رجال الشرطة يطوفون في الشوارع ثلاث مرات كل يوم ، وكان على كل من يضبط مثلبساً بالتدخين أن يأكل رأس غايونه . ويذكر لنا ناصر خسرو ، عادة قديمة كانت لاتزال تتبع في ذلك الوقت : ذلك أن كل رجل يزيف الوثائق كان يوضع فوق ظهره رجل ويطاف به في الشوارع حيث يصاحبه مناد ، يصيح قائلاً : أنظروا عقاب المزيف ! ومن الواضح أن أهل القاهرة كانوا يؤمنون بالخرافات . فقد حدث في عام ١٧٣٥ ، أن انتشرت هناك إشاعة فخواها أن يوم السبت سوف يكون يوم الجمعة التالي ، ومن ثم وجدنا الناس يودعون بعضهم البعض الوداع الأخير ، ويتجولون في الحقول والطرقات ليودعوا الأرض التي طالما أحبرها ، في الوقت الذي كان فيه أهل الجزيرة قد حركتهم خرافة قديمة

(١) يصف لنا M. Van Berchem بعض هذه الساعات الشمسية العجيبة في كتابه Notes d'Archéologie Arabe (1892) ص ١٣ - ١٨ . وقد وضعت إحدى هذه الساعات في مسجد ابن طولون عام ٦٩٦هـ (١٢٩٦م) بواسطة «لاجين» . وهناك ساعة أخرى يمكن رؤيتها حتى الآن في مسجد «قوصون» ويرجع تاريخها إلى عام ٧٨٥هـ (١٢٨٣م) . كذلك توجد ساعة نالفة في مسجد «إينال» وتعمل تاريخ ٨٧١هـ (١٤٦٦م) .

ظهرت قبل مجيء الاسلام زمن بعيد ، فأخذوا يستحمون في النيل في عصية ظاهرة الرجال والنساء على السواء . وحتى يوم السبت التالي ، لم يكن يوجد هناك سوى العرب والتوبة والصلاة .

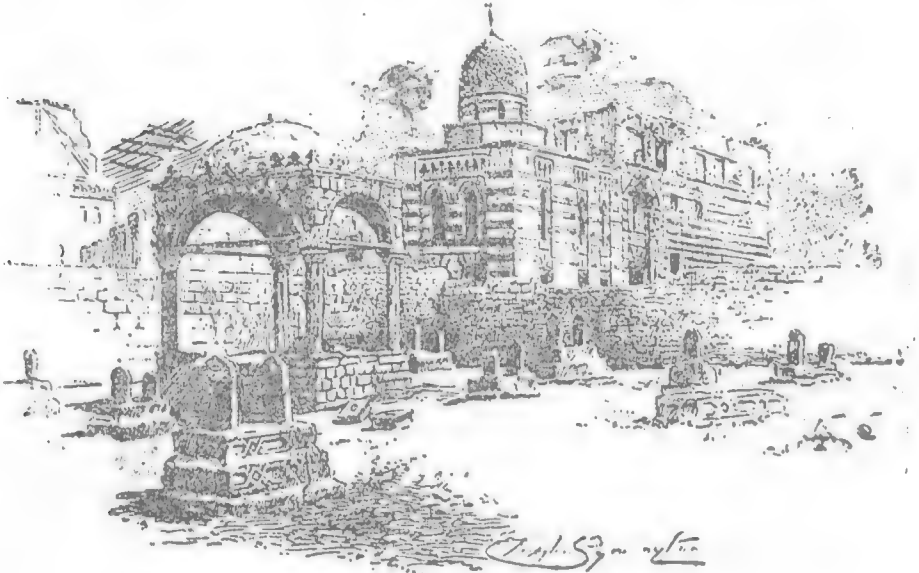
ولم يكن من المعقول بالنسبة لعصر اهتم بالدين إلى هذا الحد ، الا يولى الاضحية العناية الواجبة . وإنه لمن الخطأ أن ننسب تهديم كثير من مساجد القاهرة إلى الباشوات الاتراك . بل العكس نجد أن الخطر كان ينحصر في المبالغة في إصلاحها إلى حد تغيير معالمها الأصلية . والقاهرة حافلة بالمساجد التركية ، أى على الطراز العثماني . وهذه المساجد إن لم يكن في الإمكان مقارنتها بمباني المماليك الأول ، فهي على الرغم من ذلك فاخرة في حد ذاتها ، وأفضل بكثير من أى شيء تم بناؤه في انجلترا . على سبيل المثال - خلال القرن الماضي . والحقيقة أن مسجد السيدة صفية (١٦٠٤) و « أبو الدجد هباب » (١٧٧٤) يعتبران من أروع الأبنية . كذلك فإن مسجد « البرديني » يحتوي على نقوش عربية تركية رائعة . ولقد هجر المهندسون في الفترة العثمانية تصميم المدرسة الذي أدخله صلاح الدين الأيوبي . ذلك التصميم الذي فقد - كإربابنا - كثيراً من شكلة الصليبي القديم حينما أصبحت تستخدم كجوامع لعقد الاجتماعات العامة أيام المماليك الشراكسة ، غير أن جنيادوا إلى تصميم الجامع القديم الحالي من التعقيد ، أحدثوا فيه تعديلاً يتلخص في إحلال القباب التي على الطراز البيزنطي محل الأسقف المسطحة التي كانت تعلو المصلى فيما مضى . والواقع أن المسجد العثماني من الوجهة العملية ليس سوى كنيسة كبيرة . وغما يميز مساجد وأبنية العصر العثماني هو إدخال القرميد . وقد أصلح « إبراهيم آغا » مدرسه « آفستقر » عام ١٦٥٢ ، حيث جعل الحائط الشرقي بأكمله مغطى بالقرميد الأزرق ، أغلبه على الطراز الدمشقي ، وقليل منه على الطراز الرومي . من القسطنطينية غالباً . ولم يكن إصلاح المباني مما ينتج دائماً ، فكثيراً ما كانت التعديلات التي أدخلها الاتراك على التحف والروائع القديمة سبباً في تشويهها . ولقد أصلح أحمد باشا في عام ١٦٩٠ مسجد المؤيد الذي كان مهتماً ، وبني أحد البشوات ، مسجد الأربعين ، بجوار بوابة « قره ميدان » عام ١٧٠٤ . كذلك أصلح أحمد ، مسجد الظافر الفاطمي المعروف باسم « الفككاني » . عام ١٧٣٥ .

إلا أن أمير المصلحين على الإطلاق كان عبد الرحمن كتخدا، الذي كان يتمتع بنفوذ عظيم قبل أن يعزل ، على بك ، - الذي أصلح هو الآخرة مسجد الإمام الشافعي وبني سوق بولاق - البشوات الحاكين ويحمل من نفسه ملكاً على مصر من عام ١٧٦٨ حتى عام ١٧٧٢ . ولقد كان لوالده عبد الرحمن - عثمان كتخدا ، ذوق هندسي له قيمته . ولقد استغل الأموال التي كان يحصل عليها عن طريق سعى في بناء مسجد ومدرسة وينبوع بجوار بركة الأزبكية . وفي يوم الافتتاح ملا الحوض الذي في الوسط - وكذلك جميع الأبارق التي تمكن من الحصول عليها - بالشراب حتى يشرب الجمهور المحتشد . كذلك فإنه بنى مدرسة للعبان في الأزهر ، وغير ذلك من أعمال الخير . إلا أن ابنه - علي الرغم من ذلك - فاقه بكثير ، فكل سامح لابد وأن يعرف ذلك السيل الدقيق الذوق - كصاحبه الذي كان وسيماً ومتأنفاً في ملبسه - في نهاية « بين القصرين » ، بما فيه من قرميد ، وبما فوقه من مدرسة مكشوفة بها أقواس . إلا أن هذا كان أنل أعماله طراً . فقد بنى مسجداً خارج باب الفتوح ، وآخر بجوار باب الغرب ، فيه خوض وينبوع ومدرسة . كذلك بنى خزاناً كبيراً للمياه - فيه ينبوع ومدرسة للسقائين ، وأصلح ضريح السيدة زينب و السيدة سكينه ، وأنشأ أضرحة أخرى بجوار باب القراة ، وفي الموسكى ، وفي حي الحسينية ، وفي شارع عابدين ، وغير ذلك . ولعل أهم إصلاح قام به حقاً هو إصلاح الجامع الأزهر الذي يدين له بالكثير بما يوجد به الآن . فقد وضع قرناً من الحجر لتثبيت الأعمدة الرخامية ، غطاها بطبقة من الأخشاب الفاخرة . كذلك بنى محراباً ومنبراً جديدين ، وشيد رواقين : أحدهما فوقه مدرسة لليتامى ، والآخر تعلوه مئذنة ، وبني ضريحاً في الفناء ، وزود المسجد بالمكتبات ، وقاعات المطالعة ، والمطابخ ، وغير ذلك من الابنية التي كانت تغيب الطلاب الذين يأتون من صعيد مصر ، ووسّع مدرسته والطيرية ، و« الأكفوية » ، الملحقتين بالأزهر ، وبني بوابة ضخمة بينهما ، في مواجهة وكالة قايتباي ، وأنت الاروقة لتكون مأوى لطلبة مكة والسودان ، وقرر أموالاً خاصة للإتفاق على معيشتهم ، هذا إلى جانب تقديم كميات وافرة من الأرز والزبد والزيت والدقيق إلى مطبخ الأزهر كل يوم من أيام شهر رمضان ، وذلك للترفيه عن الطلاب بعد صومهم طول النهار . كذلك فإن عبد الرحمن ، أصلح مسجد الإمام الشافعي ،

ومهد الممر الموجود فيه بالرخام الملون ، وأصلح ضريح ، السيدة نفيسة ،
ومارستان قلاوون ، إلا أنه بعد أن هدم القبة ، لم يهتم بأن يعيد بناءها ، بل غطي
البناء بسقف مسطح كما نشاهده اليوم . ولقد لقي صعوبة كبيرة في الوصول إلى
الأموال التي تركها مؤسس المستشفى وخلفاؤه ، ونجح في اكتشاف حجة الملكية
وفي إعادة دخل المستشفى . وعلى الرغم من الطرق التي سلكها للوصول إلى الثروة ،
وعلى الرغم من كل ما كان يشاع عنه ، فإن أعمال هذا الرجل الخيرية لأحد لها في
وقت الشتاء كان يوزع الملابس الصوفية على العريان الذين كانوا يكثر في
القاهرة ، وكذلك على المؤذنين حتى يقيهم من البرد حينما كانوا يؤذنون للصلاة
أثناء الليل . وكان الفقراء يتدافعون على بابه مساء كل يوم من أيام رمضان ،
ينتظرون أطباق الطعام التي لم تكن ترفض على الإطلاق ، فإذا ما انتهوا من تناول
طعام الإفطار ، انصرفوا في بشر وسعادة وقد حمل كل منهم رغيفين وقطعتين من
التفود لشراء ما يلزم لطعام السحور . وعلى الجلبة فإن عبد الرحمن كتنجدا ، بنى - أو
أعاد بناء - ثمانية عشر مسجداً ، إلى جانب الأضرحة والسبل والمدارس والجسور
وغير ذلك من الأبنية . فقد كان لديه شغف بالبناء ، ومن حسن الحظ أن ذوقه
كان رفيعاً ، وكان الناس يسمونه بحق « المحسن العظيم » . وقد توفي عبد الرحمن في
القاهرة عام ١٧٧٦ في سن متقدمة بعد أن أمضى اثنتي عشرة سنة أسيراً في بلاد
العرب . ذلك أن أعماله الخيرية لم تكن لتعفيه من شكوك « على بك » ، ولقد سار
في جنازته العلماء والأساتذة والطلاب والفقراء ، إلى أن وصلوا إلى الجامع الأزهر
حيث ووري الثرى في مقبرة كان قد بناها بالقرب من البوابة الجنوبية .

وآخر المساجد العظيمة التي بنيت خلال فترة البشوات هو مسجد محمد بك
المعروف بإسم « أبي الذهب » ، نسبة إلى ما كان يقوم به من ترقود ذهبية للشعب .
وقد كان محمد بك أبو الذهب هذا مملوكاً محبوباً وموثوقاً به لدى « على بك الكبير » ،
وقد كافأه على رعايته إياه بأن عمل على تحطيمه ونفيه ، ثم القضاء على حياته في نهاية
الامر . وكان جندياً لامعاً ، إذ أبلى بلاء حسناً في الحروب التي قام بها من أجل
سيده - « على بك الكبير » - في سوريا وبلاد العرب ، وجعل لنفسه شهرة يكتنفها
الحب والإعجاب وذلك لسلوكه الحكيم وكرمه الزائد . وكانت مصر يسودها

السلام حينما كان يتقلد هو السلطة . وبينما كان الباب العالي يعين البشوات كما كان يفعل من قبل ، ترك السلطة - وقد صاب في تخليه عنها - الحقيقة في أيدي هذا الأير القادر المحبوب . وفي عام ١٧٧٤ أسس محمد بك مدرسته الجميلة في مواجهة الأزهر وهناك يرقد في مقبرته . ولقد بنيت هذه المدرسة طبقا لتصميم مسجد قديم في بولاق (مسجد السنانية) ، وكانت تعتبر أعجوبة للبناء والثراء : أسقف مذهبة ، مداخل رخامية ، قبة رائعة ، وكوات برونزية بديعة الصنع ، إلى آخر ذلك . وكانت هناك مداخل خاصة لكل من أصحاب المذهب الحنفي والملاكي والشافعي . وكان الاساتذة المشهورون يأنون إليه ليدرسوا الشريعة ، وكانوا - على خلاف ما جرت عليه العادة - يتقاضون مرتبات قد تصل في بعض الأحيان إلى مائة وخمسين Paras^(١) ولكم لم تكن لتقل بحال من الأحوال عن عشرة Paras في اليوم ، ومكافأة سنوية مقدارها خمسين مدأ^(٢) من القمح . وفي يوم الافتتاح ، خلع الرجل العظيم على رجال الدين قفاطين من الفراء الأبيض أو السموري على حسب مراتبهم ، وهي نوع من الأزياء الخاصة بالجامعات .



فناء مقبرة للمسلمين

(١) كان ثمن رطل اللحم في ذلك الوقت Two paras .

(٢) المد : مكيال يسع خمسة وعشرين أقة .

وكان مسجد محمد بك هو آخر مساجد القاهرة العظيمة - اللهم إذا استثنينا مسجد محمد على الفخم في القلعة - وهو يبدو رائع المنظر إذا نظرنا إليه من أى جانب من جوانبه على الإطلاق . ومهما يكن من أمر ، فإنه من الواضح أن هذا المسجد يشوبه العنصر الأجنبي ، فهو مزيج من أسلوب إسطنبول وأسلوب القاهرة اختلطاً معاً ليكونا تاجاً فنياً رائعاً . ولكن على الرغم من ذلك ، فإننا نعرف بأنه لا يمكن لنا أن نصل إلى البناء العثماني الخالص في مدينة المماليك القديمة .

واند قلنا حتى الآن ما فيه الكفاية لتثبت أن مساجد القاهرة لم يلحقها ضرر أو تخريب خلال فترة حكم البكرات والبشوات ، بل على العكس من ذلك وجدنا أن العناية بها كانت كبيرة . وإنما بدأ العهد السيئ للمساجد حقاً حينما جاء محمد على - وهو يشبه على بك ولكنه كان أكثر منه نجاحاً وجعل من نفسه حاكماً على مصر ، وكان حكمه ذا لون جديد ، فإذا قورن حكم أقوى المماليك بحكمه لكان - أى حكم المماليك - هو الضعف بعينه . فقد كان محمد على هو الذى وضع يده على الأوقاف التى كانت تخص مساجد مصر ومعاهد ما منذ قرون خلت . وحينما ذهب علماء القاهرة بصرخون ويلعنون ، حرمهم من حق إدارة شئون المساجد التى كان يعهد بها لإليهم . ومنذ ذلك الوقت - حينما ضاعت أو أعدمت جميع الملكية ، واختلطت أموال الوقف أو اختلست - أخذت آثار القاهرة ومبانيها فى الاضمحلال والهدم . ذلك أن حركة مسايرة أوربا فى القرن التاسع عشر - التى لم يكن منها بد ، والتى كان الاتجاه العام يميل إليها فى نواح كثيرة - كان من شأنها أن تعمل على هدم كثير من المساجد وغيرها من الأبنية التاريخية التى كانت تعوق سير المرات أو تقف حجر عثرة فى الشوارع والمباني الجديدة التى كان نواب السلطان يرسمونها دون أى اعتبار لما قد يكون فيها من آثار تاريخية لها قيمتها . ولقد كان شارع محمد على أسطح مثال للشوارع التى كانت تمتد غير عابئة بما قد تلاقيه من آثار تاريخية هامة . وغير هذا حدث فى أغلب أحياء القاهرة تقريباً ، ولعل الإدارة التى كان من مهمتها تخطيط الشوارع ، كانت تقوم بعمل مجالس المديرية ولكن فى أضيق صورة . ويرجع الفضل فى عدم استمرار تلك الحالة السيئة إلى تيقظ

وحزم ، لجنة حفظ آثار الفن العربي^(١) ، وهي هيئة رسمية أبلت بلاء حسنا ، وندين لها بفضل المحافظة على آثار عربية من جميع المصور وعلى اختلاف الأنواع . والواقع أنه لولا جهود هذه اللجنة الموفقة ، لكانت تلك الآثار قد أصبحت في خبر كان منذ أمد بعيد . والحق أنه لصعب - بل يستحيل علينا أن نسجل تقديرنا لأعمال هذه اللجنة التي تتميز بالدقة والصبر معا . فالتقارير السنوية السبعة عشر التي أصدرتها - والتي تحفل بالكثير من الصور والإيضاحات والرسوم - تكون في مجموعها مكتبة نفيسة لها قيمتها ، تشهد في كل صفحة من صفحاتها على العناية الكبيرة والمسئولية الجسيمة التي كان يحس بها أعضاء تلك اللجنة . ويجدر بي في هذا المقام أن اقتبس تقريراً عن الطرق التي سلكتها اللجنة ، والنتائج التي تمخضت عنها أبحاثها . وهذا التقرير طلبه مني الإيرل كرومر ، Erl Cromer عام ١٨٩٥ ، ثم نشره في التقرير السنوي عن نهضة مصر الذي تقدم به إلى البرلمان في عام ١٨٩٦ :

سيدي - وفقاً لما سبق أن طلبتموه مني ، يسرني أن أذكر بضعة ملاحظات على عمل لجنة حفظ آثار الفن العربي - تلك اللجنة التي أتيت لي فرصة اختبارها في صيف هذا العام .

ولقد تشكلت هذه اللجنة بمقتضى مرسوم أصدره الخديو الراحل في الثامن عشر من شهر ديسمبر عام ١٨٨١ . وكانت واجباتها :-

(١) أن تقوم باستعراض وتسجيل آثار مصر العربية التي لها قيمة تاريخية أو فنية .

(٢) أن تحرص على حفظ هذه الآثار ، وتقوم بإبلاغ وزير الأوقاف عن كل ما يلزم من إصلاحات للمحافظة عليها .

(٣) أن تعد خطة لهذه الإصلاحات ، ثم أشرف بنفسها على كل كبيرة وصغيرة في تنفيذ هذه الخطة .

(٤) أن تتأكد من أن تصميمات الأعمال التي يتم إنجازها تحفظ في وزارة

الأوقاف ، وأن تشير إلى أى تحف مستقلة أو حطام متهدمة ينبغي نقلها إلى متحف الفن العربى .

إلا أن الاضطرابات السياسية حالت دون تنفيذ كثير من هذا قبل انقضاء عام ١٨٨٢ . وعندما تمت بفتيش عام على آثار القاهرة العربية من شهر يناير إلى شهر مارس عام ١٨٨٣ ، ألفت اللجنة تقوم بعملها الرسمى ، ومن ثم أتيت لى فرصة التعرف على الطريق الذى بدأت تسلكه . وعلى ذلك فإنى أستطيع أن أقارن بين ما كانت عليه الآثار العربية حينما أخذت تتناولها اللجنة بالإصلاح والترميم ، وبين ما آلت إليه بعد أن انقضت اثنتى عشر سنة على عملها .

ويمكننى أن أذكر فى يقين تام - وذلك بمقارنة حالة المساجد فى عامى ١٨٨٢ و ١٨٩٥ - أن الآثار أصبحت الآن فى حالة من الحفظ والرعاية تفوق كثيراً ما كانت عليه منذ عشر عاماً . ولقد أمكن إصلاح وتقوية الآثار التى لم يكن هناك قبس ضئيل من الأمل إصلاحها فيما مضى . وعلى وجه العموم ، فإن المباني التى كانت آيلة إلى السقوط قد أمكن ترميمها وإصلاحها . كذلك يوجد الآن إشراف يقظ وحماية حذرة من كل ما عساه أن يحدث من نهب أو تخريب . ويرجع الفضل فى النتائج الحسنة إلى الجهود الموقفة والدراية العلمية التى بذلها كل من المرحوم « روجرز بك ، Rogers Bey ، و « فرايز باشا ، Franz Pasha ، و « يعقوب أرئين باشا ، - أولئك الذين ستظل أسماءهم مقرونة دائماً بالنهضة الفكرية فى مصر . ولقد كان بعض الزملاء الفرنسيين يسسدون خدمات جليلة من آن لآخر . وأضفى حضور كثير من وكلاء وزارة الأشغال العامة المتعاقبين - وعلى الأخص المستر و . ا . جارستن Mr W. E. Garstin ^(١) أعمال اللجنة أهمية وقوة . وبطبيعة الحال فإن أهم وظيفة كانت لدى اللجنة هى وظيفة المهندس ، فمن شأنه الإشراف على الآثار ، والتوصية بما ينبغي إجراؤه من إصلاحات ، والإشراف بنفسه على تنفيذ هذه الإصلاحات . ومنذ أن أنشئت إدارة خاصة باللجنة - وهى التى انفصلت عن القلم الفنى بوزارة الأوقاف - كان المستر « ماكس هرز » Mr. Max Herz ^(٢) هو المهندس المسئول عن أعمال اللجنة . وأنه لمن العدل

(١) سير جارستن فيما بعد .

(٢) ماكس هرزبك - زميل الآثار .

أن نقول في هذا المقال إن درابته وخبرته الواسعتين في الفن وعلم الآثار ، كان لهما أثر فعال في الحالة الطيبة التي أصبحت عليها الآثار في الوقت الحاضر . وإلى جانب خبرته العملية كهندس ، فإن ما كس هرز بك له معرفة بتاريخ الفن العربي وشغف كبير بالعمل الذي يقوم به . والدليل الذي وضعه عن المتحف العربي (١) - والذي نشر هذا العام بالفرنسية - يشف عن دراسة واسعة لتطور الفن العربي ، والآداب العربية منها والأوربية - التي لها علاقة بهذا الموضوع . وأن الإصلاحات الشاملة التي أجراها في بعض المساجد الصغيرة ، لأصدق دليل على تعمقه في دراسة الفن العربي وزخارفه ، وعلى مهارته في عمله ، وحرصه على أن تكون الزخارف مطابقة لما كانت عليه . ومهما يكن من أمر ، فإن تعيين هرز بك في لجنة حفظ الفن العربي ، يعد كسباً لها وتوفيقاً .

معنى كلمة : حفظ ، :

ويجب ألا يفرب عن بالتنازل واجب اللجنة الأول هو حفظ الآثار وليس إحياءها ، وهناك لجنة فرعية كان عليها حصر الآثار التي لها قيمة تاريخية أو فنية ورسمها . وكان أول واجبات اللجنة هو الإشراف حفظ كل ماتم حصره من تلك الآثار . ولقد لاحظت بنفسى أن أعضاء هذه اللجنة كانوا يقدررون المسؤولية الملقاة على عاتقهم ، ويقومون بعملهم خير قيام على قدر ما كانت تسمح به المبالغ المحدودة التي رصدت لهذا العمل . وبطبيعة الحال فإنه لا يمكن أن أذكر في هذا المقام سلسلة الإصلاحات المختلفة من بناء جدران بأكلها في المساجد إلى إزالة القاذورات العالقة بالنقوش المنحوتة . إلا أن تفصيل ذلك يمكن الاطلاع عليه في التقارير السنوية الرائعة التي كانت تصدرها اللجنة ، وهي لا تترك مجالاً للشك في قدرة اللجنة ودقتها . ومهما يكن من أمر ، فإنه مازال هناك مجال واسع للإصلاح . وكثير من الإصلاحات التي تم إنجازها لا يمكن أن نعتبرها إلا إصلاحات مؤقتة ربما تسمح الظروف المالية بإجرائها على نطاق واسع . ولا ينبغي أن نحفظ الآثار في صورة دقيقة يحتاج أول ما يحتاج إلى المال الوفير . فاللجنة تعلم تمام العلم ما ينبغي أن تعمله

لحفظ الآثار ، إلا أن هذا العلم لا يجدى تديلا ما لم يتوفر له المال اللازم والموظفين الكفا .

والآثار التي استفادت من اصلاحات هذه اللجنة يضيئ عن ذكرها المقام .
إلا أننا يجب أن نذكر بصفة خاصة ذلك الإصلاح الذي أدخل على مسجد
المارداني ، والذي تكلف أربعة آلاف جنيه ، فهذا المسجد لم يكن من إصلاحه
بد ، وقد أتت الأموال التي أنفقت من أجله كلها . وكل زائر إلى القاهرة لابد وأن
يتملكه العجب لما طرأ على المساجد من تغير منذ أن بدأت تعنى بأمرها اللجنة .
فكم من مساجد كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح أطلالا دارة ، أمست
اليوم تزهو بعظمتها في جو يسوده الأمن والطمأنينة . وكم من مساجد أخرى أمكن
على الأقل إطالة زمن بقائها . والحق أنه ما من تحفة من تحف الفن العربي ، أو أثر
من آثار أسوار المدينة ، وما من قطعة خشبية منقوشة أو منحوتة مهما صغر حجمها
إلا وكانت موضع رعاية اللجنة وعنايتها . وفي الحالات التي لم يكن المستطاع فيها
الآثار البالية ، كانت تجمع برمتها وتنقل إلى المتحف العربي . ذلك المتحف الذي
يشهد بدوره على العمل الذي تم خلال العشرين سنة الماضية . فقد أمكن في تلك
السنوات تضيق الجروح التي أحدثها البلى الطبيعي ، والإهمال ، والجهل .
وهذه أسهم نافذة أصابت قلب الآثار في القاهرة العصور الوسطى .

جدول (١)

يبين أحكام القاهرة وآثارها

(١) الفترة العربية

التاريخ الميلادي	التاريخ المجري	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٦٤٠ - ٨٦٨	٢٠٤ - ٢٥٤	٩٨ حاكما في ظل خلفاء دمشق وبغداد	جامع عمرو† مدينة الحيمة (الفسطاط) مقياس النيل الأول في الروضة المسكر مقياس النيل الثاني في الروضة	٢١ ٢١ ٩٨ ١٢٣ ٢٤٧

(٢) فترة الأتراك

١ - البيت الطولوني :

التاريخ الميلادي	التاريخ المجري	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٨٦٨	٢٥٤	أحمد بن طولون	القطائع	٢٥٦
			قصور القطائع	٢٥٦
			المارستان	٢٥٩
			جامع ابن طولون(*)	٢٦٥-٢٦٣
			قصور القطائع	٢٧٠
٨٨٣	٢٧٠	خارويه بن طولون		
٨٩٥	٢٨٢	جيش بن خارويه		
٨٩٦	٢٨٣	هارون بن خارويه		
٩٠٤	٢٩٢	شيبان بن طولون		

(*) تشير هذه العلامة إلى أن البناء - أو جانب منه - لا يزال موجودا حتى الآن .

(†) تشير هذه العلامة إلى أن الأثر قد أعيد بناؤه في نفس الموقع .

[يوجد جدول ملحق بآخر الكتاب لتحويل السنين الهجرية إلى سنين ميلادية]

ب — حكام الخلفاء :

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٩١٥-٩٣٤	٢٩٢-٣١٣	ثلاثة عشر حاكما		

ج — بيت الإخشيد :

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٩٣٤	٣٢٣	محمد الأخشيد	قصر في حديقة كافور في الروضة	
٩٤٦	٣٣٤	أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد	مارستان في القسطنطينية	٣٤٦
٩٦٠	٣٤٩	أبو الحسن علي بن الإخشيد	جامع الجيزة	٣٥٠
٩٦٦	٣٥٥	أبو المنصور كافور		
٩٦٨	٣٥٨	أبو القوارس أحمد بن علي		

(٣) فترة الفاطميين

التاريخ الميلادى	التاريخ الهجرى	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٩٦٩	٣٥٨	العز	تأسيس القاهرة	٣٥٨
			القصر المرقى العظيم ٥٠ الخ	٣٥٨
			جامع الأزهر*	٣٥٩
		العز	القصر القريب .. الخ	
		الحاكم	جامع الحكيم*	٣٨٠-٤٠٣
			جامع رسيده	٣٩٣-٣٩٥
			جامع المنصور	
١٠٣١	٤١١	الظاهر	جامع الجيوشى*	٤٧٨
١٠٣٦	٤٢٧	المستنصر	باب النصر*	
			باب الفتوح*	
			الصور الثانى*	
			باب زويلة*	٤٨٠-٤٨٤
١٠٩٤	٤٨٧	المستنصر	جامع مقياس النيل	٤٨٥
١١٠١	٤٩٥	الأمير	جامع الأفر*	٥١٩
			بضعة مساجد (بائس، كافورى، باب الخوخة)	

١١٣١	٤٢٤	الحافظ	محراب الأزهر والسيدة رقية	
١١٤٩	٥٤٤	الظافر	جامع الأقرف	٥٤٣
١١٥٤	٥٤٩	القائز		
١١٦٠	٥٥٥	العاشد	جامع الصالح طلائع	٥٥٥

(٤) بيت صلاح الدين

التاريخ الميلادي	التاريخ المجري	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
١١٦٩	٥٦٥	الناصر صلاح الدين بن أيوب	جامع نجم الدين أيوب	٥٦٦
			مدرسة الناصرية	٥٦٦
			مدرسة القمحية	٥٦٦
			مدرسة القطبية	٥٧٠
			مدرسة ابن الأرسوف	٥٧٠
			مدرسة السيوفية	٥٧٢
			القلعة	٥٧٢
			البدء في السور الثالث	٥٧٢
			للمارستان	٥٧٥
			مدرسة القصيلة	٥٨٠
١١٩٣	٥٨٩	العزيز بن صلاح الدين	جامع ابن البناء	٥٩١
			مدرسة اشكشبه	٥٩٢
١١٩٨	٥٩٥	المنصور بن العزيز	مدرسة غزنوية	
١٢٠٠	٥٩٦	العاذل سيف الدين	مدرسة العاذلية	
			مدرسة الصريفية	٦١٢
١٢١٨	٦١٥	الكاامل بن العاذل	أحياء مسجد الشافعي	٦٠٧
			مدرسة الكسيلة	٦٢٢
			مدرسة الفخرية	٦٢٢
			زواية قصري	٦٢٣
			مسجد ابن الشيخ	٦٢٣
١٢٣٨	٦٣٥	العاذل (الثاني) بن الكاامل	مدسة الصيرمية	٦٣٦
			مدرسة القايزية	٦٣٦
١٢٤٠	٦٣٧	الصالح أيوب بن الكاامل	مدرسة الصالحية	٦٣٩
			جامع الروضة .. الخ	
١٢٤٩	٦٤٦	المعظم توران شاه بن الصالح	زواية خنم	٦٤٧

(٥) الممالك الأتراك

السنة الهجرية	الآثار	الحكام	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
٦٤٨	ضريح الصالح	الملك شجر الدر	٦٤٨	١٢٥٠
٦٥٠	مدرسة القطبية	المرأيك	٦٤٨	١٢٥٠
٦٥٤	مدرسة الصاحبة			
٦٦٠	المدرسة الظاهرية	النصور علي بن أيك	٦٥٥	١٢٥٧
٦٦٢	مشهد الحسيني	الظفر قطز	٦٥٧	١٢٥٩
٦٦٣	المدرسة الماجدية	الظاهر بيبرس	٦٥٨	١٢٦٠
٦٦٣	جامع الأفهم			
٦٦٥	جامع الظاهر			
	Muhedhdhibiya مدرسة			
٦٧٦	مدرسة فاركانية	السعيد بركه خان بن بيبرس	٦٧٦	١٢٧٧
		المادل سلامش بن بيبرس	٦٧٨	١٢٧٩
٦٨٤	المدرسة النصورية	النصور قلاوون	٦٧٩	١٢٧٩
٦٨٤	مارستان قلاوون			
٦٨٢	زاوية الجبري			
٦٨٣	زاوية الملاوي			
٦٨٧	زاوية الجبري			
٦٨٨	خانقاه البندقارية			
	باب من عكة	الأشرف خليل بن قلاوون	٦٨٩	١٢٩٠
		الناصر محمد بن قلاوون	٦٩٣	١٢٩٣
		المادل كتيبا	٦٩٤	١٢٩٤
٦٩٦	إحياء جامع ابن طولون	النصور لاجين	٦٩٦	١٢٩٦
٦٩٨	مدرسة طنجبة			
٦٩٨	مدرسة منجوعمرية			
٧٠٣-٦٩٩	مدرسة الناصرية	الناصر (الحكم الثاني)	٦٩٨	١٢٩٨
٧٠٠	مدرسة كراستقرية			
٧٠٣	مدرسة الجمالية			
٧٠٤-٧٠٣	إحياء المسجد الأزهر			
	إحياء مسجد الحكم			
	إحياء مسجد طلائع			
٧٠٧	مسجد طيبرس			

٧٠٩-٧٠٦	خاقاه يبرس*	المنقر يبرس (جاشنكير)	٧٠٨	١٣٠٨
٧٠٩	مدرسة طيرسية*	الناصر (الحكم الثالث)	٧٠٩	١٣٠٩
٧٠٩	زاوية الحمص			
٧١٣	جامع الجاكي			
٧١٣	قصر القلعة*			
٧١٣	قناة المياه (aqueduct)			
٧١٥	مدرسة السعيدية			
٧١٧	خاقاه أرسلان			
٧١٨	جامع القلعة*			
٧١٩	جامع الأمير حسين*			
٧١٩	مدرسة الملكية*			
٧٢٣	مدرسة جاولية*			
٧٢٤	مقبرة أردونجيين*			
٧٢٥	مدرسة مهنتارية*			
٧٢٦	مدرسة بكنيرية			
٧٢٩	جامع الخزان			
٧٣٠	جامع الماز*			
٧٣٠	جامع البرقية			
٧٣٠	جامع قوزان*			
٧٣٠	جامع ساروجا			
٧٣٤	مدرسة أقبجية*			
٧٣٤	مقبرة ناشنر*			
٧٣٥	قصر يشناك*			
٧٣٦	خاقاه قزان*			
٧٣٦	خاقاه سريالوس			
٧٣٧	جامع يشناك†			
٧٣٨	جامع أيدمر			
٧٤٠	جامع التريكان	أولاد الناصر { المنصور أبو بكر	٧٤١	١٣٤١
٧٤٠	جامع ست مسك*		٧٤٢	١٣٤١
٧٤١	جامع ابن غازي		٧٤٢	١٣٤٢
			٧٤٣	١٣٤٢
			٧٤٦	١٣٤٥
٧٤٥	جامع الطواشي	الأنشرف كجك	٧٤٧	١٣٤٦
٨٤٦	جامع ابن الطباخ	الناصر أحمد	٧٤٨	١٣٤٧
		الناصر اسماعيل		
		الكابيل شعبان		
		المنقر حاجي		
		الناصر حسن		

٧٤٧	جامع كجك*			
٧٤٧	جامع أنسترا†			
٧٤٨	جامع الاسماعيل†			
٧٤٨	جامع قتلغا*			
٧٤٩	جامع الأسبوطي			
٧٤٩	خاقاه أم أنوك*			
٨٥٠	خاقاه الجيغنا			
٧٥٠	جامع منجك*			
٧٥٠	جامع شيوخو*			
٧٥٠	مدرسة الحروية			
٧٥٠	حوض لاجين*			
٧٥١	مدرسة قيدرانية			
٧٥١	المدرسة الصغيرة	الصالح صالح بن الناصر	٧٥٢	١٣٥١
		حسن (الحكم الثاني)	٧٥٥	١٣٥٤
٧٥٦	خاقاه شيخو*			
٧٥٦	المدرسة الفارسية			
٧٥٦	مدرسة صرغتشبة*			
٧٥٧	مدرسة السلطان حسن*			
٧٥٨	المدرسة البديرية			
٧٦١	المدرسة الهجازية*			
٧٦١	المدرسة البشيرية			
٧٦٢	مدرسة السابقة	النصور ع	٧٦٢	١٣٦١
٧٦٥	مقبرة الطلية*	الأشراف شعبان	٧٦٤	١٣٦٣
٧٧١	جامع شعبان*			
٧٧٢	مدرسة بيكرية (اسنيغا)*			
٧٧٥	مدرسة جاي اليوسفي*			
٧٧٥	مدرسة بقرية			
٧٨٢	مدرسة ابن عرام	النصور علي بن شعبان	٧٧٨	١٣٧٦
٧٨٢	مقبرة أم صالح	الصالح حاجي بن شعبان	٧٨٣	١٣٨١

(٦) المالك الشراكة

السنة الهجرية	الآثار	الحكام	التاريخ الهجرى	التاريخ البلادى
٧٨٣	مقبرة أناس *	الظاهر برفوق	٧٨٧	١٢٨٢
٧٨٥	مدرسة أيتش *			
٧٨٨	مدرسة برفوق *			
٧٩٠	جامع زين الدين *			
٧٩٥	مدرسة لئال (أستاذار) *			
٧٩٧	مدرسة محموديه			
٧٩٧	مدرسة مقبل زمامية *			
٧٩٨	مدرسة ابن غراب			
٨٠٨	مسجد ابن عبد الظاهر	الناصر فرج بن برفوق	٨٠١	١٢٩٩
٨٠٤	مدرسة السودان			
٨٠٦	مدرسة مهل			
٨١٣-٨٠٣	خانقاه ومقبره برفوق *	النصور عبد العزيز بن برفوق	٨٠٨	١٤٠٥
	مدرسة فرج			
٨١١	مدرسة جمال الدين *	فرج (الحكم الثانى)	٨٠٩	١٤٠٥
٨١٢	جامع الحوش (القلمه)			
٨١٤	جامع بركة الرطلى	المستعين (الخليفة)	٨١٥	١٤١٢
٨١٥	مسجد الضوا (القسمه)	المؤيد شيخ	٨١٥	١٤١٢
٨١٧	مسجد الباسطى			
٨١٧	مسجد الحنفى			
٨١٨	مسجد الزاهد			
٨١٨	مارستان المؤيد *			
٨٢٣-٨١٩	جامع المؤيد *			
٨٢١	مدرسة عبد الفتى *			
٨٢١	جامع الفخرى			
٨٢٣	مدرسة القاضي عبد الباسط *			
		المظفر أحمد بن شيخ	٨٢٤	١٤٢١
		الظاهر ططر	٨٢٤	١٤٢١
		الظاهر محمد بن ططر	٨٢٤	١٤٢١
		الأشرف برسباى	٨٢٥	١٤٢٢
٨٢٧	مدرسة برسباى *			
٨٣٠	جامع جاني بك *			

٨٣٠	مدرسة فيروز*				
٨٣٥	خانقاه ومقبرة برس باي*	العزيز يوسف بن برسباي	٨٤٢	١٤٢٨	
٨٤٤	مدرسة تغرى بردي*	الظاهر جقمق	٨٤٢	١٤٢٨	
٨٤٥	جامع قايتباي*				
٨٥٠-٨٤٨	جامع ومقبرة القاضي يحيى*	المنصور عثمان بن جقمق	٨٥٧	١٤٥٣	
٨٥٣	جامع جقمق*				
٨٦٠-٨٥٥	مدرسة وخانقاه ومقبرة إينال*	الأشرف إينال	٨٥٧	١٤٥٣	
		المؤيد أحمد ابن إينال	٨٦٥	١٤٦١	
٨٦٩	مقبرة جاني بك*	الظاهر خوشقدم	٨٦٥	١٤٦١	
٨٧٠	مسجد نور الدين*				
٨٧٠	جامع سودان*				
٨٧٠	مدرسة قائم*				
		الظاهر بلباي			
		الظاهر عمر باغا			
		الأشرف قايتباي			
٨٧٦	جامع غمراز*				
٨٨٠	جامع أوزبك بن تنش*				
٨٨٠	قصر يشبك*				
٨٧٩	مدرسة ومقبرة قايتباي*				
٨٨٠	مدرسة قايتباي في المدينة*				
٨٨٢	وكالة قايتباي بجوار الأزهر*				
٨٨٤	سبيل قايتباي				
٨٨٥	وكالة قايتباي (باب النصر)				
٨٨٥	وكالة قايتباي (السروجية)*				
٨٨٦	قبة قايتباي الفضوية*				
٨٩٠	قصر ومكان قايتباي*				
٨٩٠	إحياء الأبواب*				
٨٩٦	مدرسة في الروضة*				
٨٨٣	جامع جاتم*				
٨٩٥	مدرسة أبو بكر بن مزهر*				
٨٨٦	جامع قعجاس*				
٩٠٠	مدرسة أوزبك اليوسفي*				

٩٠١	قصر مملى (بيت القاصى)*	الناصر محمد بن قايتباى
٩٠٤	مقبرة فأنصوه*	
٩٠٦	مقبرة المادل ملومان باى*	
٩٠٨	جامع خير بك*	
٩٠٨	مدرسة فائق بك أمير آخور*	
٩٠٩	مدرسة النورى*	
٩٠٩	ضريح النورى†	
٩١٠	مقبرة سودان*	
٩١١	مدرسة جائق بك قره	
٩١١	إحياء قناة المياه إلى القلعة	

جدول (٢)

لتحويل السنين الهجرية إلى سنين الميلادية

السنه الهجرية	السنه الميلادية	تبدأ في	السنه الهجرية	السنه الميلادية	تبدأ في
١	٦٢٢	٦ يولي	٣٦	٦٥٦	٣٠ يونية
٢	٦٢٣	٥	٣٧	٦٥٧	١٩
٣	٦٢٤	١٤ يونيه	٣٨	٦٥٨	٩
٤	٦٢٥	١٣	٣٩	٦٥٩	٢٩ مايو
٥	٦٢٦	٢	٤٠	٦٦٠	١٧
٦	٦٢٧	٢٣ مايو	٤١	٦٦١	٧
٧	٦٢٨	١١	٤٢	٦٦٢	٢٦ ابريل
٨	٦٢٩	١	٤٣	٦٦٣	١٥
٩	٦٣٠	٢٠ ابريل	٤٤	٦٦٤	٤
١٠	٦٣١	٩	٤٥	٦٦٥	٢٤ مارس
١١	٦٣٢	٢٩ مارس	٤٦	٦٦٦	١٣
١٢	٦٣٣	١٨	٤٧	٦٦٧	٣
١٣	٦٣٤	٧	٤٨	٦٦٨	٢٠ فبراير
١٤	٦٣٥	٢٥ فبراير	٤٩	٦٦٩	٩
١٥	٦٣٦	١٤	٥٠	٦٧٠	٢٩ يناير
١٦	٦٣٧	٢	٥١	٦٧١	١٨
١٧	٦٣٨	١٣ يناير	٥٢	٦٧٢	٨
١٨	٦٣٩	١٢	٥٣	٦٧٣	٢٧ ديسمبر
١٩	٦٤٠	٢	٥٤	٦٧٤	١٦
٢٠	٦٤٠	٢١ ديسمبر	٥٥	٦٧٥	٦
٢١	٦٤١	١٠	٥٦	٦٧٦	٢٥ نوفمبر
٢٢	٦٤٢	٣٠ نوفمبر	٥٧	٦٧٧	١٤
٢٣	٦٤٣	١٩	٦٨	٦٧٨	٣
٢٤	٦٤٤	٧	٥٩	٦٧٩	٢٣ أكتوبر
٢٥	٦٤٥	٢٨ أكتوبر	٦٠	٦٨٠	١٣
٢٦	٦٤٦	١٧	٦١	٦٨١	١
٢٧	٦٤٧	٧	٦٢	٦٨٢	٢٠ سبتمبر
٢٨	٦٤٨	٢٥ سبتمبر	٦٣	٦٨٣	١٠
٢٩	٦٤٩	١٤ سبتمبر	٦٤	٦٨٤	٣٠ أغسطس
٣٠	٦٥٠	٤	٦٥	٦٨٥	١٨
٣١	٦٥١	٢٤ أغسطس	٦٦	٦٨٦	٨
٣٢	٦٥٢	١٢	٦٧	٦٨٧	٢٨ يولية
٣٣	٦٥٣	٢	٦٨	٦٨٨	١٨
٣٤	٦٥٤	٢٢ يولية	٦٩	٦٨٩	٦
٣٥	٦٥٥	١١	٧٠	٦٩٠	٢٥ يونية

تبدأ في	السنة الميلادية	السنة المصرية	تبدأ في	السنة الميلادية	السنة المصرية
٥ أبريل	٧٣٠	١١١	١٥ يونية	٦٩٠	٧١
٢٦ مارس	٧٣١	١١٢	٤ " "	٦٩١	٧٢
١٦ " "	٧٣٢	١١٣	٢٣ " "	٦٩٢	٧٣
٣ " "	٧٣٣	١١٤	١٣ " "	٦٩٣	٧٤
٢١ فبراير	٧٣٤	١١٥	٢ " "	٦٩٤	٧٥
١٠ " "	٧٣٥	١١٦	٢١ أبريل	٦٩٥	٧٦
٢١ يناير	٧٣٦	١١٧	١٠ " "	٦٩٦	٧٧
٢٠ " "	٧٣٧	١١٨	٣٠ مارس	٦٩٧	٧٨
٨ " "	٧٣٨	١١٩	٢٠ " "	٦٩٨	٧٩
٢٩ ديسمبر	٧٣٩	١٢٠	٩ " "	٦٩٩	٨٠
١٨ " "	٧٤٠	١٢١	٢٦ فبراير	٧٠٠	٨١
٧ " "	٧٤١	١٢٢	١٥ " "	٧٠١	٨٢
٢٦ نوفمبر	٧٤٢	١٢٣	٤ " "	٧٠٢	٨٣
١٥ " "	٧٤٣	١٢٤	٢٤ يناير	٧٠٣	٨٤
٤ " "	٧٤٤	١٢٥	١٤ " "	٧٠٤	٨٥
٢٥ أكتوبر	٧٤٥	١٢٦	٢ " "	٧٠٥	٨٦
١٣ " "	٧٤٦	١٢٧	٢٣ ديسمبر	٧٠٦	٨٧
٣ " "	٧٤٧	١٢٨	١٢ " "	٧٠٧	٨٨
٢٢ سبتمبر	٧٤٨	١٢٩	١ " "	٧٠٨	٨٩
١١ " "	٧٤٩	١٣٠	٢٠ نوفمبر	٧٠٩	٩٠
٢١ أغسطس	٧٥٠	١٣١	٩ " "	٧١٠	٩١
٢٠ " "	٧٥١	١٣٢	٢٩ أكتوبر	٧١١	٩٢
٩ " "	٧٥٢	١٣٣	١٩ " "	٧١٢	٩٣
٣٠ يولية	٧٥٣	١٣٤	٧ " "	٧١٣	٩٤
١٨ " "	٧٥٤	١٣٥	٢٦ سبتمبر	٧١٤	٩٥
٧ " "	٧٥٥	١٣٦	١٦ " "	٧١٥	٩٦
٢٧ يونية	٧٥٦	١٣٧	٥ " "	٧١٦	٩٧
١٦ " "	٧٥٧	١٣٨	٢٥ أغسطس	٧١٧	٩٨
٥ " "	٧٥٨	١٣٩	١٤ " "	٧١٨	٩٩
٢٥ مايو	٧٥٩	١٤٠	٣ " "	٧١٩	١٠٠
١٤ " "	٧٦٠	١٤١	٢٤ يولية	٧٢٠	١٠١
٤ " "	٧٦١	١٤٢	١٢ " "	٧٢١	١٠٢
٢٢ أبريل	٧٦٢	١٤٣	١ يولية	٧٢٢	١٠٣
١١ " "	٧٦٣	١٤٤	٢١ " "	٧٢٣	١٠٤
١ " "	٧٦٤	١٤٥	١٠ " "	٧٢٤	١٠٥
٢١ مارس	٧٦٥	١٤٦	٢٩ مايو	٧٢٥	١٠٦
١٠ " "	٧٦٦	١٤٧	١٩ " "	٧٢٦	١٠٧
٢٧ فبراير	٧٦٧	١٤٨	٨ " "	٧٢٧	١٠٨
١٦ " "	٧٦٨	١٤٩	٢٨ أبريل	٧٢٨	١٠٩
٩ " "	٧٦٩	١٥٠	١٦ " "	٧٢٩	١١٠

السنة المهجريّة	السنة الميلاديّة	تبدأ في	السنة المهجريّة	السنة الميلاديّة	تبدأ في
١٥١	٧٦٨	٢٦ يناير	١٩١	٨٠٦	١٧ نوفمبر
١٥٢	٧٦٩	١٤	١٩٢	٨٠٧	٦
١٥٣	٧٧٠	٤	١٩٣	٨٠٨	٢٥ أكتوبر
١٥٤	٧٧١	٢٤ ديسمبر	١٩٤	٨٠٩	١٥
١٥٥	٧٧٢	١٣	١٩٥	٨١٠	٤
١٥٦	٧٧٣	٢	١٩٦	٨١١	٢٣ سبتمبر
١٥٧	٧٧٤	٢١ نوفمبر	١٩٧	٨١٢	١٢
١٥٨	٧٧٥	١١	١٩٨	٨١٣	١
١٥٩	٧٧٦	٣١ أكتوبر	١٩٩	٨١٤	٢٣ أغسطس
١٦٠	٧٧٧	١٩	٢٠٠	٨١٥	١١
١٦١	٧٧٨	٩	٢٠١	٨١٦	٣٠ يولي
١٦٢	٧٧٩	٢٨ سبتمبر	٢٠٢	٨١٧	٢٠
١٦٣	٧٨٠	١٧	٢٠٣	٨١٨	٩
١٦٤	٧٨١	٦	٢٠٤	٨١٩	٢٨ يونية
١٦٥	٧٨٢	٢٦ أغسطس	٢٠٥	٨٢٠	١٧
١٦٦	٧٨٣	١٥	٢٠٦	٨٢١	٦
١٦٧	٧٨٤	٥	٢٠٧	٨٢٢	٢٧ مايو
١٦٨	٧٨٥	٢٤ يولي	٢٠٨	٨٢٣	١٦
١٦٩	٧٨٦	١٤	٢٠٩	٨٢٤	٤
١٧٠	٧٨٧	٣	٢١٠	٨٢٥	٢٤ ابريل
١٧١	٧٨٨	٢٢ يونية	٢١١	٨٢٦	١٣
١٧٢	٧٨٩	١١	٢١٢	٨٢٧	٢
١٧٣	٧٩٠	٢١ مايو	٢١٣	٨٢٨	٢٢ مارس
١٧٤	٧٩١	٢٠	٢١٤	٨٢٩	١١
١٨٥	٧٩٢	٢٠	٢١٥	٨٣٠	٢٨ فبراير
١٧٦	٧٩٣	٢٨ ابريل	٢١٦	٨٣١	١٨
١٧٧	٧٩٤	١٨	٢١٧	٨٣٢	٧
١٧٨	٧٩٥	٧	٢١٨	٨٣٣	٢٧ يناير
١٧٩	٧٩٦	٢٧ مارس	٢١٩	٨٣٤	١٦
١٨٠	٧٩٧	١٦	٢٢٠	٨٣٥	٥
١٨١	٧٩٨	٥	٢٢١	٨٣٥	٢٦ ديسمبر
١٨٢	٧٩٩	٢٢ فبراير	٢٢٢	٨٣٦	١٤
١٨٣	٨٠٠	١٢	٢٢٣	٨٣٧	٣
١٨٤	٨٠١	١	٢٢٤	٨٣٨	٢٣ نوفمبر
١٨٥	٨٠٢	٢٠ يناير	٢٢٥	٨٣٩	١٢
١٨٦	٨٠٣	١٠	٢٢٦	٨٤٠	٣١ أكتوبر
١٨٧	٨٠٤	٢٠ ديسمبر	٢٢٧	٨٤١	٢١
١٨٨	٨٠٥	٢٠	٢٢٨	٨٤٢	١٠
١٨٩	٨٠٦	٨	٢٢٩	٨٤٣	٢٠ سبتمبر
١٩٠	٨٠٧	٢٧ نوفمبر	٢٣٠	٨٤٤	١٨

تبدأ في	السنة المصرية	السنة المصرية	تبدأ في	السنة المصرية	السنة المصرية
يونية ٢٩	٨٨٤	٢٧١	٧ سبتمبر	٨٤٥	٢٢١
١٨	٨٨٥	٢٧٢	٢٨ أغسطس	٨٤٦	٢٢٢
٨	٨٨٦	٢٧٣	١٧	٨٤٧	٢٢٣
٢٨ مايو	٨٨٧	٢٧٤	٥	٨٤٨	٢٢٤
١٦	٨٨٨	٢٧٥	٢٦ يولية	٨٤٩	٢٢٥
٦	٨٨٩	٢٧٦	١٥	٨٥٠	٢٢٦
٢٥ ابريل	٨٩٠	٢٧٧	٥	٨٥١	٢٢٧
١٥	٨٩١	٢٧٨	٢٣ يونية	٨٥٢	٢٢٨
٣	٨٩٢	٢٧٩	١٢	٨٥٣	٢٢٩
٢٢ مارس	٨٩٣	٢٨٠	٢	٨٥٤	٢٤٠
١٣	٨٩٤	٢٨١	٢٢ مايو	٨٥٥	٢٤١
٢	٨٩٥	٢٨٢	١٠	٨٥٦	٢٤٢
١٩ فبراير	٨٩٦	٢٨٣	٣٠ ابريل	٨٥٧	٢٤٣
٨	٨٩٧	٢٨٤	١٩	٨٥٨	٢٤٤
٢٨ يناير	٨٩٨	٢٨٥	٨	٨٥٩	٢٤٥
١٧	٨٩٩	٢٨٦	٢٨ مارس	٨٦٠	٢٤٦
٧	٩٠٠	٢٨٧	١٧	٨٦١	٢٤٧
٢٦ ديسمبر	٩٠٠	٢٨٨	٧	٨٦٢	٢٤٨
١٦	٩٠١	٢٨٩	٢٤ فبراير	٨٦٣	٢٤٩
٥	٩٠٢	٢٩٠	١٣	٨٦٤	٢٥٠
٢٤ نوفمبر	٩٠٣	٢٩١	٢	٨٦٥	٢٥١
١٣	٩٠٤	٢٩٢	٢٢ يناير	٨٦٦	٢٥٢
٢	٩٠٥	٢٩٣	١١	٨٦٧	٢٥٣
٢٢ أكتوبر	٩٠٦	٢٩٤	١	٨٦٨	٢٥٤
١٢	٩٠٧	٢٩٥	٢٠ ديسمبر	٨٦٨	٢٥٥
٣٠ سبتمبر	٩٠٨	٢٩٦	٩	٨٦٩	٢٥٦
٢٠	٩٠٩	٢٩٧	٢٩ نوفمبر	٨٧٠	٢٥٧
٩	٩١٠	٢٩٨	١٨	٨٧١	٢٥٨
١٨ أغسطس	٩١١	٢٩٩	٧	٨٧٢	٢٥٩
٢٩	٩١٢	٣٠٠	٢٧ أكتوبر	٨٧٣	٢٦٠
٧	٩١٣	٣٠١	١٦	٨٧٤	٢٦١
٢٧ يولية	٩١٤	٣٠٢	٦	٨٧٥	٢٦٢
١٧	٩١٥	٣٠٣	٢٤ سبتمبر	٨٧٦	٢٦٣
٥	٩١٦	٣٠٤	١٣	٨٧٧	٢٦٤
٢٤ يونية	٩١٧	٣٠٥	٢	٨٧٨	٢٦٥
١٤	٩١٨	٣٠٦	٢٣ أغسطس	٨٧٩	٢٦٦
٣	٩١٩	٣٠٧	١٢	٨٨٠	٢٦٧
٢٣ مايو	٩٢٠	٣٠٨	١	٨٨١	٢٦٨
١٢	٩٢١	٣٠٩	٢١ يولية	٨٨٢	٢٦٩
١	٩٢٢	٣١٠	١١	٨٨٣	٢٧٠

السنة المصرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة المصرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٣١١	٩١٣	٢١ أبريل	٣١١	٩١٢	٩ فبراير
٣١٢	٩١٤	٩	٣١٢	٩١٣	٣٠ يناير
٣١٣	٩١٥	٢٩ مارس	٣١٣	٩١٤	١٩
٣١٤	٩١٦	١٩	٣١٤	٩١٥	٧
٣١٥	٩١٧	٨	٣١٥	٩١٥	٢٨ ديسمبر
٣١٦	٩١٨	٢٥ فبراير	٣١٦	٩١٦	١٧
٣١٧	٩١٩	١٤	٣١٧	٩١٧	٧
٣١٨	٩٢٠	٣	٣١٨	٩١٨	٢٥ نوفمبر
٣١٩	٩٢١	٢٤ يناير	٣١٩	٩١٩	١٤
٣٢٠	٩٢٢	١٣	٣٢٠	٩٢٠	٤
٣٢١	٩٢٣	١	٣٢١	٩٢١	٢٤ أكتوبر
٣٢٢	٩٢٣	١٢ ديسمبر	٣٢٢	٩٢٢	١٢
٣٢٣	٩٢٤	١١	٣٢٣	٩٢٣	٢
٣٢٤	٩٢٥	٢ نوفمبر	٣٢٤	٩٢٤	٢١ سبتمبر
٣٢٥	٩٢٦	١٩	٣٢٥	٩٢٥	١٠
٣٢٦	٩٢٧	٨	٣٢٦	٩٢٦	٣٠ أغسطس
٣٢٧	٩٢٨	٢٩ أكتوبر	٣٢٧	٩٢٧	١٩
٣٢٨	٩٢٩	١٨	٣٢٨	٩٢٨	٩
٣٢٩	٩٣٠	٦	٣٢٩	٩٢٩	٢٩ يولية
٣٣٠	٩٣١	٢٦ سبتمبر	٣٣٠	٩٣٠	١٧
٣٣١	٩٣٢	١٥	٣٣١	٩٣١	٧
٣٣٢	٩٣٣	٤	٣٣٢	٩٣٢	٢٦ يونية
٣٣٣	٩٣٤	٢٤ أغسطس	٣٣٣	٩٣٣	١٥
٣٣٤	٩٣٥	١٣	٣٣٤	٩٣٤	٤
٣٣٥	٩٣٦	٢	٣٣٥	٩٣٥	٢٤ مايو
٣٣٦	٩٣٧	٢٣ يولية	٣٣٦	٩٣٦	١٣
٣٣٧	٩٣٨	١١	٣٣٧	٩٣٧	٣
٣٣٨	٩٣٩	١	٣٣٨	٩٣٨	٢١ أبريل
٣٣٩	٩٤٠	٢٥ يونية	٣٣٩	٩٣٩	١١
٣٤٠	٩٤١	٩	٣٤٠	٩٤٠	٢١ مارس
٣٤١	٩٤٢	٢٩ مايو	٣٤١	٩٤١	٢٠
٣٤٢	٩٤٣	١٨	٣٤٢	٩٤٢	٩
٣٤٣	٩٤٤	٧	٣٤٣	٩٤٣	٢٦ فبراير
٣٤٤	٩٤٥	٢٧ أبريل	٣٤٤	٩٤٤	١٥
٣٤٥	٩٤٦	١٥	٣٤٥	٩٤٥	٥
٣٤٦	٩٤٧	٤	٣٤٦	٩٤٦	٢٥ يناير
٣٤٧	٩٤٨	٢٥ مارس	٣٤٧	٩٤٧	١٤
٣٤٨	٩٤٩	١٤	٣٤٨	٩٤٨	٣
٣٤٩	٩٥٠	٣	٣٤٩	٩٤٩	٢٣ ديسمبر
٣٥٠	٩٥١	٢٠ فبراير	٣٥٠	٩٥٠	١٣

السنة الهجرة	السنة البلادية	تبدأ في	السنة الهجرة	السنة البلادية	تبدأ في
٣٩١	١٠٠٠	١ ديسمبر	٤٣١	١٠٣٩	٢٣ سبتمبر
٣٩٢	١٠٠١	٢٠ نوفمبر	٤٣٢	١٠٤٠	١١
٣٩٣	١٠٠٢	١٠	٤٣٣	١٠٤١	٣١ أغسطس
٣٩٤	١٠٠٣	٣٠ أكتوبر	٤٣٤	١٠٤٢	٢١
٣٩٥	١٠٠٤	١٨	٤٣٥	١٠٤٣	١٠
٣٩٦	١٠٠٥	٨	٤٣٦	١٠٤٤	٢٩ يولية
٣٩٧	١٠٠٦	٢٧ سبتمبر	٤٣٧	١٠٤٥	١٩
٣٩٨	١٠٠٧	١٧	٤٣٨	١٠٤٦	٨
٣٩٩	١٠٠٨	٥	٤٣٩	١٠٤٧	٢٨ يونية
٤٠٠	١٠٠٩	٢٥ أغسطس	٤٤٠	١٠٤٨	١٦
٤٠١	١٠١٠	١٥	٤٤١	١٠٤٩	٥
٤٠٢	١٠١١	٤	٤٤٢	١٠٥٠	٢٦ مايو
٤٠٣	١٠١٢	١٣ يولية	٤٤٣	١٠٥١	١٥
٤٠٤	١٠١٣	١٣	٤٤٤	١٠٥٢	٣
٤٠٥	١٠١٤	٢	٤٤٥	١٠٥٣	٢٣ ابريل
٤٠٦	١٠١٥	٢١ يونية	٤٤٦	١٠٥٤	١٢
٤٠٧	١٠١٦	١٠	٤٤٧	١٠٥٥	٢
٤٠٨	١٠١٧	٣٠ مايو	٤٤٨	١٠٥٦	٢١ مارس
٤٠٩	١٠١٨	٢٠	٤٤٩	١٠٥٧	١٠
٤١٠	١٠١٩	٩	٤٥٠	١٠٥٨	٢٨ فبراير
٤١١	١٠٢٠	٢٧ ابريل	٤٥١	١٠٥٩	١٧
٤١٢	١٠٢١	١٧	٤٥٢	١٠٦٠	٦
٤١٣	١٠٢٢	٦	٤٥٣	١٠٦١	٢٦
٤١٤	١٠٢٣	٢٦ مارس	٤٥٤	١٠٦٢	١٥ يناير
٤١٥	١٠٢٤	١٥	٤٥٥	١٠٦٣	٤
٤١٦	١٠٢٥	٤	٤٥٦	١٠٦٣	٢٥ ديسمبر
٤١٧	١٠٢٦	٢٢ فبراير	٤٥٧	١٠٦٤	١٣
٤١٨	١٠٢٧	١١	٤٥٨	١٠٦٥	٣
٤١٩	١٠٢٨	٢١ يناير	٤٥٩	١٠٦٦	٢٢ نوفمبر
٤٢٠	١٠٢٩	٢٠	٤٦٠	١٠٦٧	١١
٤٢١	١٠٣٠	٩ يناير	٤٦١	١٠٦٨	٣١ أكتوبر
٤٢٢	١٠٣٠	٢٩ ديسمبر	٤٦٢	١٠٦٩	٢٠
٤٢٣	١٠٣١	١٩	٤٦٣	١٠٧٠	٩
٤٢٤	١٠٣٢	٧	٤٦٤	١٠٧١	٢٩ سبتمبر
٤٢٥	١٠٣٣	٢٦ نوفمبر	٤٦٥	١٠٧٢	١٧
٤٢٦	١٠٣٤	١١	٤٦٦	١٠٧٣	٦ سبتمبر
٤٢٧	١٠٣٥	٥	٤٦٧	١٠٧٤	٢٧ أغسطس
٤٢٨	١٠٣٦	٢٥ أكتوبر	٤٦٨	١٠٧٥	١٦
٤٢٩	١٠٣٧	١٤	٤٦٩	١٠٧٦	٥
٤٣٠	١٠٣٨	٣	٤٧٠	١٠٧٧	٢٥ يولية

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٤٧١	١٠٧٨	١٤ يولية	٥١١	١١١٧	٥ مايو
٤٧٢	١٠٧٩	٤	٥١٢	١١١٨	٢٤ أبريل
٤٧٣	١٠٨٠	٢٢ يونية	٥١٣	١١١٩	١٤
٤٧٤	١٠٨١	١١	٥١٤	١١٢٠	٣
٤٧٥	١٠٨٢	١	٥١٥	١١٢١	٢٢ مارس
٤٧٦	١٠٨٣	٢١ مايو	٥١٦	١١٢٢	١٢
٤٧٧	١٠٨٤	١٠	٥١٧	١١٢٣	١
٤٧٨	١٠٨٥	٢٩ أبريل	٥١٨	١١٢٤	١٩ فبراير
٤٧٩	١٠٨٦	١٨	٥١٩	١١٢٥	٧
٤٨٠	١٠٨٧	٨	٥٢٠	١١٢٦	٢٧ يناير
٤٨١	١٠٨٨	٢٧ مارس	٥٢١	١١٢٧	٧
٤٨٢	١٠٨٩	٢٦	٥٢٢	١١٢٨	٦
٤٨٣	١٠٩٠	٦	٥٢٣	١١٢٨	٢٥ ديسمبر
٤٨٤	١٠٩١	٢٣ فبراير	٥٢٤	١١٢٩	١٥
٤٨٥	١٠٩٢	١٢	٥٢٥	١١٣٠	٤
٤٨٦	١٠٩٣		٥٢٦	١١٣١	٢٣ نوفمبر
٤٨٧	١٠٩٤	٢١ يناير	٥٢٧	١١٣٢	١٢
٤٨٨	١٠٩٥	١١	٥٢٨	١١٣٣	١
٤٨٩	١٠٩٥	٣١ ديسمبر	٥٢٩	١١٣٤	٢٢ أكتوبر
٤٩٠	١٠٩٦	١٩	٥٣٠	١١٣٥	١١
٤٩١	١٠٩٧	٩	٥٣١	١١٣٦	٢٩ سبتمبر
٤٩٢	١٠٩٨	٢٨ نوفمبر	٥٣٢	١١٣٧	١٩
٤٩٣	١٠٩٩	١٧	٥٣٣	١١٣٨	٨
٤٩٤	١١٠٠	٦	٥٣٤	١١٣٩	٢٨ أغسطس
٤٩٥	١١٠١	٢٦ أكتوبر	٥٣٥	١١٤٠	١٧
٤٩٦	١١٠٢	١٥	٥٣٦	١١٤١	٦
٤٩٧	١١٠٣		٥٣٧	١١٤٢	٢٧ يولية
٤٩٨	١١٠٤	٢٣ سبتمبر	٥٣٨	١١٤٣	١٦
٤٩٩	١١٠٥	١٣	٥٣٩	١١٤٤	٤
٥٠٠	١١٠٦	٢	٥٤٠	١١٤٥	٢٤ يونية
٥٠١	١١٠٧	٢٢ أغسطس	٥٤١	١١٤٦	١٣
٥٠٢	١١٠٨	١١	٥٤٢	١١٤٧	٢
٥٠٣	١١٠٩	٣١ يولية	٥٤٣	١١٤٨	٢٢ مايو
٥٠٤	١١١٠	٣٠	٥٤٤	١١٤٩	١١
٥٠٥	١١١١	١٠	٥٤٥	١١٥٠	٣٠ أبريل
٥٠٦	١١١٢	٢٨ يونية	٥٤٦	١١٥١	٢٠
٥٠٧	١١١٣	١٨	٥٤٧	١١٥٢	٨
٥٠٨	١١١٤	٧	٥٤٨	١١٥٣	٢٩ مارس
٥٠٩	١١١٥	٢٧ مايو	٥٤٩	١١٥٤	١٨
٥١٠	١١١٦	١٦	٥٥٠	١١٥٥	٧

السنة الهجرية	السنة البلادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة البلادية	تبدأ في
٥٥١	١١٥٦	٢٥ فبراير	٥٩١	١١٩٤	١٦ ديسمبر
٥٥٢	١١٥٧	١٣	٥٩٢	١١٩٥	٦
٥٥٣	١١٥٨	٢	٥٩٣	١١٩٦	٢٤ نوفمبر
٥٥٤	١١٥٩	٢٣ يناير	٥٩٤	١١٩٧	١٣
٥٥٥	١١٦٠	١٢	٥٩٥	١١٩٨	٣
٥٥٦	١١٦٠	٢١ ديسمبر	٥٩٦	١١٩٩	٢٣ أكتوبر
٥٥٧	١١٦١	٢١	٥٩٧	١٢٠٠	١٢
٥٥٨	١١٦٢	١٠	٥٩٨	١٢٠١	١
٥٥٩	١١٦٣	٣٠ نوفمبر	٥٩٩	١٢٠٢	٢٠ سبتمبر
٥٦٠	١١٦٤	١٨	٦٠٠	١٢٠٣	١٠
٥٦١	١١٦٥	٧	٦٠١	١٢٠٤	٢٩ أغسطس
٥٦٢	١١٦٦	٢٨ أكتوبر	٦٠٢	١٢٠٥	١٨
٥٦٣	١١٦٧	١٧	٦٠٣	١٢٠٦	٨
٥٦٤	١١٦٨	٥	٦٠٤	١٢٠٧	٢٨ يولي
٥٦٥	١١٦٩	٢٥ سبتمبر	٦٠٥	١٢٠٨	١٦
٥٦٦	١١٧٠	١٤	٦٠٦	١٢٠٩	٦
٥٦٧	١١٧١	٤	٦٠٧	١٢١٠	٢٥ يونيه
٥٦٨	١١٧٢	٢٣ أغسطس	٦٠٨	١٢١١	١٥
٥٦٩	١١٧٣	١٢	٦٠٩	١٢١٢	٣
٥٧٠	١١٧٤	٢	٦١٠	١٢١٣	٢٣ مايو
٥٧١	١١٧٥	٢٢ يولي	٦١١	١٢١٤	١٣
٥٧٢	١١٧٦	١٠	٦١٢	١٢١٥	٢
٥٧٣	١١٧٧	٣٠ يونيه	٦١٣	١٢١٦	٢٠ أبريل
٥٧٤	١١٧٨	١٩	٦١٤	١٢١٧	١٠
٥٧٥	١١٧٩	٨	٦١٥	١٢١٨	٣٠ مارس
٥٧٦	١١٨٠	٢٨ مايو	٦١٦	١٢١٩	١٩
٥٧٧	١١٨١	١٧	٦١٧	١٢٢٠	٨
٥٧٨	١١٨٢	٧	٦١٨	١٢٢١	٢٥ فبراير
٥٧٩	١١٨٣	٢٦ أبريل	٦١٩	١٢٢٢	١٥
٥٨٠	١١٨٤	١٤	٦٢٠	١٢٢٣	٤
٥٨١	١١٨٥	٤	٦٢١	١٢٢٤	١٤ يناير
٥٨٢	١١٨٦	٢٤ مارس	٦٢٢	١٢٢٥	١٣
٥٨٣	١١٨٧	١٣	٦٢٣	١٢٢٦	٢
٥٨٤	١١٨٨	٢	٦٢٤	١٢٢٦	٢٢ ديسمبر
٥٨٥	١١٨٩	١٩ فبراير	٦٢٥	١٢٢٧	١٢
٥٨٦	١١٩٠	٨	٦٢٦	١٢٢٨	٣٠ نوفمبر
٥٨٧	١١٩١	٢٩ يناير	٦٢٧	١٢٢٩	٢٠
٥٨٨	١١٩٢	١٨	٦٢٨	١٢٣٠	٩
٥٨٩	١١٩٣	٧	٦٢٩	١٢٣١	٢٩ أكتوبر
٥٩٠	١١٩٣	٢٧ ديسمبر	٦٣٠	١٢٣٢	١٨

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٦٣١	١٢٣٣	٧ أكتوبر	٦٧١	١٢٧٢	٢٩ يولي
٦٣٢	١٢٣٤	٢٦ سبتمبر	٦٧٢	١٢٧٣	» ١٨
٦٣٣	١٢٣٥	١٦ سبتمبر	٦٧٣	١٢٧٤	» ٧
٦٣٤	١٢٣٦	» ٤	٦٧٤	١٢٧٥	٢٧ يونيه
٦٣٥	١٢٣٧	٢٤ أغسطس	٦٧٥	١٢٧٦	» ١٥
٦٣٦	١٢٣٨	» ١٤	٦٧٦	١٢٧٧	» ٤
٦٣٧	١٢٣٩	» ٣	٦٧٧	١٢٧٨	٢٥ مايو
٦٣٨	١٢٤٠	٢٣ يولي	٦٧٨	١٢٧٩	» ١٤
٦٣٩	١٢٤١	» ١٢	٦٧٩	١٢٨٠	» ٣
٦٤٠	١٢٤٢	» ١	٦٨٠	١٢٨١	٢٢ أبريل
٦٤١	١٢٤٣	٢١ يونيه	٦٨١	١٢٨٢	» ١١
٦٤٢	١٢٤٤	» ٩	٦٨٢	١٢٨٣	» ١
٦٤٣	١٢٤٥	٢٩ مايو	٦٨٣	١٢٨٤	٢٠ مارس
٦٤٤	١٢٤٦	» ١٩	٦٨٤	١٢٨٥	» ٩
٦٤٥	١٢٤٧	» ٨	٦٨٥	١٢٨٦	٢٧ فبراير
٦٤٦	١٢٤٨	٢٦ أبريل	٦٨٦	١٢٨٧	» ١٦
٦٤٧	١٢٤٩	» ١٦	٦٨٧	١٢٨٨	» ٦
٦٤٨	١٢٥٠	» ٥	٦٨٨	١٢٨٩	٢٥ يناير
٦٤٩	١٢٥١	٢٦ مارس	٦٨٩	١٢٩٠	» ١٤
٦٥٠	١٢٥٢	» ١٤	٦٩٠	١٢٩١	» ٤
٦٥١	١٢٥٣	» ٣	٦٩١	١٢٩١	٢٤ ديسمبر
٦٥٢	١٢٥٤	٢١ فبراير	٦٩٢	١٢٩٢	» ١٢
٦٥٣	١٢٥٥	» ١٠	٦٩٣	١٢٩٣	» ٢
٦٥٤	١٢٥٦	٣٠ يناير	٦٩٤	١٢٩٤	٢١ نوفمبر
٦٥٥	١٢٥٧	» ١٩	٦٩٥	١٢٩٥	» ١٠
٦٥٦	١٢٥٨	» ٨	٦٩٦	١٢٩٦	٢٠ أكتوبر
٦٥٧	١٢٥٨	٢٩ ديسمبر	٦٩٧	١٢٩٧	» ١٩
٦٥٨	١٢٥٩	» ١٨	٦٩٨	١٢٩٨	» ٩
٦٥٩	١٢٦٠	» ٦	٦٩٩	١٢٩٩	٢٨ سبتمبر
٦٦٠	١٢٦١	٢٦ نوفمبر	٧٠٠	١٣٠٠	» ١٦
٦٦١	١٢٦٢	» ١٥	٧٠١	١٣٠١	» ٦
٦٦٢	١٢٦٣	» ٤	٧٠٢	١٣٠٢	٢٦ أغسطس
٦٦٣	١٢٦٤	٢٤ أكتوبر	٧٠٣	١٣٠٣	» ١٥
٦٦٤	١٢٦٥	» ١٣	٧٠٤	١٣٠٤	» ٤
٦٦٥	١٢٦٦	» ٢	٧٠٥	١٣٠٥	٢٤ يولي
٦٦٦	١٢٦٧	٢٢ سبتمبر	٧٠٦	١٣٠٦	» ١٣
٦٦٧	١٢٦٨	» ١٠	٧٠٧	١٣٠٧	» ٢
٦٦٨	١٢٦٩	٢١ أغسطس	٧٠٨	١٣٠٨	٢١ يونيه
٦٦٩	١٢٧٠	» ٢٠	٧٠٩	١٣٠٩	» ١١
٦٧٠	١٢٧١	» ٩	٨١٠	١٣١٠	٢١ مايو

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٧١١	١٣١١	٢٠ مايو	٧٥١	١٣٥٠	١١ مارس
٧١٢	١٣١٢	٩	٧٥٢	١٣٥١	٢٨ فبراير
٧١٣	١٣١٣	٢٨ أبريل	٧٥٣	١٣٥٢	١٨
٧١٤	١٣١٤	١٧	٧٥٤	١٣٥٣	٦
٧١٥	١٣١٥	٧	٧٥٥	١٣٥٤	٢٦ يناير
٧١٦	١٣١٦	٢٦ مارس	٧٥٦	١٣٥٥	١٦
٧١٧	١٣١٧	١٦	٧٥٧	١٣٥٦	٥
٧١٨	١٣١٨	٥	٧٥٨	١٣٥٦	٢٥ ديسمبر
٧١٩	١٣١٩	٢٢ فبراير	٧٥٩	١٣٥٧	١٤
٧٢٠	١٣٢٠	١٢	٧٦٠	١٣٥٨	٣
٧٢١	١٣٢١	٣١ يناير	٧٦١	١٣٥٩	٢٣ نوفمبر
٧٢٢	١٣٢٢	٢٠	٧٦٢	١٣٦٠	١١
٧٢٣	١٣٢٣	١٠	٧٦٣	١٣٦١	٣١ أكتوبر
٧٢٤	١٣٢٣	٢٠ ديسمبر	٧٦٤	١٣٦٢	٢١
٧٢٥	١٣٢٤	١٨	٧٦٥	١٣٦٣	١٠
٧٢٦	١٣٢٥	٨	٧٦٦	١٣٦٤	٢٨ سبتمبر
٧٢٧	١٣٢٦	٢٧ نوفمبر	٧٦٧	١٣٦٥	١٨
٧٢٨	١٣٢٧	١٧	٧٦٨	١٣٦٦	٧
٧٢٩	١٣٢٨	٥	٧٦٩	١٣٦٧	٢٨ أغسطس
٧٣٠	١٣٢٩	٢٥ أكتوبر	٧٧٠	١٣٦٨	١٦
٧٣١	١٣٣٠	١٥	٧٧١	١٣٦٩	٥
٧٣٢	١٣٣١	٤	٧٧٢	١٣٧٠	٢٦ يولية
٧٣٣	١٣٣٢	٢٢ سبتمبر	٧٧٣	١٣٧١	١٥
٧٣٤	١٣٣٣	١١	٧٧٤	١٣٧٢	٣
٧٣٥	١٣٣٤	١	٧٧٥	١٣٧٣	٢٣ يونية
٧٣٦	١٣٣٥	٢١ أغسطس	٧٧٦	١٣٧٤	١٢
٧٣٧	١٣٣٦	١٠	٧٧٧	١٣٧٥	٢
٧٣٨	١٣٣٧	٣٠ يولية	٧٧٨	١٣٧٦	٢١ مايو
٧٣٩	١٣٣٨	٢٠	٧٧٩	١٣٧٧	١٠
٧٤٠	١٣٣٩	٩	٧٨٠	١٣٧٨	٣٠ أبريل
٧٤١	١٣٤٠	٢٧ يونية	٧٨١	١٣٧٩	١٩
٧٤٢	١٣٤١	١٧	٧٨٢	١٣٨٠	٧
٧٤٣	١٣٤٢	٦	٧٨٣	١٣٨١	٢٨ مارس
٧٤٤	١٣٤٣	٢٦ مايو	٧٨٤	١٣٨٢	١٧
٧٤٥	١٣٤٤	١٥	٧٨٥	١٣٨٣	٦
٧٤٦	١٣٤٥	٤	٧٨٦	١٣٨٤	٢٤ فبراير
٧٤٧	١٣٤٦	٢٤ أبريل	٧٨٧	١٣٨٥	١٢
٧٤٨	١٣٤٧	١٣	٧٨٨	١٣٨٦	٢
٧٤٩	١٣٤٨	١	٧٨٩	١٣٨٧	٢٣ يناير
٧٥٠	١٣٤٩	٢٣ مارس	٧٩٠	١٣٨٨	١١

السنة المصرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة المصرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٧٩١	١٣٨٨	٣١ ديسمبر	٨٣١	١٤٢٧	٢٢ أكتوبر
٧٩٢	١٣٨٩	» ٢٠	٨٣٢	١٤٢٨	» ١١
٧٩٣	١٣٩٠	» ٩	٨٣٣	١٤٢٩	٣٠ سبتمبر
٧٩٤	١٣٩١	٢٩ نوفمبر	٨٣٤	١٤٣٠	» ١٩
٧٩٥	١٣٩٢	» ١٧	٨٣٥	١٤٣١	» ٩
٧٩٦	١٣٩٣	» ٦	٨٣٦	١٤٣٢	٢٨ أغسطس
٧٩٧	١٣٩٤	٢٧ أكتوبر	٨٣٧	١٤٣٣	» ١٨
٧٩٨	١٣٩٥	» ١٦	٨٣٨	١٤٣٤	» ٧
٧٩٩	١٣٩٦	» ٥	٨٣٩	١٤٣٥	٢٧ يولية
٨٠٠	١٣٩٧	٢٤ سبتمبر	٨٤٠	١٤٣٦	» ١٦
٨٠١	١٣٩٨	» ١٣	٨٤١	١٤٣٧	» ٥
٨٠٢	١٣٩٩	» ٣	٨٤٢	١٤٣٨	٢٤ يونية
٨٠٣	١٤٠٠	٢٣ أغسطس	٨٤٣	١٤٣٩	» ١٤
٨٠٤	١٤٠١	» ١١	٨٤٤	١٤٤٠	» ٩
٨٠٥	١٤٠٢	» ١	٨٤٥	١٤٤١	٢٢ مايو
٨٠٦	١٤٠٣	٢١ يولية	٨٤٦	١٤٤٢	» ١٣
٨٠٧	١٤٠٤	» ١٠	٨٤٧	١٤٤٣	» ١
٨٠٨	١٤٠٥	٢٩ يولية	٨٤٨	١٤٤٤	٢٠ ابريل
٨٠٩	١٤٠٦	» ١٨	٨٤٩	١٤٤٥	» ٩
٨١٠	١٤٠٧	» ٨	٨٥٠	١٤٤٦	٢٩ مارس
٨١١	١٤٠٨	٢٧ مايو	٨٥١	١٤٤٧	» ١٩
٨١٢	١٤٠٩	» ١٦	٨٥٢	١٤٤٨	» ٧
٨١٣	١٤١٠	» ٦	٨٥٣	١٤٤٩	٢٤ فبراير
٨١٤	١٤١١	٢٥ ابريل	٨٥٤	١٤٥٠	» ١٤
٨١٥	١٤١٢	» ١٣	٨٥٥	١٤٥١	» ٣
٨١٦	١٤١٣	» ٣	٨٥٦	١٤٥٢	٢٣ يناير
٨١٧	١٤١٤	٢٣ مارس	٨٥٧	١٤٥٣	» ١٢
٨١٨	١٤١٥	» ١٣	٨٥٨	١٤٥٤	» ١
٨١٩	١٤١٦	» ١	٨٥٩	١٤٥٤	٢٢ ديسمبر
٨٢٠	١٤١٧	١٨ فبراير	٨٦٠	١٤٥٥	» ١١
٨٢١	١٤١٨	» ٨	٨٦١	١٤٥٦	٢٩ نوفمبر
٨٢٢	١٤١٩	٢٨ يناير	٨٦٢	١٤٥٧	» ١٩
٨٢٣	١٤٢٠	» ١٧	٨٦٣	١٤٥٨	» ٨
٨٢٤	١٤٢١	» ٦	٨٦٤	١٤٥٩	٢٨ أكتوبر
٨٢٥	١٤٢١	٢٦ ديسمبر	٨٦٥	١٤٦٠	» ١٧
٨٢٦	١٤٢٢	» ١٥	٨٦٦	١٤٦١	» ٦
٨٢٧	١٤٢٣	» ٥	٨٦٧	١٤٦٢	٢٦ سبتمبر
٨٢٨	١٤٢٤	٢٣ نوفمبر	٨٦٨	١٤٦٣	» ١٥
٨٢٩	١٤٢٥	» ١٣	٨٦٩	١٤٦٤	» ٣
٨٣٠	١٤٢٦	» ٢	٨٧٠	١٤٦٥	٢٤ أغسطس

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٨٧١	١٤٦٦	١٣ أغسطس	٩١١	١٥٠٥	٤ يونية
٨٧٢	١٤٦٧	٢	٩١٢	١٥٠٦	٢٤ مايو
٨٧٣	١٤٦٨	٢٢ يولية	٩١٣	١٥٠٧	١٣
٨٧٤	١٤٦٩	١١	٩١٤	١٥٠٨	٢
٨٧٥	١٤٧٠	٣٠ يونية	٩١٥	١٥٠٩	٢١ ابريل
٨٧٦	١٤٧١	٢٠	٩١٦	١٥١٠	١٠
٨٧٧	١٤٧٢	٨	٩١٧	١٥١١	٣١ مارس
٨٧٨	١٤٧٣	٢٩ مايو	٩١٨	١٥١٢	١٩
٨٧٩	١٤٧٤	١٨	٩١٩	١٥١٣	٩
٨٨٠	١٤٧٥	٧	٩٢٠	١٥١٤	٢٦ فبراير
٨٨١	١٤٧٦	٢٦ ابريل	٩٢١	١٥١٥	١٥
٨٨٢	١٤٧٧	١٥	٩٢٢	١٥١٦	٥
٨٨٣	١٤٧٨	٤	٩٢٣	١٥١٧	٢٤ يناير
٨٨٤	١٤٧٩	٢٥ مارس	٩٢٤	١٥١٨	١٣
٨٨٥	١٤٨٠	١٣	٩٢٥	١٥١٩	٣
٨٨٦	١٤٨١	٢	٩٢٦	١٥١٩	٢٣ ديسمبر
٨٨٧	١٤٨٢	٢٠ فبراير	٩٢٧	١٥٢٠	١٢
٨٨٨	١٤٨٣	٩	٩٢٨	١٥٢١	١
٨٨٩	١٤٨٤	٣٠ يناير	٩٢٩	١٥٢٢	٢٠ نوفمبر
٨٩٠	١٤٨٥	١٨	٩٣٠	١٥٢٣	١٠
٨٩١	١٤٨٦	٧	٩٣١	١٥٢٤	٢٩ أكتوبر
٨٩٢	١٤٨٦	٢٨ ديسمبر	٩٣٢	١٥٢٥	١٨
٨٩٣	١٤٨٧	١٧	٩٣٣	١٥٢٦	٨
٨٩٤	١٤٨٨	٥	٩٣٤	١٥٢٧	٢٧ سبتمبر
٨٩٥	١٤٨٩	٢٥ نوفمبر	٩٣٥	١٥٢٨	١٥
٨٩٦	١٤٩٠	١٤	٩٣٦	١٥٢٩	٥
٨٩٧	١٤٩١	٤	٩٣٧	١٥٣٠	٢٥ أغسطس
٨٩٨	١٤٩٢	٢٣ أكتوبر	٩٣٨	١٥٣١	١٥
٨٩٩	١٤٩٣	١٢	٩٣٩	١٥٣٢	٣
٩٠٠	١٤٩٤	٢	٩٤٠	١٥٣٣	٢٣ يولية
٩٠١	١٤٩٥	٢١ سبتمبر	٩٤١	١٥٣٤	١٣
٩٠٢	١٤٩٦	٩	٩٤٢	١٥٣٥	٢
٩٠٣	١٤٩٧	٣٠ أغسطس	٩٤٣	١٥٣٦	٢٠ يونية
٩٠٤	١٤٩٨	١٩	٩٤٤	١٥٣٧	١٠
٩٠٥	١٤٩٩	٨	٩٤٥	١٥٣٨	٣٠ مايو
٩٠٦	١٥٠٠	٢٨ يولية	٩٤٦	١٥٣٩	١٩
٩٠٧	١٥٠١	١٧	٩٤٧	١٥٤٠	٨
٩٠٨	١٥٠٢	٧	٩٤٨	١٥٤١	٢٧ ابريل
٩٠٩	١٥٠٣	٢٦ يونية	٩٤٩	١٥٤٢	١٧
٩١٠	١٥٠٤	١٤	٩٥٠	١٥٤٣	٦

السنة المصرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة المصرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٩٥١	١٥٤٤	٢٥ مارس	٩٧٦	١٥٩٨	٢٦ يونية
٩٥٢	١٥٤٥	» ١٥	٩٧٧	١٥٩٩	» ١٦
٩٥٣	١٥٤٦	» ٤	٩٧٨	١٥٧٠	» ٥
٩٥٤	١٥٤٧	٢١ فبراير	٩٧٩	١٥٧١	٢٦ مايو
٩٥٥	١٥٤٨	» ١١	٩٨٠	١٥٧٢	» ١٤
٩٥٦	١٥٤٩	٣٠ يناير	٩٨١	١٥٧٣	» ٣
٩٥٧	١٥٥٠	» ٢	٩٨٢	١٥٧٤	٢٣ أبريل
٩٥٨	١٥٥١	» ٩	٩٨٣	١٥٧٥	» ١٢
٩٥٩	١٥٥١	٢٩ ديسمبر	٩٨٤	١٥٧٦	٣١ مارس
٩٦٠	١٥٥٢	» ١٨	٩٨٥	١٥٧٧	» ٢١
٩٦١	١٥٥٣	» ٧	٩٨٦	١٥٧٨	» ١٠
٩٦٢	١٥٥٤	٢٦ نوفمبر	٩٨٧	١٥٧٩	٢٨ فبراير
٩٦٣	١٥٥٥	» ١٦	٩٨٨	١٥٨٠	» ١٧
٩٦٤	١٥٥٦	» ٤	٩٨٩	١٥٨١	» ٥
٩٦٥	١٥٥٧	٢٤ أكتوبر	٩٩٠	١٥٨٢	٢٦ يناير
٩٦٦	١٥٥٨	» ١٤	٩٩١	١٥٨٣	» ٢٥
٩٦٧	١٥٥٩	» ٣	٩٩٢	١٥٨٤	» ١٤
٩٦٨	١٥٦٠	٢٢ سبتمبر	٩٩٣	١٥٨٥	» ٣
٩٦٩	١٥٦١	» ١١	٩٩٤	١٥٨٥	٢٣ ديسمبر
٩٧٠	١٥٦٢	٣١ أغسطس	٩٩٥	١٥٨٦	» ١٢
٩٧١	١٥٦٣	» ٢١	٩٩٦	١٥٨٧	» ٢
٩٧٢	١٥٦٤	» ٩	٩٩٧	١٥٨٨	٢٠ نوفمبر
٩٧٣	١٥٦٥	٢٩ يولية	٩٩٨	١٥٨٩	» ١٠
٩٧٤	١٥٦٦	» ١٩	٩٩٩	١٥٩٠	٣٠ أكتوبر
٩٧٥	١٥٦٧	» ٨	١٠٠٠	١٥٩١	» ١٩

كشاف

عن الأعلام والبلدان

١ - الأعلام

- (١)
- الآمر — ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٤٩
إبراهيم أغا — ١٩٣ ، ٢٤٤
أحمد الشرايبي — ٢٢٣
أحمد بن طولون — ٤٨ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٦٥
١٧٢
- الإخشيدي — ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠١ ، ١١٢
استرابون — ٦٣ ، ٦٣
القديس إسحق — ٦٥
أسد الدين شيركوه — ١٥١
الحديوي إسماعيل — ٢٣١
الأشرف خليل — ١٨٣
أفلاطون — ٦٣
أنوشت الرابع — ١٨٧
أونياس — ٦٣
ابن أبياس — ٢٢٤
- (ب)
- بابك — ٨١
بارسبای — ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٧
بكر — ٥٥
البحري — ١٠٢
بدر الجمالی — ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٠
برقوق — ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢
٢١٩
برنارد — ١٧١
القديس بطرس — ٧٢
أبو بكر بن مظهر — ٢٠٨ ، ٢٢٣
- بنيامين التيوديلي — ٦٠
بهرام — ١٤٥
بوخاروت — ٢١٣
بيرس — ١٧٣ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩
١٨١ ، ١٨٦ ، ٢٠٠ ، ٢٢٥
بيرس الجاشنكير — ١٧٧ ، ١٣٦
(ث)
- ثيوسر — ٢٢٩
توزون — ١٧٢
تيدورلك — ٢٠٠
- (ج)
- جان دي برين — ١٧١
الجبرتي — ٥٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٠
ابن جبير — ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٥
جودفروي — ١٢٨
جون فيليب — ٢١٣
جوهر الصقلي — ١٢٢ ، ١٧٢
- (ح)
- الحافظ — ١٢٠ ، ١٤٦
الحاكم — ١٣٣ ، ١٤٨
ابن حجر — ٢٢٤
السلطان حسن — ٤٤ ، ١٢١
ابن حوقل — ١٠٥
- (خ)
- ابن خلدون — ٢٢٤

١٦٥ ، ١٩٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢١١ ، ٢١٢ ،
٢٢٠ ، ٢٤٣

(ض)

ضرغام — ١٥١ ، ١٥٢

(ط)

طومان باي — ٢١٠

طلائع بن رزيق — ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥١

(ظ)

الظاهر — ١٤٦

(ع)

العادل سيف الدين — ١٦٩

العاصم — ١٢٠ ، ١٤٧

عبد الرحمن كفا — ٢٤٤ ، ٢٤٥

عبد العزيز بن مروان — ٧١

عبد الله الشراوى — ٢٤٠

عبد الله بن طاهر — ٥٨ ، ٧٧

عبد الله بن مبدون — ١١٣

عبيد الله بن المسرى — ٧٧

عثمان بك ذوالفقار — ٢٢٧ ، ٢٢٨

عثمان ابن عفان — ١١٢

عثمان كتنخدا — ٢٤٤

على بن الأنضل — ١٤٥

على الجلقى — ٢٢٧

على بن أبي أطلاب — ٦٩ ، ١٠١ ، ١١٣ ،

١١٤ ، ١١٥

على بك الكبير — ٢٤٥

على بن الرشوش — ٢٠٣

عمارة البني — ١٤٧

عمر بن الخطاب — ٤٩ ، ٥٤ ، ١١٢

عمرو بن العاص — ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥

٥٦ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٩٧

عمورى — ١٢٨ ، ١٥١ ، ١٥٢

الصبي — ٢٢٤

خارويه — ٩١ ، ٩٢ ، ٩٦ ، ١٣٠

خوشقدم — ٢٠٠

خيربك — ٢٠٨ ، ٢٠٩

(د)

ابن دقان — ٢٢٤

دوكاس — ١٠٣

ديودورس ٦٣

(ر)

رافيس — ١٢٥

ابن رائق — ٩٧

رضوان الجلقى — ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩

السيدة رقية — ٢٢١

روجرزبك — ٢٤٩

رينشارد — ١٥٥ ، ١٦٩

(ز)

زنكي — ١٥٠

(س)

سليم القورى — ٢٣٥

السيوطى — ٢٢٤

(ش)

شاور — ١١٠ ، ١٤٧ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣

شجرة الدر — ١٧٤

شيخو — ١٩٩

(س)

أبو صالح بن ممدور ٧٥ ، ٧٦

الصالح أيوب — ١٨٤ ، ١٨٧ ، ٢٢١

صلاح الدين الأيوبي — ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٨ ، ٦٣

١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٦

١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤

(غ)

الغزالي — ٢٠٩

(ف)

فان برشم — ١٢٢

فرانز باشا — ٢٤٩

ابن فرد — ١٦٨

فردريك الثاني — ١٧١ ، ٢٢٨

القديس فرنسيس — ١٤٢

(ق)

ابن القاسم — ١٠٢

قاييبي — ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٧

٢٢٢

قطر — ١٧٦

قوصون — ١٩١

قلاوون — ١٧٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٢٠

٢٢٣

(ك)

كانفور — ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥

الكمال — ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٧٣

كجاس الإسحاق — ٢١٨

الكردي بن السار — ٤٦ ، ١٥١

ابن كلس — ١٣٢

السكندي — ١٠٢

(ل)

لويس التاسع — ١٧٣ ، ١٨٣

لين — ٢١٩

ليوبولد — ١٥٥

(م)

الأمون بن هارون — ٧٧ ، ٧٨

التوكل — ٧٨ ، ٨٨

أبو المحاسن — ٢٢٤

محمد بن سليمان — ٩٣

محمد بن عبد الحكم — ٨٤

محمد علي — ١٥٩ ، ٢٢٥ ، ٢٤٧

محمد الكردي — ٢٢٩

محمد اللادرائي — ٩٦

مركاريوس — ١١٨

المسحي — ١٠١

المتنصر — ٩٣ ، ١٢٩

السمودي — ٩٨

المنشد — ٩٠

المز — ٢٩ ، ١٢٤

المقريزي — ٥٥ ، ٥٨ ، ٨٤ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤

١٢٢ ، ١٢٧ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦

٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٤ ، ٢٣٥

المقسي — ١٥٦

المقوس — ٥١

المتنصر عبد المؤمن — ١٦٠

موسى بن عيسى — ٧٧

المؤيد — ٢٠١

(ن)

ناصر خسرو — ٨٨ ، ١٠٥ ، ١٠٩ ، ١١٠

١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣٨ ، ١٣٦ ، ٢٤٠

الناصر محمد — ١٢٧ ، ١٨٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦

١٨٨ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٥ ، ٢٠٧ ، ٢٣١

(هـ)

هارون الرشيد — ٢٣ ، ٧٦ ، ٢١٥

هرزيك — ١٣٣ ، ٢٠٢

هرقل — ٥١

هيودوت — ٦٢

(و)

ولكنس — ٢١٣

وليم الصديري — ١٢٨

(لا)

لاجين — ٢٢٢ ، ٢٢١

(ي)

اليازوري — ١٣١

يعقوب أرئين باشا — ٢٤٩

يلينا السالى — ١٤٨

يوسف بن أيوب — ١٥٤

٢ - البلدان

(ا)

آمد — ١٥٥

أتينا — ١٥٦

أزنة — ٩١

أرسوف — ١٧٨

الاسكندرية — ٢١٧

الاسكندرية — ١٤٢ ، ٧٧ ، ٧٠ ، ٥٤ ، ٥٣

١٠٣ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٧١ ، ١٨٨ ، ٢٢٦

٢٢٧

أسوان — ١٤٢ ، ١٨٦

أسيس — ١٨٧

أسيوط — ١٠٢

أشمونين — ١٤٦ ، ١١٨

أصهان — ٢٣

أبابة — ٥٨

انطاكية — ٩١ ، ١٧٨

(ب)

باريس — ٧٤

بروسة — ٢٣

بطرسبرج — ٦٥

بنداد — ١٧ ، ٢٣ ، ٧٤ ، ٧٦ ، ٨٠ ، ٨١

٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٥ ، ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٥٠

١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٥ ، ١٧٩

(ج)

جدة — ٢١٧

الجيزة — ٢٤٢

(ح)

حطين — ١٥٥

حلب — ٢١٨

حلوان — ٧٢

حام — ١٧٧ ، ١٩٠

الحرة — ١٨٨

(د)

دلمى — ٢٣ ، ١٢٩

دمشق — ٢٣ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٩٣ ، ٩٧ ، ١٤٢

١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٧٧ ، ١٨٨ ، ٢٢٧

دمياط — ٩٧ ، ١٧ ، ٢١٦

(ر)

الرميلة — ٨٢ ، ١٥٥ ، ١٨٩ ، ٢٠٩ ، ٢٣٩

(س)

سامرا — ٨٨

سواكن — ١٧٩ ، ١٨٦

السويس — ٢١٦ ، ٢١٧

البصرة — ٩٦ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ٢١٧

بليس — ٥٤ ، ١٥١ ، ١٥٣

بلقورث — ١٧٨

البندقية — ٢٠١ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩

٢٢٨ ، ٢٢٩

بولاق — ١٣٠ ، ٢٠١ ، ٢١٠ ، ٢١٣ ، ٢١٦

بيت المقدس — ١٢٩ ، ١٤٤ ، ١٤٧ ، ١٥٠

١٥١ ، ١٥٥ ، ١٧١ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ٢٠٥

بيزا — ٢١٦ ، ٢٢٨

بيزاموس — ١٧٨ ، ١٨٦ ، ٢٠١

قرطبه — ٢٣	(س)
القطاطينية — ٢٧، ٥٢، ٨٠، ٩٩، ١٧٩، ٢٤٢	صور — ١٥١، ١٥٥
القصر — ٢١٦	صوفيا — ٨١
القطائع — ٤٩، ٣٠، ٩٣	(ط)
قوس — ١٨٨	طربلس — ١٠٠
قونية	طرسوس — ٩١
قصريه — ١٧٨، ٢٠١	الطور — ٢١٦، ٠٠
(ك)	(ع)
الكرك — ١٥١	المسكر — ٧٧، ٩٣
كرمان — ٢٠١	عكا — ١٥٥، ١٩٠
كلكشا — ٢١٧	عين جالوت — ١٩٩
كنسجتون — ٢٣١	(غ)
(ل)	غزة — ١٥١
لندن — ٢٣١، ٢٢٢	(ف)
(م)	القطاط — ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٣، ٥٤
المدينة المنورة — ٦٩، ١٧٩	٥٦، ٥٩، ٥٩، ٦٠، ٦٩، ٧٠، ٧١
مرج دابق — ٢٠٩	٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٨، ٨١، ٨٢، ٨٣
مرج الصنير — ١٧٧	٩٢، ٩٣، ٩٥، ١٢٢
مكة — ٣٨، ٩١، ١٣٠، ١٤٣، ١٧٩، ٢٠٤	(ق)
٢٠٩، ٢١٧	القاهرة — ٢٠، ٢٣، ٢٦، ٢٨، ٢٩
ممفيس — ٤٩، ٥٤	٣٠، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٤٩
منريال — ١٥١	٤٨، ٤٩، ٦٠، ٦٢، ٦٤، ٦٩، ٧١
المنصورة — ١٧٣، ١١٨	٧٥، ٧٦، ٨٠، ٨٧، ٩٩، ٩٩، ٩٠
منب — ٧١	٩٩، ١١٠، ١١٩، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢
الموصل — ٢٢٨	١٢٩، ١٣٢، ١٣٦، ١٤١، ١٤٣، ١٤٩
(هـ)	١٥٠، ١٥١، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٦، ١٥٩
هلبوبوليس — ٥١، ٦٢، ٦٣، ١٣٦، ١٤٣	١٦٣، ١٧٠، ١٧٨، ١٧٩، ١٩٩
٢٠	١٩٦، ٢٠٩، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٩
(و)	٢١٩، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦
	٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٤٠، ٢٤٢
يانا — ١٥٥	٢٤٣، ٢٤٥، ٢٤٩

الإشراف اللغوي: حسام عبد العزيز
الإشراف الفني: حسن كامل
التصميم الأساسي للغلاف: أسامة العبد

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة

